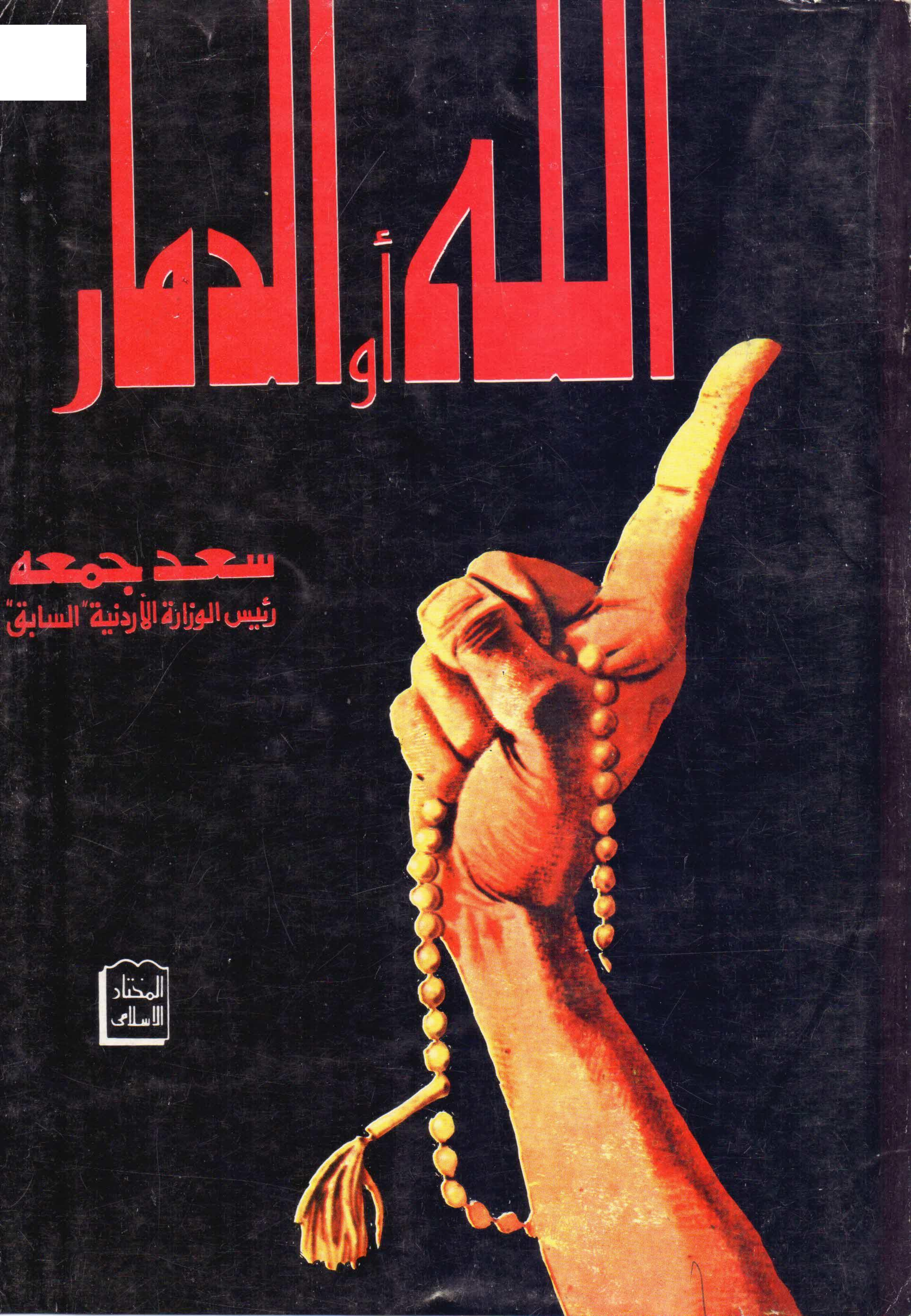

الله أو الدهر
سعد جمعه
رئيس الوزارة الأردنية "السابق"
المختار الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ حسن عاشور
مدير دار "المختار الإسلامي" القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد

لقد شاءت إرادة الله أن يطبع هذا الكتاب في بيروت قُبَيْل معركة رمضان المباركة، وطبع ثانية بُعَيْدها، فتصدى له اليسار الفاجر وحاربوه دون هوادة وأتلفوا ما وصلت إليه أيديهم منه.

والآن وقد أعز الله دينه، ونصر جنده، وعادت جذوة الإسلام تسطع في الآفاق من جديد، رأيت أن أُقدم لكم هذه النسخة من كتابي "الله أو الدمار" حتى إذا حسنت عندكم طبعها، رجوت أن تتفقوا مع أخي الأستاذ مدحت جمعة، سفير الأردن في مصر •

مع صادق الشكر على جهودكم في نشر الدعوة المباركة

سعد جمعة
رئيس الوزارة الأردنية السابق

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الأستاذ سعد جمعة
رئيس الوزارة الأردنية السابق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد •

بكل التقدير.. تلقيت رسالة الثقة التي رأيتم فيها إيثار "المختار الإسلامي" بطبع ونشر كتابكم "الله أو الدمار" .. الذي يؤكد في هذه المرحلة الحاسمة من مسار أمتنا الإسلامية أصالة الفكر المؤمن.. وصدق الكلمة الأمينة.

ولعل ما يتميز به هذا الفكر هو أنه يكشف عن الحقيقة مباشرة، من أن الحل الإسلامي هو الملاذ الأخير لإنقاذ البشرية من التمزق والضياع ...

أما الكلمة الأمينة فهي شحنة تهز الأعماق المخدرة في يأسها .. ورسالة معاناة مريرة إلى القلوب التي طالت رقدتها ...

وإنها لكلمة من تلك التي ختمت بها كتابك "لقد استدار الزمان كهيئته يوم مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فالدنيا كلها تقف اليوم على مفترق طريقين لا ثالث لهما.. وعلى اختيارها يتوقف مصيرها.. إما الله.. وإما الدمار"

حسن عاشور
دار المختار الإسلامي - القاهرة


الله ..
أو الدمار !

بسم الله الرحمن الرحيم



رئيس الوزارة الأردنية السابق





للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

تمهيـــــــــــد

يكاد يجمع كبـــار مفكرى العالم على ان الانحلال الذى يوشـــك ان يدمر المصير الانسانى ، مرده الى غياب الايمان بالله ، الذى هو ابرز ظاهـــرة فى صميم الفطرة الانسانية ، اذا تخلى المرء عنه ، انحط الى ترس فى آلة او ذئب فى غابة أو شاة فى قطيع . ذلك أن الايمان بالله هو القوة الرادعة والقوة الدافعة ، وبغيره لا تكون مروءة ولا يكون شرف ، فهو من ثم معيار انســـانية الانسان بالحضور الدائم فى اطار القيم الخالدة والمثل العليا التى لا تتغير ولا تتبدل بتطور الزمان والمكان .

ويكاد يجمع كبار المفكرين ، على أن الحل الدينى هو الملاذ الاخـــير لانقاذ البشرية من مآزق التمزق والتشنج والضياع ، فالدين هو مصـــدر الالتزام الأخلاقى ، وهو حافز النخوة والاستبسال . والمؤمن وحـــده هو الذى يرفض الذل ولا يزدهيه غرور ولا يخضـــع لارهاب . والانسان بدون الله مهزوم لا محالة كما يقول ((اندريه جيد)) .

ومما يبعث على التفاؤل ، فى هذه المحنة التى تتمرغ فيها الشعوب العربية ، أن يهتدى بعض الساسة والقادة والمفكرين ، وفى طليعتهم دولة الاستاذ سعد جمعة ، الى أن النكبات المتتالية التى تعاورت هذه الأمة سببها المؤامرات والدسائس التى خططت لها الصهيونية والامبريالية بمكر ودهاء ، لاغراق المواطن العـــربى فى مفاوز الايديولوجية الوافـــدة المشبوهة ، وعـــزله عن اصالته وهويته التى أعزه الله بها فى الماضى فانتصر ، وانه حين تنكر لها فى الحاضر فانهزم . وان المعارك الفكرية التى احتدمت فى هذه المنطقة خلال الربع الفائت من هذا القرن ، كانت فى الواقع بين الاسلام واعدائه فى الخارج والداخـــل .

ولقد كانت هزيمـــة الخامس من يونيو التى فضحت المؤامرة واصحابها ، منعطفا خطيرا فى حيـــاة المؤلف ، فتحت له آفاق النور . فالتقى وجهـــا لوجه بالحقيقة المرة ، واضحة لا خفاء فيها ولا تلبيس ، فحمل آلامه ومضى بجـــراة المؤمن الذى لا يدارى ، وشجاعة الرائد الذى لا يمارى ، يهز المخدر ويـــرج

المخمور ، عسى ان تعود الأمة المضـــللة الى مستانف رسالتها الالهيــة التى اختارتها لها الاقدار ، لحماية المصير العالمى من الدمار . وكانت عصارة تجربته الفذة الفريدة الدعوة الى انبعاث عصرى منهجى لأصولنـــا الحضارية لتكون منسوبة الى جذورها التاريخية ، متطورة مع ظروف الحياة المستجدة ، وخلق قاعدة فكرية واحدة لمجتمعنا الملتاث مفتاحها توحد القيم فى القول والســلوك للخروج من الجهل الى العلم .. من العبودية الى الحرية .. من الدكتاتورية الى الديمقراطية .. من الشك الى اليقين .. من الــكفر الى الدين .. من الهزيمة الى النصر المبين .

وفى يقينه الذى لا يخالطه ارتياب ، ولا يغلفه ضـبـاب ، ان الزمان قد استدار كهيأته يوم مبعث الرسول الأمى صلى الله عليه وسلم .. وأن هذه الأمة التى اصبحت بمحمد ، خير امة اخرجت للناس .. بل ان العالم اجمع المتردى فى مهاوى الضلالة والجهالة والفساد والالحاد ، يقف معنا اليوم على مفترق طريقين لا ثالث لهما : الله أو الدمار .. !

المختـــار الاسلامى

تقـــديـــم

المعاناة التي تصلاها الأمة العربية اليوم ، هى اكبر واخطر ماساة واجهتها فى تاريخها الطويل .. وواجب المفكرين اذا ارادوا حقا وصف الدواء ، أن يبادروا ، قبل ، الى تشخيص الداء .

واذا نحن استهدينا لمواجهة الحقائق المرة ، بنظرة صادقة مخلصة الى واقع معظم دويلاتنا من المحيط الى الخليج .. ماذا نرى ؟

أوتار لا تشفى كلومها ، وأحقاد تستشرى وتمتد ..

شعوب مضللة ، وقادة خائبون ..

طواغيت تخلفها طواغيت ، يعتذرون بغير العذر ، ويغضون عن المسىء ، ويصطنعون الجهلة والفساق والمجـان ، يحملونهم على رقاب النـــاس ، يجرعونهم الغصص ، ويرهقونهم العسر . كل امرىء يذب عن سفيهة ، وكل صال فبناره يصلى .

ربع قرن من التبدد والانسلاخ ، بغانا قومنا ، قبل عدونا ، فيها الغوائل ، وهموا بنا الهموم !

من ابطأ به جهده ، ركض به نفاقه .

من قعد به صدقه ، نهض به كذبه .

زمن قذر ، وفتن مشبهةمعماة ، يستخف الزهو سفهاء القوم ، فمن اقبلت عليه الدنيا منهم بأغراضها واعراضها وامراضها ، نهض فينا يعلك لجامه كالجواد القارح ، ينهال بمعوله ، يدمر كيان الأمة ، ويمزق شملها ، ويـدك عقيدتها ، ويحقر تراثها ، ويزور آمالها ويقوض مقوماتها .

ربع قرن من التهتك والتفكك ، والعمالة والنذالة ، والفساد والالحاد : والشـائعـات والمذهبيات ، والتشنج والانهزام ، تنحت أثلة الأمة ، وتقتـلع جذورها ، حتى أصبحت غرضا سهلا ، وهدفا هشا للاعداء .

رفعنا كل شعار عرفته الدنيا ، منذ كانت الدنيا ، خلا شعار الجهاد لتحرير الوطن المسروق والمقدسات المهتوكة .

كل ايديولوجيات التاريخ فى شرق الأرض وغربها ، استوردناها وزورناها وجرعناها للناس ، قدعا وقمعا وارهابا ، ليستبدلوا بعقيدتهم وحضارتهم وايمانهم بربهم وبمقدساتهم ، فغرقنا فى مفازات الضياع ومتاهات الفراغ ، وخلت الساح من الاشراف ..

شعوب منومة مخدرة ، منهوكة ، مسحوقة ، وقادة لا حقيقيون لا اخلاقيون ، يعذونها للهزيمة والعار .

حتى اذا جاء الخامس من حزيران كنا كالطريدة المثخنة بجراحها .

فقدنا الحافز ، فقدنا النخوة ، فقدنا الأمل ، فقدنا حتى القدرة على الاحساس بالذل !

ووقفنا ازاء قدرنا عارين من أمضى اسلحتنا ، فلا أيمان ، ولا علم ، ولا وحدة ، ولا خطة ، ولا قيادة ، ولا اعداد !

وانجلى النقع عن اسطورة نصر ، واسطورة هزيمة ، صنعنا نحن كلتيهما وُنا بخزى الدنيا ، وعار الآخرة .

ونجرى النظر اليوم فى واقعنا الاسود بعد سنوات ست من المهادنة .

هل ترى هزتنا الكوارث ؟ هل وعظتنا ، هل أيقظتنا ؟ هل جمعت الأمة مهددة بالزوال ، امرها ، لتقييم أسباب الهزيمة ، وابعاد المؤامرة ، ومقتضيات النصر ؟ .

كلا .. بل طاقات مهدورة ، ونفوس ممرورة ، ومجتمع كراهية ، وأموال تنفق فى المواخير ؟

ترف فاجر يقابله حرمان تعيس ..

واستؤنفت الرواية عودا على بدء ، واعتلى المسرح المهرجون ، وغصت الدنى باشباه الرجال من الانتهازيين والانهزاميين ، والمتآمرين ، والمزايدين والمساومين ، على قدر الأمة وشرفها ومصيرها .

تغيرت الصورة وبقى المضمون !

وعدنا الى حيث بدأنا ، قصة فجيعة ، رواتها حمقى !

ظلمة عمياء ليس لها من دون الله كاشفة !

لقـــد أنسينا قوله تعـــالى : ((وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلهـــا مصلحون)) ((وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها)) ..

((واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)) .

((واذكروا اذ انتم قليـــل مستضعفون فى الأرض تخافـــون ان يتخطفـــكم الناس)) .

وانسينا الحديث الشريف : ((توشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، قال قائلهم : أعن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال : بل انتم كثير كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيـــا ومخافة الموت .

سيكولوجية الأمة العربية اليوم ، تشـــبه سيكولوجية النفس الانسانية المريضة بصدمة عنيفة أورثتها الاغمـــاء والدوار .. فهى تنتظـــر الآتى .. صدمة أخرى عنيفة تنفضها نفضا موجعا ، لتفيق من سباتها ، وتصحو من رقادها ، متجهة الى المستقبل برؤية جـــديدة لم تغبشـها تهاويل التجهيل والتضليل ..

واعتقد ــ كما يقول ((اندريه مالرو)) أن الآتى مرتبط بالله . والايحـــاء بانتظار الأمل ، يوسع الافتراضات .. وفى الانتظار المتفائل لذة لا يعرفهـــا الواقع . .فالواقع ليس هو الحق ، لأن الباطل أيضا واقع لا شك فيه .

وقد أردت لكتابى ((مجتمع الكراهية)) أن يكون الشحنة الكهربية التى تهز أعماق أمة مخدرة تغط فى يأسها المريع ، ولذا اتسم بالمرارة والفجيعة .

وفى يقينى أن الكاتب اذا كان صادق النية ، مؤمنا مستنير البصيرة ، فهو رسول المعاناة المبرحة الى قومه اللاهين .. والرائد الحق يصدق اهله ، فيواجه الحقائق مهما كانت مرة باعلى مستويات النزاهة .

وفى يقينى كذلك ، ان الفكرة الموحية لا تحدث أثرها المتوخى ، ثم الاستجابة المنشودة الا اذا كانت انفعالا صادقا وتعبيرا أخاذا ، فتكون لاذعة مثيرة فى وقت معا ..

واذا كان القلم فى يد الـــكاتب هو ريشة ووتر ، وهو رؤيا وتخـــاطر واستشفاف ، فقد افتقدنا ذلك كله فى السنوات الاخيرة حين فقدنا القدرة عليه بسبب الجدب الفكرى والعقم النفسى ، وانحسار الاصالة ، وفقر الاداة ، والركض وراء النفايات !

ذلك أن معظم الجيل الجـــديد من الكتاب هم جيل البدع ((الثورية)) ، والفوضى الفكرية ، والرفض العابث ، والانبهار بكل ما يأتى من وراء الحدود

... هم جيل القلقين المتوترين العجلين ، اللاهثين للوصول بايسر الوسائل وأهون السبل .. مع غلو فى الصخب لستر العجز والافلاس ... خطابة بدل التخطيط ، عاطفة بدل العقل ... كلام بدل الفعل ... كراهية بدل المحبة .. تشنج بدل الحوار .. وبهذا اصبحت انتصاراتنا ، خطبا مسرحية لا افعالا حقيقية .. وبيانات كاذبة ، لا مروءة ولا تضحية ولا ايثارا .

ذلك ان معظم من تعج بهم الساحة العربية اليوم هم ممن نشأوا فى أحضان الارساليات التبشيرية..ثم فى أقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية التي يشرف عليها اساتذة يهود .. فهم يفرون من الدين ليتخلوا عن اخلاقية السلوك .. وهم يتهجمون على القرآن ليدعوا الى العامية التى تضيع هوية الأمة وتزلزل عقيدتها وتمزق وحدتها .

وقد تصدى أحد أبناء هذا الجيل التعيس لنقد كتابى ، فى العدد الخامس من مجلة « شؤون فلسطينية » فكانت محصلة مآخذه :

١ — انتقاد اسلوب الكتاب لترفعه عن الأسلوب السوقى الثورى ، الذى تنزف به أقلام الكتاب المجددين (!) واختار جملة من الكتاب صب عليها جام غضبه ، وسدد اليها ســموم احقــاده وهى جملة : « **قد جادلتنــا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين** » . فاذا عرف القــارىء ان هذه الجملة هى آية قرآنية وان كتابى مرصع بكثير من الآيات المعجزة اعجازها الالهى فى اقامة الحجة ومساق الدلالة وتعميق الفكرة ، ادرك سر الهجمــة اللئيمة الجاهلة التى شنها الكاتب على اسلوب الكتاب ..

٢ — انتقاد فكرة الكتاب وهى : ان فى مقدمة اسباب ما نعانيه من عبث وفوضى ، وانحلال اخلاقى ، هو الغياب الدينى ... غياب الايمان . فيقول الناقد عنى : « انني اعزف على نغمة الدين المتروك (!) وهى النغمة التى ما فتئت ان كانت الحجة للجلاوزة ووعاظ السلاطين » .

الدين المتروك ؟ من تركه ولماذا وكيف ؟ وهل يكون من يتخلى عن ايمان بربه الا شر الدواب على الأرض ؟

ان الايمان بالله هو مظهر انسانية الانسان ولذا فهو مرتبط ارتباطا عضويا بالنضال فى سبيل الأرض والعرض والشرف والمقدسات ... وهى كل مترابط لا يتجزأ ، فمن فرط فى ايمانه بربه هان عليه ان يفرط فى أرضه وفى عرضه وشرفه وحريته .. ونحن أحوج ما نكون اليوم الى مفكرين فهموا حاجات العصر وافــكاره وآراءه وسقطاته ومخازيه واستطاعوا من خــلال ذلك ان يقدموا الدليل على ان « نغمة الدين المتروك » التى يعيرنا بها الكاتب لا تعيق المدنية بل تعجل فى خطاها .. لا تناقض الحضــارة بل تدفعها الى الأمام .. لا تمنع العدالة الاجتماعية ، بل هى وحدها التى تضع لها افضل الحلول .

لقد ذكرنى الكاتب الذى يمج معزوفة الدين .. لأنه يعادي الدين ، فهو من ثم يعادى الشرف والصدق والاخلاص .. ذكرنى بقصة الفيلســوف الالمانى « شوبنهور » عندما أصدر كتابه « العالم ارادة وفكرة » وتلقاه القراء

بفتور وتجرا أحدهم فطعن فى الكتاب ، فقــال شوبنهور : « ان كتابى كالمرآة اذا نظر فيها حمار فمن غير المعقول ان يرى فيها صورة ملاك » .

وقصتنا مع المعير بالعزف على نغمة الدين تشبه قصة « شوبنهور » ! الم اقل لك أن من لا يؤمن بالله هو شر الدواب على الأرض ؟ . وفى الظلام الذى نحن فيه ، تتساوى جميع الالوان ! ؟

لقد أصبحت شعارات مفكرى الدين المتروك ، من أصحاب العلمنة وحرية الالحاد ، الذين تعج بهم الساحة العربية المتخمة بالسلبيات والتناقضات ، قبورا مكلسة ، وقوالب مصبوبة مكدسة فى جوارير الأفك ، يستلون منهــا كل صباح ما يتفق مع مناسبات الطمع والخوف ، والتملق والدهان ، والعمالة والارتهان ! .

ان عار الأزمة الفكرية عندنا يوازى عار النكبة ، بتأثيراته وانعكاساته . فالضمير العربى يعاني الاختناق المرير ، والعقل العربى يقاسى الكبت الخطير . . والسلوك العربى أزمات نفسية وانفعالات آنية مزروعة فى مؤسسة زيف ؛ ولذا فنحن نخوض بحار التبـــدد ، نبحث عن هويتنـــا الضـــائعة وسط ركام الاضاليل ، وفاتنا لما يحف بنا من أوهام الابتذال والتدنى أن نملك الاجابة على سؤال واحد لا ثانى له : كيف يمكننا مع هذه الفتن التى تسد علينا منافذ الأفق أن نحول دون تدهور خصائص الانسان العـــربى ، وانقاذه من تحوله الى فرد ضائع فى قطيع ؛ .

لقد كان لاسرائيل فى فلسطيننا ، زمن الانتداب ، وكالة يهودية معينة بشن الحرب النفسية ضد العرب ، وتصدير المبادىء الرديئة والنحل الهدامة الى الدول العربية لالهائها بالصراعات الايديولوجية عن التناقض الأخطر والأهم بين العرب والصهيونية .

وبعد كارثة حزيران زرعت اسرائيل فى كل بلد عربى وكالة يهودية ، باسماء عربية وأقلام عربية ، مهمتها ايقاظ الفتن وبث الفساد ، وتمزيق شمل الأمة ، وتفتيت خلفيتها الدينية ، وتدمير قاعدتها الفكرية . وأول دعواهم اقصاء الدين عن معركة المواجهة مع اسرائيل ، والتبشير بأن طرح القضية على أرضية دينية خطأ ، سواء كان ذلك الطرح تكتيكيا أو استراتيجيا ، لأن حروب الدين قد انتهت ، وحروب اليوم هى صراع عقائدى ، وهدفهم من ذلك كله ، ابعاد القضية عن مسرحها الحقيقى .

فقمنا نصرخ فى وجوههم : اليس الاسلام عقيدة حاربنا تحت لوائها فانتصرنا فى كل معاركنا ، وهزمنا شر هزيمة ، حين أنكرناها وتنكرنا لها ؟

وحين يهتف القادة اليهود فى كل مناسبة أن تعاليم انبيائهم تملى عليهم أن يعيدوا بناء هيكل سليمان فوق انقــاض المسيحية والاسلام ؛ ماذا تريدون منا أن نسمى هذا ؟

حين يقول « بن غوريون » : « بدون التفوق الروحي لم يكن شعبنا ليستطيع البقاء الفى سنة فى الشتات ، وان لا معنى لاسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس من غير الهيكل » ! .. ماذا تريدون أن نسمى هذا ؟

اليس ذلك هو الارضية الدينية الواحدة التى جمعت شراذم يهود الدنيا من تسعين دولة ، ساقهم الحنين الدينى الى أرض المعاد ؟

ومن ذا الذى يستطيع ان يزعم ان فلسطين العربية منذ مطلع التاريخ هى ارض موعودة لشعب مختار ؟

لقد قالوا ذلك وحققوه اعتمادا على مسوغات همجية ، بربرية تتناقض مع منطق المعاصرة التى تتنافى مع العودة بالانسان الى الازمنة المتخلفة .. ازمنة الخرافات والاساطير ؟

اية قذارة — بعد هذا — تعدل قذارة من يعيروننا بالعزف على نغمة الدين ؟ وبغير الرفض الدينى كيف يمكن مقاومة الغزو الاستيطانى ، والصمود فى وجه محاولات التصفية والاستسلام ؟

بغير خلفية دينية واحدة وارضية فكرية واحدة كما تصنع اسرائيل ، كيف نستطيع الوقوف فى وجه اسرائيل ؟

واذا كان اليهود قد بنوا دولتهم على التوراة . فلماذا يعاب علينا أن ندعو الى مواجهتهم بالقرآن ؟

لقد غلبونا « بيهوه » حين تخلينا نحن عن ايماننا بالواحد القهار .. هزمونا بهويتهم الزائفة ، حين انكرنا نحن هويتنا الاصيلة .

اننا ندرك اكثر شىء ان الدين وحده لا يكفى لمجابهة المد الصهيونى والقوى الاستعمارية الضالعة معه .. كما ندرك أن العلم وحده لا يكفى لصراعنا الطويل المديد مع اسرائيل . ان معركة مصيرنا هى معركة الايمان بقدر ما هى التكنية والعلم والابداع المادى والتخطيط العقلى .

اننا نعلن بكل ما فى قلوبنا من محبة وكل ما فى عقولنا من يقين ، أن الحضور الدائم فى الحضارة العلمية الحديثة ، مع الحضور الدائم فى الايمان هو الدواء والشفاء . وكل ما عدا ذلك من تفسير وتبرير ولغط وهراء هو باطل الاباطيل ...

غير ان أولئك الافاقين المائقين ، سواس المقاهى واحلاس المواخير ، هم مع الأسف المسيطرون على الفكر العربى فى صورته المهترئة المترهلة العفنة التى لا تفرز الا القيح والصديد ... هم القادة الفكريون الثوريون التقدميون الذين فرحوا لانتصار اسرائيل ، لأن انتصارها هزيمة للاسلام !!

هم الذين يهتمون بنجاح الحزب الاشتراكي الهندى واليسار الفرنسي ، وحركة الفهود السود ، وانتخاب « البندى » ، وتمزيق الباكستان ، أكثر مما يهتمون بهتك المسجد الاقصى ، وتدنيس حرم ابراهيم !

ومن كان هكذا لا يبالى الهوان ، ولا تثقله النذالة ، ولا تؤرقه العمالة .. ولذا لا عجب ان امتطى غارب الاحداث « الجلاوزة ووعاظ السلاطين » كما يقول عنا الكاتب الثورى ، سواء أكان السلطان دكتاتورية حاقدة ، أو ايديولوجية فاسدة ، أو فكرة ساقطة !

وجوابنا لهذا الكاتب واشباهه الذين يتنافسون بشراسة على محاربة الاسلام : ان شرف المؤمن العازف على نغمة الدين ، يأبى عليه ان يكون جلوازا ، أو اعظا للسلاطين .. فذلك بهم الصق لانهم لا يؤمنون بالله ، فكيف يؤمنون بشرف أو كرامة أو ضمير ؟

ان عمل معظم المفكرين العرب الذين يسمون انفسهم ثوريين تقدميين ، فى هذا الزمن الرقيع ، انهم ينبحون على كل موجة ، ويلعبون على كل حبل ، ويسبحون فى كل مستنقع ، وهمهم الأول أن يسوقوا معهم القطيع المغلوب على أمره ، الى ذلك القرار المهين !!

ولو انت لمت فى نسق كتابات المفكرين وخطابات القادة وبيانات الساسة الذين يجرون هذا المجرى فى العالم العربى ، خلال العشرين سنة الفائتة ، لوقعت على خليط منتن من الجهل والدجل والضلال ، هو الذى ساق الأمة ويسوقها الى المصير المظلم الذى ينتظرها .. مصير الذل .. مصير النهاية !

ان اعظم ادوائنا على الاطلاق اننا لم نستطع أن نتفق بعد كل تلك السنين العجاف التى تكفى بعض مآسيها لايقاظ البغال .. على معنى المفكر الصادق .. على الفرق بين المعرفة والثقافة .. بين الصحفى المستأجر ، مرتجل التعليل والتبرير ، ورجل الفكر ذى الرسالة والهدف ... على الفرق بين منتحل العقيدة وصادق الايمان .. على الفرق بين ثرثرة الصبيان وجدية الباحثين ... على الفرق بين الزائف والاصيل !

المفكر الحقيقى هو الذى يؤمن أن الحرية والمسؤولية أمران متلازمان .

هو الذى يحول التحجر والتبلد الى انفتاح وانطلاق ، ويحول التزمت الى محبة والتعصب الى حوار .

هو الذى يؤمن بقدسية الحرف المضىء ، وبأن الكلمة الصادقة لا تقتلها الف قذيفة .

هو الذى يؤمن انه خير للانسان أن يرتعد بردا من ان يتدفأ بالاصنام .

هو الذى يؤمن ان من يرتكب الرذيلة لا يحق له أن يتحدث عن الفضيلة ، ولو ارتطم رأسه بالسماء .

هو الذى يدرك ان بعض الناس عظماء لأن المحيطين بهم اقزام ، وما اكثر اقزام هذا الزمان ؟!

هو الذى يؤمن ان كل صباح يهل عليه ينتظر امتلاء ... وان اعظم امتلاء هو غبطة الواجب وسرور العطاء ..

هو الذى يلتزم بمبادىء الشرف والامانة لا لأن الناس يستحقونها ، بل لأنه هو لا يستحق الضعة والخيانة .

هو — كما يقول العقاد — الذى يؤمن بأن من يدين بعالم لا قداسة فيه ، من أين يأتيه الشرف ؟

هو الذى يعرف أن الواقع ليس هو الحق دائما لأن الباطل أيضا واقع لا شك فيه ..

هو الذى يؤمن ان غياب الايمان مرادف لغياب المسؤولية وغياب الاخلاق !

أما المفكر ، ملتزم العمالة ، الخاضع لدوافع الجشع والرهبة فى سبيل لقمة عيش مغموسة بالعار ، فهو ليس كالمفكر المنفلت من اسار الآراء المجلوبة من مزابل الشرق والغرب .

والكاتب الذى لا يتقن الا صناعة الهتاف والتصفيق .. وتبرير الظلم وتمجيد الظالمين ، ليس كالكاتب الناذر نفسه لتحدى اخطاء المجتمع وبلايا الحاكمين والمحتلين !

المفكر الحقيقى هو جندى شاكى السلاح لا ينام ولا ينيم ، قدره أن يقاتل فى ميادين الشرف الى الرمق الاخير .. أما الصخب والضجيج ، والكذب والتدليس ، والرفض الهدام والتمرد المدمر ، فهى ليست صفات من يحمل قلمه كصليب يسوع !!

ان اصالة التفكير هي فى اعتناق الحقيقة وممارستها والدفاع عنها بمعاناة صادقة ومخاطرة حميمة .. واصالة الحرف ليست سلعة مطروحة فى مزاد علنى ، يساوم عليها من يغلى لها المهر او يرفع فى وجهها سوط هوان ... والكلمة الجريئة ، لا تخضع للتحايل والتلاعب بالرموز والالغاز ، بل تمضى لطيتها بسيطة واضحة كالحق لا تحمل المماحكة والتأويل .

المفكر الحق هو الصادق الايمان الذى يملك القدرة على التمييز بين الموضوعية والديماغوغية .. بين الفوضى والحرية .. بين العبودية والديمقراطية .. بين الخير والشر مع شمول النظرة القادرة على الانتقال من الجزئيات الى الكليات .

ولذا يلاحق المفكر المؤمن فى بلادنا المهتوكة المسحوقة كما يلاحق الجذام ، فهو مطارد ابدا ، مهدد أبدا كالبرىء الفار أمام مجرمين ...

وحين يكون النظام عارا كله كما في معظم الاقطار العربية تصبح كلمة حق واحدة كابوسا رهيبا يقض مضاجع الظالمين ..

ولذا يسود الحكم البوليسي .. حكم الجواسيس والعملاء ان العجز عن الصلاح والاصلاح يقود الى القهر والقمع والاكراه .. والحجة الداحضة هي دائما المحافظة على استمرار نقابة اللصوص ومؤسسة المهربين والمهرجين .

ترى ، بمثل هذه الخراف الفزعة الضالة يراد لنا ان نواجه اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل ؟!

أما نحن فقد اخترنا طريق الدين المتروك (!) بعد ان امتلأنا يقينا لا تتطرق اليه ذرة من شك ، ان المعركة التي فرضت علينا هي معركة الدين ، مهما طال الامد ، وطفا الزبد ، واربدت الوجوه الوقاح .

ولذا نعتقد ان أطراف المؤامرة كثر ، لا يقتصرون على الذين يتلهون بمآسينا من أصحاب « لعبة الشعوب » ويحركون فينا الاصنام المحنطة كما يشاؤون !

ليسوا اسرائيل وحدها ومن هم وراء اسرائيل .. بل هم فئات منا من ابنائنا المبثوثين بين ظهرانينا ، يؤججون المؤامرة فوق أرضنا وبين صفوفنا عملاء للعدو وعيونا وآذانا ..

هؤلاء هم الذين يعيبون علينا العزف على نغمة الدين المتروك (!) ويحكم .. ماذا يبقى لكم اذا تركتم دينكم ؟

ماذا يبقى فيكم اذا فصلتم نضال الأمة عن حوافز الايمان ؟

أن العزف على نغمة الدين هي وحدها التي مهدت للعدو سبيل النصر ، وشحنته بطاقات التجمع والاقتحام ... وهي وحدها التي جمعت شمل تلك النفايات التي غزتنا ، وطردتنا ودكت حصوننا .. وهي وحدها التي صهرت ذلك الخليط الغريب العجيب المتناقض في خلفية دينية واحدة وارضية فكرية واحدة ، ومجتمع متناسق مرصوص .. حتى أن المهاجر اليهودي من روسيا الناشىء في أحضان الماركسية ، الراضع لبانها مع ثدي أمه .. الذي عاشها ومارسها واعتنقها وآمن بها ، لا يكاد يطأ أرض اسرائيل ، حتى يتحول فجاة الى صهيوني متعصب اول ما يقوم به من عمل زيارة حائط المبكى وتقبيل جدرانه المنخورة ، وغسل حجارته بدموع الفرح الديني ، وتجديد العهد لبناء الهيكل المقدس (!) على انقاض مسجد عمر بن الخطاب ..

ماذا نقول في أولئك الذين يعيروننا بالعزف على نغمة الدين .. المتروك ! ويدعون الى العلمانية وحرية الالحاد ، ويزعمون انهم حماة القضية ووقود التحرير .. وهم هم والله الذين يخططون للامة متاهات الضياع ، ويرسمون لها مفازات التمزق والتبدد ، ويعدون لها القبر والاكفان .

أولئك هم الذين نقلوا الصراع مع العدو الى صراع مع الله ــ جل وعلا ــ ليخلو الجو لاسرائيل .. فوضعوا بذلك انفسهم عن سابق تصور وتصميم فى صف حكماء صهيون ، يهتفون ضد محمد ، ويمزقون القرآن لأن ذلك هو هدف المؤامرة الضارية القريب والبعيد .

أولئك هم الخراصون المزيفون المتآمرون .

أما نحن فنقول لهم : لقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول الاعظم ، ونحن بل العالم أجمع ، نقف اليوم كما وقف محمد صلى الله عليه وسلم على مفترق طريقين لا ثالث لهما :

اما الله .. واما الدمار !

سعد جمعة

القومية والدين

القومية والدين

كان انتصار السلطان سليم على المماليك في معركة « مرج دابق » ايذانا بانتهاء حكم الدويلات الفسيفسائية المهترئة التى قامت في ارجاء الوطن العربى ، بعد انهيار الدولة الاسلامية الكبرى .. كما كان استهلالا لقيام دولة اسلامية مرهوبة الجانب شملت رقعتها جزءا كبيرا من أوروبا الشرقية ، بالاضافة الى الشرق الادنى والشمال الافريقي ، باستثناء المغرب . واصبحت تلك الدولة مدى قرون أربعة اكبر الدول في العالم واكثرها قوة ونفوذا وامتدادا .

وبينما كانت النهضة الاوروبية في تلك البرهة تزدهر وتنمو ، كانت الدولة العثمانية تتآكل وتنهار ، ويدب اليها الهرم تدريجيا ، بسبب التخلف والجهل وتدهور الفكر الدينى ، وهو الرباط الذى يجمع أطراف الدولة ويؤلف بينها ، حتى ادركها الهزال ومزقتها مؤامرات الدول الاوروبية وتقاسمتها اشلاء مبعثرة في نهاية الحرب العالمية الأولى .

يقول الاستاذ محمد كرد على ، في وصف ما آل اليه الحال في البلاد الشامية . يمكن تعميم هذا الوصف على معظم ولايات الدولة .. « ادركت مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانونى ولا صيدلى قانونى ولا حقوقى قانونى وليس فيها حيسوب لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بدون حساب ! أما العلوم التى كان يدرسها اجدادهم مع علوم القرآن والحديث فقد غدت أسماء لا مسميات لها أو من المعارف التى يستغنى عنها » .

واورد في كتابه « خطط الشام » ثلاثة أسباب لشقاء البلاد السورية في أواخر العهد العثمانى ، وهى ظلم الولاة الذين كانوا يرتشون ليرشوا الوزراء ، وظلم الانكشارية .. الذين كانوا يصادرون وينهبون ويهتكون حرمات البيوت والاعراض ... وظلم صغار الامراء من اهل البلاد ، أى أصحاب الاقطاعات في الجبل ، وأصحاب النفوذ في المدن » . وفاته أن يضيف اليها سببا رابعا هو الجهل المخيف الذى كان يرين على المجتمع الشرقى النائم في مواجهة المجتمع الغربى الناهض .

اربع رذائل تقابلها أربع فضائل لا تستقيم بغيرها دولة ولا تصلح بغيرها امة وهى الحرية والديمقراطية والعلم والايمان !

وقد وصف « مدحت باشا » حين عين واليا على دمشق ، الحالة فيها بقوله : « ان مسلميها قد فشا بينهم الجهل ، ومدارس الافرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية ، يقرأ فيها الاحداث القرآن » .

حتى اذا اعتلى السلطان عبد الحميد العرش سنة ١٨٧٦ م بعد أن أعلن « مدحت باشا » الدستور ، وساهم فى اغتيال السلطان عبد العزيز ثم اقصاء « مراد » عن العرش من بعده ، حمله رجال السياسة المنتسبون الى الجمعيات السرية التى زرعتها الدول الغربية فى الديار العثمانية وفى مقدمتها « الماسونية الصهيونية » حملوه وزر تخلف الدولة بغية اقصائه لتفتيت الدولة الاسلامية الكبرى والقضاء على الخلافة التى كانت بمثابة الاطار الذى يلم شمل اقطارها الرحبة .. ثم الانتقام من موقف السلطان عبد الحميد من الحركة الصهيونية التى كانت نشطت حينذاك ، بعد مؤتمر « هرتزل » فى « بال » ودعم الدول الغربية لفكرة الوطن القومى اليهودى ، ووقوف السلطان موقفا حازما صلبا ازاء مطامع الصهيونية كما هو مشهور .

وقد كشف الاستاذ سعيد الافغانى ، النقاب عن وثيقة تاريخية خطيرة تميط اللثام عن المؤامرة الصهيونية لخلع السلطان ، فى مقاله المنشور فى العدد ١٦٩ من مجلة « العربى » الكويتية . جاء فيه : « عرض هرتزل مؤسس الصهيونية عام ١٨٩٧ على السلطان عبد الحميد فكرة انشاء وطن قومى فى فلسطين ، مقابل التعهد بتسديد ديون الدولة كلها ، وتقديم مبلغ ضخم للسلطان خاصة ، فلم يكن من السلطان الا الرفض الشديد » .

« وكانت الدول الاوروبية الكبرى « روسيا وانكلترا وفرنسا » فى غيظ من السلطان بسبب منحه امتياز الخط الحديدى بين استانبول وبغداد ، لالمانيا فدابت على تحريك العناصر المختلفة فى الدولة ، ومدها بالمعونات السرية لاعلان العصيان كما فعلت بالولايات البلقانية . وعلى هذا تأسست احزاب مناوئة للسلطان ، وكان بعض اليهود المتظاهرين بالاسلام على راس الساعين فى الفساد ، وانعقدت الجمعيات السرية فى المحافل الماسونية المختلفة ، وكان مؤسسو جمعية « الاتحاد والترقى » قد عقدوا اجتماعهم الأول فى المحفل الماسونى الايطالى ، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط للعصيان على السلطان ، وعمل الضباط ذوو الأصل اليهودى من اعضاء جمعية الاتحاد والترقى على تخطيط الانقلاب لخلع السلطان » .

« وبتأييد من الدول الاجنبية ، ودعم من اليهودية العالمية نشط حزب الاتحاد والترقى اليهودى الماسونى ، واتخذ مركز عمله السرى فى «سالونيك» لكثرة ما فيها من الجاليات الاجنبية والمحافل الماسونية والمنظمات الصهيونية. واخذ اعضاء هذا الحزب ومن يواليهم من العملاء والخونة ، يختلقون الإخبار والشائعات عن ظلم عبد الحميد وفساد عهده وراحوا يتسترون وراء شعارات كاذبة كالقومية للعناصر غير التركية ويحملون بنوع خاص شعارهم المعروف : حرية ، عدالة ، مساواة » .

« ثم زحفت فرقة من الجيش من « سلانيك » ودخلت العاصمة التركية ، وفى صيف عام ١٩٠٨ ، ابلغ السلطان قرار الخلع ، ولم يكن الذى حمل اليه القرار سوى « قره صو » عضو الحزب اليهودى الذى كان يتولى مهمة الوساطة بين قادة الحركة الصهيونية والسلطان عبد الحميد ، وقام بعرض الرشوة السخية على جلالته » .

« وجدير بالذكر أن السلطان وقف موقفا مشرفا حينما تبلغ قرار الخلع ، فحال دون الاشتباك بين القوات الموالية له ، والقوات الزاحفة على القصر حقنا للدماء » .

« أما قصة الوثيقة ، فقد كان الشيخ محمود أبو الشامات ، شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية فى دمشق يتردد أحيانا على مدينة استانبول ، لزيارة مريديه ، وتفقد أحوالهم وتزويدهم بارشاداته وتوجيهاته ، وقد علم السلطان عبد الحميد ذات مرة من أحد موظفى القصر من اتباع ذلك الشيخ عن وجوده فى العاصمة ، فطلب أن يراه . وقد اعجب السلطان بمناقب الشيخ ، وانضم الى طريقته مع عدد من موظفى القصر ومستخدميه ولما خلع السلطان ووضع فى قصر فى « سلانيك » كان أحد الجنود المكلفين بحراسته من تلاميذ الشيخ ابى الشامات ، وعن طريقه كانت تجرى المكاتبات السرية بين السلطان والشيخ . وحفظ الزمان هذه الرسالة التى ارسلها السلطان الى الشيخ يفصح فيها عن سر خلعه ، وقد احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرا ، حتى اذا زال الحكم العثمانى عن سوريا ، اخذ يطلع عليها بعض خلصائه . ثم حافظ عليها ابناؤه بعد وفاته » .

ويقول الاستاذ الافغانى : « انه استأذن ابناء الشيخ فى الاطلاع على تلك الرسالة وتصويرها ، وقام بترجمتها الى اللغة العربية احد علماء المسلمين الذين يتقنون اللغتين ونشرها فى المقال المشار اليه . وهذا نص الرسالة :

« يا هو ..

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

« الحمد لله رب العالمين ، وافضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين ، وعلى آله وصحبه اجمعين ، والتابعين الى يوم الدين »

« أرفع عريضتى هذه الى شيخ الطريقة العلية الشاذلية .. الى مفيض الروح والحياة .. الى شيخ أهل عصره ، الشيخ محمود افندى ابى الشامات، واقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة » .

« بعد تقديم احترامى اعرض اننى تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٢ مايس من السنة الحالية ، وحمدت المولى وشكرته ، انكم بصحة وسلامة دائمتين » .

« سيدى : اننى بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الاوراد الشاذلية ، ليلا نهارا ، واعرض اننى ما زلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة » .

« بعد هذه المقدمة ، اعرض لرشادتكم والى امثالكم اصحاب السماحة والعقول السليمة المسالة المهمة الآتية كامانة فى ذمة التاريخ .. اننى لم اتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما ، سوى اننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقى المعروفة باسم « جون ترك » وتهديدهم ، اضطررت

واجبرت على ترك الخلافة . . ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا على بان اصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الاراضي المقدسة « فلسطين » ، ورغم اصرارهم فلم اقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، واخيرا وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا واجبتهم بالجواب القطعي التالى : « انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ، فلن اقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى ، لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم اسود صحائف المسلمين آبائى واجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن اقبل تكليفكم بوجه قطعى » .

« وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى ، وابلغونى انهم سيبعدوننى الى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الاخير ، هذا وحمدت المولى وأحمده اننى لم اقبل ان الطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الابدى الناشىء عن تكليفهم باقامة دولة يهودية فى الاراضي المقدسة فلسطين ، وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فاننى اكرر الحمد والثناء على الله المتعال ، واعتقد ان ما عرضته كاف فى هذا الموضوع الهام . وبه اختم رسالتى » .

عبد الحميد عبد المجيد

فى ٢٢ ايلول سنة ١٣٢٩

هذه الوثيقة الخطيرة تثبت بصورة قاطعة ان جمعية الاتحـــاد والترقى كانت البؤرة التى تجمعت فى نطاقها العناصر المتآمرة من غربية وصهيونية ، ترفع شعار الشعوبية والطورانية ، وتتريك الشعوب العربية ، لتمزيق شمل الدولة الاسلامية وتفتيت وحدتها ، يساعدها ما آلت اليه حال السلطنة من جهل وتخلف أدى الى فراغ الاطار الدينى للدولة من مضمونه الاصيل لتحقيق غرضى المؤامرة : تقسيم تركة « الرجل المريض » وانشاء الوطن اليهودى فى فلسطين .

لقد كان معظم أعضـــاء جمعية الاتحـــاد والترقى فى « سلانيك » حين تأسيسها من المنتسبين الى الماسونية فى محفل كانوا يطلقون عليه اسم « تركيا الفتاة » . وكانت أكثريتهم الساحقة من يهود الأندلس الذين فروا لدى زوال دولة العرب فيها من بطش محاكم التفتيش ، واعلنوا اسلامهم ، تقية ، لـــكن الاتراك بالـــرغم من ذلك كانـــوا ينظرون الى نشـــاطاتهم المريبة ويشككون فى صدق اسلامهم ، فلا يطلقون عليهم كلمة « مسلمين » بل يدعونهم « دونمه لر » اى المهتدين ، وما كانوا والله بالمهتدين ، بل هم قد استغلوا انحلال الدولة وشهوة حكامها ووهن العلاقات بين أجزائها الشاسعة بسبب الانتكاسات الخطيرة التى أصابت الدين وهو الرباط المقدس الذى يجمع البعيد ويؤلف القريب حتى استحال الفه الى طرق صوفية ، وأضرحة ومزارات ، وأدعية وشفاعات ، وضلالات وجهالات ، فخبا نور الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ، فوجد اليهود فرصتهم السانحة للقضـــاء عليه . .

وكانت حركة الجمعية الماسونية آنفة الذكر امتدادا للمؤامرة الغربيـــة الصهيونية فى الديار الاسلامية ، وقد انخدع بشعاراتهم التحررية وانتصارهم

الكاذب للحرية والانسانية عدد كبير من القادة العرب وعلمائهم ، واهمين انهم بذلك انما ينتصرون للقومية العربية التى تبذل المحاولات المستميتة « لتتريكها » وللاسـلام الذى امتدت اليه عوادى البوار .. وفى مقدمة هؤلاء جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، وطاهر الجزائرى وغيرهم كثير ، ثم انسحبوا منها غير بعيد ، بعد أن تكشفت نواياها وانفضحت أهدافها .

وكرد فعل لحركة « التتريك » والطورانية ، نهض فريق من الشـباب العربى فى « الاستانة » بتأسيس الاندية ذات الطابع العربى ، كالمنتدى الأدبي والجمعية القحطانية ، وحزب العهد فى « الاستانة » و « العربية الفتاة » فى بيروت ، وللجمعية الأخيرة دلالتها الخاصة ، فقد انتسب اليهـا جمهرة من خريجى الارساليات التبشيرية التى وفدت الى المنطقـة حين دب الانحلال فى جسم الدولة العثمانية لتسهم عن طريق خريجيها فى تفتيت الوحدة الاسلامية ومحاربة الاسلام تحت ستار القومية العربية .

ولقد تركت رواسب هذا التطرف من الجانبين العربى والتركى آثارها البعيدة ولمساتها الواضحة فى انفعالات الشباب العربى الغض الذى آمن ايمانا اعمى بالنزعة القومية دون سواها ، فنادوا بالتحرير بدل أن ينادوا بالاصلاح ، وانكروا جدوى العقيدة فى الوحدة السياسية ، بدل ان يعيدوا الى العقيدة هويتها الحقيقية ، واندست فيهم بعض العناصر من الاقليات التى صنعت عقولها فى مدارس التبشير لتقوم فى تلك البرهة بالذات بمهمة تشويه حقيقة الاسلام فى نفوس معتنقيه حين لم يكن اسلام الدولة فى واقع الأمر يمت الى اصالة الاسلام بسبب ، ولتصبح فيما بعد طليعة الرواد الأوائل لمطامع الدول الاستعمارية والصهيونية العالمية فى هذه المنطقة ذات الموقع الاستراتيجى الخطير ، والثروات الطبيعية الهائلة !

وبهذا ، آلت مناهضـة حركة « التتريك » والقومية الطـورانية ، الى تكتلات سياسية لاحياء القومية العربية واللغة العربية ، معادية للاسلام باعتباره الرمز الذى جمع اشتات القوميات المختلفة فى ظل الخلافة الاسلامية فانفتح الباب علي مصراعيه ، بعد تمزيق أشـلاء الدولة العثمانية ، اثر الحرب العالمية الأولي ، أمام فريق من الشباب العربى الذى احتضن رواسب ذلك الصراع للدعوة الى الحركات الحزبيـة والايديولوجيات الغربية من قومية وأممية ، فعمت الفوضى الفكرية البلاد العربية بعد تمزقها وتبعيتها للاستعمار الفرنسى والبريطانى ، ونشأت الصراعات الايديولوجية الوافدة مع الغزاة وامتدت بضراوة الى العهود الاستقلالية !

* * *

لقد واكبت النهضة الأوروبية جذور النعرات الوطنية والغرور القومى ، واتخذت الحضارة المادية وسيلة للتسابق والتزاحم على استعمار الشعوب الضعيفة واستغلالها ، ومن هنا نشأت عقيدة سيادة الرجل الأبيض ، واصبحت القاعدة الفكرية لتلك النهضة أن المادة هى غرض وغاية ، وأن لا مكان فيها للقيم الروحية والمبادىء الأخلاقية .

وبظهور النزعة القومية والعرق ، اندفعت الدول الأوروبية للاقتتال فى سبيل الحصول على الأسواق التجارية ، وتقسيم آسيا وافريقيا الى مناطق نفوذ ، يمتصون دماء أبنائها ويسخرونهم كالعبيد ، فى سبيل استخراج الذهب والفضة والحصول على المواد الخام ، وتنكرت أوروبا للدين ففقدت الرادع الخلقى وخلطت بين الوسائل والغايات ، فاستعملت قواها المادية لتدمير المنافسين وقتل الآمنين ، فنما العلم والابداع المادى على حساب الشرف والخلق والضمير ، ولم تستطع الخوارق العلمية ان ترتفع بالمجتمعات المادية عن مستوى الغاب ..

القوى يأكل الضعيف والغنى يبتلع الفقير .. وأصبح الأمر كما يقول الكاتب البريطانى « جود » فى كتابه «Guide to Modern wickedness» « لقد منحتنا العلوم الطبيعية القدرة الجديرة بالآلهة ولكننا نستعملها بعقلية الأطفال والوحوش » .

وبذا انقسمت الدنيا الى طبقتين ، طبقة البيض المسيطرين المستعمرين ، وطبقة الملونين المستعمرين ، لا مكان بينهما لمحبة أو رحمة أو ثقة حينما لم يبق مكان لله .

واخذ الفلاسفة والمفكرون يتساءلون : ما فائدة الهبوط على سطح القمر ، او الوصول الى المريخ اذا لم نستطع قبل تلك المحاولات المثيرة أن نمسح الدموع ونغسل الدماء عن وجه هذا الكوكب البائس ، ولن يكون ذلك بغير العودة الى الله ..

أما العالم الاسلامى فقد كان شر ما أصيب به خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الجمود الفكرى والتبلد العقلى والجهل العقيم ، بانحطاط الدولة العثمانية نتيجة استبداد السلاطين وخيانة الأمراء ، وغش الأمة .. لقد وقفوا وتقدم الزمان ، وتخلفوا فسبقتهم الأمم ، وحيل بينهم وبين الأفكار الجديدة والكشوف العلمية ، وأصبح الاسلام اسما لغير مسمى ، فانفتح الباب مشرعا للغزو الفكرى المشرب بالعداء للاسلام والمسلمين ، يمهد الطريق للغزو السياسى والعسكرى الذى عمل على تشتيت الأمة الاسلامية وتقطيع أوصالها الى دويلات هزيلة ليسهل استغلالها واعدادها لقيام الوطن القومى اليهودى فى قلب مقدساتها ، بعد تقويض دعائم الجامع الذى يجمعها وهو الدين ..

وكان القرنان الثامن والتاسع عشر كما ذكرنا ، نذيرى انقلاب كبير فى القيم والموازين .. يقظة أوروبية ناشطة ، وهجعة شرقية خامدة .. ومع أن النهضة الأوروبية قامت على أسس المعارف التى قدمها المسلمون للدنيا فقد عرفت أوروبا كيف تستفيد من جهد المسلمين فى الحركة الفكرية الانسانية ، وطرق البحث العلمى ، بينما نسيها المسلمون لتخلفهم ، ودهمهم ليل من الجهل طويل ..

وأفاق العالم الاسلامى .. والدول العربية بخاصة المواجهة لأوروبا على شاطىء المتوسط الشرقى والجنوبى ، بعد الحرب العالمية الأولى على

هزات وزلازل رجته رجا عنيفا .. زحوف من الغرب تتناوشه من كل ناحية وكل صوب .. وغزو فكرى واقتصادى وسياسى متعدد الاهداف والوسائل والغايات .. فهو من جهة انتقام لرواسب الهزائم الصليبية تغذيها الصهيونية العالمية .. وهو من جهة ثانية جشع الاستعمار والاستغلال ، تغذيه فلسفة سيادة الرجل الأبيض وانتصار الحضارة المادية على الالوهية والايمان !!

وكان ذلك الغزو المتعدد الصور والأشكال ايذانا ببدء الصراع بين نظريتين : الأولى تقول بالعودة الى أصالة العقيدة والشريعة الاسلامية ، وضرورة انبعاث دينى جديد يقوم على العلم والايمان .. والثانية تدعو الى تدمير تراث الأمة ، وانشاء مجتمع جديد مبتوت الصلة بماضيه .. واستعرت المعركة ، وزاد فى وقودها الغفوة الرهيبة التى اشتملت العالم الاسلامى مما كاد يحول المبادىء والقيم والمثاليات الأخلاقية التى انطوى عليها الاسلام فى نضارته ونقائه الى خرافات وشبهات مدسوسة شعوبية واسرائيلية ، ويحول العقيدة الى طقوس بليدة ، والشريعة الى خليط عفن فتضيع أصالتها بين الكدر الراكد ، والضلال المخيف .. وسط افتتان القادة والمفكرين بمظاهر الغزو الحضارى الجديد !

وبرزت من ثم فى المجتمع العربى فى أعقاب تلك الحرب ثلاثة تيارات فكرية وسياسية واجتماعية :

١ — تيار اقليمى ينادى بفرعونية مصر وفينيقية لبنان وبابلية العراق فى اطار حدود وهمية رسمت فى الدوائر الاستعمارية لتفصل نضال المشرق العربى عن مغربه ، وتكرس تمزق الشمل العربى فى كيانات ضعيفة ، تمهيدا لزرع الكيان الصهيونى فى قلب العالم العربى .

٢ — تيار قومى يرفض تناقضات التجزئة والتخلف ، ويغذى شعور الانتماء الى أمة عربية واحدة تبعا لشعارات القوميات الغربية المتغلغلة التى سادت فى القرن التاسع عشر ، مع الدعوة الى العلمانية وفصل الدين عن الحياة والمناهضة الصريحة للاسلام الناجمة من بقايا الرواسب التى اشرنا اليها فيما أسبقنا من القول .

٣ — تيار أممى تطرحه من جهة الفئات الموسومة باليسارية المبهورة بالتجربة الروسية وشعار أخوة البروليتارية العالمية .. وتطرحه من جهة أخرى الفئات الداعية الى الوحدة الاسلامية التى تتجاوز نطاق الرابطة العربية القومية .. وهى الفئة التى اقض مضاجعها تمزق الدولة الاسلامية الكبرى ، وتشتت شملها ، ورات فى أحياء الاسلام عقيدة وشريعة من وحى القرآن وسنة الرسول ، هو السبيل الأمثل لتوحيد الأمة العربية فى اطار تراثها الخالد وتجربتها الحضارية العظيمة ، وشريعتها الصالحة لكل زمان ومكان ، وهو المنطلق الأفضل نحو استئناف حركة التضامن الاسلامى على أسس جديدة تتناسب مع حركة التقدم العلمى والوعى الانسانى ، والتيارات الحضارية التى ثبت عقمها وجدبها وعدم جدارتها بقيادة الركب التائه الى مصيره المجهول ..

ولعل قضية علاقة القومية العربية بالدين الاسلامى ، من لخطر القضايا التى لم تدرس موضوعية متكاملة ، تحدد ماهية القومية ، وماهية الدين ، والعلاقة بينهما .

ولعل فى مقدمة من مس هذا الموضوع فى العصر الحديث مسا رقيقا الدكتور عبد الرحمن البزاز فى كتابه « هذه قوميتنا » والاستاذ ساطع الحصرى فى كتابه « ماهى القومية » .

ومن مراجعة الكتابين يتضح أن الدكتور البزاز قد اعتمد فى دراسته على المفاهيم الغربية والاساليب الغربية ، غير متجاهل خلفيته الدينية ، أما الاستاذ الحصرى فقد تأثر الى مدى بعيد برواسب الصراع الذى عاصره بين الحركة العربية والحركة الطورانية ، قبيل الحرب العالمية الاولى وفى أعقابها مما أدى الى تمزق الخلافة الاسلامية التى كانت الاطار الجامع للقوميتين المذكورتين ولقوميات أخرى كثيرة انصهرت فى السلطنة العثمانية ، فى مواجهة حركة الحضارة الأوروبية فى أوج تمددها وتالقها .. ثم تطلعها الى استعمار الشعوب المستضعفة كما بينا فى الفصل الأول من هذه الدراسة .

ولاطلاع القارىء على الخطوط العريضة لراى الاستاذين سالفى الذكر فى موضوع القومية والدين ، استعرض شذرات من أقوالهما استعراضا موجزا يؤكد منهجيهما فى البحث ودلالة ما يهدفان اليه .

يقول الدكتور البزاز :

« ان مقومات القومية هى اللغة والتاريخ ، غير ان اللغة تكون الأساس فى بناء القوميات . ثم يقول ان الروابط التى تجمع بين طوائف كبيرة من الناس هى اثنتان وحدة اللغة ووحدة الدين ، واللغة اشد ثباتا واكثر دواما من الدين » ويقول : « ان القومية العربية ليست عنصرية (!) وهى وان لم تشترط الدين مقوما من مقوماتها ، ليست دعوة جنسية أو اعتزازا قبليا .. وان فى الامكان التسليم بوجود قومية عربية مستقلة عن الدين ، ولكنها ليست خارجة عن نطاقه الحضارى الأشمل الذى قد يتسع لقوميات عديدة » .

« وهو يجعل المعتقد الديني الخالص فى منزلة خاصة بعيدة عن الكيان القومىّ للجماعة ـــ اى فصل الدين عن الدولة ـــ واننا وان كنا نعتقد بأن الدين ليس ركنا من أركان القومية ، فان هذا لا يعنى بحال نكران اهمية الدين فى الحياة الاجتماعية » .

ويقول : « عبث ومناهضة للحقائق العلمية الزعم بأن عشرات ومئات من النابغين فى علوم العربية والشريعة من نحويين وبلاغيين ومفسرين ومحدثين ، وفقهاء ليسوا عربا لمجرد تحدرهم من أصول غير عربية (!) .

« القومية العربية انتساب حضارى ، وهى كلية ديمقراطية اشتراكية تقدمية والديمقراطية العربية تجد معينها الذى لا ينضب فى مبدأ الشورى

الذى جعله الاسلام أساسا لحكومته ونظامه الاجتماعى . وهكذا وضع التشريع الاسلامى الأسس العامة ، وترك التفصيلات لجهود العقل الانسانى ، ليصطفى أكثر الأوضاع ملاءمة لاحتياجات الزمان والمكان على ضوء المبادىء العامة التى يستخرجها عقل الإنسان من كتاب الله وسنة رسوله الكريم » .

« أما عن الاشتراكية فعندما أضاء الاسلام الأرض بنوره ، وشرح الله به صدور أمة العرب وصيرهم سدنة هذا الدين ، وحملهم رسالته جاءت تشريعاته مؤكدة لهذه الروح العالية ، ومنظمة لها على أسس متينة وقواعد رصينة » .

« ان احتكاك الفكر العربى بالفكر الغربى عن طريق المبشرين والارساليات الدينية ، كانت المظهر الأول لبروز القومية العربية فى بلاد الشام ، من حيث كونها عقيدة تجمع أبناء العروبة وتميزهم عن غيرهم من رعايا الدولة العثمانية ، وأحسب انه لا ينقص كثيرا من قيمة هذه الدعوة الجديدة أن تكون بعض الفئات الأجنبية والهيئات التبشيرية قد ساعدت فى ايقاظ هذا الشعور وتحريكه ، بقصد اضعاف الدولة العثمانية الممثلة للجامعة الاسلامية ، ونستطيع ان نؤكد أن نصارى بلاد الشام قد ساهموا اسهاما جديا فى تمكين عرب المشرق فى بلاد الشام والعراق خاصة من التمييز الواضح بين القومية والدين والفصل بينهما » .

« ان الوحدة الاسلامية بمعنى تكوين نظام سياسى شامل يخضع له المسلمون فى اقطار المعمور كلها غير ممكن عمليا (!) وغير مجد فى الظروف الدولية الراهنة » .

« والبزاز يعتقد أن شعار الوحدة الاسلامية هو قناع تتستر وراءه بعض الدول الغربية للحفاظ على نفوذها غير المشروع ، وهو من جهة أخرى شعار للابقاء على الأنظمة الرجعية المهترئة فى العالم العربى » .

« فالدين لا يمكن أن يكون قوام القومية أو ركنا أساسيا من أركانها ، فهو من ثم لا يصلح أساسا لوحدة سياسية (!) » .

« ونعتقد أن وحدة العرب الثقافية هى وحدة حكمها وأمثالها وآدابها عموما وشعرها خاصة .. ثم يقرر : ان الثقافة مختصة بالنواحى الروحية والأدبية من حياة الجماعة » .

« ويعلق البزاز أهمية خاصة على الوحدة التاريخية بعد وحدة اللغة فى تكوين القومية ، غير انه لم يستطع أن يجيب على التساؤل البديهى : ما هو تاريخ الأمة العربية بدون الاسلام ؟ » .

ويقول : « قد يقول قائل ان الانجازات الحضارية التى نتحدث عنها قامت فى ظل دولة اسلامية ، وأسهمت فيها شعوب وقوميات مختلفة ..

ويجيب على ذلك قائلا : « ان ذلك لا ينفى كونه تاريخا عربيا فى الوقت ذاته ، عربيا فى لغته ، ولذا فهى حضارة عربية (!) وهكذا سماها كل الواعين من ثقاة المفكرين والمؤرخين « كجوستاف لوبون » .

وهو فى حين يستبعد الدين من حيث هو عقيدة وعبادة عن مقومات القومية العربية ، يؤكد كونه من حيث هو تاريخ وحضارة وثقافة جزءاً من وحدتنا التاريخية ، فيقول : « ان اللغة الواحدة والتاريخ المشترك والأمانى القومية المستقبلية ، هى الرباط الأساسى للقومية العربية ، وبذا يكون الوطن الواحد لكل أبناء الوطن . ويكون الدين لله (!) ثم يستنتج من ذلك كله ان القومية مصطلح حديث ، وهى بعض نتاج العقل الأوروبى ، وهى روح العصر اليوم » .

ويقول ، وهو أغرب ما قاله :- « ان اليهود حين زال الاضطهاد الدينى الذى كانوا يقاسونه فى المجتمعات الغربية ، أصبحوا مواطنين كبقية المواطنين ، واندمجوا فى تلك المجتمعات (!) ، كان الأستاذ البزاز وهو رجل جامعى وشخصية سياسية كبيرة تولت رئاسة الوزراء فى العراق ، لم يسمع « بالجيتو » ولم يقرأ الحركة الصهيونية ، ولم يعرف شيئا عن قضية الولاء المزدوج . . وان ولاء اليهودى الأول أصبح للدولة اليهودية بعد قيام اسرائيل!! وان التراث الدينى اليهودى هو وحده الذى فرض على اليهود اعتزال المجتمعات التى عاشت فيها « الدياسبورا » ، لايمانهم المطلق بأنهم وحدهم شعب الله المختار ، فلا يجب أن يخضعوا من ثم الا لشريعتهم ، وأن عليهم ان يستغلوا كل فرصة لمخالفة قوانين الدول التى حمتهم وآوتهم والانقضاض على سياستها ، ولو بلغ بهم الأمر الى حد التآمر والخيانة كما حدث فى المانيا ، خلال الحربين العالميتين . .

وكان الأستاذ لم يطلع على أن شعار الثورة الفرنسية نفسها : الحرية والاخاء والمساواة ، هى من وضع مجمع « بوردو » الماسونى اليهودى ، وهو شعار لم يخدم الا الأقلية اليهودية ، اذ سمح لسماسرتها بنشر الفساد وأعانها على الاجهاز نهائيا على سلطة الكنيسة ، وتقويض كل القيم والمبادىء الأخلاقية باسم الحرية . .

وكان الأستاذ لم يقرأ ما جاء فى كتاب « الكنز المرصود فى قواعد التلمود » : « من يقتل مسيحيا يكافأ بالخلود فى الفردوس . ان المسيح كان مجنونا كافرا ، لا يعرف الله » . . وكان الأستاذ لم يسمع بالنشرات التى كانت وما تزال توزع فى أمريكا ، وتقول: « ادفع دولارا تقتل مسلما »!.

بودى لو استطاع الأستاذ البزاز رحمه الله — أن يقرأ قولة الكاتب الاسرائيلى « بار زوهار » فى كتابه « المنتقمون » الذى صدر سنة ١٩٦٨ « ان انتقامنا الحقيقى هو انشاء اسرائيل . ان معنى شعب الله المختار ، ان هذا الشعب له خصائص ومميزات لا وجود لها عند الشعوب الأخرى ، ولذا فان لهذا الشعب مهمة حضارية وانسانية ودينية ... تحقيقها من خلال اسرائيل ! » .

وددت لو استطاع الأستاذ ان يرى كيف تحقق اسرائيل اليوم مهمتها الحضارية والدينية بالقتل الجماعى والطرد والافناء ، لاقامة دولة عنصرية دينية على انقاض الأشلاء العربية والمقدسات الاسلامية !

وددت لو وعى المفكرون العرب أقوال أبناء اسرائيل الجدد المبنية على الخرافات التاريخية والأساطير الدينية ، قبل أن يتحذلقوا ويتعالموا ويسودوا الوف الصفحات فى تبرير فصل الدين عن الحياة والدعوة الى القومية العربية تحت شعار القضاء على الاسلام !

يقول بن جوريون : اذا كان ينبغى من اجل خير ارض أجدادنا أن نغزو امما أجنبية ونستعبدها ونبيدها ، فيجب أن لا تمنعنا من ذلك اعتبارات انسانية ..

ويقول « مناحم بيغن » : « نحن نحارب اذن نحن موجودون » !

ويقول « أبا ايبان » فى كتابه « قصة شعبى » : « ان اسرائيل تصر دائما على أن تكون ذاتها لا تنتمى الى شرق او غرب » !

ويقول « جابوتنسكى » مخاطبا اليهود : عليكم ان تحتفظوا بالسيف لانه ملك آبائنا الأوائل .. ان التوراة والسيف أنزلا علينا معا من السماء .

نعود بعد هذا الاستطراد الذى استنفرنا اليه قول الأستاذ البزاز ان اليهود بعد زوال الاضطهاد الدينى اندمجوا فى المجتمعات الأوروبية .. اين اندمجوا ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

نعود لمناقشة آراء الأستاذين البزاز والحصرى فى القومية والدين .. وقد عرفنا آراء الدكتور البزاز .. اما آراء الأستاذ الحصرى فهو يقول فى كتابه « ما هى القومية » : « ان الأوروبيين قد انتهوا من حل قضية علاقة السياسة بالدين ، قبل نشوء فكرة القومية فى بلادهم . لكن الذى حدث فى العالم الاسلامى اختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، فان الخلط بين الدين وبين السياسة قد استمر فى البلاد الاسلامية والعربية حتى القرن الحاضر ، فقد أقدم الكثيرون من الكتاب ورجال الدين والسياسة على محاربة الفكرة القومية ومقاومتها بحجة مخالفتها للديانة الاسلامية » . ! . وأنا لم اسمع فى حياتى قط من يقول بأن فكرة القومية العربية يجب أن تناهض لمخالفتها للديانة الاسلامية ، ولكننا نقول ونقرر انه لا تناقض ولا تعارض عندنا بين فكرة القومية العربية والاسلام ، لكننا نعارض من يطلبون منا التخلى عن ديننا كشرط للانتماء القومى !

ويقول الأستاذ الحصرى : « التعاليم المسيحية الأصلية تتضمن فصل الدين عن الدولة عملا بأحكام الكلمة المشهورة : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » وظهور البروتستانتية كان نقطة الابتداء للحركات القومية فى البلاد الأوربية ، لأن المذهب الجديد ، حرر اللغات من نير اللغة اللاتينية ، كما حرر القوميات من سيطرة البابوية » .

ويقول : « بما أن اللغة تكون أس الأساس فى بناء القوميات فان الأديان لا تخلو من التأثر فى القوميات من جراء تأثيرها فى اللغات .. ! ولقد أصبح من الأمور المسلمة لدى جميع الدول أن السياسة شىء والدين شىء آخـــر ، وأن من الخطأ أن يظن أن العرب كانوا أمة بدائية محرومة من الحضــــارة قبل الاسلام » !

ويقول : « لا شك أن القرآن وقف سدا منيعا أمام خطر تفكك اللغـــة العربية واندثارها ، ونظرا لارتباط القومية باللغة ، نقول ان ذلك حفظ القومية العربيـــة من التشتت والزوال » .. الى آخر هـــذا التناقض والخـــلط و « التخبيص » ! .

الظاهرة الأولى التى قصدنا ابرازها بايراد هذه المقتطفات التى أجتزأناها من كتابى الأستاذين ، ووضعناها فى سياق متتابع هى التخبط فى الاستدلال والاستنباط والاستنتاج ، ومن ذلك غلو الأستاذين فى التقليد الأعمى للثقافة الغربية والتبعية المطلقة لـــا يقوله المبشرون والمستشرقون ، الذين عملوا جاهدين منذ مطلع هذا القـــرن على صنع عقول بعض مفكرينا ، وحمـــلة الشعارات المجلوبة فينا ليقوموا عنهم بمهمة افساد تاريخنا وتشويه حضارتنا والتشكيك فى تراثنا وسلخ المواطن العربى عن مقوماته الأخلاقية والروحية والدينية التى هى عناصر المقاومة الصادقة لمخططات الصهيونية والاستعمار، وتفريغه من سلاحه الأمضى والأشد فى وجه الغزو الفكرى والخلقى ، وفى وجه التسلط والقهر والافناء !

تقوم فكرة القومية عند الأستاذين على أساس عزل الاسلام عن واقع الحياة فى محاولة مبتسرة للتوكيد على أن الفصام النكد الذى حدث فى أوروبا بين الكنيسة والعلم ، بسبب جهل رجالها وتعنتهم ومناهضتهم الملحة للكشـــوف العلمية وبدائه العقل .. ذلك الفصام الذى أبرز فكرة القومية وحرك النهضة العلمية لتقوم على العلمانية وانكار الألوهية .. هو حتمية تاريخية ، تنسحب على كافة الأديان والمجتمعات ، ولذا قالوا بضرورة حذو الأمة العربية تلك التجربة بالانسلاخ عن الاسلام .

والرد البديهى على هذا الشطط ان الاسلام لم يقف من العلم موقف العداء والتناقض ، كما وقفت الكنيسة ، بل ان العلم هو جزء من العقيدة ،مقدم على الفرائض واجب على المسلم كما سنفصل الحديث عنه فى الصـــفحات التاليـــة .

والظاهرة الثانية هى التناقض الغريب المريب بين مجموعة التعميمات المبتورة والأفكار المنقولة بالمسطرة والبيكار ، التى حاول الأســـتاذ البزاز أن يؤلف بينها قسرا ويضعها موضع الحقيقة الثابتة التى لا تقبل الجـــدل والنقاش كقوله : ان مقومات القومية هى اللغة والتاريخ ثم قوله بعـــد قليل ان تلك المقومات هى اللغة والتاريخ والأمانى المستقبلية .. ثم قوله بعد صفحات أن الروابط التى تجمع بين طوائف كبيرة من الناس هى وحـــدة اللغة ووحدة الدين . وهو فى حين يسلم بوجود قومية عربية مستقلة عن الدين ، يتبع ذلك بقوله : ان نطاق الدين الحضارى الأشـــمل قد يتســـع

لقوميات كثيرة ، ثم يتبع هذا كله بقوله : ان الاسلام بالنسبة للعرب جميعا هو الوعاء الحضاري والمعين الروحي للقومية العربية » .

ونتساءل نحن : اذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن اذن فصل القومية عن الدين وهو وعاءها الحضاري ؟ وماذا يبقى من القومية اذا انتزعناها من وعائها الحضاري .

واستغرابه الاعتراف بأن معظم العلماء المسلمين من التابعين ليسوا عربا لمجرد تحدرهم من أصول غير عربية ، استغراب يدعو حقا الى الاستغراب ! ولا يمت الى الحقيقة العلمية والحقيقة الاجتماعية ، والحقيقة السياسية بصلة من قريب أو بعيد ، ذلك أن العلماء المسلمين كانوا ينتمون الى أمة اسلامية لا الى أمة عربية ، وان الحضارة التى انتجوها هى حضارة اسلامية لا حضارة عربية . وكيف يجوز فى عقل ومنطق أن نقول : أن من يؤلف فى الانجليزية يصبح انجليزيا ، ولو كان عربيا او المانيا ؟

أما قوله ان القومية العربية انتساب حضارى وكلية ديمقراطية اشتراكية تقدمية فخلط وعجن ولا مدلول له ولا معنى ولا مفهوم ، وهو تعبير عاطفى ضبابى كقول البعثيين : « الأمة العربية هى كلية مطلقة لا متناهية خالدة ، افعالها ليست أفعالا تاريخية عادية بل معجزات (!) وخصائص الأمة العربية فوق الزمان والمكان وهى التى توجه الحزب » !!

وهو حين يقول : ان القومية العربية انتساب حضارى .. ثم يقول قبل ذلك أو بعده أن الاسلام هو الاطار الحضارى للامة العربية ، فما الذى منعه عن نسبة القومية العربية الى الاسلام ؟ اليس هذا هو تخريج كلامه ؟ وهل تؤدى المقدمات التى ساقها الا الى هذه النتيجة ؟

وهو فى حين يقرر ان الديمقراطية والاشتراكية تجدان معينهما الذى لا ينضب فى الشريعة الاسلامية ، ينسى تقريره هذا فيدعو الى فصل الدين عن القومية وعن السياسة وعن الحياة ؟

وهو يعترف ان الارساليات التبشيرية هى التى نقلت الى ديار الشام فكرة القومية فى اواخر العهد العثمانى ، حين استشرى الخلاف بين العروبة والطورانية ، من حيث كون القومية العربية عقيدة تجمع ابناء العروبة وتميزهم عن غيرهم من رعايا الدولة العثمانية ، ويعترف مع ذلك بأن تلك الارساليات قد فعلت ذلك بقصد اضعاف الدولة الممثلة للجامعة الاسلامية .. ثم يؤكد بمنتهى البساطة ان من تتلمذوا على تلك الهيئات التبشيرية قد علموا عرب المشرق التمييز بين القومية والدين والفصل بينهما .. وهل كان غرض المؤامرة الا هذا ؟؟

لقد كان لتلك الارساليات — كما سنرى فيما بعد — مهمة تتجاوز نشاطاتها الدينية ، التى لم تكن الا ستارا يخفى ما جاءت من اجله وهو تفتيت وحدة الشعوب المندمجة فى السلطة العثمانية لتسهل من ثم تجزئتها وأعمال مبضع الاستعمار فى تقطيع أوصالها ، فتغدو بعد قليل ، امما بعدد

الدويلات الكرتونية التي صنعتها المؤامرة الصهيونية الاستعمارية ، لاقتسام مناطق النفوذ فى هذه المنطقة الحيوية من العالم وامداد المناخ الملائم لاقامة الكيان الاسرائيلى الدخيل ؟

اننا نفهم أن تتجه الارساليات التبشيرية الوافدة من الغرب حينذاك الى بعض أجزاء القارة الأفريقية للقضاء على الوثنية ، واعادة الناس الى هدى الأديان السماوية ، أما أن تتعرض منطقة تدين بالاسلام ، وهو توأم المسيحية وصنوها لتلك الهجمة التبشيرية الضارية فى تلك البرهة بالذات ، فلا يمكن أن نفهمه الا على انه طليعة الغزو الاستعمارى كما حدث فى الواقع، وسنشير الى ذلك فى موضعه من هذه الدراسة .

ولماذا يسمح لليهودية العالمية أن تقف من المسيحية ، جهارا نهارا ، موقف العداء المطلق ، ولا يسمح لنا نحن أن ندعو الى التعاون بين المسيحية والاسلام فى وجه موجة الالحاد والفساد التى تكتسح الدنيا ، ولا يسمح لنا بحماية ديننا ضد الغزو التبشيرى الذى لا يهدأ حتى يدمر الاسلام ويمزق المسلمين .

ولم تكتف اليهودية العالمية بمناصبة المسيحية الكراهية العلنية ومحاولة تدميرها من الداخل بممارسة الضغوط والاغراءات الصهيونية المستمرة فى الأوساط المسيحية والعمل على سحق روحها الأخلاقية .. بالتغلغل فى قلب المؤسسات الدينية المسيحية والسيطرة عليها .. حتى أنها استطاعت ان تدفع اللجنة الأسقفية الكاثوليكية الفرنسية ، المختصة بالعلاقات مع اليهودية العالمية التى تاسست فى أعقاب حرب الأيام الستة برئاسة مطران « ستراسبورغ » الى اصدار بيانها الشهير فى نيسان سنة ١٩٧٣ الذى يحدد موقف المسيحيين من اليهودية العالمية ، على أساس مرسوم المجمع الفاتيكانى الذى ابرأ اليهود من دم المسيح ، وأعلن البيان فى يوم عيد الفصح الاسرائيلي وهو ينص : « ان الوجود الاسرائيلى يفرض على الضمير المسيحى أسئلة خاصة بخلود هذا الشعب على مر الزمن ، واستمرار مدنيته ، وبقائه كشريك صلب ومتشدد — ضد الاسلام — وأن الشعب الاسرائيلى هو اول من سجل الايمان بالله فى تاريخ الانسانية ، ولذا يجب على المسيحيين أن ينظروا الى اليهودية كحقيقة دينية .. ولا يجوز لهم تعلم شيء لا يتفق مع المسيح ، وان تلغى جميع التصورات التى تبرز اليهودى كمراتب طماع متآمر .. وانها خطيئة لاهوتية تاريخية ، تلك التى أدانت اليهود بمسؤولية صلب المسيح ، كما وان العداء للسامية هو ميراث عالم كافر . وان الضمير العالمى لا يستطيع أن يرفض حق ذلك الشعب المضطهد فى تاريخه الطويل لتحقيق وجوده السياسى بين شعوب العالم .

ومع هذا الانحياز المخجل ، وحشر الضمير العالمى فى ماساة تناسى آلام الفلسطينيين ، دون حياء ، يحارب اليهود التبشير المسيحى فى اسرائيل، دون هوادة . فقد ذكرت « الاسوشيتدبرس » بتاريخ ٩ — ٢ — ١٩٧٣ ان جماعة من المتدينين اليهود حاولت حرق متجر يبيع المنشورات المسيحية فى جبل الزيتون ، وتواجه الحكومة الاسرائيلية حملات يومية مستمرة لمنع التبشير المسيحى وتخشى ان تؤثر مثل هذه الحركة المتنامية ضد الانجيل

والصليب على ادعائها بانها حامية الأماكن المقدسة المسيحية .. وقال شاهد عيان أن مهاجمى المتجر كانوا يصيحون : لقد اريقت دماء يهودية كافية من أجل يسوع . أرحلوا والا أرقنا المزيد . واعترف صاحب المتجر « شلو هيزاق » بانه يؤمن بأن يسوع هو المسيح ، الأمر الذى جعل الحاخامية تفصله عن الديانة اليهودية .. وزعم الحاخام « كاهان » الذى أعلن حربا علنية على المبشرين المسيحيين أن « هيزاق » وامثاله هم من عملاء يسوع السريين !

ومع ذلك كله يقوم فى العالم العربى مفكرون ثوريون يحاولون اقناع الرأى العام العربى بان اسرائيل ليست دولة دينية ، ليستطيعوا طعن الاسلام وتمجيد عمل الارساليات التبشيرية التى غزت بلادنا فى مطلع هذا القرن وعلمتنا التمييز بين القومية والدين والفصل بينهما !!

لقد حاول الدكتور البزاز وهو تلميذ الأستاذ الحصرى ، ان يوفق بين خلفيته الدينية الاسلامية وبين مصادر ثقافته الغربية فوقع فى الشطط الذى أشرنا الى بعض بعضه فيما أوردناه .

أما الحصرى ، فيهجم على موضوعه هجوما تبعيا مباشرا فيسجل آراء الغربيين كمسلمات لا تخضع لنقاش . وخلاصة أقواله مستمدة من قصة الفصام النكد بين الكنيسة والمجتمع فى أوربا ولكن خطاه الفادح أنه لم يسأل نفسه مرة واحدة : هل وقع مثل ذلك الفصام بين الاسلام والمجتمعات؟ ومتى وكيف ؟

ولم يبحث مرة واحدة فى الفرق الأساسى بين الاسلام من جهة والأديان السماوية الأخرى من جهة ثانية من حيث أن الاسلام ليس عقيدة فحسب ، بل هو عقيدة وشريعة وان الشريعة الاسلامية فى رأى معظم المفكرين والفلاسفة والمشرعين صالحة لكل زمان ومكان .. وان الاسلام يؤيد العلم ويحض عليه كجزء من عقيدة المسلم اذا تخلى عنه فقد تخلى عن مقوم اساسى من مقومات دينه ودنياه ..

وقد صدر مؤخرا كتاب للدكتور عبد العزيز الأهوانى بعنوان : « أزمة الوحدة العربية » نحا فيه منحى الأستاذين الحصرى والبزاز ونسج خيوطه من أفكار بعض المستشرقين حيث يقول : « أن القومية العربية ترتكز أساسا على اللغة والتاريخ ، مستبعدة الدين من عناصرها ، وهى فى هذا متفقة مع موقف القوميات الأخرى من الدين — يقصد القوميات الأوربية ، التى انطوت وانتهى زمانها — لأنها كلها لا تجعل الدين عنصرا من عناصرها . ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر انه كان للدين أثر فى قيام بعض القوميات ، كقوميات البلقان عند انفصالها عن الدولة العثمانية ، والقومية الأسبانية التى كان الدين عاملا مهما فيها فى محاربة العرب ، واخراجهم من الأندلس .. لكن هذا لا يمنع من أن تلتقى قوميات عدة داخل اتحاد واحد ، ولمصلحة سياسية ، او ان تكون جامعة دينية ، ومثل هذا التقارب لا يتعارض مع الفكرة القومية ،

ثم يعترف ان التاريخ العربى اقترن بالدين الاسلامى ، واللغة العربية ارتبطت بالاسلام ، وان الاسلام قد أسهم اسهاما كبيرا فى تكوين ثقافة متقاربة ، ان لم تكن موحدة ، ومثل هذه الثقافة المتقاربة من العوامل تهيىء الأسباب لتحقيق « الوحدة » .

الست ترى معى أن مقدمة هذا الكلام الذى ساقه الدكتور تتعارض مع خاتمته ؟ وهل نقول نحن الا ما حاول الدكتور أن يؤكده فى جمله الأخيرة ؟ وكيف يستطيع باحث يحترم نفسه أن يقع فى مثل هذا التناقض .

وأغرب ما فى أمر الباحثين والمفكرين العرب ، منذ مطلع هذا القـــرن ، انهم يناقشون الاسلام كما مورس فى أواخر عهود الخلافة العثمانيـــة ، وكما يمارس اليوم فى معظم الأقطار الاسلامية . مع أن ذلك كله لا يمت الى الاسلام الصحيح بصلة . وان ما نراه من تزمت وتنطع وجهل وغفلة واهمال وتخلف عن اقتباس الحضارة الأوروبية فى ابداعهـــا المـــادى مع حركة احياء وبعث شاملة لحقيقة الاسلام هى الدواء الشافى لأمراضنا المزمنة !

ان المسلمين اليوم لا يمثلون حقيقة الاسلام ، فاتهامهم بالتخلف والجمود هو اتهام صادق ، أما ان يوجه الاتهام الى الاسلام فى الفه الأصيل ، فذلك هو الانحراف والجهل المخيف ، وهو سبب ما آلت اليه حالنا فى هذا الزمن العجيب !

لقد اعترف الأستاذان البزاز والحصرى ، ان اللغة تكون اس الأســـاس فى بناء القوميات ، واعترفا بأن القرآن وقف سدا منيعا أمام خطر تفكك اللغة العربية واندثارها وان ذلك هو الذى حفظ القومية العربية من التشتت والدمار !

ومؤدى اعتراف الأستاذين الواضح الصريح أن الاسلام هو الذى حفظ القومية العربية وصانها من الانهيار ، فكيف يمكن بعد هذا أن نفصـــل بين القومية والدين ، وماذا ترى يبقى من القومية اذا فصـــلت عن اطارها الحضارى ؟

لقد كانت المؤامرة الصهيونية الاستعمارية منذ القرون الوسطى الى اليوم تهدف الى القضاء على القرآن ، وما زلنا نرى بيننا اليوم من يدعو الى الأخذ باللغات العامية لتصبح الأمة العربية بعد قرن من الزمان أمما بصـــدد الدويلات والمشيخات والامارات ، فيتم تحررها من لغة القرآن كما حررت البروتستانتية اللغات الأوروبية من نير اللغة اللاتينية ؟

ان التاريخ لم يعرف للعرب حضارة متميزة الا بالاسلام ، ولم تكن الحضارة الاسلامية ، حضارة قومية للعرب ، وانما كانت نتاج الاسلام ذاته ، شاركت فيه جميع الشعوب التى دخلت فى الاسلام ، فحملت طابع الاسلام لا طابع

القومية العربية ، والعرب لم يكونوا أكثر من عنصر واحد من العناصر المتعددة التى صنعت تلك الحضارة .

ان الأمة فى المفهوم الاسلامى هي الأمة الاسلامية ، لا الأمة العربية فالقرآن الكريم يسمى المسلمين أمة واحدة ، **« ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » « كنتم خير امة اخرجت للناس » « أن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شيء »** .

ان حجة هؤلاء الكتاب واشباههم تقوم على أساس ان ما حدث فى أوروبا حين بروز القوميات فيها ، اثر الفصام بين الكنيسة والعلم هو قدر لازب وحتمية تاريخية ، وان لابد للأمة العربية اذا هى أرادت أن تلحق بركب الحضارة المادية أن تتخلى عن الدين وان تتخذ العلمانية منهجا وطريقا ، وان تقدم الحضارة الأوروبية منوط بغياب الدين .. وهم يبنون منطقهم على مقومات مبتورة تسوق الى نتائج رديئة ، ويطلبون منا أن نأخذ تلك الحضارة بعجرها وبجرها وحسناتها وسيئاتها ، وخيرها وشرها ، ونستسلم لها ونخضع ونستريح !!

واصل الخطأ فى قناعاتهم التبعية اغفالهم موضوعية البحث المقارن بين الدساتير والقوانين الوضعية المنبثقة من ايديولوجية الرأسمالية والشيوعية . وبين الشريعة الاسلامية بمنهجها الالهى المتقدم على تلك الدساتير والقوانين مبنى واصالة .. لجهلهم الفادح بتلك الشريعة وما تنطوى عليه من ذخائر مضيئة لا ينضب لها معين .

والأسلوب العلمى فى البحث والتحليل وجدية التناول يجب أن يطرح من خلال الحوار الهادىء والمقارنة الهادفة المبنية على الحقائق التاريخية لا على الافتراضات والتعميمات . وهذا الأسلوب لا يؤتى ثماره الا اذا استطاع الاجابة العقلية على التساؤلات المجردة لتى تسوق بالتالى الى التنظير والتقرير ، وصدق الرؤية والاقناع ، ووضع الأمور فى مواضعها المريحة .

هل استطاعت تلك الأيديولوجيات أن تنقذ الانسان من الحيرة والقلق والضياع ؟

هل استطاعت الرأسمالية والشيوعية ان تحققا طموحات الانسانية واهتماماتها ؟

هل استطاعت الحضارة الغربية والشرقية بخوارقها المادية وجدبها الروحى أن تنقذ البشرية من مهاوى التدهور الخلقى ؟

هل تصلح القوانين الوضعية لبناء مستقبل افضل يؤكد الخصائص

الانسانية ويسمو بانسانية الانسان ويوطد دعائم السلام الدائم ويلغى الصراعات والحروب، وينفى الظلم والقهر والانسحاق ؟

ثم هل يمكن تطبيق الشريعة الاسلامية بديلا لتلك الأيديولوجيات ؟

هل تصلح تلك الشريعة لحماية المصير الانسانى ؟

هل هى صالحة لكل زمان ومكان ؟

هل تصلح الحياة اذا خلت من فكرة الألوهية والانعتاق الروحى ؟

هل تزكو المسيرة الا بالعودة الى الله ؟

هذه التساؤلات، هى المنطلق الصحيح لكل حوار نظيف ..

وهو ما سنحاول أن نجيب عنه فى الصفحات التاليات ..

النزاع بين العلم والدين

يقول الكاتب الأمريكى « دريبر » فى كتابه « النزاع بين العلم والدين » . « لقد دخلت الوثنية والشرك فىالنصرانية عن طريق من تظاهروا بالنصرانية رياء وكذبا ليتقلدوا المناصب العالية فى الدولة الرومانية ، دون أن يؤمنوا بها . وقد فعل ذلك قبلهم الامبراطور « قسطنطين » الذى اعتنق النصرانية ، ولم يتخل عما اعتاد من ظلم وفجور ، لقد اعتنق النصرانية مرغما بعد أن رفعته الى العرش آملة أن يتقيد بأوامرها ويساعد على انتشارها ، غير انها لم تستطع أن تقضى على جرثومة الوثنية الرومانية ، وكانت نتيجة ذلك الصراع أن امتزجت مبادىء المسيحية وقيمها ببقايا تلك الوثنية ، ونشأ عن ذلك الامتزاج دين جديد هو خليط من المسيحية الأصلية والوثنيات اليونانية والرومانية . وهذا هو وجه الخلاف بين نشأة الاسلام والنصرانية ، اذ بينما اضطرت النصرانية الى النمو فى حضانة الوثنيات التى سادت المجتمع الرومانى ، قضى الاسلام على الوثنية منذ البداية قضاء مبرما ونشر تعاليمه التى تقوم على الوحدانية الالهية دون غموض » .

« ولقد عمل الامبراطور قسطنطين جاهدا ، بغية توطيد ملكه للتاليف بين الفريقين المتصارعين .. بين النصرانية والوثنية ، دون أن يحتفل احتفالا صادقا بحقيقة الدين ، وحسب المسيحيون أن قبولهم بذلك الوضع انما هو قبول مرحلى لا محيد عنه ، وأن المسيحية ستستطيع أن تنجو آخر الأمر من رجس الوثنية » .

« ان المسيحية دين سماوى كاليهودية والاسلام غير انها نزلت عقيدة مكملة لليهودية ومصححة لها كثورة اجتماعية أخلاقية فى مجتمع يهودى فاسد ، ولذا جعلت شريعتها الأساسية ، التوراة ، مع تعديلات طفيفة نزلت فى الأنجيل الكريم ، ولذا كان المفهوم الطبيعى للمسيحية ان تحكم بشريعة الله المنزلة فى التوراة الأصلية مع مراعاة التعديلات الواردة فى الأنجيل » .

« غير أن الذى حدث بالفعل لم يكن كذلك ، فقد انتقلت المسيحية من المجتمع اليهودى الى المجتمع الرومانى ، وعلى الرغم من النفوذ الضخم الذى مارسته الكنيسة فى أوروبا فى العصور الوسطى ، لم تكن الشريعة الالهية مطبقة فى غير قانون الأحوال الشخصية ، وما عدا ذلك ، يحكمه القانونى الرومانى بجاهليته ووثنياته ..

منذئذ بدأ الصراع بين الدين والحياة ، فقد مضت الكنيسة تمارس سلطانها على القلوب والمشاعر بينما يمارس القانون الرومانى سلطانه فى واقع الحياة .

واستشرى نفوذ الكنيسة وتجاوز كل معقول ، فقد احتجز الكهنة لأنفسهم ملكوت السماء واحتكروه ، فادخلوا فيه من رضوا عنه وحرموا الآخرين ، وراحت الكنيسة تفرض على الناس الاتاوات الفادحة ، وتفرض الأفكار العلمية الزائفة على العقول ، وبلغ الخضوع المذل لرجال الدين حد السجود فى الأرض الموحلة عند مرور أحد رجال الكهنوت .

وحينما أثبت العلم النظرى التجريبى الذى اكتسبه الغرب عن المسلمين بطلان نظريات الكنيسة العلمية على يد كبار العلماء « كجاليليو وكوبرنيكوس وبرونو » وغيرهم ، اتهمتهم الكنيسة بالهرطقة وامعنت فى تعذيبهم حتى الموت ، وبرزت مهزلة صكوك الغفران ومحاكم التفتيش والمحاكمات الكنسية لضرب كل حركة علمية تناهض مفاهيم الكنيسة .

وللتمثيل على ذلك نسوق فيما يلى نص صك من صكوك الغفران ، وقرار ادانة « جاليليو » .

صك غفران

« ربنا يسوع يرحمك « يا فلان » ويحلك باستحقاقك آلامه الكلية القداسة . وانا بالسلطان الرسولى المعطى له أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها وأيضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وامحو جميع اقذار الذنب ، وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وارفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر واردك ثانية الى الطهارة التى كانت لك عند معموديتك ، باسم الأب والابن والروح القدس » .

قرار ادانة « جاليليو »

صدر فى ٢٢ حزيران سنة ١٦٣٣

حكم عليه ديوان التفتيش وهو فى السبعين من عمره لأنه رفض أن يتراجع عن نظريته العلمية بدوران الأرض .

« يا جاليلو ، ابن المرحوم « فنسان جاليليو » من بلدة فلورنسة البالغ من العمر سبعين عاما . بناء على ما بلغ المجمع المقدس سنة ١٦١٥ من انك تؤمن بصحة المذهب الذى يدعو اليه الكثيرون ، وهو أن الشمس هى مركز العالم وأنها ثابتة ، وأن الأرض تتحرك حركة يومية ، فان المحكمة رغبة منها فى منع الفوضى والاضرار الناجمة عن ذلك ، والتى تمنع التصدى للايمان المقدس . وبناء على أوامر سيدنا بولس الخامس وأصحاب النيافة الكرادلة فى هذه المحكمة العالمية العليا ، يرى اللاهوتيون أصحاب

الرأى فى التعريف ان القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الأرض مناقضتان للعقل ، ومغلوطتان فى اللاهوت ، فالأولى هرطقة صريحة ، والثانية خطأ فى الايمان ، فنحن نقول ونرفض ونحكم ونعلن انك انت « جاليليو » المذكور اصبحت فى نظر المجمع المقدس محل شبهة قوية بالهرطقة ، باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ، مناقضة للكتب الالهية المقدسة ، ونحن نأمر بمصادرة كتاب « محاورات جاليليو » بموجب مرسوم علنى ، ونحكم عليك بالسجن الصريح بالمدة التى سنرى تحديدها .

صادر عنا نحن الكرادلة الموقعين ادناه .

ويصف المؤرخ « لكى «Lecky» » فى كتابه « تاريخ أوروبا الاخلاقى «History of European Morals» ما كان عليه حال الكنيسة والمجتمع فى تلك البرهة فيقول : « لقد عجزت الرهبانية عن الحد من جموح المادية ، فقد بلغ التبذل والاسفاف غايتهما فى اخلاق الناس ، وسادت الدعارة والفجور وانقسم المجتمع الى فئتين متناقضتين متباعدتين ، رهبانية متطرفة .. وفجور متطرف .. وكان الناس يرون فى الرهبانية السلبية مصادمة للفطرة الانسانية ، التى بقيت مقهورة زمنا ، ثم تسربت اليها هى الأخرى عوامل الفساد الأخلاقى فأصبحت مرتعا للكبائر والمنكرات ! » .

ويقول « الراهب جاروم » : « ان عيش القسس فى تلك البرهة ، كان يزرى بترف الأمراء ويزيد عليه ، وقد انحطت أخلاق الباباوات انحطاطا عظيما ، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ، وأصبحوا يبيعون المناصب والوظائف بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق الصكوك وتذاكر الغفران ، ويجيزون تحليل المحرمات والمحظورات . وتبع ذلك الجو ، التنافس الشرس بين البابوية والامبراطورية فى القرن الحادى عشر ، واستمر الصراع بينهما سجالا . الغلبة اكثر الوقت للباباوات وسقط الناس صرعى النيرين الامبراطورى والبابوى » .

وكانت النكبة التى حاقت بالفكر الدينى ، جناية رجال الدين بدس المعلومات البشرية التى كانت سائدة حينذاك ، وفرضوها حقائق ثابتة على عقول الناس ، واعتبروها من صلب الدين ، وكذبوا بل كفروا كل من يقول بخلافها وساموهم سوء العذاب ، وحينما جاءت النهضة الحديثة وتغيرت المفاهيم العلمية بالتدرج والترقى والتطور ، وقع الصراع بين العلم والكنيسة ، وانهزم الدين هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده ، وتزعزع الفكر الدينى فى أوروبا وفقد تأثيره فى الضمائر والنفوس ، وأصبحت أوروبا النهضة ، لا دينية تقف بصرامة فى مواجهة النصرانية والأديان السماوية كلها ، وساد الاعتقاد ، بأن الفكر الدينى والفكر العلمى قضيتان متناقضتان متعاديتان . الايمان بأحدهما يستلزم حتمية الكفر بالآخر . وهكذا وقع المحذور الذى ساق أوروبا الى المادية بكل معانيها ، والى فصل الدين عن الحياة ، وان الدين اذا كان لابد منه ، فهو قضية فردية تتعلق بذاتية الانسان ولا تتجاوزه الى السياسة والمجتمع والدولة ، وأورث ذلك كله ان الديانة المادية هى التى تسود أوروبا وأمريكا اليوم ، لا النصرانية ، وأصبحت الفضائل كلها فى الفائدة العملية . وان

القيم العليا والمبادىء السامية هي النجاح المـادى لا غير » ! ممـا دعا الكاتب الأمريكي الشهير John Gunther أن يقول في كتابه « داخل أوروبا «Inside Europe» » ان الانجليز يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع، ويتوجهون فى اليوم السابع الى الكنيسة » !

وعندما هزم الدين فى أوروبا ظهرت النزعات القومية والعرقيــة خاصة وكانت حركات الاصلاح الدينى مشوبة بالروح الوطنية ..

ولم يقتصر الخروج على تعاليم المسيح السمحاء ، على هذا الجهـل والضلال ، بل تحولت الاديرة والكنائس الى مباءات ترتكب فيها كل أصناف الجرائم الخلقية ، يشترك فيها الرهاب والراهبات .

يقول « سيد أمير على » فى كتابه « روح الاسلام » وهو ينقل عن كتاب غربيين مسيحيين : « فى عهد قسطنطين وخلفائه كانت العلوم تعتبر نوعــا من السحر أو الخيانة ، وكانت النزعة الدينية نحو كراهية العلوم العقلية ، هى التى عبرت عن نفسها خير تعبير بالمثل القائل : « الجهل أبو الاخلاص لله » . وها هو البابا « غريغورى » الكبير ، يؤيد هذه القاعدة بما لا يمكن دحضه، فينفى من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية ، ويحــرق مكتبة « بلاتين » التى أسسها القيصر « أوكتافيوس » ويحرم دراســة آثار الكتاب والفلاسفة الكلاسيكيين ، ويستعيض عن ذلك بتشجيع الميثولوجيا الكنسية التى ظلت هى المذهب السائد فى أوروبا لقرون عديدة » .

لهذه الأسباب مجتمعة ، ولدت النهضة الأوروبية على عداء محكم مع الدين المسيحى ، ثم مع جميع الأديان ، باعتبار أن الكنيســة بما كانت تفعله، هى التى تمثل مبادىء الدين ، مع بعد ذلك عن الحقيقة ، فقد كان سلوك الكنيسة فى الحق مخالفا لتعاليم المسيح عليه السلام .

« لقد وقع الفصام النكد فى أوروبا بين الكنيسة والمجتمع ، لأن الكنيسة فى القرون الوسطى قد استبدلت بمبادىء المحبة والرحمة والروحانية الصافية التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام ، السلطان الدنيوى ، وسلطت على الناس القهر والمذلة والاتاوات ، وفرضت عليهم مقولات علمية يعتبر الخروج عليها كفرا وهرطقة ومخالفة لأمر الله ، وحينمـا بدأت النهضة الأوربية ، بدأ العلماء الذين تتلمذوا على الحضارة الاسلامية يفسرون الكون والحيـاة على أساس الكشـوف العلمية المبنية على المشـاهدة والحس والتجربة والاختبار ، مما يتعارض مع تعاليم الكنيسة وأوامرها فقامت المعركة التى هزت مشاعر الناس وزلزلت ايمانهم بالله ، وبانسانية الانسان ، وبما جاءت به الاديان السماوية من قيم روحية فى اخلاقية الافعال وسلوك الافراد ، وبذا انتقل الايمان الى الوجدان ، وابتعد تدريجيا عن معترك الحياة ، حتى لم يبق له نفوذ الا فى شفافية الضمائر ورفرفة الأرواح .

« ووجدت المجتمعات الأوروبية المبهورة بالنتائج العلمية الفرصة السانحة لوضع حد للمعركة ، فاعتبرت الدين عبئا مفروضا يجب التملص منه ، وهربوا من فكرة الالوهية الى فكرة الطبيعة والعقل والمادة . وبما ان الطبيعة فى

نظر أصحاب ءاسفتها عرضة للتغير الدائم والتطور المستمر فقد نشأت تبعا للايمان بها فكرة التغير والتبدل حتى فى القيم الاخلاقية والمبادىء الروحية ، وأصبحت فكرة التطور تشمل كل شىء حتى فكرة الله وفكرة الدين من أساسها » .

« وفسروا تطور الدين تفسيرا مبتسرا ، من عبادة الأب الى عبادة « الطوطم » الى عبادة الأصنام الى عبادة الله ، وقد يصبح غدا ايمانا بشىء آخر أو قيمة أخرى .. حتى انتهت الى اللا ايمان الا بما تثبته التجربة وتدركه الحواس . وهكذا ولد التفسير المادى للتاريخ . فأصبح تاريخ الانسان كله ، ليس البحث عن الحق والعدالة والمساواة ، بل هو تاريخ البحث عن الطعام .. وان الحركة الاقتصادية هى التى تخلق المثل الاخلاقية ، وصور العلاقات الاجتماعية ، وان لكل مجتمع مبادئه وأخلاقه التى لا بقاء لها ولا ثبات ، وان الجنس هو محور الحياة البشرية .. وان الصراع الانسانى كله متمثل فى النمو الحر للطاقة الجنسية ، فافتتن الشباب بهذه النظرية ، لما عانوه من نظرة الكنيسة الى الجنس على أنه خطيئة وقذارة ودنس لا يجب أن يدخل القلوب النظيفة المؤمنة .. واصبحت الحيوانية المنفلتة من كل قيد أخلاقى هى سمة المجتمعات الاوروبية اليوم فى الادب والفلسفة والفنون . وفجاة وجد الانسان الذى ارادوا له أن يكون بديلا للاله .. وجد نفسه يتمرغ فى حمأة الركض وراء الجنس والطعام بلا ضابط ولا وازع ولا نظام .

وهكذا نبذت أوروبا الهها — كما يقول « سمرست موم » وآمنت باله جديد هو العلم ، وسمى العصر ، بعصر انتصار الانسان على الطبيعة ، والتخلص من خرافة الدين » .

وكردة فعل عنيفة لهذا التطرف نشأت فلسفات معاصرة معارضة تؤمن ايمانا صادقا بوشيك انهيار هذه الحضارة المبنية على المادية اللا اخلاقية اللادينية ، فألف الفيلسوف الالمانى « شبنلجر » كتابه « انهيار الحضارات » ونهض الفيلسوف « برتراند رسل » يقول : « لقد فقد الرجل الابيض سيادته لأنه استنفذ اغراضه ، ولم تعد عنده فكرة صالحة يمنحها للبشرية » وقام « جوليان هكسلى » بدراسته الفلسفية المعارضة « للداروينية » التى اثبت بها أن الانسان متفرد بخصائصه وله مقاييس خاصة غير مقياس الحيوانات ، واذن فجميع النظريات الفكرية والسياسية والاجتماعية والادبية والفنية التى تفرعت عن الايمان بحيوانية الانسان كانت منحرفة وخاطئة وغير جديرة بالاعتبار ..

ونحن حين نستعرض تاريخ هذا الصراع ، نستطيع ان نرده الى التفكير الدينى لدى الكنيسة فى القرون الوسطى ، الذى استمدته من فكرة ثبوت الخالق سبحانه ، وثبوت قصده فى خلقه ، الى ثبات كل شىء بالضرورة .. ولذا كانت فكرة التطور التى اثبتها العلم صدمة مذهلة للجماهير شككتهم فى الدين وفى الاله .

بينما كان علماء المسلمين قبل ذلك بعشرة قرون قد فرقوا تفريقا واضحا بين ثبات الخالق سبحانه وبين تطور خلقه ، وفى هذا يقول « دربير »

فى كتابه الآنف الذكر : « اننا لندهش حين نرى فى مؤلفات المسلمين من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر ، ومن ذلك ان مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهبا حديثا ، كان يدرس فى مدارسهم ، ولذا احس المسلمون احساسا صادقا بتطور الحياة البشرية ، حتى ان الفقه الاسلامى ذاته تطبيق عملى لفكرة التطور البشرى ، ذلك ان مهمته الدائمة هى البحث عن حلول جديدة للمشكلات المتطورة المستجدة مستمدة من أصول الدين وروحه . ولو كان رجال الدين فى أوروبا ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على مثل هذا الفهم الناضج فى القرن السابع ، لما صدمتهم بحوث العلم الجديدة ولا قامت النفرة بينهم وبين العلم .. تلك النفرة التى أدت باوروبا ، وتكاد تؤدى بالانسانية كلها الى هاوية الفناء .

واذا كان الكون يتطور ولا تتغير طبيعته ، بل تتغير صوره وحالاته ويظل جوهره ثابتا ، وكذلك الانسان يتطور ، فلا تتغير طبيعته وانما تتغير صوره وحالاته ويظل جوهره ثابتا لانه متصــل بحقائق ازلية لا يعتريها التغيير ، فالعقيدة فى الله عنصر ثابت فى الطبيعة الانسانية ، فى صميم فطرة النفس الانسانية .

ومقياس الحضارة ليس فيما يدركه العقل البشرى من مكتشفات وابداعات مادية فحسب ، بل فى مدى تأثره بذلك واستعمال تلك الانجازات الاستعمال الصحيح لخير الانسانية فى حدود أخلاقية السلوك المستمدة من الدين ، فكل حضارة مهما بلغت من السمو بلا ايمان هى حضارة تدمير ، حضـــارة حيوانات متصارعة فى غابة النتيجة الحتمية لتصارعها أن يدمر بعضها بعضا لغياب الوازع الخلقى ، الذى لا يأتى الا من الدين .

ان المقياس الحقيقى لعظمة الانسان هو مقدار تأثير ابداعاته المادية فى مشاعره وعواطفه وكيانه النفسي ، فاذا استعملها للسمو بالانسانية فهى مظهر عظمة صادقة . وان استغلها فى سبيل الفتك والقهر والاثرة والانانية والاستغراق فى الملذات فهى مظهر انحطاط وانهيار .

ولذا فاوروبا التى تسنمت ذرى العلم وآفاق المعرفة والقــوى المــادية وضخامة الانتاج مما لم تعرف له الانســانية مثيلا من قبل ، هى أوروبا الهبوط الاخلاقى والروحى الذى لم تعرف البشرية مثيـــلا له ، كذلك ، من قبل .

ولذا تبقى العقيدة هى الملجأ الوحيد فيما يحيط بالانسان منظلمات .. تندثر الحضارات المادية وتبقى العقائد ، تنهار المدنيات المــادية وتبقى الاخـــلاق ..

وهل ترى استطاعت جميع الحضارات بما فيها ذروتها وقمتها الحضارة الاوروبية أن تغير الحقيقة الازلية الثابتة ، وهى أن البشر جميعا من اصل واحد ونفس واحدة ؟

ان مزية الانسان الحقيقية والأساسية هى القدرة على الضبط والارادة وحرية الاختيار ، والترفع عن دفعة الغريزة الحيوانية ، والقدرة على التذكر

والتخاطر والاستشفاف ــ كما يقول « الدوس هيكسلى » وهى الخصائص التى ميزته عن الحيوان ولم يستطع العلم أن يفسرها التفسير المرضى ، فاذا احتفظ بها فهو انسان سوى ذو أخلاق ، واذا انحرف عنها فهو ضال وخاطىء، ولو ظل فى خطاه مئات الاعوام ، ما دام فى كيانه ــ كما يثبت العلم ــ قدرة على تحقيق خصائص انسانيته ومزاياها .

لكن اذا كان ما وقع فى أوروبا من مآس اسرع بها الى مناهضة فكرة الالوهية ، فما الذى أصابنا نحن فى هذا الشرق ؟

هل قامت فينا كنيسة ترهقنا بالمفاهيم الخاطئة والاتاوات الثقيلة ؟

هل قامت فى تاريخنا الدينى كله عداوة بين العلم والدين ؟

ماذا أصابنا حتى نهضنا نغذ السير فى اثر الحضارة الأوروبية المهزومة ؟

اننا أحرص الناس على اقتباس وجه تلك الحضارة المضىء فى ابداعها المادى لكننا أكثر الناس كرها للانبهار بمظاهر الانفلات من وازع الدين وضابط الاخلاق ، والتفكير الدينى المنبثق من الايمان بالله .

والسبب فيما نحن فيه ان المستعمر لم يغز بلادنا وحدها بل غزا معها عقولنا وقلوبنا وأفكارنا ومشاعرنا ومبادئنا وقيمنا فأصبحنا نقلد الغرب المستعمر ، تقليد القردة أو تقليد العبيد !

ان من يطالب منا اليوم بالعودة الى الشريعة الاسلامية التى كانت تجربة حكم فريد فى تاريخ الانسانية يتعرض للتنقص والزراية ، ويتهم بالرجعيــة والتخلف .

ان أعداء الاسلام يخافون تطبيق الشريعة التى تفضح قوانينهم الوضعية ، وقد تأثر بهم نفر من ابنائنا الذين نشأوا فى أحضان مدارس الارساليات التبشيرية ، وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية الاوروبية التى يتولى فيها أساتذة يهود تدريس تاريخ الاسلام والعقيدة الاسلامية والشريعة الاسلامية ، فيزرعون فى نفوسهم مختلف الشكوك والشبهات فى دينهم وعقيدتهم بما يدخلونه فيها من تحريفات وتشويهات وأراجيف ، وأكاذيب ، ويعود الينا ابناؤنا وهم اشد عداوة لدينهم ، وتضع المقادير بعضهم فى المراكز القيادية ، ليسوقوا أمتهم الى الهزيمة والعار . وكثيرا ما تلقى معظم هؤلاء يتساءلون : كيف يمكن أن يطبق اليوم فى دولة عصرية متحضرة قانون وضع قبل أربعة عشر قرنا لمجتمع بعينه فى زمان بعينه ؟ أليس من الحماقة أن يعتقد أن ذلك القانون يصلح لكل زمان ومكان ؟ مع التطور الهائل الذى شهدته الانسانية ، خاصة فى هذا القرن الأخير ؟

وهل يجوز فى عقل أو منطق فى عصر العلم والحضارة والنور والتقدم أن تقام الحدود البربرية الهمجية كالجلد والرجم وقطع الايدى ؟

هذه الاسئلة وأمثالها تطرح اليوم فى الساحة العربية بل فى الشعوب الاسلامية على ألسنة أبنائنا الذين افتتنوا بالثقافة الاوروبية ، وانجرفوا فى

تيار الشبهات والاكاذيب التى تلقوها على أيدى دهاقنة الصـــهيونية فى الجامعات الغربية والامريكية .

والسبب فيما يعانيه الاسلام على يدا ابنائه قبل اعدائه ، ان هؤلاء الابناء مع الاسف الشديد لا يعرفون عن الاسلام كثيرا أو قليلا ، ويقيسون مبادئه وقيمه ومفاهيمه بما هو سائد اليوم فى ديار العروبة والاسلام ، من ضياع وفراغ وجهل وتهتك وفجور ، ولذا يعتقدون أن لا سبيل الى النهوض الا بالانسلاخ عن الدين كما أنسلخت أوروبا واقتباس الحضـــارة الأوروبية بمحاسنها ومساوئها على السواء ، وبما اننا عاجزون عن الأخذ بالمحاسن فاننا نكتفى باقتباس القاذورات الأخلاقية ، وفلسفات الرفض والتمرد والعبث والتشنج ، وقصر حاجة الانسان على الخبز والجنس والافيون !

ونتيجة للاستعمار الذى القى بظله على معظم البلاد الاسلامية عقودا طويلة من الزمان ، انطوت الشريعة الاسلامية وتقلصت واقتصرت فى معظمها على تنظيم الأحوال الشخصية ، أما فيما عدا ذلك فقد اخذت القوانين الغربية بالتبعية والارهاب الفكرى والتقليد الاعمى لتطبق فى بلاد المسلمين ، وانقسمت المحاكم الى قسمين : محاكم مدنية تتبع شريعة الغرب الوضعية ، ومحاكم شرعية تقتصر صلاحياتها على الأحوال الشخصية كالطلاق والارث والنكاح ، ويقوم على شؤونها فى معظم الأحوال رجال جاهلون عاجزون عن مسايرة الزمن ومواكبة الحضارة ، قد اتخذوا الدين وسيلة للتكسب ، وقصروا تقصيرا مخزيا عن تقديم الشريعة الاسلامية فى ثوب علمى موضوعى سهل التناول يجلو مبادئها ويوضح حقيقتها وغايتها وطبيعتها ويكشف كنوزها الدفينة وما هو الدائم الثابت القطعى ، وما هو الذى يقبل التغير والتطور والنمو ليوائم مشاكل الزمان والمكان المستجدة ، ويصبح ضامنا لسد حاجات المدنية الحديثة . ويفضحون المثالب والشبهات التى دست فى التشريع تآمرا وغدرا ، بأسلوب منهجى يغرى شبابنا بدراسته ومقارنته بالقوانين الوضعية .. ونحن على يقين ان ذلك لو تم على وجهه الصحيح ، لاقتنع الأبق والمائق بامكان بل بضرورة بل بحتمية اقامة نظام اسلامى على أســـاس الشريعة الالهية ، لأن ذلك لا يحل مشاكل المجتمع المسلم وحده ، بل هو كفيل بمعالجة المشاكل المستعصية التى تشكو منها الانسانية كلها .

ان مشكلة التبعية والانبهار بالثقافة الغربية خيرها وشرها التى تعانيها مجتمعاتنا ودولنا وحكوماتنا الجاهلة اليوم ، مردها الى أنه عندما هزم الدين فى أوروبا ، برزت النزعات القومية العرقية ، خاصة وان حركة الاصلاح الدينى كانت مشوبة بالروح الوطنية ، وانتقلت العدوى بعـــد الاستعمار الى الشرق . فتمزق العالم الاسلامى والأمة الاســـلامية الى كيانات اقليمية قومية ، وأصبحت شعوب هذا الشرق المواجهـــة لأوروبا اشتاتا لا يؤلف بينها رابط ولا يجمع شملها شعار حتى لتكاد دعوة القومية العربية والوحدة العربية فى اطار التضامن والتكتل الاسلامى ، التى هى صفة هذا العصر ، تكاد أن تضيع فى ضجيج الكيانات العربية الهزيلة التى اقامها المستعمر فى شطئان البحر الابيض المتوسط الشرقى والجنوبى ، وفى الجزيرة العربية ، تلك الكيانات التى أصبح عددها اليوم ثمان عشرة دولة أو تزيد ، واخشى ما نخشاه ان يؤدى استمرار الصراعات الايديولوجية

فى الساحة العربية الى تكريس هذا التمزيق الاستعمارى فنرى فى المستقبل ، أمة مصرية ، وأمة عراقية وأخرى سورية ورابعة لبنانية فينقية ، وعلوية ودرزية الى آخر ذلك وهو ما تخطط له الصهيونية والاستعمار !

ان من يعادون الاسلام من أبناء المسلمين انفسهم باعتبار ان ما جرى فى الدولة العثمانية وما يجرى اليوم فى بعض الدول الاسلامية يمثل الاسلام ، انما يفعلون ذلك بدافع حقدهم على الاسلام من جهــة أو تقليدا للفكر الاوروبى .. من جهة أخرى .

وعلى الرغم من انسلاخ المجتمعات الاوروبية اثر النهضة عن الدين بل عن كل دين ، فقد ناصبت أوروبا المسيحية الاسلام العداء الظالم المتجنى منذ ميلاده ولم يمنعها بعدها عن الدين من أن تتعصب وتتجمع لمحاربة الاسلام تحت ستار التدين الزائف ، وهكذا كانت الحروب الصليبية مسرحا للتنفيس عن الحقد الدفين والعصبية الذميمة البعيدة عن مسالك الحق ، فارتكبت فيها من الموبقات والمخازى الوحشية ما لا مثيل له فى تاريخ البشرية .

وما تزال أوروبا تلقن ابناءها تاريخ الحروب الصليبية فتثير فيهم الحقــد ضد المسلمين ، وتتلون عواطفهم الدينية بالكراهية للاسلام مهما ضعفت العقيدة فى نفوسهم ، ومثل هذه الجفــوة موجودة كذلك بين المسيحية واليهودية ، لكن اليهود ــ كما ذكرنا من قبل ــ يدركون الوسائل المؤدية الى ازالة هذهالجفوة ، وكيف يستبدلون بهاالعطف على قضاياهم السياسية، بالتدلل الى اكبر المؤسسات الدينيه المسيحية ، واستغلالها لدعمهم ونصرة باطلهم ، ... بل بمحاولة القضاء المبرم على بقايا التدين فى نفوس المسيحيين .. بينما قصر المسلمون من ناحيتهم بدرك ذلك وعجزوا عن اقناع الغربيين بأن دوافع الحروب الصليبية كانت دوافع استعمارية أو مبنية على الهوس الدينى المنحرف عن مساره الصحيح ، وان الاسلام هو توأم المسيحية ، وأننا كما ندعو المسلمين الى انبعاث اسلامى جديد ندعو المسيحيين الى انبعاث دينى ، يحقق التعاون بين الديانتين السماويتين لمواجهة الالحاد الذى أخذ يسد علينا وعليهم منافذ الافق !

يقول « بريفولت » فى كتابه « بناء الانسانية «Making of Humanity
« لقد كان العلم اهم ما جاءت به الحضارة الاسلامية ، وليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبى الا ويمكن ارجاع اصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، وكانت أظهر ما تكون فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى » . ولقد كان احتكاك الغرب بالشرق عن طريق الحروب الصليبية واسبانيا من اهم العوامل فى بروز النهضة الأوروبية ومولد الحضارة الغربية . وهذا الاحتكاك وذاك هما الاب الشرعى لتلك النهضة ، غير أن النهضة الاوروبية بدلا من اهتدائها بالمنهج الربانى الذى أنشأ الحضارة الاسلامية ، راحت تخاصم الاسلام بضراوة واستمرار الى اليوم والغد ، بدل أن تتعاون معه للوقوف فى وجه طغيان المادية والالحاد !

نخلص من هذا الذى سقناه بايجاز شديد الى أن الحضارة الاوروبية قامت فى عزلة عن المبادىء الروحية التى هى وحدها النبع الاصيل للالتزام

الاخلاقى الذى يأمر به الدين . ولذا وصلت تلك الحضارة الى قمم الابداع المادى كنتيجة طبيعية للتجربة العلمية التى هى قدر شائع بين كافة البشر ، لكنها انحدرت مع ذلك الى حضيض السلوك الاخلاقى . فاقامت حضارتها من الناحية الاخلاقية على جرف هار .

ولم تكن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها « لوثر ، وكالفن » وصحبهما تهدف الى رد الدين المسيحى الى نقائه وصفائه ، بل ادت الى ظهور النزعات القومية المختلفة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بفصل كنيستها عن كنيسة روما ، وبذا ازداد التمزق وتعمقت الشكوك والتناقضات ، اكثر فاكثر بين الدين والحياة .

وفى اعتقادى ان الاقليات اليهودية فى الدول الاوروبية ساعدت ايما مساعدة فى زرع تلك الخلافات والتناقضات تحقيقا لحلمها الكبير فى السيطرة على البشرية بابعادها عن مبادىء الدين وقيمه الاخلاقية ، تصديقا لما جاء فى التلمود : « ان شعوب الأرض هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعبه المختار » فجاء مخاض الحضارة الغربية فى محضن المعلمين اليهود من أمثال « فرويد وداروين ، وماركس » على أساس لا دينى هو نصف الطريق نحو تحطيم الأديان السماوية ومسخ اثرها فى النفوس لتبقى التوراة وحدها دستور الشعب المختار المسيطر على الدنيا باسرها . وبقى نصف الطريق الآخر الذى يتمثل اليوم فى الهجوم الشرس على الاسلام لانه القلعة الوحيدة التى بقيت صامدة فى وجه أحلام الصهيونية فاذا تم لهم اقتحام هذه القلعة سهل على شياطين التلمود ، أن يركبوا الحمير ! أليست أمريكا اليوم هى اكبر حمار تمتطيه الصهيونية الى اغراضها المشينة ؟

وهكذا آلت الحضارة الاوروبية فى وجهها الاخلاقى الى ماخور كبير يعج بشهوات الجنس وخدر الافيون بالرغم من فلق الذرة والنزول على القمر والوصول الى المريخ .. وجميع حركات الرفض والعبث والعدمية والدعارة والمجون التى تسود العالم اليوم ، مصنوعة من مقالع الصهيونية بأيدى حكماء التلمود الجدد الذين يسوقون الانسانية الى حتفها حين ينزلون بالطبيعة الانسانية الى مستوى الدواب !

وحصيلة ماذكرناه أن قول المبهورين منا بالحضارة الاوروبية القائلين بالعلمانية وعزل الدين عن الحياة هو قول من صنعت الصهيونية لهم اهواءهم وعقولهم وعواطفهم ومشاعرهم ، ليسهموا معها فى المؤامرة الراصدة للاسلام فى كل جهة ومن كل سبيل .

واذا كانت الكنيسة فى القرون الوسطى ، حين غفلت عن مبادىء المسيحية الأصيلة ، قد شنت حربا لا هوادة فيها ضد البحث التجريبى والمنطق العقلى والانجازات العلمية ، فان الاسلام لم يعان مثل هذه التجربة . فهو قد بارك العلم وزكاه ، بل فضله على العبادة وساوى بين مداد العلماء ودماء الشهداء ، وعلى هذا فان الفصام النكد الذى وقع فى أوروبا لا يصح قياسه على الاسلام .

ولقد كانت النتيجة الحتمية لغياب الالتزام الخلقى والوازع الدينى نشوء الأيديولوجيات الاوروبية المختلفة ، التى توشك أن تعلن افلاسها وفشلها الذريع . فالرأسمالية تعنى تملك فئة من الناس كل شىء على حساب جهود القطيع .. تتجمع الثروات فى أيد قليلة بالربا والاحتكار وتتمركز السلطة والتقنين والتشريع والقوة التنفيذية جميعا فى أيدى اصحاب المصالح المصرفية والصناعية يغتالون الناس وهم احياء ! أما فى دكتاتورية البروليتاريا ، فتتمتع قمة الهرم الحزبى بكل نعيم الأرض ، ويوزع الحرمان بالسوية على الجماهير المسحوقة !! بحيث اصبحت الحرية التى يتغنون بها هى حرية العبث والفوضى والانحلال الخلقى ... حرية الهروب من الواقع بتحويل الانسان الى ترس فى آلة أو رقم فى قطيع ! ..

فردية طاغية تدمر المجتمع .. وجماعية طاغية تدمر الانسان !

لقد قلنا ونقول دائما أن الابداع المادى هو وجه مشرق من وجوه الحضارة الاوروبية الشائهة المثقلة بالعار .

وقلنا ونقول أن العلم طاقة محايدة ليس خيرا فى ذاته ولا شرا بل اليد التى تستعمله هى التى تجعله خيرا انسانيا أو دمارا انسانيا . وقد نما التقدم العلمى صعدا من خلال تفاعل وتمازج الحضارات المتعاقبة ، وفق سنن التطور والنمو ، حتى تسلمته الحضارة الأوروبية عن طريق الحضارة الاسلامية فنمته وزادت عليه حتى تجاوز مدى الظنون والاحلام . وما تزال الكشوف العلمية تجيئنا كل يوم بجديد يلغى سابقه أو يزيد عليه ، وما كشفه العقل البشرى من أسرار الكون الى يومنا هذا هو جزء ضئيل من تلك العوالم الرحبة التى يقف العقل صاغرا أمام كنوزها الدفينة ، ومن الضعة ان يسد الغرور على العقل المسالك وهو ما يزال طفلا يحبو فى هذا الكون الكبير !

وخطيئة الحضارة الاوروبية انها بدل أن تصنع العلم لخدمة الانسان جعلت الانسان آلة فى الماكينة التى تطحن دون توقف ، فالعلم بلا قيم يسحق النفس البشرية بدل أن يكرمها ويلذها ويغنيها . وحين لا يكون هناك التزام أخلاقى ووازع دينى وضابط روحى ، تنطلق المادة كالمارد من القمقم تدمر كل شىء !

واذا نحن أخرجنا الانجازات العلمية من الحضارة الاوروبية ، ماذا يبقى لها وماذا يبقى منها غير الشر والفساد ، والظلم والطغيان والجنس والحشيش ؟ .. ان منهج الحضارة الاوروبية ماض دون هوادة فى تدمير خصائص الانسان بتحويله الى آلة أو حيوان ..

وحذار ان يظن بنا التنكر للعلم فى الحضارة الاوروبية ، لكننا نؤمن أن العلم التجريبى هو ملك الانسانية كلها ، وان الطريق اليه ميسور ، وأن تملك المعارف العقلية والتكنية هو واجب حتم على كل أمة تريد أن تدفع عن نفسها غوائل التخلف ، وتلحق بركب الانسانية وتأخذ مكانها فى التاريخ ، خاصة كأمتنا العربية التى تواجه اليوم معركة بقائها .. لكن هل يعنى هذا التفسير والتبرير من جهة أخرى أن تتخلى الأمة عن قيمها وعقائدها واخلاقياتها وتراثها ، ليسمح لها الدخول الى حرم « التكنولوجيا » ؟

هل فعلت اليابان ذلك ؟ .. بل هل فعلته اسرائيل ؟؟

بين المسيحية والإسلام

لعل الاصوب أن اجمل عنوان هذا الفصل ، « بين الكنيسة والاسلام » فالمسيحية والاسلام كلاهما فى يقينى ومعتقدي دين سماوى انزل على انبياء الله المرسلين لهداية البشرية ، فلا يمكن من ثم أن يقوم بين رسالتى السماء غير المحبة والمودة والتعاون والتحالف لمواجهة الالحاد والفساد وصيانة المصير البشري من الانهيار .. وهذا هو أملى العريض الذى ادعو اليه بعزم مشبوب ونية صادقة ، وكلى ثقة بأن مسار الخير لهذا العالم منوط بازالة رواسب الأحقاد التى تراكمت عبر القرون بسبب انحراف بعض رجال الكنيسة وبعض متزمتى العلماء المسلمين فى عهود الجهل والتخلف والظلام .

وأنا حين أقول الكنيسة ، اشير الى حقبة القرون الوسطى ، معتمدا على أبحاث المفكرين المسيحيين الغربيين ، فى استقراء تلك الحقبة واقتباس الدلالة التى تعين على صدق الرؤية لما أهدف اليه ، ووجه الحق أقصد ، وما توفيقى الا بالله .

وانه ليثلج صدرى ، ويغمر بالنشوة نفسي ، أن أرى اليوم تطلع رجال الدينين السماويين ، بنظرة مستقبلية شاملة الى ما يعمق الألفة المتينة ، ويؤكد التعاون الشامل ، لخير أبناء هذه السيارة .. سيارة الاوجاع والآلام .

ومن البوادر الموحية ، النداء النبيل الذى وجهه قداسة البابا الى المسلمين بمناسبة عيد الاضحى المبارك الأخير ، ثم جواب فضيلة شيخ الجامع الازهر ، برد التحية بمثلها ، فى الرسالة التى وجهها الى الاخوة المسيحيين بمناسبة عيد الميلاد المجيد ، فهما تعبران بحق وصدق عما يختلج فى نفوس جميع المؤمنين بالله .

واى شيء يبلغ من الصدق مبلغ دعوة قداسته الكريمة الى التخلص من أوهام رواسب الماضى ، لتمهيد السبيل لتعانق المسيحية والاسلام من خلال ايمانهما المشترك بالله ، لتحطيم الأصنام العصرية ، وهى المال والتسلط واللذة ، لان الايمان المخلص بالله ، هو وحده مصدر الثقة لتوفير المزيد من الحق والعدل والسلام .. وعندما نتلاقى ، نكتشف مع التعجب والفرح ، ان بعضنا قريب من بعض .

ونعود الى سياق الحديث

قلنا أن سبب النزاع بين الكنيسة والعلم فى أوروبا فى القرون الوسطى ، ان الكنيسة اعتنقت نظريات علمية معينة فرضتها على الناس أمورا مقدسة

مسلما بها وأن تلك النظريات هى من وحى السماء ، ولذا تصبح مخالفتها هرطقة وزندقة وكفرا ..

وحينما بدات النهضة ، واثبت العلم التجريبى بطلان النظريات العلمية التى احتضنتها الكنيسة ، احدث ذلك هوة بين المفاهيم العلمية الثابتة وبين الاكاذيب التى فرضتها الكنيسة ، وبالرغم من ذلك فقد تشبثت الكنيسة بمعتقداتها العلمية ، استئثارا بالسيطرة المطلقة على عقول الناس ، واخذت معارضيها بأقسى انواع التعذيب والحرمان !

لقد كانت رسالة السيد المسيح عليه السلام ، رسالة عقيدة تدعو الى تطهير الروح فى مواجهة التطرف المادى الرومانى ، والفساد الخلقى اليهودى، وكانت من سوء حظ الانسانية ، كما ذكرنا ، ان اختلطت هذه العقيدة السمحة بالوثنيات اليونانية والرومانية ، فاسفرت عن هروب المتدينين بعقيدتهم الى الرهبنة وقهر النوازع الغريزية فى الانسان ، وجعلوا من اقوال المسيح الرمزية ، فى دعوته السمحة الى المحبة والايثار ، دستورا واجب الاتباع ، ودعوة صارمة الى التشنج والشللية ، كقوله فى انجيل متى الاصحاح الخامس — العهد الجديد : « سمعتم أنه عين بعين وسن بسن ، أما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا ، واذا اعثرتك عينك فاقلعها والقها عنك ، فانه خير لك ان يهلك احد اعضائك من ان يلقى بدنك كله فى جهنم .. » أو قوله : « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون ، ومن طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير » أو قوله : « اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . ومن الجدير بالذكر أن بعض المفكرين الغربيين يعزون هذه الاقوال الى حواريى المسيح واتباعه ممن نشأوا بعد ذهابه بزمن طويل فى احضان الدولة الرومانية المستغرقة فى المخازى والشهوات !

وبهذا وقع الانسان الأوروبى — كما يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه : « الانسان بين المادية والاسلام » — بين احكام الضرورة ودواعى الفطرة من جهة ، وبين ضغط العقيدة التى توحى اليه أن الاستجابة لتلك الفطرة ، دنس يجب الابتعاد عنه ، وكانت نتيجة ذلك أحد أمرين ، اما الاستجابة لوحى العقيدة المحرفة ، بالانقطاع عن الناس وعن العلاقة العضوية بين الفرد والمجتمع .. واما الاستجابة لدفعة الجسد الملحة ، وانطلاقها الى آخر شوطها الحيوانى .. وينشأ بالضرورة صراع بين النقيضين يؤدى حتما للنزوع الى التخلى المطلق أو الانغماس المطلق ، وكلاهما يخالف الطبيعة البشرية والفطرة الانسانية .

أما فى الاسلام فلم يقع مثل ذلك الفصام بين الدين والعلم ، ولا مجال لوقوعه .. ولم يحدث مثل ذلك التناقض بين العقيدة ، التى التزمت بها الكنيسة وبين واقع الحياة ، اذ ان الاسلام يعترف أن الانسان ليس ملاكا ولا شيطانا ، وانما هو مزاج متناسق من كليهما ، ولذا فهو يبارك نوازع الانسان وميوله الفطرية ولكنه يهذب وينظم ذلك كله ، ويضع الحدود

للسلوك الانسانى ، فى اطار تحقيق مصالح الفرد ومصالح المجتمع على السواء !

ولقد كانت حصيلة وقوع الفـرد الاوروبى والمجتمع الاوروبى فى ذلك التناقض ، تجرد أوروبا بالنهضة العلمية من نير الكنيسة ومن سلطان الدين، وعادت الى انزعه المادية المطلقة التى لا تفهم غير الجسد ونزواته ، ولا تؤمن الا بالواقع المادى الذى تثبته الحواس ، وترفض كل ما لا تستطيع ادراكه ، ونشأت على انقاض الكنيسة والفكر الدينى فلسفات مادية تتمثل فيما نراه اليوم من رأسمالية وشيوعية وفوضوية وعدمية وغيرها ، واصبح العلم هو الاله الجديد ، مع أن ما حققه العلم من كشوف وانجازات ما هو الا جزء بسيط ساذج بالقياس الى ما فى الكون من أسرار ، فالعلم — كما قلنا — ما يزال طفلا يحبو ، وهو يصل كل يوم الى آفاق جديدة تلغى الغاء تاما نظريات كان ينظر اليها بالامس على أنها حقائق ثابتة لا تقبل الجدل والتاويل، ولذا لا يمكن قبول أى انجاز على أنه حقيقة ثابتة لا تخضع لنقاش أو تبديل.

يقول الاستاذ نصرى سلهب المارونى المسيحى ، فى كتابه « فى خطى محمد » : « لقد مرت الكنيسة منذ نشأتها حتى مطلع القرن السابع — مجىء الاسلام — بأزمات ومنيت بهزات ، وتعرضت لانقسامات تضافرت جميعها لتجعلها فى وضع أفقدها الكثير من حيويتها وفعاليتها ومضائها ، وحسبنا أن نمر سراعا ببعض أحداث ومحن ومآسى ، فنتبين انها ادت دون ريب الى اضعاف جذوة الايمان فى قلوب مسيحيى ذلك الزمن والى الحد من حيويتهم ونشاطهم الروحى ..

« فى طليعـة تلك المحن تبرز البدع والهرطقات التى هـزت الكنيسة واصابتها فى الصميم ، وجعلت المسيحيين يقتتلون ويتباغضون وينقسمون شيعا متنافرة » .

« من تلك البدع ، بدعة « دوناتيوس » عام ٣١٣ ، و « آريوس » كاهن الاسكندرية الذى تصدى لجوهر سر التجسد ، فأعمل فيه معوله ، وبدعة « المانوية » وبدعة « نسطوريوس » بطريرك القسطنطينية الذى تصدى لانكار الطبيعة الانسانية فى المسيح . وبدعة الطبيعة الواحدة التى قال بها الراهب « اتيخس » وبدعة « اكاس » أسقف القسطنطينية الذى تزعم حركة التمرد على كنيسة روما » .

« هذه البدع ادت الى اشاعة مناخ عدائى لبيزنطة فى أوساط كثيرين من مسيحى الشرق الذين تكتلوا حول الكنيسة المنشقة عن الكنيسة الام »

« أما مسيحيو الجزيرة العربية فى تلك الحقبة فكانوا من المنتسبين الى تلك الشيع المار ذكرها ، وبصورة خاصة ، كانوا « يعاقبة » نسبة الى « يعقوب برادعى » اسقف انطاكية والرها المتوفى عام ٥٧٨ . وقد التجأ اليعاقبة الى الجزيرة العربية هربا من الاضطهاد وطلبا للحرية وكان من القبائل العربية التى تنصرت : حمير وغسان ، وربيعة وتغلب ، واهـل نجران والحيرة » .

« هذه الازمات قد تكون فى طليعة الاسباب التى أدت الى انتشار الاسلام بتلك السرعة المذهلة التى ليس لها مثيل فى تاريخ الديانات والمعتقدات » .

« يقول : ــ دانيال روبس ــ فى كتابه « تاريخ الكنيسة » : « فى القرن الخامس كانت قوى التصدع قد بدات تعمل فى الامبراطورية الرومانية ، فكان الناس فى المقاطعات يكرهون الروم وموظفيهم الصلفيين ، وجباتهم الجشعين ، ويكنون نفس الكراهيه للاساقفه الذين كانت القسطنطينية تفرضهم ، ولذا كانت البدع التى ظهرت فى المسيحية المناسبة المنتظرة للجماعات الناقمة للافلات من النير ، ونشأت فى سوريا ومصر كنائس تعتنق فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح . واصبحت الفرق المسيحية ذات طابع قومى وطنى ، وانتشر الجدل اللاهوتى فى كل مكان ، ورافق الجدل انحلال خلقى يظهر بوضوح فى أحد مقررات مجمع « القبة » الذى ينص على تذكير الاكليريكيين بانه لا يحق لهم تملك بيوت البغاء . وتذكير المؤمنين بأن تعاطى الدعارة فى الكنيسة هو تدنيس لها » !

« وتميز ذلك المجتمع المهترىء بظاهرة أخرى شنيعة هى قساوة العقوبات التى تفرض على الخصوم فى المنازعات اللاهوتية كقطع الانف والأذنين واللسان ، وفقىء العينين ، والبتر بابشع الاساليب ، وغدت الاعدامات ملهاة شعبية متكررة فى عهد الامبراطور « يوستيانوس الثانى » حتى أن قديسين حقيقيين ، كالبابا القديس « مارتن » أو القديس « مكسيموس المرشد » قد عوملوا بمثل تلك الاساليب القبيحة » .

« وساعد ذلك التمزق على عودة الطقوس الوثنية القديمة الى الظهور ، كجلسات الفجور ، واعياد الدعارة والأضاحى للاله « باخوس » وعيد الربيع ، وانتشر السحر والشعوذة » .

« وكان معظم المسيحيين الشرقيين فى نظر الكنيسة الرومانية والسلطة البيزنطية هراطقة منشقين باعتبارهم غير متقيدين بأحكام قانون ايمان «نيقيا» الذى حدد المعتقدات بصورة نهائية حاسمة ، ولذا تعرضوا للاضطهاد المستمر فضلا عن اضطهاد اليهود على أساس التمييز العنصرى » .

« ومن الثابت الذى لا جدال فيه أن الفاتحين العرب وجدوا حلفاء لهم بين أولئك الذين اضطهدهم « هيرقليوس » ، وأصبح اليهود رواد الفاتحين العرب . وهكذا ايضا كان شأن القائلين بالطبيعة الواحدة بلسانهم : « أن اله الثأر ، ارسل لنا العرب ليخلصونا من الرومان » :

« وفى مصر اقدم البطريرك القبطى « بنيامين » الذى طرده الامبراطور ، على عقد اتفاق صلح مع العرب الفاتحين ، يقضى بأن تعاد اليه أموال الكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة التى حاربها « البيزنطيون » متعهدا لهم لقاء ذلك بتأييدهم ومناصرتهم مع المسيحيين الخاضعين لسلطانه الروحى ، كما فعل بطريرك القدس « صفر ونيوس » . ذلك لأن المسلمين قد أظهروا من التسامح الدينى ما لم يظهره شعب منتصر عبر التاريخ » .

« ان تلك الرواسب جعلت المسيحيين الغربيين ، يرون فى الاسلام عدوا للمسيحيين ، ومثل هذا الشعور الخاطىء لا يخالج المسلم اطلاقا ، فالمسلم اذا كان مسلما حقيقيا ، لا يمكنه أن يشعر تجاه المسيحى الا بالمودة والمحبة ، ذلك لأن القرآن ، وهو كلام الله يأمر باكرام المسيح ومريم والمسيحيين ، وبمحبتهم . لكن المسلم ، مسلم اليوم ، يحمل على منكبيه وفى خاطره وعقله وقلبه ركاما من آثام واخطاء وعداوات واعتداآت ارتكبها الغرب المسيحى بحقه ، وبحق الاوطان والشعوب العربية وهى باكثريتها الساحقة مسلمة . وتشاء الاقدار أن يقف بعض مسيحيي هذا الشرق الى جانب الاجنبى الغربى المستعمر ، لا لسبب الا لأن هذا المستعمر مسيحى مثلهم . والمسيحيون فى لبنان بصورة خاصة ، وقفوا فيما مضى ، ويقفون حاليا هذا الموقف لأن الغرب المسيحى توصل بدهائه وأحابيله الى ايهامهم بأن مسلمى الشرق العربى يرومون تذويب لبنان فى المجموعة العربية الاسلامية » .

« ولا ننس المؤلفات الغربية عن محمد والاسلام ، فمعظمها تنفث السم ، سم التفرقة والتعصب الطائفى بتؤدة وفطنة ، فيتغلغل رويدا فى دمنا ، فاذا بنا مخدرون لا نعى .. واذا الذى يكتبه اولئك المؤلفون — المغرضون — يغدو فى رأينا حقيقة لا جدال فيها . كما اننا فى هذه الحقبة من تاريخنا بالذات نرى من واجبنا أن ننبذ وسائل الاعلام الصهيونية ، التى تفعل فى نفوسنا وخواطرنا ، فعل الخميرة فى الدقيق .. خميرة فاسدة نتنه مثقلة بالحموضة .. ويجدر بنا والحالة هذه أن نتعرى من رواسبنا المتوارثة . فالاسلام والمسيحية لم يقتتلا ولم يصطدما الا لأسباب سياسية زمنية ، ولقد توصلت معظم الدول الغربية فيما مضى الى استغلال الدين بحقن رعاياهم بذلك السائل المسموم ، فجعلها تفور لدى التلفظ بكلمتى مسلم واسلام » !

نستنتج مما سقناه فى هذا الفصل ، ان عداء المسيحية الغربية للشرق ، لا يقتصر على مسلميه ، بل يشمل مسلميه ومسيحيه على السواء ، بسبب انصهار اخواننا المسيحيين العرب فى الحضارة الاسلامية ، وشعور الاكثرية الساحقة منهم ، بشرف الانتماء الى تلك الحضارة . أما الاقلية التائهة التى غسلت الصهيونية عقولهم وزرعت فى نفوسهم الحقد الاسود على الاسلام والمسلمين ، فهم الرواد الاوائل لمؤامرة التبشير والاستشراق ، والغزو الفكرى ، التى عملت منذ استقلال الديار الشامية على نقل خمائر المذهبيات الاوروبية الى الساحة العربية ورفعوا شعار القومية ليتسنى لهم تحت ستار هذا الشعار المحبب الى نفوس الشعوب العربية بعد انفصالها عن السلطة العثمانية ، ثم جلاء الاستعمار عنها أن يطعنوا الاسلام فى الصميم ويشوهوا حقيقته فى نفوس معتنقيه ، بعد أن طغى على تلك الحقيقة ما طغى من أتربة عصور الجهل والظلام والتمزق ، بحيث انطمس التهاب المضىء فى ضباب الشبهات الاسرائيلية ومخططات التبشير والاستشراق !

ولابد لاستكمال هذا البحث من القاء نظرة مقارنة على مظاهر ذلك العداء الذى بلغ مده المفجع فى الحروب الصليبية ، ثم انطوى فى الصدور حقبة من الزمن فى عهد الخلافة العثمانية ، ولم تكد تلك الخلافة تخرج من الحرب العالمية الأولى محطمة ، مشلولة حتى كثرت المؤامرة عن أنيابها ، وتوسلت الى أهدافها بأسلوب جديد عن طريق الغزو الفكرى واغراق هذه المنطقة فى الصراعات العقائدية الوافدة تمهيدا لانطلاق المد الاستعمارى ، تواكبه

الصهيونية العالمية ، للاطباق على الاسلام من كل جهة ، والقضاء المبرم عليـه .

لقد استمرت الحروب الصليبية بشكل أو بآخر ضد العالم الاسـلامي وضد القطاع العربى منه على وجه التخصيص لمنع بزوغ الحضارة الاسلامية فى انبعاث جديد .. وليست الحركة الصهيونية اليوم الا صورة مكررة لمحاولة الصليبيين انشاء مملكة القدس على اشلاء الاسلام .. وهكذا يظهر لنـا بوضوح ان العلاقة بين العالم الاسلامى ، وجبهته المتقدمة العالم العربى ، وبين موجات التوسع والسيطرة الغربية هى أقدم التناقضات فى ميـدان الصراع الدولى ، واكثرها تعقيدا ، واشدها ضراوة وغرضها الأول والأخير الحيلولة دون تمكين الحضارة الاسلامية من المشـاركة كعنصر شـديد الفعالية والتأثير فى تكوين مستقبل أفضل للانسانية وهو تناقض حضـارى مفتعل يشترك فيه الاستعمار الشرقى والغربى مع الصهيونية العالميـة ، معتمدة على تمزيق القاعدة الفكرية لشعوب هذه المنطقة وتدمير الخلفيـة الدينية ، وعلى الحركات الأيديولوجية المجلوبة لتكريس التمزق السـياسى والفكرى والتنكر لجذورنا التاريخية ، وأصولنا الحضارية .. وافسـاح المجال لسيطرة الحضارة الغربية على شعوب وقوميات الشرق كهدف سياسى يوازى الهدف الاقتصادى بنهب ثروات تلك الشعوب والقوميات ، المجـزأة الى تكوينات سياسية اقليمية مهترئة لا حول لها ولا طول ، ولا أمل فى بقاء !

ونعود الى سياق بحثنا المقارن ..

لقد نجم عن تلك الرواسب والتناقضات والأحقاد التى اشرنا اليهـا ، بروز محاكم التفتيش فى أوروبا لاضطهاد البروتستانت واليهود فى أسبانيا بعد الجلاء العربى عنها ، بعنف وقسوة ، لم يعرف الضمير الانسانى مثيلا لها ، وكذلك فى المذابح الجماعية التى جرت فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر ، وشارل التاسع ، وحفل تاريخ تلك المحاكم بمآس وويلات رهيبـة على أيدى قضاة من الكهنوت .

وتلا ذلك الغزو الصليبى الذى استغل الهوس الدينى للقضاء على الاسلام والكنيسة الشرقية على السواء .

وحينما كانت أوروبا المسيحية تحرق الناس باسم الهرطقة والسـحر ، وتذبح اليهود والكافرين من البروتستانت ، كان ملوك الاسلام يعاملون رعاياهم من غير المسلمين ، باسمى معانى التسامح الأخلاقى .

وبينما كان اختلاف المذاهب فى الغرب جريمة يعاقب مرتكبها بالحـرق كان ذلك ــ كما يقول السيد أمير على فى كتابه ــ روح الاسلام ــ مجـرد صـدفة !

كلنا نعرف كيف تم فتح القدس على يد الخليفة عمر ابن الخطاب ، وكلنا قرأ بلذة وشغف عهده الى البطريرك « صفرونيوس » وما تضمنه من تسامح منقطع النظير .. أما حين احتل الصليبيون مدينة القدس فقد كانت امخـاخ

الأطفال الصغار من المسلمين تلتصق بالجدران وتسحق جماجمهم ، والنساء يمزقن على آلات الحصار ، والرجال يشوون على النار .. أما اليهود فقد سيقوا الى كنيسهم حيث أحرقوا دفعة واحدة . وفى مذبحة من المذابح ازهقت أرواح ما ينوف على سبعين الف انسان !

وحين استعاد صلاح الدين المدينة ، أطلق سراح جميع المسيحيين وزودهم بالمال والطعام وسمح لمن يشاء منهم ان يغادر المدينة بأمان !

وكانت مقاومة سلطان الكنيسة على الدوام خطيئة مميتة ، وربط رجال الكنيسة قضية مصيرهم مع أولئك الذين لعنهم المسيح عليه السلام — الأغنياء والطغاة والاقطاعيين والملوك الظالمين . أما غير المسيحيين فقد كان مظهر التسامح الوحيد معهم هو الموافقة على بقائهم فوق الأرض . فاذا عاشر المسيحى غير مسيحية أو العكس كان جزاؤه الحرق .. وكان لا يحق لليهود أن يأكلوا ويشربوا او يجلسوا على نفس المائدة مع المسيحيين أو أن يتخذوا زيهم . وكان أطفالهم عرضة للموت أمام أعينهم ، وأموالهم عرضة للنهب والسلب ، وفق مزاج الأسقف أو البارون . ودام الحال حتى نهاية القرن السابع عشر » !

ولا تقتصر المقارنة بين تسامح المسلمين وغيرهم مع البلاد المغلوبة على هذه البرهة أو تلك بالذات ، بل تشمل المقارنة كافة العهود والعصور .

يقول الأستاذ سلهب فى كتابه الجليل « فى خطى محمد » : « فى عام ١٥٧ ق . م هاجم الملك « انطيوخوس الرابع » أورشليم ، وهدم أسوارها وانتزع من الهيكل ما يحتويه من كنوز وجواهر ، قتل آلاف اليهود ، ومنع ممارسة الطقوس الدينية » .

« وفى زمن « نيرون » عهد الى قائده — فسبازيان — قمع الثورة الاولى سنة ٦٧ — ٦٨ م .فدمرت يافا بكاملها ، وجاء بعد هذا القائد ابنه «تيطس» فشدد الحصار على أورشليم مدة خمسة اشهر انتهت فى أيلول سنة ٧٠ فاتفق اليهود المحاصرون على ابادة أطفالهم ونسائهم ثم ابادة أنفسهم ، وهكذا كان ومن سلم منهم فتكت به سيوف الفاتحين ، وهدمت المدينة وأحرق المعبد » .

« وما أنزله الرومان بالمسيحيين يعادل ما نزل باليهود من ويلات وأهوال وتعذيب وتقتيل فى عهود الاباطرة « نيرون » و « دومسيانوس ، وساويرس ، داسيس ، فاليريانس ، وديقليانوس » .

« أما البيزنطيون ، فقد بدأ الامبراطور « ثيدوسيوس ٣٧٨ — ٤٩٥ » باصدار أمر فحواه : ان جميع شعوب الامبراطورية ينبغى أن يعتنقوا الديانة المسيحية ، ونتج عن هذا الأمر الغريب ، حملات من الاضطهاد والتعذيب والقتل لمن يأبى اعتناق الدين الجديد » .

« ولم يقتصر الأمر على غير المسيحيين ، اذ لم يكن يكفى أن يكون المرء مسيحيا ، بل كان محتوما عليه أن يؤمن بالمعتقدات التى تحددها المجامع

المسكونية والاقليمية ، وهكذا يتبين ان المسيحية حين اصبحت دين الدولة ، واعتنقت الامبراطورية البيزنطية هذا الدين ، فرضته على الناس بحد السيف ، وبشتى وسائل الارهاب ، وهكذا ارتجل الحكام انجيلا خاصا بهم يخالف انجيل السيد المسيح ، حل فيه السيف محل المحبة والمودة والتسامح ».

أما الاسلام فقد أعلن منذ اللحظة الأولى المساواة العملية بين البشر ، والغى كل امتياز طبقى ، وبمجيئه انفصمت حلقات تلك السلسلة الرهيبة ، وتبعثرت أجزاؤها » .

« وكقاعدة عامة نجد ان المسيحيين واليهود المقيمين فى الديار الاسلامية قد عوملوا على اساس المواطنة الكاملة فى الحقوق والواجبات ، باستثناء الجزية التى هى بمثابة ضريبة الاعفاء من الجندية فى أعراف اليوم .. بل ان معنى الذمى هو الداخل فى ذمة الدولة الواجب عليها أن تصون كرامته ، وتحمى ملكه ، وتحفظ له الأمن والاستقرار ! ولذا لم يكن من المستغرب أن نسمع أن عدد الكنائس المسيحية واليهودية فى خلافة المأمون زاد عشرة آلاف .

وعند فتح مصر حافظ الخليفة عمر بكل تشدد على سلامة الممتلكات الموقوتة على الكنائس المسيحية ، وظل يدفع المساعدات المرسومة للكهان .

ودفعا لكل شبهة لم يكن يسمح للحاكمين المسلمين أن يتملكوا اراضى الذميين حتى عن طريق الشراء ، فوضعت القاعدة العامة التى تضبط هذا الأمر : « لا الامام ولا السلطان يستطيع ان يجرد الذمى من ممتلكاته » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قولته المشهورة « دماؤهم كدمائنا » !

وعهود الفتح الاسلامية تثبت ذلك وتؤكده قولا وعملا .

ومعاهدات الصلح التى عقدها القادة المسلمون مع الأقطار المفتوحة ، تضىء صفحات التاريخ ، وهى أشهر واكثر من ان نذكرها بشمول لنكتف بتسجيل عهد خالد بن الوليد لأهل الشام شاهدا على ما نقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذ دخلها . اعطاهم أمانا على انفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بالخير ، اذا أعطوا الجزية » ومن الجدير بالملاحظة ان الجزية التى كان يجبيها المسلمون اقل من الضرائب التى يجبيها الرومان ، مع استثناء الذميين من دفع الزكاة التى كانت تزيد فى كثير من الاحوال على الجزية ، ذلك لأن الزكاة فريضة على المسلم لا على غيره ، وتلك هى المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات التى لم تستطع أن ترقى الى مستواها حضارات اليوم .

ولذا لا نعجب حين نجد اهل حمص يخاطبون المسلمين ــ كما جاء فى البلاذرى ــ قائلين لهم : « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » !

اما عن تسامح المسلمين فى الاندلس ، فيقول المستشرق « ستانلى لين بول » ، فى كتابه : « حكم المسلمين فى اسبانيا » : « وما من شـك فى أن حكم العرب كان افضل من حكم من سبقوهم من القوط ، وكانوا اقـدر أهل زمانهم على تصريف شؤون الدولة ، فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة. وكان أهل البلاد يحاكمون فى معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين منهم ، وكانت الضرائب معقولة اذا قورنت بما كانت تفرض روما أو بيزنطة . وقد اطلق الحكام لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة ، وكان المسلمون والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بمطلق حريتهم ، ويشتركون جميعا فى الأعياد المسيحية والاسلامية ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجدا ، وكان رجال الدين المسيحيون يفدون من كل أقطار أوروبا الى الأندلس ليتمتعوا بالأمن والحرية والراحة فى طلب العلم» .

يقول « ديورانت » فى كتابه « قصة الحضارة » : كثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين » .

ويقول « جب » فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الاسلام » أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية ، وعن طريق هذه الملاحظات وصـل المنهج التجريبى الى أوروبا فى العصور الوسطى » .

ولذا حينما أطل عصر الاسلام رحبت به الجماهير المسحوقة التى وجـدت فيه انقاذا لحرياتها ، وضمانا لسلامتها ، وتحريرا لها من ربقة العبـودية والـذل .

والحق أن معارك القادسية واليرموك واجنادين وغيرها كانت ايذانا بخلاص المحكومين الذين تنفسوا الصعداء لقدوم الجيل الجديد ، ذلك الدين الذى يبشر قولا وعملا بما تضمنته الأديان السابقة فى صورتها الأصلية ، ويجعل مفتاح دستوره الأخوة بين الناس ، ولذا كان الناس يستقبلون المسلمين كمحررين لهم ، لا كغزاة فاتحين ، سواء فى المشرق أو المغرب .

ومن سخرية القدر أن اليهود الذين كانوا مضطهدين محتقرين تنهب أموالهم ويعاملون بوحشية من قبل الأمم المسيحية المتنكرة لتعاليم المسيح ، قد وجدوا ملجأ أمن وسلام وحرية فى الاسلام ، كما يقول المؤرخون الغربيون .

ولم يك الأمر مقتصرا على معاملة الذميين بروح التسامح التام والمواطنة الكاملة ، بل فسح لهم المجال للمشاركة فى حمل أعباء الدولة مشاركة فعالة فاسندت اليهم أكبر المراكز وأخطرها كشؤون المـال والادارة والدواوين والتعليم . والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى فى كتاب ، منها انه فى عهد بنى أمية نبغ فى دمشق كاتبان مسيحيان لجآ اليها هربا من اضطهاد اخوانهم فى الدين وهما « يوحنا الدمشقى ، وثيودور أبو قارة » وكان لجدلهمـا الفلسفى أكبر الأثر فى نمو الاتجاهات الفلسفية بين المسلمين .

ولم يقتصر الأمر على المراكز المـار ذكرها ، بل شمل القيادات والولايات فى العهود الأخيرة ، فقد كان يعهد الى القادة الهندوس ، قيادة جيـوش

المسلمين طوال حكم المسلمين فى الهند ، ويولونهم الحكم فى الولايات والعواصم .

يقول « أميل درمنجهايم » فى كتابه « حياة محمد » ترجمة الأستاذ عادل زعيتر : « كان محمد يرى فى النصارى الحلفاء الذين يؤيدون ما يقول ، ويؤمنون بالحق الذى يدعو اليه ، وكان يصرح أن رسالته مما بشر به الكتاب المقدس ، ولذا كان لا يالو جهدا فى أن تكون له أطيب الصلات بالروم والأحباش ، والمصريين ، مقتصرا فى الحملة على المشركين واليهود ، وقد أباح القرآن للمسلمين نكاح النصرانيات واحل للمسلمين طعام النصارى فكان ذلك دليلا على الأخوة الخالصة ، وليس بعسير أن يجد الباحث فى القرآن جميع الأصول النصرانية الصحيحة ، والقرآن حين يحمل على « التجسد والثالوث » لا يقصدهما ، بل يقصد ما فسرا به تفسيرا الحاديا ، فلا يذم مذهب القائلين بطبيعة واحدة فى المسيح ، بل هو يهاجم مذهبا خاطئا من فرق النصرانية التى كان يسودها التمزق والتبدد والخلافات الدينية حين ظهور الاسلام » .

« والقرآن حين قال ان الله لا ولد له ، فقد قصد المعنى الحرفى للكلمة اى معنى النسل المادى ، وعلماء التوحيد حينما قالوا بعدم خلق القرآن كلام الله ، لم يقولوا غير ما ذهب اليه النصارى بشأن الوهية المسيح الذى نعته القرآن بكلمة الله . وهذا ما لاحظه « يوحنا الدمشقى » فى القرن الثامن حينما قال : « اذا كنتم تقولون أن كلمة الله وروحه قديمتان فاننا نكون متفقين ، واذا كنتم تقولون انهما مخلوقتان ، فهل يقال اذ ذاك انه لم يكن لله قبل ذلك كلمة وروح ؟ » .

ومن عقائد الاسلام أن اليهود لم يصلبوا المسيح ، لما فى الصلب من معنى الخزى والاهانة ، ولكن شبه لهم ، وهذا يتفق مع راى بعض الفرق المسيحية التى تعتنق عقيدة « الشبهية » .

« ولعل هذا هو الحاجز الوحيد بين الاسلام والنصرانية ، مع اتفاقهما فيما عدا ذلك اتفاقا وثيقا ، ويمكن الملاءمة بين الفكرتين بما قاله آباء الكنيسة من أن اليهود انما قتلوا طبيعة المسيح البشرية ، لا المسيح كلمة الله . اى قتلوا الرجل الذى ربى فى حجر مريم ، لا كلمة الله التى عجزوا عن قتلها » .

ونزيد على هذا التفسير الذى قال به « درمنجهايم » أن بعض مفكرى المسلمين يقتحمون هذه الهوة بتفسيرهم قوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » أن المسيح قد صلب ولكنه لم يمت على الصليب ، وأنه عليه السلام قد أنزل عن صليبه قبل أن تلحق روحه بالرفيق الأعلى » .

ويتابع درمنجهايم قائلا : « وبذا يكون القرآن قد عارض فرق النصرانية الضالة ، لا النصرانية الصحيحة ، وانما الذى أدى الى نفرة المسيحية من الاسلام ما كانت عليه الكنيسة فى القرن السابع الميلادى من الفساد وانما عارض محمد صلى الله عليه وسلم فرق النصرانية الضالة التى لم يعرف غيرها . فقد كانت النصرانية حينذاك مجزاة البـ... ـيع متمادية منهمكة فى المجادلات العقيمة ، فمنهم من ينكرون طبيعة المسيح البشرية ، ومنهم من ينكرون الوهيته ، وهم الذين يقولون بالطبيعة الواحدة ، ومنهم

من يقول بطبيعتين او اقنومين ، ومنهم من يعبدون مريم ومنهم من يتهمها ، فلا يتفقون الا على امر واحد هو « ولادة المسيح » حتى لقد ضاعت شخصية المسيح فى خضم الأساطير » .

« ومع هذا فان التناقض الذى افتعل بين المسلمين والنصارى لم يكن سوى سوء تفاهم . وكان الغربيون أسبق من المسلمين الى احداث ذلك الخلاف ، فوصفوا الاسلام بأنه مجموعة الحاد ، وان المسلمين برابرة ووحوش ، وان القرآن نسيج من الأباطيل ومن عمل الشيطان ـ استغفر الله ـ واعتبروا محمدا عدوا للمسيح ولذا قام علماء المسلمين المتأخرين من ناحيتهم بالعمل على التفريق بين الديانتين » !

« فعلينا ان نحطم تلك الحواجز المصطنعة ، فكل وحى خاص يشدد فى امر . فالاسلام شاهد على وحدانية الله وعظمته وعزته ورحمته ، والنصرانية شاهدة على محبة الله ، والتعصب هو الذى يحول حماسة المرء لدينه الى الحقد على الأديان الأخرى » .

« لقد زاد سوء التفاهم بين الفريقين بالمطامع السياسية ، وكانت الفتوح الاسلامية جزاء مقدرا وخزيا كبيرا على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة ، وكان سلطان العرب غلا أكرهت به أوروبا على الصواب ، فكان ظهور العرب حافزا للنصرانية الى سلوك سبيل الاصلاح والترقى » !

وليس قصدى من ايراد هذه النصوص الخوض فى مناقشات دينية ، او التسليم بكل ما احتوته ، بل أردت ان اعلل وافسر رواسب الكراهية المفتعلة للاسلام باقلام مفكرين مسيحيين .. بينما يقف الإسلام من المسيحية موقف الصديق والظهير .. خلا نزوات طارئة لا يعتد بها فى بعض عصور التخلف بالقياس الى المؤامرات المستمرة التى تخطط فى السر والعلن لتقويض الاسلام وطعن المسلمين !

فالقرآن الكريم يقول : « ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » « عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير .. والله غفور رحيم » « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » .

ووصف القرآن المتقين بانهم الذين يؤمنون بما انزل اليك ، وما انزل من قبلك » أى الذين يؤمنون برسالتك ورسالة السيد المسيح عليه السلام ، وجميع الرسالات السماوية قبل أن يغيبها التشويه والانحراف .

ان وظيفة الأديان السماوية كلها الاقرار بالوهية الله وحده والايمان بحاكمية الله وحده ليكون ذلك مصدر الالتزام الأخلاقى الذى يحفظ الانسانية من الدمار ، ولذا قال محمد صلى الله عليه وسلم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وانتصار الانسانية انما يكون بمعرفة الفكرة الدينية واعتناقها وممارستها ، والالتزام الخلقى هو تجسيد للقيم السامية والمثل

العليا ، ولا يمكن أن يكون ذلك الا بالتطابق بين المعتقد والسلوك .. ولا يمكن ان يتحقق ذلك الالتزام الا بالدين .

وما أهون الخلاف بين الاسلام والنصرانية حين ينحصر فى قضية « الصلب » وهل ترى من مصلحة الفريقين المؤمنين بالله أن يجر خلاف شكلى كهذا الى كل ذلك العداء ؟ وكل تلك الدماء ؟ بينما تعاليم الدينين الأصلية ، انما ترمى الى ترسيخ الانعتاق الروحى وصيانة المصير الانسانى من الكوارث الراصدة له فى كل سبيل ؟

واذا كان من الممكن ايجاد المبررات للعداوة بين المسيحية واليهود نظرا لتاريخ اليهود الملىء بالعار ضد المسيحية ، فأية مبررات يمكن اختلاقها لتفسير عداء الكنيسة للاسلام الذى ينظر الى المسيح كنظرته الى محمد ، ويؤكد بتوليه مريم العذراء ؟

وعلى من أراد معرفة بعض الحقائق التى رواها التاريخ عن تجنى اليهود على المسيحية منذ التآمر على السيد المسيح ، وقبل ذلك وبعده ، فلينظر معنا فى الرد المفحم المبنى على نصوص العهد القديم والتلمود ، الذى وجهه الأب ميشال الحايك « تفنيدا لبيان اللجنة الأسقفية الفرنسية للعلاقات اليهودية ، الذى أشرنا اليه فى الفصول السابقة » .

يقول الأب المحترم : « ان الالتزام بحرفية الكتاب العتيق — العهد القديم — كان فى الأمس هو مبرر الصليبية ، وها هو اليوم يعود الى الظهور وقد تحولت اشارة الصليب الى نجمة داوود ؛ لقد أدى فى الأمس الى أسوأ الضلالات ، وفى وسعه أن يقود الى مثلها جيش المتطوعين المعاصرين . وتأويل اليهود لتجمعهم حول القدس انه باسم الايمان الدينى بركة من السماء بنى على أساس جدلية اختيار الشعب اليهودى ، ورذل الأمم الأخرى .. ومن قراءة كتاب « أعمال الرسل » ابتداء من قتل القديس « أسطفانوس » الى الاضطهادات التى أنزلت بالكنيسة فى مهدها .. الى استشهاد « بطرس وبولس » ، اللذين قتلا على ما يظهر وقتل معهما مسيحيون كثيرون اثر وشاية يهودية اتهمتهم باحراق روما أيام « نيرون » .. ثم تفننهم فى أساليب التنكيل بالأساقفة والبطاركة ، كما تفننوا من قبل عام ٥٢٣ بتحريق الجماعة المسيحية كلها فى نجران بالأفران .. أولئك الذين حفظ القرآن ذكرهم فسماهم « أصحاب الأخدود » .. ثمة تاريخ لليهودية فى الشرق مختلف عما عرفته مسيحية الغرب .. واذا كان مسيحيو الغرب يريدون أن يتوبوا عن عقدة اللاسامية فهل يريدون أن يجعلوا العربى هو البديل ؟ مع أن اللاسامية كما أبرزها كاتب يهودى حديث ، نشأت من مصادر الرفضية اليهودية ، والتقوقع اليهودى وازدرائهم بالأمم الأخرى » .

« فالأمم فى نظر اسرائيل دواب ، وبصاق ولا تستحق حمل اسم الانسان — سفر عزرا الرابع الفصل الخامس — « وستجمع الأمم عند ظهور المسيح فى أورشليم لكى تلحس التراب عن أقدام اسرائيل — اشعيا الفصل ٤٩ العدد — ٢٣ » .

« وكلمة الأمم تثير قرف « التلمود » الذى يعلم اليهود أن ليس عليهم وفاء عهودهم نحو الشعوب الاخرى . والمسيحيى عندهم يمثل صنفا من الاميين مكروها بنوع خاص ، فالتلمود ينكر عليه الحق فى أن يعامل بالانصاف والوفاء والاحسان بالاضافة الى الافتراءات السمجة التى وردت فى النصوص والتى تنعت المسيح باللقيط ! وتقذف مريم العذراء بالفجور ، وهناك المؤلف الصفيق المسمى » نسب المسيح ــ تولدة يشوع » ، الذى جمع كل تلك الشناعات والصقها بالمسيح وامه » .

ان تعليم الازدراء للأمم كان فى أصل العداء للسامية فى العالم الوثنى القديم ، واذا كان قد ظهر فى الوسط المسيحى ، فالسبب الأول هو فظاعة التجديفات التى وجهت الى المسيح وامه البتول ، اما اليوم فقد الغت الكنيسة الكاثوليكية من صلوات طقوسها فى يوم الجمعة الحزينة عبارة « لنصل من اجل اليهود اللؤماء » .

« من كثرة ما شهر اليهود بهذه العبارة ، وهم يعرفون ان لا اهمية لهذه العبارة ، وهى دعاء صلاة بالنسبة للقبائح التى صبوها على المسيح وامه » .
« ان ما حصلنا على التذكير بهذه الأمور الموجعة هى تلك الخدعة التى تفتك فى المسحيين من جراء الحملات الضخمة من قبل المشايعين لليهود ، فليكف هؤلاء اذن عن تحريف وقائع التاريخ ! » .

هذا وأمثاله هو الذى دعا الأب المحترم ان يصرخ فى محاضرة لهفى كاتدرائية « مار جرجس » المارونية ، فى اوائل نيسان سنة ١٩٧٣ : « نحن فى شرق مظلوم معسر ، متآمر عليه ، ساقط حقه ، وهو من الداخل مفككتعصف به التيارات والمذاهب والنزعات المتناقضة . لقد وصل الى طريق مسدود ، يريد ان يحرجه اعداءه ، ليعود الى « ثيوقراطية « القرون الوسطى ، طلبا للخلاص حتى اذا عاد فدعا الى الجهاد المقدس ، اظهروه للعالم مظهر التخلف والعصبية واللاتسامح . قد يكون هذا هو المقصد الخبيث من وراء ما يحيكونه له ليعزلوه عن بعض اصدقاء ظلوا أوفياء لقضيته فى انحاء العالم .. للسامعين من غير المسيحيين اقول : ان المسيحية التى تناقلتموها من مسيحيى الأمس ، والفتموها عند مسيحيى اليوم ، هى غير المسيحية الصافية » .

ولست أجد ما أختم به هذا الفصل ، خيرا من قولة كاتب مارونى آخر ، هو الأستاذ نصرى سلهب فى كتابه « فى خطى محمد » : « سياتى يوم نرجوه قريبا يردد فيه المسيحى العربى للمسلم العربى قول النبى : « المؤمن للمؤمن ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ولا يبقى فى الأمة العربية الا بشر مؤمنون بالله ، اكرمهم عند الله اتقاهم ، يعملون بوصايا الله الذى جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا » .

« والاسلام هو دين الأزمنة جميعا ، وهو قد اعد لجميع الشعوب ، ليس للمسلمين وحدهم ، وليس النبى هو نبى العرب والمسلمين وحدهم ، بل هو نبى كل مؤمن بالله واليوم الآخر والنبيين والكتب المنزلة . وفى الدين الاسلامى من الشمول ما يجعله يفتح ذراعيه لجميع البشر ، دون أن يؤثر فى ولائهم لأمة ينتسبون اليها ، ودون أن يؤثر فى ولائهم لدين يعتقدون . ولذا فان

الأوهام والظنون التى زرعها الغرب فى خواطرنا عبر الزمن الطويل ، باطلة ومدسوسة ، وليس من الكرامة فى شىء أن نتعرف الى ماضينا وتراثنا من خلال ما يكتبه الغرباء فحسب ، واذا نحن تغنينا بالحضارة الاسلامية فانما بالحضارة العربية نتغنى ، لانهما لا تكادان تختلفان جوهرا وواقعا وتاريخا ، وما علمتنا مسيحيتنا يوما أن نتنكر لأصلنا ، بل على العكس انها تريدنا أوفياء لأوطاننا وأمتنا ، ومن يخن وطنه يخن ربه . فليلج كل منا مسيحيين ومسلمين بيت عبادته كنيسة كان أم مسجدا ، وليعبد ربه وفق ما أوصى به كتابه ، ذلك ما يرضي الله فى ملكوته ، ولنخرج جميعا من بيوت العبادة لنلتف حول وطننا وامتنا ، قلبا واحدا وصفا واحدا ، فليس مؤمنا من يشرك بعبادة ربه أحدا ، وكذلك ليس مؤمنا من يشرك بولائه لوطنه وأمته شيئا » .

« ويا لطيب الكلمة تصدر عنك يا ابن عبد الله ، يا سيد الكلمة اطلاقا .. كلماتك الثلاث : « الكلمة الطيبة صدقة » فيها من العمق ما لا يسبر له غور ، اجل يا رسول الله ، بالكلمة الطيبة نطفىء نار جهنم ، لاننا بها نطفىء البغضاء فى القلوب ، ونمحو الأحقاد والضغائن » .

وليست هذه الدراسة الا كلمة طيبة تطرح على بساط المكاشفة والمناجاة ، والموادعة والتآلف ليس بين مسلمى العرب ومسيحييهم فحسب ، بل بين جميع المؤمنين بالله ، تجاوبا مع الدعوة الكريمة التى يبشر بها قداسة البابا بولس السادس وهى الدعوة التى ترمى الى توحيد صف المؤمنين بالله الواحد الأحد من مسلمين ، ومسيحيين ، شرقيين وغربيين للوقوف معا فى وجه الصهيونية والاستعمار ، وآلام البشر فى كل مكان .

بعد كتابة هذا الفصل اطلعت على دراسة فى مجلة « أوسرفاتورى رومانو » الناطقة باسم الفاتيكان ، تؤكد وتؤيد وتعضد اقوال الأب «الحائك» فيما يضمره اليهود للمسيحيين من عداء قديم ومستمر ، فقد ذكر الأب « تيستا » وهو من كبار خبراء التاريخ اليهودى والمسيحى ، انه خلال عمليات التنقيب الأخيرة فى قصر « هيرودس » الكبير قرب بيت لحم على آثار منقوشة تطعن فى الدين المسيحى وتمثل المسيح فى صورة حمار والمعتقد أن هذه الآثار قد نقشها حوالى عام ١٣٥ م ، أنصار « باركوخيا » وهو زعيم اليهود الذى ادعى النبوة وتمرد على الرومان . وقد ذكر الفيلسوف المسيحى « جوستان » فى القرن الثانى الميلادى ، أن « باركوخيا » هذا ، قد أمعن فى تعذيب المسيحيين الذين امتنعوا عن انكار السيد المسيح عليه السلام .

التبشير والاستعمار

يتفق معظم المؤرخين على ان الشر الذى بعثه الصليبيون(١) لم يقتصر على القتل والتدمير ، بل تعداه الى التجهيل والتضليل ، فقد نقل المهزومون الى أوروبا صورة مشوهة عن الاسلام وحقيقته ، وقيمه الاخلاقية ، وعقيدته السمحة وشرعته الالهية ، فاستقر فى عقلها الباطنى ان الاسلام دين شهوانية وحيوانية وعنف ، وقد تسللت هذه الصورة المشوهة الى ضمائر رجال الكهنوت والمستشرقين والمثقفين كحقيقة لا تقبل الحوار . وحين يقف الأوروبى اليوم موقف اللامبالاة أو الاهمال أمام الأديان ، فانه يقف موقف العداء السافر والكراهية المطلقة للاسلام ! فقد لا تقبل أوروبا تعاليم « البوذية » أو « الهندوكية » أو حتى « اليهودية » ولكنها تقف منها موقفا موضوعيا عقليا متزنا . اما حين تتجه الى الاسلام فيختل التوازن العقلى والتفكير الجدى ، ويعالجون الاسلام لا على انه موضوع بحث علمى ، بل كمتهم يقف أمام قضاته ، وبعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول اثبات الجريمة ، وتذكرنا اساليبهم المغرضة بأساليب محاكم التفتيش التى كانت تقوم على فكرة ثابتة مسبقة لا سبيل لمناقشتها ، وهى قداسة آراء الكنيسة ، وتكفير كل من يخالفها ، ولا مكان بعد ذلك للقرائن والادلة الحسية المنطقية والعقلية .. وهم يرون أن الطريق العلمى لبحث الاسلام هو انكار قيمه مقدما ، فمحمد ليس الا مصلحا دينيا ، وقرآنه صنعة بشرية ، ولذا فليس للقرآن من الحجية اكثر مما لراى اى مسلم أو تفكيره ، فتفكير الزنادقة والباطنية والصوفية مساو فى القيمة الدينية للقرآن والسنة ، لانها جميعا تصورات بشرية . وان المسلم فى كل عصر هو حجة على الاسلام فى سلوكه وأعماله والتزامه الأخلاقى .

ولذا يسرف المستشرق فى تمجيد التصوف الاسلامى ، لانه كما يزعمون يبتعد بالانسان عن فكرة الخوف من الله ، كما فى الاسلام ، الى فكرة محبة الله والفناء فيه ، وهو بذلك يقارب فكرة المسيحية التى تنظر الى الله كاله رحيم لا اله مخيف رهيب ، بعيد عن الانسان قاهر له متكبر عليه ، واستتباعا لذلك فهم يسوغون عقيدة الحلول والفناء عند الصوفية التى تدعو الى الرهبنة والانعزال والهروب من مشاكل الحياة ، صرفا للمسلمين عن فكرة الجهاد ،

---

(١) بعض الحقائق والمعلومات الواردة فى هذا الفصل مستقاة من كتاب « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » للدكتورين مصطفى الخالدى وعمر فروخ ، ومن مؤلفات أخرى للدكتور محمد البهى ، والاساتذة سيد قطب ومحمد قطب والندوى والمودودى وغيرهم كثير .

وتكوين الجماعة المؤمنة على أسس الترابط والتراحم والتكافل والتوازن بين الانسان والانسان وبين الأفراد ومجتمعهم المتناسق .

وخلاصة دعواهم تهدف الى امرين : الأول ابعاد الدين عن الحياة والسياسة ، وترك الحرية لضمير كل فرد ، يأخذ من الدين ما يشاء على هواه ، وهو ما جرت عليه اوروبا منذ عهد النهضة . والثانى أن احكام القرآن هى انعكاس للبيئة التى عاشها محمد فى برهة من الزمن بأبعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولذا فانما هى كانت لمكان وزمان معينين محددين ومن المحقق انها لا توافق كل الاماكن والأزمان . ولو ولد النبى فى غير جو مكة بمتناقضاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية لما قام بثورته (!) التى صادفت كل ذلك النجاح (!) . وبهذا تكون دعوة محمد دعوةبشرية مقصورة على اناس معينين فى ظروف خاصة لا دعوة الهية للناس أجمعين . وان تلك الدعوة قد استنفدت أغراضها ، وتطور الحياة ، يوجب تطوير الاسلام بما يتلاءم مع مقتضيات العصر ..

وبذا اسبغوا على الاسلام صفة المذهب الأيديولوجى الذى لاءم فترة معينة ، ولم يعد يصلح لهذا الزمان . وتمحل فريق منهم كافة التبريرات الخاطئة ليجعلوا الاسلام نزعة روحية تدعو الفرد الى الراحة والصفاء ، فلا علاقة له من ثم بالدعوة والمجتمع والحياة ، ووصفوا الدعوة الى التعاليم الاسلامية المستمدة من القرآن والسنة بأنها رجعة الى الحياة البدائية التى كانت للجماعة الاسلامية الأولى .

وملخص آرائهم أن الاسلام من صنع محمد ، وان القران تلفيق من بعض تعاليم المسيحية واليهودية ، أدخلت فيه تحريفات كثيرة لعجز محمد عن نقل مبادىء هاتين الديانتين من مصادرهما الأصلية ، وعدم قدرته على فهمهما وادراك مراميها !!

ولقد ساعد على استشراء هذا التزوير والتحريف ، تأخر المسلمين ، وتدهور مجتمعاتهم فى عصور الجهل والغفلة والظلام ، وضياع الق الدين وأصالته بين الخرافات والأساطير ، بين جهل اهله وعجز علمائه — كما كان يقول الشهيد عبد القادر عودة — وغياب المفكرين المبدعين الذين تعمقوا دراسة تراثهم ، واطلعوا على تطور الحياة الفكرية فى أوروبا خلال القرنين الماضيين ، وبروز الأيديولوجيات المختلفة المتناقضة مع القيم الخلقية والروحية الثابتة الخالدة .. ليتملكوا القدرة على مواجهة ذلك الغزو ومناقشته وتفنيده ، وتقديم صورة صحيحة واضحة لحقيقة الاسلام ومبادئه وتعاليمه بالحجة والدليل ، وفى أسلوب علمى عصرى سهل التناول لاقناع الجماهير الغربية بخطل تلك الأضاليل والاباطيل ، التى انبعثت من الهوس الدينى ، والشبهات الصهيونية ، والدوافع السياسية .

ونخشى لو نحن اردنا أن نقتبس كل مقولات المستشرقين والمبشرين ، أن يتسع أمامنا مجال القول الى غير نهاية لكننا نجتزىء منها اجتزاء الدلالة لا الحصر ..

يقول المستشرق الفرنسى « كيمون » فى كتابه « باثولوجيا الاســلام » :
« ان الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعـــا ، بل هو مرض مريع وشلل عام ،وجنون ذهولى ، يبعث على الخمول والكسل، ولا يصحو منهما الا لسفك الدماء والادمان على معاقرة الخمر . وما قبر محمد الا عمود كهربائى يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين » .

ويقول المستشرق المعاصر « ولفرد كانتول سمث فى كتابه :

Islam in Modern History ان الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الاسلام . وانه خلق اسرائيـــل فى قلب العالم الاسلامى كجزء من هذا المخطط المرسوم » ويقول : « ان العلمانية التركية التى قام بها « أتاتورك » هى حركة اصلاحية اسلامية ، وهكذا يجب أن يفهم الاسلام ! » .

وحين تم الفصل بين الدين والدولة فى أوروبا ، حدد الغربيون مفهـــوم الدين على أساس التوجيه الروحى للأفراد ، وحددوا مفهوم الدولة بتنظيم العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض من جهة ، وبين الأفراد والجماعة من جهة أخرى . فمجال الدين الدعوة الى صفاء النفوس ونقاء الضمائر ، وما خرج عن ذلك النطاق المحدود فهو مجال السلطة الحكومية ، وبمـــا ان الاسلام عند معتنقيه هو عقيدة وشريعة ، متكاملتان غير منفصلتين ، فقـــد خرج عند المستشرقين ومن تابعهم من كتابنا ومفكرينا عن خصوصية طبيعته ، ودخل معترك السياسة كأية حركة اصلاحية اجتماعيـــة ، لا علاقة لهـــا بالســـماء .

ومن العجيب ان يقصر المستشرقون تطبيق هذا المبدأ على الاســلام وحده ، ويحجموا عن تطبيقه على اليهودية — مثلا — فلا يعيبون عليهـــا اتخاذ الدين ذريعة وأساسا لقيام اسرائيل !

وفى هذا يقول Grogg فى كتابه «The Call of the Minaret» « ان على الاسلام اما أن يعتمد تغييرا جذريا فيه ، واما ان يتخلى عن مســـايرة الحياة » وهو يقصد بالتغيير الجذرى ، فصل الدين عن الدولة كما فعـــل « أتاتورك » وكما يطالب مفكرونا العلمانيون !

ويقول المستشرق « هانونو » وكان فى أواخر القرن التاسع عشر مستشارا سياسيا لوزارة المستعمرات الفرنسية : « لقد تركزت أهداف الحـــروب الصليبية قديما فى استرداد بيت المقدس من المسلمين البرابرة ، ولا يزال مما يزعج الغرب الآرى المسيحى، بقاء لواء الاسلام منتشرا على مهد الانسانية ولذا يجب ان نعمل على نقل المسلمين الى الحضارة الأوروبية ، بقصد رفع الخطر الكامن فى الوحدة الاسلامية ، وأفضل الطرق لتثبيت ولاية المستعمر الأوروبى على البلاد الاسلامية ، هو تشويه الدين الاسلامى وتصوره فى نفوس معتقدية بابراز الخلافات المذهبية ، والتناقضات الشعوبية والقومية والجغرافية ، مع شرح مبادىء الاسلام شرحا يشوهها وينحرف بها عن

فيها الأصيلة ، وتمجيد القيم الغربية والنظام السياسى والسلوك الفردى للشعوب الأوروبية » .

وخلاصة راى « هانونو » : « ان المسلمين الذين وضعوا تحت سيطرة النفوذ الاستعمارى ، نظرا لارتباطهم الوثيق بالمسلمين فى الخارج فهم دائما مصدر خطر يوشك بالانفجار ، ولا أمل فى ترويضهم الا بنقلهم الى الحضارة المسيحية الآرية . ويجب على الشعوب الاوروبية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الاسلامى الكامن فى الوحدة الاسلامية الفكرية والروحية والسياسية » .

وكتب « هانونو » بعد ذلك يرسم معالم السياسة الفرنسية فى مستعمراتها الأفريقية الاسلامية : لقد اصبحت فرنسا اليوم فى صدر الاسلام وكبده ، واخذت على عاتقها نقل روح المدنية المسيحية الآرية الى تلك الشعوب السامية المسلمة ، لكن هذا الدين ما يزال ثابت الأركان على ابواب أوروبا فى الدولة العثمانية ، حيث عجزت الشعوب عن استئصال جرثومة هذا الركن المنيع الذى يتحكم فى البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية شطرين » .

ولقد وعى اخواننا فى المغرب العربى ابعاد المؤامرة البشعة ، فشنوا حرب التحرير تحت شعار الدين ، الذى هو هدف المؤامرة الأول والأخير .

ويفسر المستشرقون مبدأ الاسلام فى عدم قبول المسلم ولاية الأجنبى بانه انغلاق ضد التفاعل والتعاون مع الشعوب الأخرى ، كان من الطبيعى أن يظل المسلم مستعبدا للأجنبى أبد الدهر !

ويفسرون عدم زواج المسلمة من غير المسلم بانه فكرة عنصرية كريهة !

ويسمون التمسك بالقرآن رجعية وتخلفا .. ولم يكونوا يدرون أن عملاءهم الذين بثوهم بين ظهرانينا من أبنائنا سيتولون عنهم المهمة !

ويقولون أن الاسلام قد تمزق الى أديان كثيرة بسبب تباين البيئة الجغرافية والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. وان العنصرية العرق ، والشعوبية والطائفية ، تفرق بين الشعوب الاسلامية ، وتجعل لم شملها وتضامنها فى اطار الاسلام كما جاء به محمد متعذرا بل مستحيلا ، هادفين من وراء ذلك الى اقامة الحواجز بين الدول الاسلامية ، وابطال اثر الدين كقوة دافعة لتجمع تلك الشعوب فى كتلة متلاحمة ذات مصالح مشتركة وامانى مؤتلفة فى نطاق العقيدة الواحدة والشريعة الواحدة .

وهم يغذون الدعوة الى اللغة العامية للقضاء على لغة القرآن التى يلتئم فى حضنها شمل العرب ، وينتظر مع تقدم فكرة التضامن الاسلامى أن تصبح لغة الشعوب الاسلامية كلها .. فبالقضاء على القرآن ، يصبح لكل قطر عربى ناهيك بكل قطر اسلامى لغة ذاتية اقليمية ، تصبح مع مرور الزمن بعيدة عن اللغة الأم ، فيضيع الرباط الذى يؤلف بين الدول العربية ،

ويغيب القاسم المشترك الأعظم الذى يجمع بين العرب والشعوب الاسلامية ويتم لهم بالقضاء على القرآن ، القضاء على الاسلام .

وكثيرا ما صوروا الاسلام بابراز بقايا من سخائم عقائد الجبرية والمرجئة فلا اختيار للمسلم فيما يفعله ، وانما هو مجبور جبرا محضا ولذا فهو غير مؤاخذ ، اذ ان رحمة الله تسعكل شىء ، فليفعل المسلم ما يشاء من المنكر والبغى ، فعفو الله يجب السيئات !!

ويصور « رينان » عقيدة التوحيد فى الاسلام انها عقيدة تؤدى الى حيرة المؤمن ، كما تحط به كانسان الى الدرك الأسفل !

وجاء فى مجلة The Muslim World عدد اكتوبر سنة ١٩٥٥ : « ان اله المسلمين متكبر جبار ، مترفع عن البشرية ، بينما اله المسيحية عطوف ودود متواضع ظهر فى صورة بشر هو الاله الابن ، أما عقيدة التوحيد فقد باعدت بين الانسان والاله ، وجعلت الانسان يعيش فى حالة خوف دائم من جبروت الاله وكبريائه » .

وفى مجلة «The montreal Star» تحدث راهب « دومينيكانى » عن النظام الاقتصادى فى الاسلام فقال : « ان المسلمين يتجنبون الناس الذين يشتغلون بالمال ويعتبرونهم انجاسا أقرب للكلاب منهم للبشر » .

ويقول « لورانس براون «Laurance Brown» » فى كتابه : «Islam and Missions» : « اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية واحدة امكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وامكن ان يصبحوا نعمة ايضا ، أما اذا بقوا متفرقين ، فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ونحن لا نستطيع ان نفصل بين الاستشراق والتبشير ، مهمة الاستشراق تسميم وافساد عقول المثقفين بابعادهم عن الاسلام ، ومهمة المبشرين تسميم وافساد عقول العامة بكافة وسائل الجذب والاغراء ، وكلاهما يمشى فى ركاب الاستعمار ، يمهد لاستيراده ويمكن لبقائه ، وقد نشأ اساتذة الاستشراق والتبشير فى محاضن اقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية والأمريكية .

فقد انشىء اول كرسى للغة العربية فى جامعة « كيمبردج » فى أوائل القرن السابع عشر وذكر فى المراجع الأكاديمية المؤولة فى الجامعة فى تبرير اقامة ذلك « الكرسى » : « ان من جملة أهدافه تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين الذين يعيشون فى الظلمات » .

وكانت أولى محاولات أول من جلس على ذلك الكرسى اعداد مشروع لتفنيد القرآن كما ذكر «Asbery» فى دراسته : « القسم العربى فى كيمبردج » وتم انشاء معهد الدراسات الشرقية فى « اكسفورد » ثم فى « هارفارد وبرنستون » وغيرها بأسلوب مماثل ولغاية مشابهة .

فمنذ البداية كان هناك تماثل فى القصد وتمازج بين المستشرق الأكاديمى والمبشر الأنجيلى ، فى افساد الدراسات الشرقية الاسلامية ، وكان يتولى التدريس فى تلك المعاهد باحثون ينتظمون فى سلك الكهنوت :
«The Holy Order» وخلفهم من بعدهم دهاقنة اليهود .

وحينما اسست الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت تسمى : الكلية السورية الانجيلية ، واعلن مجلس امنائها : ان من اولى غايات الكلية ان تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحى والتأثير المسيحى .

ولذا نجد أن معظم الأيديولوجيات الوافدة التى تناهض الاسلام وتدعو الى العلمانية والالحاد تحت ستار الليبرالية وحرية الفكر قد نشأت فى ردهات تلك الجامعات واخواتها .. وجاءنا البلاء المنكر حينما تولى خريجو تلك الجامعات المراكز القيادية فى العالم العربى بعد أن سلخوا معظمهم ـــ الا من عصم ربك ـــ سلخا كاملا عن تراثه وحضارته ودينه .

ان نشر الدين المسيحى لدى معظم الهيئات التبشيرية التى غزت وتغزو بلادنا هو امر ثانوى ، ووسيلة الى غاية اشد خطرا واعمق أثرا ، هى اثارة النعرات الطائفية بين ابناء الوطن الواحد والحضارة الواحدة ، وتمزيق الجبهات الوطنية فى الكيانات العربية .

وللتمثيل على ذلك نضرب مثلا واحدا هو ما ذكره الدكتور حسين مؤنس فى مقال له بمجلة المصور المصرية الصادر بتاريخ ١٩٧٣/٥/٣٠ قال : « فى يوم من ايام الحركة الوطنية فى مصر سنة ١٩١٩ ، واشتراك المسلمين والأقباط فى جبهة وطنية متماسكة كشأنهم فى تاريخ مصر على الدوام ، تسلل المبشر الأمريكى « زويمر » الى الأزهر فى زى طلبة العلم واندس فى حلقات الدروس .

« وكان زويمر هذا صعلوكا ينسب نفسه الى الدين والعلم ، وهو فى الحقيقة جاسوس خبيث تنفق عليه جماعة دينية فى ولاية « كونيكتكات » ، وكان يحتمى بالسفارة الأمريكية ويكتب مقالات فى مجلة تدعى « العالم الاسلامى » ما زالت تصدر الى الان فى مدينة « هارتفورد » بالولاية المذكورة ، يطعن فى الاسلام دون حياء أو خجل » .

« ومثله فى هذا صاحبه الأب اليسوعى « هنرى لامانس » الذى كان يقوم بعمل مماثل فى بلاد الشام » .

« اندس زويمر بين الطلاب ، ثم دخل فى حديث مع طالب ، وتناول كتبه ينظر فيها ، ثم اعادها اليه بعد أن دس بينها رسائل من تأليفه فى الطعن على الاسلام طبعها فى مطبعة احدى الجمعيات القبطية . وكان غرضه من ذلك ان تقوم الفتنة بين الاقباط والمسلمين . ولكن هذه الدسيسة الخبيثة لم يلبث امرها أن انكشفت ونشرت الصحف مقالات لنفر من علماء الأزهر يستنكرون

فيها عمل هذا المبشر الخسيس . ونشرت « البلاغ » مقالا عنيفا لكاتب قبطى هو « كليم أبو سيف » بعنوان « المبشرون » قال فى بعض فقراته :

« عجيب أمر هؤلاء المبشرين ، فهم ، رغم اننى أستطيع أن اقسم بأنهم لا دين لهم ، ما يزالون يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التى نهاهم عنها الدين . وهم ما يزالون يتمادون فى صفاقتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تماديا ، وما أظن اناسا رزقوا شيئا من الحياء أو الأدب يستطيعون اتيانه وتحمل مسؤوليته » .

« انتم أيها المبشرون لا اكثر من جواسيس للاستعمار أتيتم الى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لاتباع سياسة شريرة موحى بها من جهات معينة ، ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين ابناء الأسرة الواحدة » .

« اذن أنتم لستم مبشرين تستحثون الناس على التحلى بالفضيلة ، وانما انتم مجرمون ، تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون » .

انهم مجرمون حقا ، ولو كانوا شرفاء لبشروا بالفضائل الأخلاقية فى مجتمعاتهم الغربية التى لا تؤمن بدين !

ان اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصوم فرنسا فى الداخل واحبابها فى الخارج — ونحن نتحدث عن عهود الاستعمار البغيض المشؤوم — ! .. وكثير من الأفراد المنتشرين فى الأرض بحجة التبشير هم فى الحقيقة سماسرة وجواسيس لا صلة لهم بالدين . وهم أشد الناس افتقارا الى الفضائل المسيحية التى يبشرون بها . وبعضهم يسعى وراء أطماع ومغامرات شخصية شوهت اسم النصرانية فى الشرق ، حتى أن بعض الأديرة كانت مرتعا للفاحشة كما يقول المبشر « جيسوب Jessup » . غير أن الجامع الذى يوحد أهداف الجميع هو عداؤهم الشديد للعرب والمسلمين ، وليس عداؤهم للمسلمين باقل من عدائهم للمسيحيين من اتباع الكنيسة الشرقية .. ومرد هذا العداء الى عقدة الهزيمة فى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى ، حتى ان المبشر « جيسوب » سالف الذكر يود لو يمحى الاسلام من العالم .. ثم لاعتقادهم بأن الاسلام قام سدا فى وجه انتشار المسيحية .

ولقد عمل الاستعمار على اضفاء الصبغة الدينية على أعمال المبشرين ، لكن أهدافهم السياسية التى لا علاقة لها بالدين لم تلبث ان تكشفت لكل ذى عين .

ونحن ، اذا كنا بحسب تعاليم ديننا نابى أن نكره أحدا على تغيير معتقده، فاننا بالأحرى نابى ان يكرهنا احد على تغيير معتقداتنا ، خاصة ونحن نؤمن برسالة عيسى ، كما نؤمن برسالة محمد ، ولا نفرق بين أحد من الرسل والأنبياء .. ونعتقد أن التضامن الاسلامى لو تحقق سيكون دعامة متينة للمعركة بين الدين والالحاد !

« وقد كبر عند المبشر « زويمر » أن يرى نفرا من النصارى يدعون الى مصادقة المسلمين فى الصين ، اذا ان مثل هذه الصداقة ، فى رأيه تعيق سياسة التبشـــير .

ويقول الأب « شانتور » الذى رأس الكلية اليسوعية فى بيروت زمنـــا طويلا : « ويأتى المبشر تحت علم الصليب يحلم بالمـــاضى وينظر الى المستقبل وهو يصغى الى الروح التى تصفر من بعيد ، وليس من أحد يستطيع أن يمنع تلك الريح من أن تعيد الى أذهاننا صرخة أســـلافنا من قبل « تلك ارادة الله » .

فالدين عند المبشرين هو المظهر والسياسة هى الغاية ، وهدفها الحقيقى استعباد الغرب للشرق وتقويض دعائم الاسلام حذرا من تحوله الى قوة متحدة فى وجه أطماع أوروبا الاستعمارية .

وانا افهم أن تتجه الارساليات التبشيرية الى المجتمعات الوثنية ، لاعادتها الى الله ، أما أن تتجه الى المجتمعات المؤمنة بالرسالات السماوية فهو سلوك اقل ما يقال فيه انه لا أخلاقى مخالف للقيم الروحية ، ولا بد من أن تكون له دوافع الايمـــان . .

ان حوافز الحقد والضغينة تتنافى مع سماحة الأديان وكرامة الانسان ! .

ومن ذكرياتى الخاصة فى هذا الموضـوع ، اننى حينما كنت محافظا لمدينـــة عمان سنة ١٩٥٧ ، جاءنى ذات يوم صـــديق أرمنى تربطنى به معرفة جوار قديمة ، يقول : انه يريد أن يتخـــذ الاسلام دينا ، فسألته : ماذا تعــــرف عن الاسلام ؟ فقال : انه لا يعرف شيئا ولكنه يريد أن يتعلم ، وبعد أن حاور وداور عرفت منه أنه يكره زوجه ويحب فتاة غيرها . وهو يريد أن يعلن اســـلامه ليستطيع ان يطلق امرأته ويتزوج بمن يحب ! فعنفت به وأثقلت عليه ولمتـــه لاتخاذ الدين هزؤا ولعبا ووسيلة غير كريمة لغاية غير كريمة ، ورفضت طلبه كما ينبغى فخرج مذموما مدحورا .

ومن ذكرياتى الخاصة ايضا اننى حينما كنت سفيرا فى واشنطن سنة ١٩٦٣ اثارت الصحف حملة ضارية ضد الارساليات التبشيرية الى القارة الافريقيـــة التى انفقت مئات بل الوف الملايين من الدولارات ، دون ان تؤدى الغـــرض من وجودها والأمل المعقود عليها ، وعيرتها بان الاسلام قد انتشر فى تلك القارة انتشارا عفويا دون بعثات وارساليات،فكان جواب المبشرين على تلك الحملة: انهم ان يكونوا أخفقوا فى دعوتهم ، فهم قد نجحوا نجاحا ملحوظا فى تشويه الاسلام فى نفوس أصحابه من العامة . . واعتذروا عن تقصيرهم فيما أرسلوا من اجله بأن الافريقيين ، والوثنيين منهم خاصة ، كانوا ينفرون بشـــدة من المبشرين لأن ما يدعونه من سماحة المسيحية وتعاليم يسوع ، يخالف مخالفة دنسة التعذيب البشع والتقتيل الجمـــاعى الذى يقاسونه من الاستعمار ! واعترف الاسقف « لفردى » فى كتابه « الكنيسة والعالم » ، « ان سر القوة الخارقة للعادة التى يظهرها الاسلام يرجع الى ادراك هذا الدين وجود الله بارادته العليا وسيادته المطلقة على الكون ، فوق أنه كامن فى وحدانيتـــه ،

فهذا الايمان هو الذى منح المسلمين فى عصورهم الزاهية روح الانقياد والنظام وازدراء الموت الذى لم نعرفه فى أى نظام آخر .. هذا بالاضافة الى ان العقيدة الاسلامية خالية من التعقيدات والتجريدات ، فهى من ثم فى متناول ادراك الشخص العادى . انها تمتلك فعلا قوة عجيبة لاكتساب طريقها الى ضمائر الناس » .

ولذا لا نستغرب قول المبشر المعروف « جون تاكلى » : « يجب أن نستخدم القرآن وهو امضى سلاح فى يد المسلمين ، ضد الاسلام نفسه لنقض عليه القضاء المبرم ، حين نرى هؤلاء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا ، وان الجديد فيه ليس صحيحا — كتاب الاسلام والارساليات .

ولا نستغرب ان نرى المبشرين حين يتعرضون للرسول الكريم ، فانهم يتجاوزون الاتهام والافتراء الى الشتم والتجريح البذىء ، حتى لقد سماه بعضهم « كذاب مكة » ، هذا بينما ينظر المسلمون الى السيد المسيح بكل احترام وتعظيم ، ويؤمنون برسالته ، ويرفعون أمه العذراء البتول الى مقام العفة المقدسة التى اختارها الله من دون نساء الأرض قاطبة لينفخ فيها من روحه .

وهكذا يعترف المبشرون بأن التبشير المباشر واكتساب المسلمين الى النصرانية قد خاب ، ومن أجل ذلك حولوا نشاطهم الى زعزعة عقيدة المسلمين — المصدر السابق — .

وذلك أن حقيقة بواعث التبشير لم تكن الدعوة الى الحياة الروحية ، والفكر الدينى ، والايمان بالله ، بل الى الافساد والسيطرة والتمهيد للاستعمار ! .

اليس من المستغرب أن نجد ان المقصود بالجهود التبشيرية هم المسلمون، قبل الوثنيين والبوذيين ، حتى ان رجلا عالما كالمستر « بنروز » الذى كان رئيسا للجامعة الأميركية فى بيروت يقول : « ان المبشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا فى هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات الا انهم أحدثوا بينهم آثار نهضة علمية ، ولقد برهن العلم على أنه اثمن الوسائل التى استطاع المبشرون أن يلجأوا اليها فى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان » ! .

ونجد المبشر « رايد « Reid » » ينفث أحقاده فى قولته البشعة : « ان عمل المبشر المسيحى بين المسلمين صعب جدا ، فبعد عمل امتد خمسة عشر عاما صح عندى أن الطريقة الوحيدة لاكتساب هذا الشعب — المغربى العربى — انما هو فى النفوذ الشخصى اليه ، وهنا تبرز الصعوبة ، ذلك أن الحاجز الصلب الذى يدعى عادة بالتعصب ، وهو ذلك الجدار الشاهق من الشك والاعتزاز بالذات ، ومن الكره ، قد بناه الاسلام حول اتباعه ليحميهم فى داخله ويترك المبشر تائها خارجه . انه جدار أثبت — مع الأسف — أن تسلقه أو اختراقه مستحيل . ان رجالا من المبشرين قد عملوا سنين طويلة فى مدينة واحدة ثم لم يستطيعوا ان يكتسبوا صديقا أو صديقين ! ومن الصعب أن تحب مسلما لأن المسلم [illegible] محببا الى النفس » ! .

ولم يكد الاستعمار الغربي يغزو دول هذه المنطقة حتى هب المبشرون وهم رواد الاستعمار وعيونه واذنابه الى استغلال الوضع الناجم عن ذلك فاحتموا بالدول المنتدبة او المستعمرة لزرع الفتن الطائفية والقومية بين ابناء الوطن الواحد ، واللجوء الى استثارة الاقليات الدينية لتمزيق الوحدة الوطنية .. ومما يثير الحنق حقا أن المعاهدات الدولية لم تستح ان تنص على التحريض على مثل هذه الدناءات ، فقد نصت المادة (٤٣٨) من معاهدة « فرساى » مثلا ، على جواز التبشير في سوريا له .

وبذا انتشرت الكتب المدرسية المملوءة بالطعن فى الاسلام — كما تفعل اسرائيل اليوم فى تعليم ابنائنا المنسيين فى الأراضى المحتلة — وما يزال ذلك مستمرا الى اليوم ، بعد انحسار الاستعمار !

وقصة الكتاب الذى وضعه احد اساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت ليلقنه لابنائنا .. تلك القصة التى تناقلتها الصحف اللبنانية قبل وقت قصير ، معروفة لدى القراء .. ومما تضمنه ذلك الكتاب ، اعتماد الخرافات التاريخية والأساطير الدينية اساسا لحق اسرائيل فى ارض المعاد ..

وكان هناك كتاب آخر كان يدرس لطلابنا فى بعض بلادنا الى وقت قريب وضعه « المنسنيور كولى » هو كتاب « البحث عن الحقيقة(!) » .. جاء فى الصفحة — ٢٢٠ — منه : « فى القرن السابع للميلاد ، برز فى الشرق عدو جديد هو الاسلام الذى اسس على القوة وقام على اشد انواع التعصب .. لقد وضع محمد السيف فى ايدى الذين تبعوه وتساهل فى اقدس قوانين الأخلاق حين سمح لاتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع بالملذات الدائمة ، حتى قامت النصرانية تضع حدا بسيف « شارل مارتل » فى وجه سير الاسلام المنتصر عند « بواتييه » ، ثم قامت الحروب الصليبية فى سبيل الدين فتقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الانجيل على القرآن » ! .

ولا تزال أمثال هذه الكتب تدرس فى بعض مدارس الارساليات التبشيرية فى البلاد العربية .

وهناك كتاب مطبوع فى بيروت كان يدرس فى عهد الاستعمار الفرنسى فى بعض مدارس بيروت هو كتاب : « تاريخ محاضرات ج. ايزاك » جاء فيما احتواه : « اتفق لمحمد اثناء رحلاته أن يعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين ، اخذت تتراءى له رؤى اقنعته بأن الله اختاره رسولا ، وان القرآن مجموعة ملاحظات كان تلاميذه يدونونها، بينما كان هو يتكلم ، وقد أمر محمد اتباعه ان يحملوا العالم كله على الاسلام بالسيف اذا اقتضت الضرورة ، وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل ، ودخلت فلسطين فى سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد » .

وكتاب آخر كان يدرس فى احدى مدارس البنات فى بيروت جاء فيه : « أن محمدا امر اتباعه أن يخضعوا العالم ويبدلوا جميع الأديان بدينه هو .. وما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى » ! .

وقد استغلت الصهيونية التبشير والمبشرين لاتفاقهم معها فى العداء للعرب والمسلمين ، فالمبشرون جميعا يصرون على انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، لا تحقيقا للخرافة الدينية فى العهد القديم فحسب ، بل لأن انشاءه يضعف العرب والمسلمين ويحول فلسطين من بلد عربى الى مرتكز هجوم للقضا على العروبة والاسلام .. والتسلط على الشرق الأدنى وافريقيا .

يقول الأستاذ « وسترمان » : « حينما يعتنق الزنجى الاسلام فانه يشعر حالا بالثقة بنفسه ومقامه لأنه اصبح عضوا فى منظمة كبيرة منتشرة فى العالم كله ، ويصبح نتيجة لذلك ذا مقام محترم بين الأوروبيين المستعمرين أنفسهم. بينما اذا اعتنق النصرانية ، فان الذى يحدث هو خلاف ذلك تماما ، اذ أننا نظل نحن الأوروبيين غرباء عنه ، وهو حينما يتبنى حضارتنا فى ظاهرها فانه فى الحقيقة لا يفهمها ، لأننا لم نكلف أنفسنا عناء الاهتمام بفهم حضارته وبترقية حضارته بعوامل من حضارتنا ، وبدلا من ذلك نهدم حضارته ، ثم نحاول أن نبدلها بحضارتنا ، فنجعل منه صورة شوهاء للاوروبى ، اما الاسلام فانه يجعل منه افريقيا يحترم نفسه . وفوق ذلك لا نجد الزنجى المتمدن بالمدنية الأوروبية ، يبلغ تلك المساواة الاجتماعية التى يمنحها له الاسلام ، بينما ينظر اليه الأوروبى باحتقار ، وهذا يفسر لنا كيف ينقلب الذين صبأوا للنصرانية من الافريقيين الى الاسلام ، بعد أن ايقنوا انهم لن يستطيعوا أن ينالوا بالنصرانية مقاما اجتماعيا مساويا لمقام اخوانهم فى العقيدة من النصارى الأوروبيين ، وبذا نشأ فيهم استعداد لأن يروا الاسلام هو الدين الوحيد للافريقى الحديث » .

ويقول « ترمنجهام » فى كتابه « الاسلام فى اثيوبيا » : « جاء الملك يوحنا فأمر بتعبئة عامة ثم أعلن حربا صليبية على المسلمين ، ووصف الجنرال « غوردون » الملك يوحنا هذا فقال : « انه مثلى متعصب فى الدين ويريد أن ينصر جميع المسلمين » . وبعد الحرب العالمية الثانية أضاف الاستعمار البريطانى الأميركى « اريتريا » الى الحبشة ، مفضلا أن تكون تلك البلاد المسلمة خاضعة لنفوذ سبط سليمان المالىء للاستعمار » ! .

ويقول « لورنس براون » : لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكن بعد الاختبار لم نجد ما يبرر هذا الخوف ، كنا نخوف بالخطر اليهودى والخطر الشيوعى ، والخطر الأصفر ، مع أن الخطر الحقيقى يكمن فى الاسلام » ! .

ويقول المبشر « جون موط » فى كتابه « العالم الاسلامى اليوم » ص ٣٧١ : « ان الأثر المفسد فى الاسلام يبدأ باكرا جدا ، ولذا يجب أن يحمل الأطفال الصغار الى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم اشكالها الاسلامية » .

ويكتب المدعو « اشعيا بومان » فى مجلة العالم الاسلامى عدد كانون الثانى سنة ١٩٣٠ : « ان شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى ، لذلك أسباب أهمها أن الاسلام منذ ظهر فى مكة ، هو دائما فى ازدياد ، ولذا على الدول الأوروبية أن تتفق فيما بينها على سياسة السيطرة على الشواطىء واكراه المسلمين على اللجوء الى الصحراء » ، وقد تم لهم حقا بالتعاون مع

الصهيونية احتلال معظم الشواطىء الشرقية ، والغزوة الشرسة ما تزال فى أوج هيجها ، وما لم يتنبه العرب والمسلمون ، فلا مفر للأشلاء الباقية من اللجوء فى المستقبل القريب جدا الى الصحراء ! .

وعندما تغلغل الاستعمار الغربى فى الشرق الأوسط نتيجة لانهيار الخلافة العثمانية وتفتتها شذر شذر ، قال المبشر « جيسوب » : « لقد أصبح القسم الاكبر من المسلمين فى حكم الدول النصرانية ، فيجب أن نبدأ حالا بتمهيد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا » ! .

ويمن المبشر « زويمر Zweimer » على المسلمين فيقول فى المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى « لكناو » بالهند سنة ١٩١١ : « ان خمسة وتسعين مليونا من اتباع نبى مكة يتمتعون اليوم بنعمة الحكم البريطانى ، وأن الانقسام السياسى فى العالم الاسلامى دليل على عمل الله فى التاريخ » ! .

ولقد كانت الوسائل التى اتبعت لتنفيذ هذا المخطط التآمرى ذات شقين :

الأول : تربية نفر من أبناء البلاد للعمل تحت ستار التحرر والتقدم لتكون الدعامة الأولى التى تنفث من خلالها سمومها القاتلة ، فى الاسلام والحضارة الاسلامية .. بعد أن غسلوا أدمغتهم ودسوا فى نفوسهم أن الدين هو سبب التخلف والرجعية ! .

الثانى : قيام المدارس التبشيرية ودوائر الاستشراق باغتنام فرصة الجهل السائد فى البلاد العربية والاسلامية ، والعمل الجاد المستمر على تقويض الاسلام من الداخل ، بتاريث الخلافات المذهبية بين طوائف المسلمين ، واثارة الفتن الطائفية بين ابناء الشعب الواحد والمصير الواحد .. والأمثلة على ذلك كثيرة كفتنة سنة ١٨٦٠ بين المسيحيين والدروز والفتن المستجدة المتواصلة بين العلويين والسنيين وبين السنة والشيعة وبين البربر والعرب الى آخر ذلك مما هو معروف مشهور ، وما نزال نعانى عواقبه الوخيمة الى اليوم ..

ونتيجة مباشرة للمؤامرة قامت حركات مشبوهة مزيفة تحت ستار الدعوة الى الاصلاح و « تغريب » الطابع الاسلامى ، روج لها الاستعمار ودعمها وحماها ، كحركة « القاديانية » التى قام بها فى الهند المدعو « أحمد خان بهادور » مناديا بالفلسفة الطبيعية الدهرية ، ومحرفا كلمة القرآن الكريم ، وجاعلا النبوة غاية مكتسبة بالرياضة النفسية لا صلة لها بالله . وان معنى الجهاد ليس اللجوء الى العنف والقتال لرد غزوات الاستعمار ، وانما هو وسيلة دينية سلمية للاقناع .. واعلن ولاءه للمستعمر البريطانى معتزا بانه غرس ذلك الاستعمار ، وواجب عليه الولاء له والدفاع عنه .

وجاء من بعده خليفته «ميرزا غلام احمد» يعلن للناس فى كتابه « ترياق القلوب ص ١٥ » : « لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانكليزية ونصرتها . وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر من الانجليز ، ما لو جمع بعضه الى بعض لملأ خمسين خزانة » ! .

وجاء فى كتاب « حقيقة النبوة » لميرزا بشير الخليفة الثانى أن « غـلام » السالف الذكر ، أفضل من بعض أولى العزم من الرسل ، بل يعد أفضل من جميع الأنبياء » ! .

بهذا وأمثاله تحولت فكرة القضاء على الاسلام الى فكرة افساده من الداخل ليتآكل وينهار ، بالغزو الفكرى عن طريق التبشير والاستشراق ، ثم الغزو الاقتصادى ثم الاستعمار المسلح فى ثياب صليبية جديدة تعبر أفصح تعبير عن العـداء الدينى الكامن فى اوروبا للاسلام وأهله ، وتسـلك سبل التشويه والتضليل لتقويض ركائز الصمود الأساسية أمام استمرارية الاستعمار القديم والجديد ، والتمهيد لتوسع الصهيونية على حساب العروبة والاسلام .

وكانت ردة الفعل لهذه الحركات ان قامت فى المشرق دعوتان متوازيتـان احـداهما تدعو الى التخلى عن الدين واقتبـاس الحضارة الغربية بكافـة مظاهرها العلمية والخلقية ، تقليد الأعمى المفتون ، كسبيل للنهوض والتقدم متأثرة فى ذلك بالارساليات التبشيرية والدراســات الاستشراقية التى قامت فى الأساس بوحى من المشاعر الدينية المكبوتة ، تعويضا عن الهزائم الصليبية ولذا لم يـكد يستقر الاستعمار فى بلاد المسلمين حتى بادر بوضـع البرامج التعليمية وتشجيع الهيئات التبشيرية والحركات المذهبية الهدامة بقصد بتر علاقة العربى والمسلم منذ الصغر بتراثه وحضارته ، لتفرض عليه ما يلائم أهداف الاستعمار ثم صنيعته الصهيونية من الانبهار بالثقافة الغربية والأخلاق الغربية والقيم الغربية ، وما يزرعه ذلك الانبهار فى نفوس الناشئة منذ بداية المراحل التعليمية من الاحتقان بالكره والحقد والضغينة ضد الاسلام .

أما الدعوة الثانية التى انبثقت من واقع البلاد المغلوبة ، وفى حضن عقيدتها وتاريخها ، فقد كانت تهدف الى انبعاث اسلامى جديد يزيل ما علق بالاسـلام من تشويه وشبهات وتجـديد المفاهيم الدينيـة وبعث الشريعة الاسـلامية والملاءمة بين ذلك كله ، وبين تطور الحيـاة واحداثها المتتابعة ، والحث على اقتباس الحضـارة الأوروبية التكنية والعلمية مع المحافظة على المبـادىء والقيم والتنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى احتوتها الشريعة الغـراء والتى هى بشهادة أكبر علمـاء القانون فى الدنيا من الغـرب نفسه الضمينة وحدها بانقاذ العالم من ويلات التفسخ والتبدد والانسلاخ الأخلاقى كما سيجىء بيانه فيما بعد .

ونكتفى أن نشير هنا فى هذا المعرض الى قولة الفيلسوف الفرنسى «رينان» فى كتابه « ابن رشـد ومذهبه » : « كان الذوق العلمى والتذوق الأدبى قـد تقررت قواعدهما فى القرن العاشر الميلادى فى تلك البقعة المتميزة عن العالم ، وكان هـذان قد بلغا فى المجتمع الاسلامى مستوى لا يضـارعه الا المستوى الحديث ، وكانت روح التسامح سائدة بين السكان ، والحرية الفكرية نبـع يستقى منه الجميع . وكانت جميع الحواجز التى تفصل بين جنس وجنس أو بين شعب وشعب ، قد قوض أساسها الفكر الحر ، فصار شعار جميع سكان اسبانيا وترا واحدا يهتز بنغم الحضارة البشرية » .

ويذكر أشهر المؤرخين المعاصرين « آرنولد توينبى » فى موسوعته : « دراسة التاريخ » وفى كتابه : « مدخل تاريخى للدين » : « ان الاسلام اكثر العقائد الدينية اتفاقا مع المنطق ، واشدها صرامة فى الايمان بمبدأ الوحدانية الجليل ، وأعظمها وضوحا فى ادراك الاستشراق الالهى » .

ويفند توينبى حجج خصوم القرآن بقوله : « ان اللغة الفصحى فى القرآن هى الرباط الوثيق الذى يمنع العالم العربى من التفكك » فيصفع بذلك آراء بعض مفكرينا الأغبياء من دعاة اللغة العامية ، ويبصق فى وجوههم !

ونذكر على سبيل المثال ان اتباع الدعوة الأولى التى سبق ذكرها من مفكرينا ومثقفينا الذين تأثروا بأكاذيب المستشرقين والمبشرين يمكن تصنيفهم ــ كما يقول الدكتور محمد البهى ــ تصنيفا زمنيا الى قسمين : القسم الأول ويشمل طلائع البعثات التعليمية التى اوفدت تحت ظل الاستعمار الى الجامعات الأوروبية فى النصف الأول من هذا القرن ، وانتسبت الى اقسام الدراسات الشرقية ، فعادت الينا محملة بخمائر المذهبيات الأوروبية لا بالعلم الأوروبى ، وحملت وزر وضع بذرة الخلافات الايديولوجية التى صدعت الشمل العربى فيما بعد ، وجرت مجرى المستشرقين فى البحث والتدريس والتشكيك فى الدين .

حتى أن رائدا عظيما من رواد الادب العربى المعاصر هو الدكتور طه حسين ، لم يسلم من السقوط فى هوة المؤامرة ، فهو ينتهى الى نتيجة عجيبة فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » مؤداها أن الاسلام دين محلى لا دين عالمى وقد وضعه صاحبه متأثرا بالبيئة التى عاش فيها ، وتفاعل معها ، فهو لا يعبر الا عن تلك البيئة ولا يمثل غير تلك الحياة ولا علاقة له بالانسانية عامة ، فهو اذن كما يقول أساتذته المستشرقون دين بشرى من وضع محمد ، ولا علاقة له بالسماء ! .

ويرى فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » : « ان تجديد الفكر فى المجتمع الاسلامى انما يكون فى فصل الدين عن السياسة ، وان وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا لوحدة قومية ولا قواما لتكوين الدول . وان سبيلنا لتجديد الفكر الاسلامى هو أن نتعلم كما يتعلم الأوروبى ، ونشعر كما يشعر الأوروبى ، ونحكم كما يحكم الأوروبى وتصرف الحياة كما يصرفها ، وهو يخلص من ذلك كله الى القول بربط مصر بثقافة شعوب البحر الأبيض المتوسط وفصم علاقتها بالعروبة والاسلام . وأن بناء ثقافة مصر الحديثة يجب أن تكون امتدادا للحضارة الفرعونية القديمة ، حتى تتصل بالحضارة الأوروبية الجديدة .

وانتقلت عدوى هذا التخبط الى بعض علماء الدين ممن اتصلوا بالثقافة الغربية فى أوج استشراء حركة التبشير والاستشراق ، فالشيخ على عبد الرازق مثلا يلخص آراءه فى الاسلام عقيدة وشريعة ، فى كتابه « الاسلام واصول الحكم » فيقول : ان فكرة الجهاد خصيصة من خصائص الزعامة النبوية موقوتة بوقتها وظروفها . ولذا فقد انتهى أمر الجهاد بوفاة صاحب الزعامة ، وانتهت بذلك شخصية الجماعة الاسلامية ، وبقى المسلمون بعد وفاته شيعا يختار كل منها الاتجاه السياسى الذى ينزع اليه » ! .

أما القسم الثانى فيتمثل — كان وما يزال — فى الحركات اليساريه والأحزاب القومية التى خلفها فينا الاستعمار بعد رحيله ، وتكامل تكوينها خلال العقدين الماضيين ، وكلها قامت على أساس عزل الدين الاسلامى واقصائه عن الحياة السياسية للجماعة ، واتباع المذاهب الاوروبية المادية من شرقية وغربية ، ونصت دساتيرها على الغاء الفكر الدينى ، وانكار الالوهية ، بحيث أصبح على من يريد الانتساب اليها باديء ذى بدء ، ان يخلع دينه وينكر ربه قبل أن يسمح له بدخول حرمها المقدس ! .

والمؤامرة موصولة الضراوة والبشاعة ، تقع عليها حيثما شئت كل صباح فى السيل المتدفق من الكتب والمقالات والتحليلات السياسية لأوضاع هذه المنطقة المفترى عليها ، من اعدائها وأبنائها على السواء .

يقول « Arnold Hottinger » فى مقال له فى عدد نيسان من مجلة « الشؤون الخارجية Foreign Affairs » : « .

« المواطن العربى يعيش حالة تمزق فكرى ، واهم اهتماماته البحث عن الهوية .. عن الانتماء » .

ويفسر الكاتب سبب هذا التمزق فيقول : « ان العرب عاشوا الى اواخر القرن التاسع عشر فى مجتمع دينى ، غير أن الغزو الاستعمارى ، والانفتاح على الغرب أحدث تطورات كثيرة غيرت المفاهيم الدينية وقام فيهم مفكرون يعزون انتصار اسرائيل الي التخلف الحضارى ، لا فى التكنية والابداع المادى فحسب ، بل فى تكون البنية الاجتماعية القادرة على فرز القيادات المخلصة .

ويعقب الكاتب على هذه المقدمة التى قد نتفق معه فيها ، بالنتيجة المبتسرة الدنيئة فى قوله : « ان السؤال الذى يطرح نفسه هنا ، هو قدرة الاسلام ، على الانسجام مع ضرورات التقدم ، وقد بذلت محاولات كثيرة منذ مطلع هذا القرن للاجابة على هذا السؤال ، ولكن بقيت المعضلة دون حل ، لأن مثل ذلك الانسجام يوجب الاستغناء عن بعض المبادىء الاسلامية ، من أجل التقدم والتمدن والتكنية ! دون أن يفقد الاسلام جوهره الحقيقى » . ومن العجيب حقا أن يعفى الكاتب نفسه من تقديم الأمثلة على تلك المبادىء التى يجب الاستغناء عنها ، لاضفاء طابع الموضوعية على بحثه المشبوه ! .

غير أنه كشف عن نواياه اللئيمة بقوله : « ان ذلك التساؤل قد زاد المعضلة غموضا وتعقيدا ، وقليل جدا من المفكرين العرب من استطاع مواجهتها بجراة وصراحة كما فعل الدكتور جلال صادق العظم ، الفيلسوف الماركسى — هكذا يسميه الكاتب — الذى جرب مهاجمة الاسلام مباشرة . بوصفه عقبة فى طريق العقلية العلمية . ونظرا لاهمية المشكلة يعتقد الكاتب بضرورة مثل هذه المواجهة مع الاسلام قبل حدوث التغيير الجوهرى فى الفكر العربى والمجتمع العربى ، وتحديد أسلوب حركة الوعى العربى ؛ ذلك لان الاسلام فى نظر معتنقيه هو دين سياسى يرمى الى اقامة حكم من وحى الاله ، بالرغم من فشل الاسلام فى اقامة المؤسسات القادرة على ذلك عبر القرون المتتالية » ! .

وغرض الكاتب من مقاله الطويل الذى لخصنا فقرات منه : ان العرب اذا أرادوا أن يبنوا المجتمع المتمدن المتحضر ، فى مواجهة اسرائيل فعليهم ان ينفضوا أيديهم قبل كل شيء من الاسلام . لأنه العقبة الأساسية فى سبيل

التقدم ، والا فانهم مهددون بالارتماء فى احضان التجربة الصينية التى تهددهم بمثل تهديدها لاسرائيل والغرب ! .

ومن المفارقات الغريبة ، أن يتضمن العدد نفسه من تلك المجلة مقالا « لجولدا مائير » رئيسة وزراء اسرائيل ، تفسر الصهيونية على انها انتماء دينى وقومى فى وقت معا ، وأن تمسكها بتراثها لم يعقها عن اقتباس المنجزات الحضارية المادية وتطويرها والابداع فيها .. ولم يحدث ذلك تناقضا بين الفكر الدينى الذى بنى عليه المجتمع الاسرائيلى ، وبين العلم والتكنولوجيا .

وهكذا نرى أن الاسلام هو هدف المؤامرة الأول والأخير ، لانه كان دائما الصخرة الصلدة التى تتحطم عليها الدسائس والمطامع الاستعمارية والصهيونية .. وكان دائما الشبح المخيف والكابوس الرهيب الذى ترتعد له فرائص المتآمرين .

انهم يتشبثون بكافة الوسائل والأساليب لأبعادنا عن هويتنا ، عن حقيقتنا، عن عقيدتنا التى أعزنا الله بها ونصرنا حين فديناها بدمائنا ، وأذلنا حين تركناها ، ليسهل القضاء المحتوم على الفريسة المدماة ! .

ولعل أغرب ما وقعنا عليه أن سياسة الاستعمار الغربى فى الشمال الافريقى كانت دائما تسعى لابعاد المسلمين عن المراكز الحساسة والوظائف الرئيسية ، زيادة فى امتهانهم واضطهادهم ، فقد اثبتت الاحصائيات انه عندما استقلت الجزائر كان فى الدوائر العقارية مثلا ، الفا موظف منهم ثمانية من المسلمين فقط ، وعندما استقلت المغرب كان فى وزارة الشؤون الاجتماعية مائتان وخمسون موظفا منهم اربعة من المسلمين فى وظائف آذنة وحجاب ..!

يقول « فرانتز فانون » فى كتابه « معذبو الأرض » : « اثناء الكفاح الجزائرى أخذ بعض علماء فرنسا يفلسفون عقلية المجاهد بالبحث فى العلاقة بين الاسلام والدم ! على أساس أن المجاهد-الجزائرى كان يود لو أتيح له الاستحمام فى دم الضحية ! وكانوا يفسرون تشريح الجثث وكثرة ما فيها من طعنات بانه ظاهرة نفسية مرضية للتلذذ بالقتل .. وكان هؤلاء المتفلسفون يريدون أن يظل الجزائر غريق الاضطهاد والاحتقار والاستغلال بغير قومية وهوية وعقيدة ليصبح فرنسيا بالاكراه ، فاذا هب للنضال عن كرامته وعن عزة دينه اتهموه بالوحشية وحب الدماء ، وكانما الاستعمار لم يمخر الى مخازية فى تعذيب الشعوب ، وتقتيلها ، بحارا من الدماء البريئة ..

وقد بلغ من سفه اولئك المتفلسفين انهم اتهموا الشعوب الاسلامية فى الشمال الأفريقى بفقدان « اللحاء الدماغى » . أى أن جزءا من طبقات دماغه العليا معطل ومشوه — كما قال البروفسور « كاروتر » فى كتابه « سيكولوجية الافريقى السوية والمرضية » !

تلك هى مدنية الرجل الابيض البربرية !

وتلك هى الحضارة الغربية فى سلوكها الهمجى ؟ !!

فماذا ترى يقول المبهورون بتلك المدنية وتلك الحضارة ؟

الدول العربية والعالم الإسلامي

قلنا غير مرة إن هاجس المؤامرة المكثفة ضـد هذه المنطقة ، هو الاسلام، فهو الكابوس المخيف الذى يقض مضاجع القوم على الدوام .

وقلنا غير مرة ان الهجمة المستمرة على الاسلام والعروبة تنطلق من معطيات دينية كاذبة . . ومفاهيم سياسية زائفة .

اما الحـوافز الدينية فقـد عرفنا قصتها المبنيـة على الخرافـات والاساطير . .

واما الحوافز السياسية فتقوم على فكرة ان وحدة دول الشرق الاوسط التى تسيطر على شاطىء المتوسط الشرقى والجنوبى ، تهدد الامن الاوروبى، والسـلامة الأوروبية والحضـارة الغربية ، بسـبب موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام على مفترق قارات ثلاث فى قلب العالم ، وما تنطوى عليه من ثروات الطاقة المذهلة .

ولذا فهم يعتقدون ان دفع هذا الخطر المتمثل فى امكانية توحد الاقطار العربية فى احضان التضامن الاسـلامى ، لا يتاتى الا باقامة كيان غريب فى قلب تلك المنطقة يمثـل الحضـارة الغربية كالكيان الاسرائيلى ، يحـول بينها وبين التوحد ويبقيها فريسة التشعث والتعثر ، ويجعلها كيانات « موزاييك » مهترئة على أسس اقليمية ، وعرقيـة وطائفيـة ، فى حـالة رعب دائم ، لتظل منطقة نفوذ للاستعمار الجـديد ومنطقة استهلاك للصناعة الاسرائيلية المتصاعدة .

وبما ان شاطىء المتوسط المذكورين يكونان النطاق العربى المتقدم المواجه لأوروبا ، تحمى ظهره وتشد ازره الدول الاسلامية المتواجدة فى النطـاق الخلفى الموازى له فى آسيا وافريقيا ، فقد نشطت المؤامرة بعد ان استتب لها تمزيق الدولة العربية ، وتطويق الوعى العربى وتعويقه فى الارادة والاستعداد لاستكمال مخططها الرامى الى زرع الاحن والفتن والتناقضات المفتعلة بين دول الحزام الأول العربية ، ودول الحزام الثانى الاسلامية ، التى كانت خلال عصور ازدهار الدولة الاسلامية مؤتلفة فى اطار الرباط المقدس بتناغم ومودة وانسجام .

ونجحت المؤامرة ايما نجاح ، فقد أظلنا صباح الخامس من حـزيران المشئوم ـــ الخامس من يونيو ـــ والدول العربية ، شذر مذر ، يختلف حكامها ويتصارعون ليقيمون بينهم الحواجز المختلفة ، لحماية المتـاع الرخيص الذى

يتهافتون عليه ، بينما المشاحنات المدمرة مسعرة النار بينهم وبين شقيقاتهم الدول الاسلامية المجاورة لهم ..

وحينما دعا الملك فيصل بحرارة قبيل حرب الايام الستة ، بل الساعات الست ، الى فكرة التضامن الاسلامى ، على أساس انبعاث اسلامى ينقلنا من التخلف الى مجرى تيار العصر ، هبت بعض دوائر الاعلام العربية ، تبعا للدوائر الاعلام الراسمالية والشيوعية على السواء ، وبصرامة وضراوة واستشراس ، متهمة تلك الدعوة بالخيانة والعمالة للاستعمار ، واحياء الاحلاف العسكرية ، مع اصرار أصحاب الدعوة الطيبة على تفنيد تلك الدعارة الفكرية والخلقية المفضوحة ، بايضاح أهدافها الرامية الى بعث الروابط العضوية بين الشعوب الاسلامية ، لتكون كتلة سياسية واقتصادية وثقافية متضامنة فى وجه الغزوات الصليبية والصهيونية والشيوعية ، تصبح نواة الانبعاث المنشود القادر وحده على الدعوة الى القيم الأخلاقية والمبادىء الروحية والمفاهيم الانسانية ، التى انطمست نهائيا فى الايديولوجيات المعاصرة المنهارة .. على أساس الشريعة الاسلامية التى تمثل ايديولوجية وسطا بين طرفى الراسمالية والماركسية بعد ان ثبت فشلها وافلاسها وعجزها عن حماية مصير الانسان ..

وان الانتماء القومى والانتماء الدينى ليس ولا يمكن أن يقوم بينهما تصادم وتناقض بل هما متلازمان ومتلاحمان ، ووجهان لحقيقة واحدة .

ومن عجب أن مناهضى فكرة التضامن الاسلامى تحولوا فجأة الى دعاة لها بعد معركة العار والشنار .. بعد خراب البصرة كما يقول المثل العامى ..

غير ان المسرح العربى لم يخل تماما من المأجورين .. فأذناب المؤامرة ، وعملاؤها من فلاسفة مقاهى الأرصفة و « بارات » الشوارع الخلفية ، ما يزالون يوقدون للفتنة بعد وشيك انطفائها !

ولنضرب على ما قدمنا له مثلا واحدا هو موقف بعض الدول العربية من الباكستان ومن مأساة التمزق التى عانتها وما تزال تعانيها تلك الدولة الشقيقة الكبرى !

يقول الرئيس « على بوتو » فى كتابه « دعوة للسلام » :

لقد صفيت الامبراطورية المغولية الاسلامية فى الهند سنة ١٨٥٧ بالاحتلال البريطانى ، وفى سنة ١٨٨٦ احتلت روسيا أراضى القوقاز ، ووصلت الى حدود ايران والافغان ، ثم احتلت بريطانيا الملايا فى أواخر القرن الماضى ، وقبل نهاية ذلك القرن خضعت الجزائر وتونس والمغرب والسودان ومصر وليبيا للاستعمار الأوروبى » .

« لقد كانت المشكلة الأولى التى واجهت ولادة دولة الباكستان ١٩٤٧ هى القضية الفلسطينية باعتبارها قضية اسلامية ، وكان موقف باكستان

منذ البداية ينطلق من أن وعد بلفور ، وانسحاب بريطانيا المفـاجىء من فلسطين مخالفان لوعد الدولة المنتدبة فى توفير المناخ المؤدى الى اسـتقلال الأقطار الرازحة تحت الانتداب ، وفق مبدأ حق تقرير المصير .. وان عمل بريطانيا فى زرع الصهيونية فى الشرق الأوسط ، مخالف للقـانون الدولى ولدستور المنظمة الدولية » .

« وكان فى مقدمة ممارسات السيادة فى الدولة الجديدة ، الرسالة الشديدة اللهجة التى وجهها الرئيس « محمد على جناح » الى الرئيس « ترومان » ، يطلب منه العزوف عن دعم المؤامرة البربرية لحرمان العرب من حقهم فى فلسطين ، التى هى وطنهم ووطن أجدادهم أكثر من ألف عام » .

« وعندما عرضت القضية الفلسطينية فى الجمعية العامة ، أعلن مندوب باكستان ــ السيد ظفر الله خان ــ أن موقف بلاده يشجب بشدة انشـاء دولة يهودية فى فلسطين ، وان مشروع التقسيم غير عملى وغير عادل ، واذا نفذ ، فسيقود الى صراع مستمر ؛ كما طالب بضرورة احالة القضية بصفتها القانونية الى محكمة العدل الدولية .. وأضاف ان باكستان تعطف على المشكلة اليهودية ، لكنها تعتقد أن حل تلك المشكلة يجب أن يكون باعادة توطين اليهود فى البلاد التى اخرجوا منها ، واذا تعذر ذلك فيجب أن يمنحـوا حق الاستقرار فى دول أقرب وأكبر ، وذات موارد غنية لا تتوفر فى بلد صـغير كفلسـطين » .

« وبعد قيام اسرائيل ، سلكت الباكستان حيالها طريقا لا ولن تحيد عنه هو موقف العداء المطلق الحاسم ، فرفضت الاعتراف بها وأيدت المطـالب القومية العربية سنة بعد سنة ، وقامت فى مقدمة الجبهة المدافعـة عن مبادىء العدالة والقانون الدولى ، التى أخلت بها الدول الكبرى حين وافقت على خلق دولة غريبة فى قلب العالم العربى » .

« وعندما كشف النقاب عن صفقة الأسلحة الألمانية لاسرائيل ، وقفت باكستان الى جانب الدول العربية بالرغم من علاقات المودة والصداقة التى تربطها بألمانيا الغربية » .

« وهكذا كان موقف باكستان من القضية الفلسطينية على الدوام مثلا يحتذى للاخوة الاسلامية والصراع ضد الامبريالية بوجوهها المختلفة ، بما يتفق مع روح الاسلام ، الذى يحارب الاضطهاد ، ويرنو الى قيام نظـام دولى مبنى على العدالة والصدق .. وهو ما عبر عنه المؤرخ الكبير « آرنولد توينبى » فى كتابه (Civilization on Trial) حين قال : « ان من الواضح أن روح الاسلام لو طبق اليوم لأصبح القوة الكابحة ضد التمييز العنصرى ، وأساس التسامح والسلام فى العالم » .

« فليس الاسلام ، ولا ما احتواه من مبادىء خالدة تتفق مع ثورة الانسان ضد الظلم والطغيان ، هى المبادىء التى يستوحيها قادة الدول الاسلاميـة اليوم ، ذلك لان الاسلام نفسه قد عانى أبشع أنواع الاستعمار الغـربى

الناجمة من عداوة أوروبا له . ومنذ الحروب الصليبية تعرضت الديار الاسلامية لموجات متلاحقة من الغزو الأجنبى . ومن المغرب الى اندونيسيا ، ذاق العالم الاسلامى الأمرين على أيدى القوى المجتاحة من بريطانيا الى فرنسا الى هولندا الى البرتغال » .

« لقد جاء الاسلام مبشرا بالعدالة والمساواة ، ولن يجد الباحث فى أية عقيدة اخرى ما يجده فى الاسلام ، من معنى الجهاد ضد الظلم والعدوان ان ذلك يكون جزءا من العقيدة لا تتم بدونه ، ولذا فالاسلام ملتزم اخلاقيا وتاريخيا بالنضال المستمر ضد كل انواع الاستغلال والاضطهاد ..

« وعلى هذا لم تكن باكستان منذ وجودها معنية بالقضية الفلسطينية وحدها ، بل وقفت موقف الدعم الكلى من قضايا الشعوب المسلمة وغيرها المناضلة فى سبيل استقلالها وكرامتها ، فأيدت بكل ثقلها ، استقلال ليبيا وبقية المستعمرات الاسلامية الرازحة تحت النير الايطالى كاريتريا والصومال وغيرها من قضايا التحرير ..

« وعندما بحثت قضية ليبيا المتحدة بالذات ، أصرت الباكستان سنة ١٩٤٩ على ضرورة تعيين لجنة دولية للعمل على تطوير ليبيا بسرعة لتنال استقلالها الناجز ، ووافقت الجمعية العامة على ذلك ، واختيرت الباكستان عضوا فى اللجنة الثلاثية المقترحة ، ولعبت دورا هاما فى منح ليبيا استقلالها سنة ١٩٥٢ ثم قبولها عضوا فى الهيئة الدولية سنة ١٩٥٥ .

« ولقد كان نضال دول المغرب العربى الاسلامى ، شغل باكستان الشاغل، فاستقبلت زعماء تلك الدول بالترحيب والهتاف ، وقدمت كل ما تستطيعه من دعم مادى ومعنوى فى تأييد ذلك النضال ، ولعبت دورا رئيسيا فى هيئة الأمم ، وانتخب مندوبها غير مرة متحدثا رسميا باسم كتلة الدول الآسيوية الأفريقيـــة » .

« وفى سنة ١٩٥٩ ، تراست وفد بلادى الى الجمعية العامة ، وحين بحث قضية الجزائر ، اختارنى رفاقى بالاجماع لأكون المتحدث الرسمى باسم تلك الكتلة ، فتقدمت بمشروع القرار المتضمن الاعتراف الكامل بحق الجزائر فى تقرير مصيرها والحصول على استقلالها .. وتضمن ذلك المشروع الدعوة الى مفاوضات عاجلة بين الحكومة الفرنسية ، وابطال الثورة الجزائرية ، للوصول الى تسوية سلمية فى اطار دستور المنظمة الدولية » .

« وجاء فيما قلته أمام الجمعية العامة : « اننى أحدثكم عن تلك البلاد التى مزق اوصالها العدوان ، حيث يجرى دم الابطال كالأنهار لتحرير بلادهم . اننى أعلن هنا ان باكستان تقف بصلابة وحزم مع شقيقتها المناضلة .. وفى الوقت الذى نرى هنا ممثلى العديد من الدول الأفريقية المستقلة حديثا ، فاننا نلاحظ مع الأسف الشديد غياب الجزائر » ..

« وفى سنة ١٩٦١ كانت الباكستان فى مقدمة الدول التى اعترفت بحكومة المنفى الجزائرية ، مخاطرة بذلك فى خسران الدعم الفرنسى فى مجلس الأمن ، لقضية كشمير » .

ثم يتطرق الرئيس بوتو الى علاقة باكستان بالدول العربية المشرقية فيقول : « لقد كانت مصر فى نظرنا دائما فى موضع الأهمية القصوى ، ليس لمساحتها الشاسعة أو موقعها الاستراتيجى أو تراثها الثقافى فحسب ، بل بسبب التغييرات الجوهرية الكثيرة التى طرأت على مجتمعها الداخلى ، وشخصيتها الدولية منذ تولى مقاليد الحكم فيها الرئيس جمال عبد الناصر . فمنذئذ بدا ان مصر تنهض بدور قيادى فى قضايا العالم العربى .. لهذا السبب ، ولكون مصر مصدر الاشعاع الاسلامى ، كانت باكستان تولى عناية خاصة لاقامة علاقات أخوية متينة معها ، انه لمن دواعى أسفنا الشديد تعرض تلك العلاقات بين الفينة والفينة للمشاكل والمضاعفات ، مع اننا كنا نقف على الدوام الى جوار مصر فى نضالها ضد الامبريالية » .

« لقد اختار عبد الناصر ، مبدأ عدم الانحياز فى سياسته الخارجية واضطرت باكستان نظرا لظروفها الخاصة الى عقد اتفاقية مع الولايات المتحدة للحصول على مساعدات عسكرية ، ثم انضمت سنة ١٩٥٤ الى حلف « السنتو » لحماية حدودها من التهديد الهندى المستمر ، وبعد سنة انضمت الى حلف بغداد » .

« وقد ثارت ثائرة مصر ضد هذا الحلف بوجه خاص ، اذ اعتبرته أداة لتمزيق الصف العربى ، والتطوح فى احضان الاستعمار الغربى من جديد .. وعلى اثر ذلك الخلاف فى الرأى ، أعربت بعض الدوائر العربية عن مخاوفها من تبدل سياسة باكستان ازاء القضية الفلسطينية ، فسارعت باكستان الى التأكيد بأن عضويتها فى الحلفين لا يمكن أن تؤثر بحال على موقفها من قضايا التحرر فى العالم ، خاصة قضايا الدول العربية والاسلامية » .

« وعندما أمم عبد الناصر قناة السويس ، سارعنا الى تأييد خطوته كمظهر لسيادة مصر على ممتلكاتها ، بالرغم مما الحقه ذلك الاجراء من اضرار مادية فادحة بالباكستان ، اذ كان ما يزيد على ٥٠٪ من تصديرها واستيرادها يمر عبر القناة » .

« ولم تكتف الباكستان بذلك ، بل بذلت كافة جهودها لتحذير بريطانيا ، من مغبة الاقدام على عمل عسكرى لفرض رقابة دولية على القناة ، أو محاولة القضاء على النظام الناصرى .. وان اى اجراء يرمى الى املاء الشروط على مصر ، يعتبر خرقا لدستور الأمم المتحدة » .

« واثناء العدوان الثلاثى ، هبت باكستان هبة رجل واحد للتنديد بالمعتدين وعمت التظاهرات المدن الباكستانية من اقصاها الى أقصاها ، مناصرة للشعب المصرى . واشتركت باكستان فى الهيئة الدولية فى كل نشاط او تحرك لوقف اطلاق النار وانسحاب المعتدين » .

« لقد كان ناصر يعتقد مخطئا أن موقف باكستان فى المؤتمرات الدولية التى عقدت فى لندن حينذاك لم يكن موقف المساعد والنصير ، وبناء على هذا الاعتقاد رفض زيارة رئيس وزراء باكستان لمصر ، كما رفض اشتراك قوات عسكرية باكستانية فى القوة الدولية التى انتدبتها الأمم المتحدة لتكون عازلا بين مصر واسرائيل » !

« ونشطت الدعاية المصرية ضد باكستان بضراوة وعنف ، ثم عادت العلاقات الى مجاريها الطبيعية بعد ثورة العراق ، وثورة الباكستان اللتين ابعدتا عن المسرح بعض الوجوه السياسية التى لم يكن الرئيس ناصر يطمئن اليها » .

« وفى سنة ١٩٦٠ قام الرئيس ناصر بزيارة رسمية لباكستان . ونتيجة للابحاث التى جرت بينه وبين الرئيس ايوب خان خلال تلك الزيارة تحسنت العلاقات بين البلدين . وعندما رد الرئيس أيوب خان الزيارة قوبل بحرارة وحماس ، وكان لخطابه الذى القاه فى القاهرة وحلل فيه اسباب تأخر المجتمعات الاسلامية الأثر العميق فى كافة اقطار الشرق الأوسط » .

« وفى سنة ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، طرأ تدهور بسيط على العلاقات بين البلدين ، فقد اعترضت مصر على قيام باكستان ببيع كمية من البنادق والعتاد الى السعودية زاعمة ان هذه الأسلحة قد حولت الى القوات الملكية فى اليمن لاستعمالها ضد القوات المصرية ، مع أن تلك الصفقة الصغيرة لم تكن اكثر من صفقة عادية بين دولتين شقيقتين ، وبالرغم من ذلك اوقفت الباكستان عملية البيع والشراء تجاوبا مع الانفعال المصرى وتمشيا مع سياستها بعدم التدخل فى اية نزاعات داخلية بين الدول الأخرى وتدليلا على حسن نيتها ، سارعت الى الاعتراف بالنظام الجمهورى فى اليمن » .

« وبالرغم من العواطف الأخوية الصادقة التى تكنها باكستان لشقيقتها مصر ، فقد كان موقف المندوب المصرى فى مجلس الأمن عند بحث المشكلة الكشميرية أوائل سنة ١٩٦٢ موقفا متحيزا احدث خيبة أمل مريرة . وفى سنة ١٩٦٤ اتفقت مصر والهند على التعاون فى انتاج طائرات مقاتلة ، ومع كل هذه المنغصات ، فان باكستان لم تفتر لحظة واحدة فى بذل مساعيها ، ومحاولاتها المتكررة لتصفية الجو بين الشقيقتين » .

« لقد كان من النتائج المباشرة لحلف بغداد ، اتفاق الدول الاسلامية الثلاث ، باكستان وتركيا وايران على اقامة حلف اقليمى للتنمية فى تموز سنة ١٩٦٣ واصبح ذلك الاتفاق رمزا لأمل المستقبل فى تضامن اسلامى ازاء المؤتمرات الاستعمارية والصهيونية لتمزيق شمل الأمة الاسلامية ، واشاعة جو من الشك بين الاخوة .. وبهذه النية اتفقت باكستان وافغانستان على خلافات الحدود التى كانت خلافات طارئة ومفتعلة ولا ينبغى بحال أن تؤثر هى ومثيلاتها من المشاكل الجانبية ، فى روابط الأخوة وللدين والتاريخ المشترك التى يجب أن تقوم بين الشعوب الاسلامية » .

« وغنى عن الذكر أن سياسة باكستان نحو الدول الاسلامية لم تكن فى يوم من الأيام ، مبنية على المنفعة والمصالح الخاصة ، بل على اسس العقيدة المقدسة المتطلعة الى غرض أسمى هو النهوض بالعالم الاسلامى ، والتزمت باكستان على الدوام بالمثل العربى القائل : « الأقربون أولى بالمعــروف » ، ولذا كنا معنيين عناية خاصة بأحوال الأقلية المسلمة فى الهند ، فلقد كنــا نأمل أن تعيش الأقليات الدينية فى البلدين بعد انفصالهما فى أمن وسلام ، متحررة من الخوف والاضطهاد ، وعلى الرغم من أن الاتفاقية التى عقــدت بين « لياقت ونهرو » سنة ١٩٥٠ اشترطت منح الأقليات المساواة المطلقة ، وحقوق المواطنة الكاملة ، فان حالة الخمسين مليون مسلم فى الهند كانت تتدهور من سيىء الى أسوأ .. وشهدت الهند منذ ذلك التاريخ (٥٥٠) حادثة اضطهاد للمسلمين واعتداء على حرياتهم الدينية ، فى بلد يدعى العلمانية وخلت جميع الكتب التى ألفت عن تاريخ الهند من اية اشارة الى مشاركة المسلمين فى صنع الثقافة والحضارة الهندية . ويمكن الحكم على هذا التميز العنصرى والدينى مما قاله رئيس « ماهاصابها » : « يجب بتر العنصر الاسلامى من الكيان القومى للهند الذى هو كيان « هندو لا غــير » ! وبذا أصبحت الأقلية المسلمة فى الهند بمثابة رهينة فى الأزمات السياسية ازاء باكستان ، ولم تحرك الحكومة الهندية ساكنا لمنع المذابح الجماعية الرهيبة التى تعرض لها المسلمون وما يزالون ، مما استثار مراقبا أجنبيا محــايدا هو « سلنج هاريسون » فكتب فى مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية فى عدد كانون الثانى ١٩٦٥ : « ان العلمانية فى الهند تلفظ انفاسها فقد افلست الحكومة الهندية فى اقامة كيان متناسق يؤلف وحــدة وطنية بين الأكثرية الهندوكية والاقلية المسلمة » .

« وقد ضاعت جميع مساعى الباكستان لحماية حقوق الأقلية المســلمة فى الهند هباء ، مما اضطرها للرجوع الى هيئة الأمم المتحدة للفت الضــمير العالمى الى تلك الفظائع المتكررة .. ومن المؤسف حقا ان الرأى العام فى الدول الاسلامية على الرغم من وضوح تلك المشكلة الانسانية ، لم يتعاطف مع نداءات باكستان المتكررة حول هذا الموضوع ، مع أن مسلمى الهنــد لم يتوانوا عن مد يد العون المــادى والمعنوى فى كل أزمة تصيب أطــراف العالم الاسلامى وبالاضافة الى قصة تلك الأقلية المظلومة ، فان الهنــد ما تزال تحتل القسم الأكبر من كشمير بالحديد والنار ، وتمارس أبشع المظالم نحو شعب أسير أعزل مغلوب على أمره ، بالرغم من اعتراف جميع دول العالم بحق تقرير المصير للشعوب المضطهدة » .

« ان الشعوب الاسلامية تمتد اليوم من « الاتلانتيك الى الباســفيك » وهى اذ تتخالف وتتناقض فى نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصــادية فهى أحوج ما تكون الى حد أدنى من التضامن لتنسيق شؤونها فى اطــار الاسلام الذى يستطيع أن يلغى تلك التناقضات » .

« ان القومية فى الاسلام ، لا تتعارض مع الأممية ، وروح الاســلام قوة دفع جامعة وقد بدأت تعمل هذه الروح عملها اليوم فى العالم ، فالدول العربية تتجه الى الوحدة فى نطاق شمول التضامن الاسلامى ، واذا استطاع قادة الدول الاسلامية انتهاج اللقاءات الجماعية على مستوى القمة فى هدى

تلك الروح فان ذلك سيكون بشيرا بنهضة اسلامية شاملة ، وانبعاث اسلامى جديد يتجاوب ويتفاعل مع الرغبة الدولية العامة فى اقامة نظام عالمى مشيد على اسس المساواة والعدل والأخوة الانسانية » .

« ان مفكرى الاسلام اليوم واعون لحركة الكشوف العلمية والمنجزات التكنية ، وعليهم تقع مهمة اللحوق بركب الحضارة الانسانية فى ظل تراثهم وتعاليم دينهم ، وكل ما ينقصنا هو أن نحسن التنسيق بين الأمانى القومية والضرورات الاقليمية ، وربط ذلك بالحقائق الدولية » .

« ان لباكستان دورا هاما فى حركة التطور هذه ، بحكم موقعها الجغرافى الذى يربط شرق آسيا الاسلامى بغربها .. وبحكم طبيعة تكوينها الذى انشئت على أساسه ، وقد ورث الشعب الباكستانى الكثير من الحضارات التى تعاقبت عليه واستطاع ان يمتصها ويتمثلها ويستفيد منها ، بوعى اسلامى ، بالاضافة الى التأثير المباشر للحضارة الغربية ، مما يؤهل الباكستان لبناء جسور التعاون مع شقيقاتها المسلمات ، والموائمة بين الشرق والغرب فى سبيل عالم افضل » .

« واذا كانت هذه الأفكار فى معرض الدلالة على أهمية الباكستان ودورها الساطع فى المنهج الاسلامى والنطاق العالمى ، تشبه الحلم الوردى ، فلعلى لا ابعد عن الحقيقة اذا قلت ان تحقيق هذا الحلم منوط بالامتلاء به واعتباره المحرك الفعلى للنوايا والاتجاهات » .

لقد سقنا لقارىء هذه المقتطفات الطويلة من كتاب الرئيس على بوتو الذى وضعه قبل انفصال البنغال ، ليدرك معنا أبعاد المؤامرة الهندية الروسية الغربية الصهيونية ، لتمزيق شمل هذه الدولة ، التى حملت فى عقول ابنائها وقلوبهم آمال الريادة لأمانى الشعوب الاسلامية فى انبعاث جديد سداه العقيدة الالهية ولحمته الشريعة الغراء .

والذى اتيح له ان يتابع صخب الأبواق المسعورة ، ابان المحنة الباكستانية، من شرقية وغربية وصهيونية وعربية .. التى هللت لتلك المأساة تهليل التشفى والكراهية ، قمين بأن يحيط بأبعاد المؤامرة ومسبباتها ..

ولم يك ذلك بمستغرب ، فالمعركة هنا ، وهناك كانت وما تزال ، هى معركة الاسلام ، لكن المستغرب والمحزن حقا ، ان تشارك بعض الدول العربية مدعية التقدمية ، بما يجتاحها من تيارات يسارية هادرة ، ومذهبيات حزبية متناقضة متنافرة ، فى الجريمة النذلة ، بتوجيه سموم الحقد ، وسهام الغدر الى الطريدة المثخنة بجراحها ، نكاية فى الاسلام والمسلمين ، لا حرصا على مصلحة الشعب البنغالى او حبا فى مسيلمة القرن العشرين الشيخ مجيب الرحمن !!

لقد كان تفتيت الباكستان ، فرحة القائلين بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة ، وقصور الاسلام عن ان يكون أساس وحدة سياسية .. حتى لقد بلغ الغرض والشطط والسخف ، ببعض صبية مفكرينا الذين تجلببوا بالتقدمية

واليسارية ليطعنوا الاسلام ، ويعيقوا حركة التضامن الاسلامى ، ان كتب احدهم فى جريدة الجمهورية المصرية تحت عنوان : « مناخ افضل للسلام » يقول : « كسبت قوى التحرر الوطنى ، وجبهة عدم الانحياز المعادية للامبريالية دولة فتية جديدة هى « بنجلاديش » ، لأن انتماء باكستان الموحدة للاحلاف العسكرية كان يشكل عامل ضغط كبير ضد الهند يؤثر على حركتها التقدمية ويرغمها على اقتطاع مبالغ غير قليلة ، لاغراض السلاح والدفاع ، بدلا من أن تذهب الى التنمية » !

الكاتب العربى المسلم التقدمى ، هذا ، حريص على حركة الهند التقدمية واغراض التنمية فيها اكثر من حرصه على وحدة اكبردولة اسلامية واكبر تجربة اسلامية رائدة معاصرة ؟ !

ولو نحن ذهبنا مع هذا المنطق الاسود الى آخر الشوط ، لبطلت حجتنا فى مقارعة اسرائيل التقدمية ! واغراض التنمية فيها ! ولتبخر حقنا فى فلسطيننا ومقدساتنا ، بل لانهدمت فكرة الوحدة العربية من اساسها ، لأن الفرق بين « قبيلتى » البنجاب والبنغال ، واعتبارهما قوميتين متنافرتين ، لا يرقى الى الفرق بين اليمن وتونس ، مثلا ، أو بين مصر والشام !!

ولا يقتصر هذا الشطط على الفئات من المتعيشين بفتات المؤائد الماركسية او العمالة لـ C.I.A. والـ C.I.D. والـ K B.G, والاسترزاق من سحت الصهيونية ومقتها ، بل يتعداه الى اساتذة كبار ، اعماهم الهوى عن رؤية الحقائق الباهرة ، حتى ليقول رجل كالدكتور البزاز ، فى بعض تعميماته الفضفاضة المفتقرة الى الحجة والمنطق : « فى اثناء العدوان الثلاثى وعلى الرغم من حسن مشاعر الشعب الباكستانى المسلم ، فقد كانت دولة الهند ، افضل عشرات المرات من دولة باكستان فى علاقتها الدولية بمصر » !

ونحن لن تدفعنا العاطفة المجردة الى اتهام هؤلاء واولئك ، بالكذب والتزييف والتزوير ، فان محاضر مجلس الأمن والجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة دليل حسى وبرهان قاطع يلقف افك العملاء ، وهى تثبت أن موقف الباكستان من القضايا العربية ، والاسلامية ، وفى مقدمتها قضية فلسطين ، اشرف وافضل الف مرة من مواقف بعض الدول العربية ، ولا اقول كلها !

ومع ذلك كله جزينا الباكستان جزاء « سنمار » ، بفرح فلاسفة المواخير والبارات لأحزانها ، ويشفون علل انفسهم واحقاد قلوبهم بتمزقها ، ويقيمون من بوقاتهم الداعرة فى موازاة ابواق اسرائيل ، ستارا رهيبا يعكر صفو الحقيقة ، وينظم اكاليل الغار واهازيج المديح للقوات الغازية التى ستقضى على التجربة الرائدة الفريدة فى هذا الزمن الملطخ بأوساخ العملاء والملحدين.

وختام القصة المشينة ، اعتراف فيلسوف الثورات وصاحب الصراحات ، بل الصراعات ، فى دلهى قبل اشهر ، بفخر واعتزاز ان معظم الاسلحة الروسية الثقيلة التى زودت بها الهند ، اثناء الغزو ، قد نقلت اليها من مصر ، بلد الازهر ، وقلعة الاسلام !!

ارايت قبلنا امة تهزج فى افراح اعدائها ، وتلطخ امجاد تاريخها بالعار !؟

يقول « هيكل » فى مقاله بالاهرام عدد ١٩٧٣/٣/٤ فى معرض مقابلته مع امبراطورة الهند ــ انديرا غاندى ــ :

« لقد حققت الهند نجاحا استراتيجيا كبيرا ، كان لها عدوان : باكستان والصين ، وقد استطاعت ان تصفى حساباتها مع باكستان فساعدت على استقلال شرق باكستان وتمكنت فى الوقت نفسه من توجيه ضربة عسكرية الى غرب باكستان ، وهكذا تخلصت الهند من كابوس الخطر الزاحف عليها من جبهتين ، ولم تبق امامها الا جبهة واحدة : الصين : ويتنبأ هيكل بأن لابد أن تصل الى مصالحة مع الصين !

هكذا يعرب هيكل عن فرحته بانتصار الهند وتمزق باكستان ... لماذا الباكستان ؟ وهل يصدق عاقل أن باكستان كانت تشكل خطرا حقيقيا على الهند ؟ الم يكن الخلاف الوحيد بين الدولتين مقتصرا على مشكلة « كشمير » ذات الاكثرية المسلمة .. وان حل تلك المشكلة قد اوصت به الامم المتحدة ، على أساس حق تقرير المصير ، واستفتاء حر باشراف دولى ، وكانت الهند ترفض دائما هذا الحل المتفق مع المنطق والحق والاعراف الدولية ، وشرعة الامم المتحدة وقراراتها المتعاقبة ؟ » .

واغرب ما فى حديث هيكل ومسز غاندى ، سؤالها له : هل هناك عدول عن فكرة الدولة العلمانية فى مصر ؟

انديرا غاندى مهتمة بعلمانية الدولة فى مصر ، وفى نيودلهى وحـــدها عشرون الف بقرة تسرح وتمرح محافظة على المذهب الهندوكى ؟ !

انديرا غاندى التى يفاخر أصدقاؤها المؤمنون بجدارتها وتقدميتها : انها استطاعت ان توازن بين ما تركته الهندوكية من فلسفات ومبادىء وافكار وبين ما تفرضه الثورة العصرية .. اســتطاعت أن تسير فوق خطــين متوازيين ، من الروحانية والمادية ..

وهل نطلب نحن للباكستان ولانفسنا الا أن نوازن بين مقومات تراثنا العظيم وبين ما تفرضه الثورة العصرية ؟؟

لكن النقاش الهادف والحوار الجاد لم يمارس يوما فى منطقتنا فى جو حميم من الموضوعية يستند الى المقارنة السديدة والتقييم السليم ..

الحوار الدائر فى منطقتنا يمارس بالارهاب الفكرى المغلق ، وينطلق من أن الفكر الدينى لا يصلح اساسا لتضامن أو تكتل أو توحد .. ان رجعية الاسلام ، فيما يافكون ، حقيقة مسلم بها قد تقررت وانتهت ، قبل أن نفهم الاسلام أو ندرك من مبادئه القليل أو الكثير !!

ولذا كان الهجوم على باكستان والتشفى باحزانها .. هجوما مغلفا على الاسلام ..

ولقد ساعدت الساسة والعسكر فى باكستان على تأجيج الفتنة فعملوا على تحويل تيار الحركة الاسلامية عن مجراه الصحيح ، فعجزوا عن خلق الدولة المسلمة التى كانت الهدف الأول للانفصال عن الهند ، بل ساهموا فى محاربة الدعوة ومقاومتها حفاظا على مكاسب السلطة والحكم ، فانحل الرباط الذى جمع بين الشرق والغرب فى الدولة الفتية ، ونشطت العصبيات القبلية والعشائرية بين البنغال والبنجاب ، وانجرفت الدولة المركزية فى غرب باكستان عن الطريق المرسوم المحتوم ، فأغرقت نفسها فى مهاوى التفرقة العرقية ، وشاركت جميع القوى العالمية وفى مقدمتها الهند فى تثوير وتنظير فكرة العلمانية ، فوقع المحذور وهو تفتت الدولة الباكستانية الاسلامية الرائدة ، الى باكستان غريبة تئن من وقع النصال ، وبنغلاديش علمانية تبحث لنفسها عن هوية وسط التيارات المتضاربة ، ولن تجدها !

هكذا تصنع وتنفذ المؤامرات ضد الاسلام والمسلمين ، فى كل زمان ، وكل مكان !

وقد كانت رحلة هيكل وصحبه الى الشرق الاقصى فى اوائل هذه السنة رحلة دراسة واستطلاع فيما زعموا وزيفوا ، ثم تبين من المقالات التى كتبوها حين عادوا ، انها رحلة استكشاف ايديولوجيات جديدة يشوهون بها حركة الوعى العربى الاسلامى التى اخذت تتغلغل فى الجماهير العربية بعد حرب الخزى والهوان سنة ١٩٦٧ ، تلك الحرب التى شنها اصحاب الايديولوجيات الدخيلة بالتعاون مع صديقتهم اسرائيل التقدمية جدا ، للقضاء على الخطر الحقيقى الوحيد الذى يزلزل الصهيونية وهو الايمان !

فيقول أحدهم : « ان تحدى الهند لمشكلاتها الكثيرة منبثق من تمسكها العنيد بتقاليد المؤسسات والحريات الديمقراطية التى صاغها الفكر الليبرالى الغربى » .

ومعنى هذا القول مفضوح لا يحتاج الى تفسير او تأويل .. معناه : أيها العرب والمسلمون ، ان عليكم لمواجهة مشاكلكم ان تأخذوا بالمسطرة والبيكار ، ما صاغه الفكر الليبرالى الغربى . اما الفكر الليبرالى الاسلامى، فلا يستحق الا الترك والكراهية والبغضاء !

ويقول هيكل : « ان تمزيق باكستان يصعب عليه ان يجد قبولا وتبريرا تحت دعوى أنها مؤامرة على الاسلام ، لأن الاسلام باق فى شرق باكستان كما هو باق فى غربها » .

وتجىء أحداث الأسبوع التالى لتصفع ما كتب ، فبينما اعلنت الجمعية التأسيسية فى باكستان الغربية اعتبار الدولة الباكستانية دولة اسلامية اعلن دستور « بانغلاديش » : ان باكستان الشرقية دولة اشتراكية شعبية علمانية ، وهى الصيغة التى تنطبق على الدول المعادية للاسلام !!

اسلام هيكل وصحبه هو — فيما يبدو — طقوس وتوسلات وعبادات ، وترهب وانعزال ، تقف كلها عند عتبة المسجد ، أما اسلامنا نحن ، فان عتبة المسجد فيه هى الخطوة الأولى نحو حضارة الانسان « السوبرمان » !

وقد عاد هيكل ورفاقه من الصين بانطباع واحد ، أخذوا يلحون فيه الحاحا مريبا ! هذا الانطباع يتمثل فى ان الانسان الجديد فى الصين لا يؤمن بالغيبيات — يقصدون انه لا يؤمن بالله — ولا يسمح لنفسه ان تخضع لهيمنتها وسيطرتها ، ولذلك فهو لا يخشى القدر أو المستقبل او كل ما لا يدركه عقله المتمدن فالمعروف أن من يرهب القوى الغيبية يعجز عن الاستعداد لمواجهة المستقبل » !

يقولون هذا وهم يعلمون أن من لا يؤمن بالله ، . . من لا يؤمن بعقيدة لا يؤرته الثأر من اسرائيل !

ومؤدى أقوالهم أن الايمان بالله هو سبب تخلف الشرق وعجزه عن الاستعداد لمواجهة المستقبل ، وان العقل المتمدن يرفض الالوهية . وجهلهم الفاضح الذى ينضحون به هو أن المؤمن يخشى التدبير ويرهب المستقبل ؛ وغير مستغرب ممن تتلمذوا فى أحضان الارساليات والصهيونية أن يجهلوا المسلم الذى لا يخشى القدر ، بل يواجه مشاكل الحياة وكأنه سيعيش أبدا لا يتردد ، ولا يتهيب ، ولا يذل ولا يهون !

ويمضى هيكل فيقول : « ان المجتمع الصينى هو مجتمع الفضيلة ، لا أحد يكذب ، لا أحد يسرق ؟ لا أحد يتواكل ، لأن روح التنظيم موجودة فى عقيدة الصين التاريخية الأولى - وهى عقيدة « كونفوشيوس » ذلك أن الحضارة الصينية لم تنقطع طوال التاريخ فى حين أن الحضارة المصرية مثلا انكسرت وانقرضت بعد عهد الاسرات ، ولأن « الكونفوشيوسية » .. لم تأت الى الصين بأية اساطير غيبية ، فهى تحترم الروح ولكنها تحض على ابقاء مسافة بين الأرواح والعقول ، ولذا فان آسيا تشاهد اليوم نشأة نوع من التحالفات غير العقائدية » !

وما يمكن استنتاجه من منطق هيكل أنه يعنى بالحضارة المصرية ، حضارة الفراعنة ، ويلغى الحضارة الاسلامية فى حياة المصريين ، ويود لو بتر علاقة مصر بالعروبة والاسلام ، ولو تعمق هيكل دراسة الاسلام ، قبل أن يقدم على هذا الجهل الغليظ ؛ لعلم أن المجتمع المسلم هو وحده مجتمع الفضيلة المتكامل المتوازن المتضامن الذى لا يحتاج الفرد فيه أن يكذب أو يسرق او يغدر أو يقتل ، لأن ذلك مخالف للناموس الالهى لا لدستور « ماوتسى تونج » .

غير ان هيكلا لا يخفى عداوته للعروبة والاسلام فى كل مناسبة متاحة ، فهو لا يفتأ يعيد ويكرر ان امتداد الفتح الاسلامى لمصر ، هو موجة من موجات الاستعمار التى ابتليت بها مصر ، كالاستعمار البريطانى سواء بسواء !

وفى مقابلة مع الرئيس على بوتو ، يكتب هيكل : ان العوامل التى أدت الى انفصال باكستان عن الهند ، جعلتها تبحث لنفسها عن أمنها بوسائل متعددة :

١ — الحماسة الزائدة للاحلاف العسكرية الغربية .

٢ — الولاء المطلق لمخططات الولايات المتحدة الأمريكية .

٣ — تغطية ذلك كله أو تعزيزه بالانتماء الاسلامى .

وفى وقت من الأوقات كانت فكرة حلف بغداد أصلا واساسا هى فكرة حلف اسلامى يحلم به راسمو السياسة الأمريكية ، ويتمنونه مستندا على تركيا ومصر وباكستان وعندما رفضته مصر ، وتحولت نقطة الوسط من القاهرة الى بغداد ، اتخذ الحلف اتجاها آخر ، ومع ذلك بقيت فكرة الحلف الاسلامى فى خيالات راسمى السياسة الاميركية تظهر وتختفى ، وتسخن وتبرد وفق تطور الظروف !

ونحن نهين العقل والمنطق اذا اردنا ان نناقش هذه الآراء الفجة ، وهذه العهارة الفكرية المقصودة !

وهل تحتاج العهارة المكشوفة المفضوحة الى من يدل عليها ؟

وكيف يقبل من له مسكة من عقل ، منطق هيكل بأن حلف بغداد هــو حلف اسلامى ، من صنع الاستعمار ؟ .. وكيف يكون اسلاميا ، ويكون استعماريا فى نفس الوقت ؟ وهل انكلترا والولايات المتحدة ، العضوان فى الحلف هما دولتان اسلاميتان ؟

ومتى كان ولاء باكستان مطلقا لمخططات الولايات المتحــدة .. وكيف واين ؟ .

وهل كان انفصال باكستان عن الهند مغطى حقا بالانتماء الاسلامى ؟ .. وارجو أن يتنبه القارىء معنا الى كلمة مغطى التى تعنى فى منطق هيكل المغطى على بصيرته أن الانتماء الاسلامي كان غطاء لموقف خاطىء .. اى ان الباكستان لم تكن صادقة ولا جادة ولا مخلصة فى انتمائها ذاك ؟!

ومتى كان الانتماء الاسلامى رداء يخلع ويلبس فى المناسبات ؟

والانكى من ذلك ان يقول هيكل فى تبرير ما كان ذكره فى الهند : « بأن المساعدات العسكرية السوفيتية الكثيفة قد وصلت الى الهند عن طريق مصر » . « ولماذا ننسى أن هناك سلاحا وصل الى باكستان من دول عربية لم تخف موقفها وانما أعلنته » ... الله أكبر ! مساعدة دولة اســلامية لشقيقة اسلامية تقاسى محنة الغزو والتفسخ تساوى فى منطق هيكل مساعدة دولة اسلامية لدولة غير اسلامية غازية ومعتدية اعتداء فاضحا فادحا على دولة اسلامية شقيقة !!

وكان اول سـؤال وجهه هيكل الى الرئيس بوتو قوله : اننى المح فى بعض تطبيقاتك الاشتراكية آثارا واضحة من تجربة عبد الناصر » ؟ .. وكم وكم فعلت بنا تجربة عبد الناصر !!

فكان رد بوتو على هذا السؤال الوقح ، استهلاله حديثه بقوله : نحن نشكر الله لأننا مسلمون !

وقال بوتو : ان اسرائيل ساهمت فى تمزيق باكستان — اى كمصر بالتمام والكمال — مصر هيكل المنحرف الملحد ، لا مصر ، السادات المؤمن المسلم ! — بل اكثر من ذلك : ان الخطة لم توضع فى نيودلهى ، بل وضعت فى تل أبيب !

وكان جواب هيكل الوقح على هذا ايضا : سيادة الرئيس أننى سمعت بعض الاصدقاء الباكستانيين يشيرون الى هذا ، ولكن أحدا منهم لم يقدم لى دليلا عليه .. وكأنما يريد هيكل أن يدفع التهمة عن اسرائيل !!

وحاول هيكل فى حديثه مع الجنرال « تيكاخان » قائد الجيش الباكستانى، ان يفلسف مؤامرة تمزيق الباكستان ، فيعزوها الى طموح قومى لدى « بنغلاديش » له ظروفه واسبابه ! ولو اخذنا بهذا المنطق لقلنا ان من حق كل قبيلة عربية أن ترنو الى طموح قومى ! ولسهل على اليهود ان يقولوا : ان قيام اسرائيل هو كذلك تحقيق لطموح قومى ! اهذا هو ما يريده هيكل ؟؟!

ويصف « تيكاخان » ما وقع فيقول : « ان الاخرين جميعا كانوا طرفا فى مؤامرة واحدة علينا .. كانت مؤامرة تضم الهنود والسوفييت وبريطانيا وامريكا . وبداوا يملأون العالم بدعايات ضدنا » .

كان تيكاخان يؤكد ان مؤامرة تمزيق الباكستان كانت مؤامرة مخططا لها من جميع الأطراف والقوى الدولية المعادية للاسلام .. أما تفسير هيكل فهو التفسير الذى يجعله هو نفسه طرفا متعاطفا مع المؤامرة حين يقول : « ان دوافع الهند للتدخل فى النزاع هو خصومتها المستمرة مع باكستان ، ودوافع السوفييت هى تأييد الهند تحديا للصين .. ودوافع الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية هى الاستفادة من الصراع الصينى السوفييتى ».

قد تكون هذه اللعبة ، وتوزيع الادوار على القوى الدولية المتصارعة .. قد يكون ذلك كله صادقا فى أية بقعة فى العالم الا فى الباكستان ...

ذلك أن قصة الباكستان هي بصورة مختصرة قصة الصراع ضد الاسلام كما هو حادث فى كل مكان وخاصة فى الشرق الاوسط اليوم ..

ولم تكن المؤامرة من نظم وتلحين الاعداء وحدهم ، بل شاركت فيها القيادة العسكرية الغبية فى باكستان نفسها .. والنزاعات السياسية بين القيادات والزعامات التى ابتعدت بهم عن الغرض الاساسى من قيام الدولة لتكون منطلقا لتجربة حكم اسلامى مدعومة بحركة وعى وانبعاث وأحياء للشريعة الغراء على أساس الكتاب والسنة .. ولو تم لها ذلك ، لما وقعت باكستان فى الشرك المنصوب !

ولم يكتف « هيكل » فى مقابلاته مع المسؤولين الباكستانيين ، بالتحيز الفاضح المخجل للهند ضد الباكستان ، بل هو قد تو..ا عامدا متعمدا بالمغالطة ، والكذب والتزوير .

فعلى أثر صدور مقاله الخاص بمقابلته مع الجنرال « تيكاخان » رئيس اركان الجيش الباكستانى .. بعث الملحق الصحفى فى السفارة الباكستانية بالقاهرة برسالة الى الأستاذ حسنين هيكل ، تفند معظم ما اورده حول تلك المقابلة .

وقد نشر نص الرسالة فى عدد جريدة « باكستان تايمز » الصادر فى ١٩٧٣/٥/١٩ كما تضمن نفس العدد ، تصويبات كثيرة لما ورد فى مقال هيكل من قبل الجنرال نفسه !

فقد أكد الجنرال عندما قرأ مقال هيكل : استغرابه ، بل استنكاره لما احتواه المقال من تعميمات وافتراضات غير صحيحة لأنه لم يقلها ، من كاتب مشهور كهيكل فى بلد شقيق كمصر ، حول قضية ذات حساسية خاصة كمأساة تمزيق الباكستان . وقد رفض هيكل نشر هذه الردود فى الاهرام مخالفا بذلك اولى بديهيات شرف المهنة وحكم القانون ، ان لم نقل سلوك الانسان الشريف !!

ولست أحب أن امل القارىء بايراد النص الكامل لتلك الرسالة والتصويبات التى تملأ اكثر من عشرين صفحة من صفحات هذا الكتاب ؛ لكننى اجتزىء ببعض النقاط البارزة .

يقول الجنرال « تيكاخان » : « ان هيكل قد تعمد تقويله ما لم يقل ، بل لم يخطر على بال ، لتاكيد نظرية خاصة به استقرت فى ذهنه عن طبيعة الكفاح السياسى فى العصور الحديثة واسبابه واهدافه .. كما أنه تعمد حذف بعض المقاطع الهامة التى تلقى اضواء ساطعة على مجرى الاحداث ، محاولا التوفيق بين نظريته تلك وبين ما ساقه على لسانى وأنا منه براء ، ولذا اتسم مقاله بالخلط والتخبط والبعد عن الحقيقة .. بل ازدراء الحقيقة !

من مغالطاته مثلا قوله : اننى ذكرت له أن الرئيس على بوتو قد أوعز الى بأن احيطه علما بمسلسل الحوادث بصراحة وتفصيل ، مع أن هذا لم يقع ، لسبب بسيط هو ان مقابلة هيكل مع الرئيس بوتو قد تمت بعد مقابلته اياى ، وان موعد المقابلة قد حدد بواسطة وزارة الاعلام . ولعل هيكل قد حشر اسم الرئيس ليضفى طابع الاهمية على نفسه وعلى حديثه !

وقد ذكر هيكل أن حوادث اغتصاب النساء فى شرق باكستان من قبل الجنود قد بلغت أربعة آلاف ، وان الخسائر فى الارواح بلغت مئات الالوف .. مع أننى اكدت له أن الخسائر البشرية لا تزيد فى أعلى تقدير على ثلاثين الفا ، وان حوادث الاغتصاب لا تزيد على أربعين ، واعلمته اننى أوعزت حينذاك كمسلم لا يقر مثل تلك المنكرات ، باطلاق النار فورا على كل من ارتكب مثل تلك الجريمة ..

وهكذا اغفل هيكل كلامى ، واعتمد ما ذكرته الابواق المأجورة الكاذبة !

وقد عرضت على السيد هيكل شريطا سينمائيا اعلاميا استغرق نحو ساعة ، يتضمن صورا من حوادث المذابح الجماعية التى ارتكبها « حزب

عوامى » مع كل من هو غير بنغالى . غير أن هيكل للاسف لم يشر الى ذلك الشريط من قريب أو بعيد !

وتعمد هيكل كذلك أن يحذف ما قلته عن قيام قواتنا القليلة باعادة الأمن والنظام والاستقرار الى ربوع باكستان الشرقية فى أوائل سنة ۱۹۷۱ ، ولولا الزحف الهندى الساحق بقوات تزيد على خمسة أضعاف قواتنا ، ذلك الزحف الذى خططت له الهند بالتآمر مع القوى الدولية وأعلنت بصراحة انه بالنسبة لها حلم القرن ! لتمزيق باكستان لما آلت القضية الى نتيجتها المأساوية !

ومن الطبيعى أن تعجز قواتنا الضئيلة فى الشرق عن مواجهة ذلك الزحف المكثف من الخارج واستثارة العصابات فى الداخل ، ومد المعتدين بالمساعدات العسكرية الضخمة من الدول الكبرى .. وحملات الدعاية الكاذبة ضد الباكستان التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ! ومع ذلك كله قاتلت بشرف فى الدفاع عن عقيدتها حتى الرمق الاخير !

ويوحى مقال هيكل الاعتقاد بأن الجنرال يحى خان قد أوعز بالهجوم الجوى فى غرب باكستان على الهند فى ٣ ديسمبر سنة ۱۹۷۱ ، لتبرير الهجوم الهندى الكاسح فى الشرق . وهذه مغالطة تفضحها الحقيقة التاريخية ، اذ ان ذلك الهجوم قد بدأ بالفعل فى شهر ابريل سنة ۱۹۷۱ ، اى قبل نحو سبعة اشهر من بدء المعارك فى الشرق ، مع أن الكاتب قد ناقض نفسه بعد قليل ، فاعترف أن الهجوم الجوى انما كان لتخفيف الضغط عن قواتنا القليلة فى وجه تلك الزحوف الكبيرة ! »

اما نحن فنقول : اذاكان هيكل يرتكب فى مقابلة واحدة مثل هذه الاكاذيب والمغالطات فكيف يستطيع القارىء العربى أن يصدق حرفا مما يكتبه فى القضايا السياسية الخطيرة المتعلقة بمصير امة ؟

واذا كان قادة الفكر عندنا كهيكل ومثلهم القادة والساسة ، كذابين مزيفين لا أخلاقيين لا حقيقيين ، فلماذا نعجب اذا هزمتنا اسرائيل ! ولماذا نستغرب ، اذا استمر الحال على هذا المنوال ، اننا نكاد كأمة أن نتحول الى صفحة منسية من صحائف التاريخ ؟!

لقد كان هدف هيكل وصحبه من رحلتهم الطويلة البحث عن مطاعن جديدة فى الاسلام ! والتشفى بمأساة باكستان عن كثب ...

فهذا « محمد سيد احمد » فى مقال له بالاهرام تحت عنوان « استقرار شبه القارة الهندية » يقول بصراحة .. بل بوقاحة لا مزيد عليها ، ولا تبرير معها : « ان رباط الدين وحده ــ خاصة فى ظل نظم تتسم بصفة الحكم العسكرى ــ ، وفى وقت تجرى فيه اعادة تراص القوى الدولية ، وافتقاد الاحلاف كثيرا من فعاليتها .. ان رباط الدين وحده ليس كافيا لمواجهة تجدد النزعات القومية مع التباين المحسوس فى المستوى الاقتصادى للأقاليم المختلفة » !

وترد تساؤلات كثيرة بريئة على هذه التعميمات المشبوهة التى يكثر الكتاب المصريين التقدميين (!) من الاستشهاد بها هذه الايام !

واجيبوا ان كنتم صادقين :

اليس الاسلام يحارب قيام الحكم العسكرى ؟

اليس الاسلام يعارض تباين المستويات الاقتصادية للاقاليم ؟

اليس الاسلام يسىء الظن بتجدد النزعات القومية المتطرفة ؟

واذا كانت الظروف المستجدة فى العالم تستوجب اعادة تراص القوى الدولية فلماذا فرحتم لتمزق الباكستان ، ولماذا تعملون على استمرارية تمزق الصف العربى ؟ . ولماذا تحاربون فكرة التضامن الاسلامى ؟ . ولماذا تشنون حربا لا هوادة فيها ضد الدول الاسلامية والشعوب الاسلامية ؟

ولماذا نقبل منطق التقارب والتعاون بين الدول المتشابهة فى الانظمة ، والمستوى الحضارى ، ونعارض هذا المنطق حين يتعلق الأمر بالدول الاسلامية والتقارب الاسلامى ؟

وما ذنب الاسلام اذا كان حكام باكستان العسكريون هم الذين خرجوا على أحكام الدين التى تتنافى مع تلك المفارقات ؟

وهل تكفى النزعات العشائرية والاختلاف فى المستوى الاقتصادى للاقاليم الى فصم عرى وحدة كان بالامكان معالجة معضلاتها السطحية بالاصلاح لا بالتمزيق ؟

ولو قام فى باكستان عند انفصالها عن الهند نظام يستمد بقاءه من الشريعة الاسلامية ، وذاك فى الحقيقة هو سبب الانفصال ، لما قام فيها حكم عسكرى ولما حدث تباين فى المستويات الاقتصادية بين اجزاء الدولة ؟ . ولما تجددت النزعات القبلية ، التى تسمونها قومية ؟ ولما تم انفصال بنغلاديش ؟

سبب المعاناة اذن هو ترك الاسلام لا كون الاسلام لا يصلح اساسا للوحدة السياسية كما يستقتل الكتاب المزيفون فى مصر وغيرها فى اثباته وتقريره بمخالفة بدائه المنطق والركون الى المماحكات الفجة التى قد تغش بعض الناس ، بعض الوقت ، لكنها لا ولن تستطيع أن تطمس الحقيقة الساطعة فتغش كل الناس على الدوام !

ان غرض قادة الفكر فينا من أمثال هيكل وصحبه الذين شاء سخف الدهر ان يمتطوا غارب الاحداث ، ليس البحث عن الحقيقة وممارستها واعتناقها ، وليس التحدث بحسرة واسى ووله وتوق فى مصير حضارة ودين ومقدسات ... بل غرضهم هو تحقيق اغراض اسيادهم فى تدمير الاسلام ، واستغلال نكبة أمة للوصول الى الاطماع الدنيئة فى الشهرة التافهة ، والمتاع الرخيص ، ولو ادى ذلك الى ضياع امة بكامل حضارتها وامجادها ، وتاريخها المضىء ..

لكأن هؤلاء وامثالهم واشباههم ونظرائهم. هم الموكلون بتنفيـــذ المخطط الصهيونى ، تحقيقا لما قاله « ناحوم غولدمان » فى مؤتمر اليهود التقدميين الذى عقد فى باريس مؤخرا : « على الحركة الصهيونية ، اى على اسرائيل، اذا أرادت البقاء أن تسعى الى تمزيق الدول العربية المجاورة لها طائفيا وبشريا وجغرافيا » !

وفات « ناحوم غولدمان » ان يضيف : « لقد زرعت اسرائيل فى قلب كل بلد عربى فئة من المفكرين والقادة المزيفين ، ليقوموا عنها بالمهمة تحت لواء الشعارات المتصارعة فى الساحة العربية . واذا كانت فلسطين هى الوجبة الأولى ، فانتظروا دوركم فى الوجبات القادمة دون ريب !!

ومن ذكرياتي الشخصية حول هذا الموضوع ، ان الرئيس المارشال أيوب خان قال لى : « فى سنة ١٩٦٠ قام الرئيس جمال عبد الناصر بزيارته الاولى الى كراتشى فى طريق عودته من الهند ، وكان لتلك الزيارة أهمية خاصة عندنا رجاء أن تضع حدا للجفوة المفتعلة بين البلدين الشقيقين الذين يفرض عليهما الاسلام أن يتعاونا على البر والتقوى ، بدل التشاحن والبغضاء !

« وقضيت ساعات طوالا فى حديث منفرد مع ناصر واذكر اننى قلت له فيما قلت : « اسمع يا اخى ان افريقيا هى القارة المسلمة بحق اذ أن نحو ثلثى سكانها يدينون بالاسلام ، وقد أخذت الدول الافريقية تنفض عنها غبار الجهل والتخلف ، وتطارد فلول الاستعمار ، وها هى تحتل اليوم مكانها المرموق فى الهيئة الدولية .. غير أن الارساليات التبشيرية التى غزت تلك القارة قرنين من الزمان ، قد خلفت وراءها تركة ضخمة من تضليل الجماهير المسلمة وتجهيلها بحقيقة الاسلام ، وتشويهه فى نفوس معتقديه بالشكوك والشبهات ، حتى أن اسلام الاكثرية الساحقة هو فى الحقيقة انتماء سطحى عند العامة وان كان عند القلة من الخاصة عميق الجذور ، ليس كردة فعل للتحدى الغربى الدينى والحضارى ، بل عن ايمان مطلق بأن الاسلام هو دين المستقبل ، لانه دين المنطق والعقل ، دين البساطة والتسامح والمساواة ... لأنه دين ديناميكى حركى ينسجم مع تطلعات الانسانية فى تطورها المستمر الى الامام . فهو كعقيدة خال من الخوارق والاساطير والطقوس التمثيلية المسرحية ، وهو كشريعة قادر على مواجهـــة مشكلات الحيـــاة المتعاضلة فى كل زمان ومكان ، حتى فى رأى الكثير من الفلاســـفة والمفكرين ورجال القانون الغربيين » .

« غير أن تلك القيادات محتاجة الى دعم وتثوير وتنوير وبعث اسلامى جديد فى ضوء التجارب الحضارية المتتالية ، ما انطوى منها وما استجد . خاصة وأن افريقيا اليوم تعيش دوامة تغيرات جذرية ، وضغوطا مختلفة الشكل والهدف والاسلوب ، فهى تكاد تبدو تائهة بين علمانية الاستعمار الغربى المطرود ، وشريعة الاسلام المجهولة ... ولعل اهم مشكلة تواجه قيادات مسلمى افريقيا اليوم هى كيفية التوفيق بين الهوية الاسلامية وبين القيم الجديدة المتمثلة فى معجزات العلم والتـــكنية . ومن معوقات تلك

المشكلة كون معظم الحكام فى افريقيا قد تتلمذوا على الحضارة المادية ، وافتتنوا بها فورثوا عن الاستعمار عدم الاكتراث بالدين » !

« ورجوت ان نتعاون لمواجهة التيارات المتضاربة فى القارة المسلمة ، بغرض نشل المسلمين من حالة الضياع تلك ، عن طريق ايفاد بعوث العلماء الاكفاء الجامعين بين تعمق الاسلام ودراسة الايديولوجيات الغربية ، الى مختلف الدول الافريقية لتوعية اخواننا وتعريفهم بحقيقة دينهم » .

« وقلت لناصر : الا ترى معى ان تجنيد الدول الافريقية لتشارك معنا فى معاركنا المصيرية وفى مقدمتها قضية فلسطين مشـــاركة انفتاح وفهم وايمان ، افضل من تحييدها ، بل افضل من فلسفتكم فى تصدير الثورة الى تلك الدول كما تصدرونها الى الدول العربية ؟!

فابتسم عبد الناصر ولم يجب ، فعلمت عندئذ اننا مختلفان حقا فى الوسائل والغايات !! » .

الأمة العربية بين أرجل العمالقة

التجارب لا تؤخذ من الكتب ، لكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب . ونحن أمة لا نقرأ بتمعن فلا ننتفع بالتجارب .

حياتنا سلسلة من الانفعالات الآنية وردود الفعل المرتجلة ، فلم نعرف بعد ، معنى التخطيط فى نطاق مرحلى ، واستراتيجية طويلة النفس !

نقيس الرجال بعلو الصخب ، وعنترية الخطب ، وانتفاخ الاوداج وتكرش العقول ، بدل ان نقيسهم بالسلوك والحكمة والاخلاص والالتزام الاخلاقى !

هدير أمواج البيانات والمقالات احب الينا من أزيز الطائرة وقعقعة المصفحات !

قلنا بعد معركة الخزى : ان علينا اليوم أن نبدأ من الاساس فنعد المواطن العربى الصالح المسلح بالعلم والخلق ، المؤمن بربه وبأرضه وبقضيته ، وبحتمية النضال والجهاد ..

ونظرنا حولنا ، فاذا بنا نبدأ من القمة .. صراع على الحكم .. اقتتال على المظهر والشارة والابهة والمتاع الدنىء .. دكتاتوريات متعاقبة متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض الا فى المظهر الخارجى .. كلما جاءت أمة لعنت أختها .. وليس يلبث البنيان اذا شيد على غير التقوى والفهم والصلاح أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه ..

اما المواطن المسحوق فهو يغط فى سبات عميق تحت أرجل الحاكمين !

الحرية فى مفهوم السادة ، هى حرية الكبت والتسلط .. والديمقراطية هى من نصيب الفئة الغالبة عند اقتسام الاسلاب .. والاشتراكية هى شركة لصوص والحياة الافضل ، هى حياة افضل حقا وواقعا لكن للشلة المختارة من السفلة والعملاء ، أما الجماهير المخدرة المنومة فليس لها الا الاحط والارذل !

نعرف أعداءنا لكننا نجهل أنفسنا !

ندرك ما بنا ، لكننا نمالىء من جرعونا الهوان !

نحس بالنار تطوقنا .. ثم نرتمى فى أحضان من أوقدوا لنا النار !

لقد بغانا قادتنا الشر ، فعل الله بهم ، حين انسلخوا عن انتمائهم القومى الحضارى الدينى الثقافى ، وانتموا فرحين مجاهرين الى شرق أو غرب .. ومن استطاع منهم ان يلوذ خفية ببؤر الصهيونية فى العواصم تمهيدا للمفاوضة والاستسلام فعل وخلاه ذم .. بل هو الذى تساق اليه المغانم وتشد اليه الرحال ، ويوسد ولاية الناس ، فيستر عاره بأساليب القمع الوحشية ، وتفريق الصفوف ، والحرب النفسية لوضع اليأس مكان الأمل فى نفوس الجماهير .. وتوسل الفراغ الايديولوجى لتدمير الايمان العميق فى نفوس الناس .. فكانت نتيجة ذلك كله تدمير الطاقات الكامنة فى روح الأمة ، ليس من خارجها فحسب ، بل من داخلها وبيد قادتها ومفكريها العابثين !

ارأيت قبل اليوم مومسا تبشر بالطهارة ، ولصا يعلم الفضيلة ، وعميلا تنظم فيه القصائد ، وقوادا تصاغ له اكاليل الغار !؟

اختلت المقاييس ، وانقلبت الموازين .. كل شيء فى غير موضعه ، وكل رجل فى غير مكانه ، فتعهرت القيم ، واغترب الشرف ، وغابت المروءة ، وغاضت الكرامة .. ونحن ، نحن الشعوب .. نحن الجماهير .. نحن البشر ، منهوكون محطمون ، كالايتام على موائد اللئام ، نقتات الفتات ، ونضرب بالسياط ، ونكره على ان نرى البطنة صحة ، والكذب حقيقة والضعة مجدا والدعارة الخلقية أم المكرمات ... لا يجوز لهم أن ينحرفوا عنه او يتاولوه !!

لم يبق لنا الا القدرة على الاحتقار !

لقد تفاول القوم ! فهل نسكت عن قصور لا عن تقصير ؟ وهل نصبر أنفسنا على ما تكره ، ونحن نرى المحمولين على رقاب الناس مجلببين بالعار ؟

لم يبق لنا الا القدرة على الاحتقار ..

من منا ، نحن المطلعين على الاسرار ، العارفين بالسرائر ، لم يعرف ان اسرائيل قد قامت فينا لنظل تائهين .. لكن ماذا يفيد العارف علمه حين يكون مقيدا بالسلاسل ، مكتوم الانفاس !؟

من منا لم يعرف كيف وزعت الادوار على الدول الكبرى من حاضنات اسرائيل ليمكنوا لها فى الارض ؟

من منا لا يعرف أن ضعفنا وتخاذلنا وتبددنا قد أطمعت فينا كل طالب صيد ؟

من منا لا يعرف اننا نحن بما صنعناه بأنفسنا ، دعونا بحرارة وحماس الدول العظمى لتتصارع فينا على اقتسام مناطق التغلغل والنفوذ .

من منا لا يعرف أن الصراع الذى احتدم اواره فى منطقتنا ربع قرن لمصلحة الصهيونية بين الراسمالية الممثلة بامريكا ، والماركسية الممثلة بروسيا ، هو نتيجة الجدب الفكرى ، والخواء النفسى ، والخراب الاخلاقى والفراغ السياسى الذى نتمطى فيه ! ولسان حال القادة والساسة يقول لهذا الفريق أو ذاك : اذا كنت ماكولا فكن انت آكلى ..

لقد أكلنا حقا ومضغنا بسهولة منقطعة النظير ، فلا عظمة واحدة غصت بها حلوق الماضغين !

وبعد ... لقد قضينا ربع قرن نتأرجح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .. والعقلاء منا يدركون ماذا يضمره لنا هذا الجانب او ذاك .. لكن من قال لك أن العقل له مكان فى الامم المريضة المتاثة !

اتريد أن تعرف موقف الاصدقاء الالداء ؟

هاكه من افواه القوم بلا زيادة ولا تحريف ، ولا هو من تلبيس الخيال .

اما الموقف الامريكى ، فقد اخترت لك مقتطفات من كتاب « لعبة الشعوب » « لمايلز كوبلاند » مردونة بتصحيحات وتعقيبات لشاهد اثبات احتفظه ما تضمنه الكتاب ، وشق عليه ، هو الدكتور محمد صادق فى كتابه : « الدبلوماسية والمكيافيلية فى العلاقات العربية الامريكية خلال عشرين عاما (١٩٤٧ — ١٩٦٧) .

« يعترف الكاتب الذى عمل مدة طويلة فى جهاز المخابرات الامريكية فى الشرق الاوسط أن الولايات المتحدة اتبعت منذ سنة ١٩٤٧ فى هذه المنطقة وغيرها ، سياسة ذات وجهين ظاهر وخفى .. اما الظاهر فهو التمسك بمبادىء حرية الشعوب واستقلالها وايمانها بالنظم الديمقراطية والدستورية .. وأما الخفى فهو سياسة التدخل فى شؤون الدول الصغيرة خفية دون تقيد بالمثاليات والقيم الاخلاقية .. ان وثائق وزارة الخارجية الامريكية أو أو البنتاجون أو جهاز المخابرات الامريكية تعطى انطباعا بأننا كنا مثاليين فى الظاهر و « ميكافيليين » فى الباطن .. وهذه العملية الخفية لا يمكن أن تتم الا بتواطؤ بين القائمين على السياسة الامريكية الخلفية التى يمثلها جهاز المخابرات الامريكية ، وبين بعض حكام أو زعماء الشرق الاوسط والعالم الثالث الذين يقبلون التعاون معهم فى هذه السياسة ذات الوجهين ، وكان أول هدف لنشاط المخابرات ، هو ايجاد هـذا النوع من الزعماء المتعاونين الاذكياء ، ولاسباب متنوعة كانت لعبتنا مع جمال عبد الناصر هى أحسن نموذج تاريخى يمثل كيف تنفذ استراتيجيتنا ذات الوجهين من الناحية الاخلاقية » .

« لقد كنا نعتقد أن العرب يخافون من الاتحاد السوفييتى لا منا ، وعلى هذا كنا نعتقد انهم سيرحبون بجهودنا لحمايتهم .. ذلك أن شركاتنا البترولية تجعلهم أغنياء وهم الذين يستفيدون بصفة رئيسية من الحل السلمى للمشكلة الفلسطينية . ان رفض بعض قادتهم أن يفهموا الأمور على هذا

النحو كان فى نظر مخططى سياستنا سببا كافيا ومبررا لكى نحطمهم ، او على الاصح نمكن مواطنيهم من تغييرهم ، والتغييرات المطلوبة فى القيادات كان غرضها مساعدة القيادات الملائمة للسياسة الاميركية للوصول الى الحكم » !

وبهذا المفهوم الذى نضحه الكاتب الاميركى ، اكفنت المخابرات الاميركية تفتش عن الفريسة الأولى للتدخل فى هذه المنطقة فوقع اختيارها على سوريا لأنها كانت تتميز بالتطرف فى مواجهة الصهيونية والاستعمار ، وتقرر المباشرة بالتدخل فى البرهة التى تلت انشاء إسرائيل ، لشل القدرات العربية عن معركتها الاساسية ، وجرها الى معارك جانبية داخلية .

وهكذا بدأت سلسلة الانقلابات المشؤومة فى المنطقة ، بحركة حسنى الزعيم بعد تسعة أشهر من قيام اسرائيل .

وبعد فشل الانقلابات المتتالية فى سوريا قررت دوائر المخابرات الاميركية القيام بعملية اعمق جذورا ، تصبح مركز اشعاع لمثاليات الجماهير العربية ، فوقع الاختيار على مصر . واتجهت السياسة الميكافيلية الاميركية فى الشرق الأوسط الى ترويض الشعوب وتدجينها ، لا الى مجرد تغيير القيادات .. لأن تلك الشعوب كانت تناقض بالبديهة والفطرة ، الامبرالية والصهيونية . فكان لابد من فرض زعامة ذات خصائص ومميزات معينة ، تستطيع عند اللزوم اتخاذ قرارات تعاكس أمانى الشعوب .. وتملك القدرة بما أضفى عليها من هالات أسطورية الى فرض تلك القرارات فرضا قاهرا على أن تبدو الاستجابة الجماهيرية لها فى صورة عفوية تزكيها شخصية الزعيم !

يقول « كوبلاند » : « ان عبد الناصر لو لم يوجد ، فان لعبتنا كانت تحتم علينا أن نخلقه خلقا ، فنوجد النوع الضرورى من الحكام الذى تحتاجه طبيعة اللعبة اليوم أو غدا » . لعبة المخابرات الاميركية فى الشعوب المتخلفة !

واهمية عبد الناصر فى اللعبة الاميركية كما كانوا يقدرون أنه وحده يستطيع أن يحقق اهداف اللعبة اكثر مما استطاع أن يحققها غيره من زعماء الانقلابات ..

ومن المحزن أن لعبة المخابرات الأمريكية فى صنع الرجال ، تعامل زعماء العالم الثالث كطلاب فى مدرسة فيهم المجتهد وفيهم الخائب ، وقضية الاختيار تخضع للظروف والمؤثرات ، كما تخضع للمقومات النفسية والذهنية للشخص الزعيم .. فنجاحهم فى خلق النماذج رهن بنجاح النموذج الانسانى الذى اختاروه ، وهم من ثم يقيمون زعماء الانقلابات تقييما مدرسيا ، فبعضهم يستحق علامة عشرة على مائة وبعضهم عشرين أو ثلاثين .. وقد قيموا درجة عبد الناصر بالنجاح فى دوره بتسعين فى المائة ، وهى درجة كما يقول كوبلاند لم يحصل عليها غيره !

ويوضح الكاتب من استقراء الأحداث التى أدت الى اختيار النموذج فى الماضى ، أو الحاضر او المستقبل ، نوع المصالح التى فرضت النموذج ورسمت له الدور الذى يؤديه .

والذين ينظرون فى قضايا الشعوب بهذا المنظار لا تهمهم الشخصية بقدر ما يهمهم النموذج .. فالشخص ينتهى فيختفى عن المسرح ، اما النموذج فهو باق برسم التحقق ، ما دامت المصالح التى تحدد له دوره باقية ومتطورة مع الزمان ، حتى ليصبح النموذج عندها ممثلا على مسرح الأحداث له دور يؤديه ، وحيث أن من المتوقع أن يختفى الممثل كل آن ، فان اختفاءه يكون كستارة تسدل على مشهد ، ويعد النظارة انفسهم لمشهد آخر .. تتابع الرواية فصولها ويتغير الممثلون !!

وكانت خطة الانقلاب فى مصر تقوم على المبادرات التى اوضحها الكاتب الأمريكى كما يلى : « ان مهمة « كيم روزفلت » على وجه التحديد ، كانت اولا أن يحاول تنظيم ثورة سلمية فى مصر فيقوم فاروق بتصفية القديم واقامة الجديد ، وبذلك يعطل المفعول الثورى للقوى التى اكتشفها عملاء المخابرات الأمريكية قبل سنتين سابقتين ، وتيقنوا من وشك وقوعها . وثانيا كان عليه اذا فشل فى ذلك أن يبحث عن حلول أخرى لايجاد رجل جذاب يصلح واجهة ، او رجل قوى ، أو صيغة تجمع بين الشخصيتين » ذلك لان عملاء المخابرات الأمريكية كانوا يخشون من خطورة الثورة الشعبية التى كانت تعتمل سنتى ١٩٥١ و ١٩٥٢ فى نفوس الجماهير ، ويسيطر عليها الاخوان المسلمون . ويقول « كوبلاند » بالحرف الواحد : « ان الحركتين الثوريتين الشعبيتين فى ذلك الوقت هما الاخوان المسلمون ، والحزب الشيوعى » .

ولكن كوبلاند لم يذكر متعمدا الجهة التى كانت تلك الثورة الشعبية الوشيكة الانفجار تهددها ، فقد كانت بالفعل موجهة ضد الامبريالية الغربية الصهيونية العالمية .

ومقارنة كوبلاند للحركة الشيوعية بحركة الاخوان فى تلك الظروف ، هى مقارنة مغلوطة ، فلم يكن الحزب الشيوعى ذا تأثير فعلى فى قاعدة شعبية كبيرة ، وانما كان المخاض الحقيقى للثورة ينمو فى احضان جماعة الاخوان المسلمين التى بلغت مستوى عاليا من العلم والتنظيم والايمان ، والتكتيك المرحلى فى اطار استراتيجية ايديولوجية واضحة المعالم محددة الأهداف .. وتميزت قياداتها بالايثارية المطلقة والسلوك الأخلاقى الملتزم ، حتى لقد وصل بعضهم الى مستوى الصحابة الأولين فى الايثار وانكار الذات . وكلنا سمع بالتعذيب البشع الذى تعرضت له تلك النماذج الانسانية النادرة فى المعتقلات المصرية خلال حملات التصفية ، وقصة المجاهدة «زينب الغزالى» التى افرج عنها فى عهد الرئيس المؤمن أنور السادات تشبه قصة « بلال » مع كفار مكة ، فلقد كانت تضرب بالسياط واعقاب البنادق ، وهى مقيدة بالسلاسل ، وتؤمر بان تنكر عقائدها وتناقض مبادئها فلا تجيب الا بهتاف واحد : ربى الله وحده لا شريك له !!

وقد نشطت المخابرات الأمريكية حينذاك كما يذكر كوبلاند فى كتابه « لعبة الشعوب » لتحويل خط الثورة الشعبية الى انقلاب للانحراف بتلك الثورة عن اهدافها الحقيقية ، وهى مواجهة فساد النظام الداخلى ، ومواجهة اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل !

بذلت المحاولات الأولية لدعم موقف الملك فاروق وتمكينه من القيام بانقلاب يؤدى غرضين فى وقت واحد : الأول القضاء على بوادر الثورة الشعبية التى يمثلها الاخوان المسلمون ، باجتثاث الحركة من أساسها ، والثانى ايجاد المناخ المناسب لقبول فكرة التعايش مع اسرائيل !

حتى لقد قيل حينذك ان « فاروق » ساهم فى تدبير حريق القاهرة لاتخاذه وسيلة للتشهير بالاخوان ، ومدخلا لاتهامهم ، بينما كانوا يقومون بمهاجمه القوات البريطانية فى القنال ، تمهيدا للقضاء عليهم . لكن خطته فشلت بسبب قوة التيار الشعبى المؤيد للمقاومة وللاخوان .

وحين فشلوا فى مؤامراتهم هذه ، بسبب اهتزاز شخصية الملك الفاسد اتجهوا الى الاتصالات واللقاءات السرية ، مع تنظيم الضباط الاحرار ، بعد الاقتناع بأن هؤلاء الضباط حينما يصلون الى الحكم سيكونون اكثر مرونة وتعقلا « ! » خاصة بعد ان استطاعوا التعرف الى هويتهم والى أمانيهم ، والتأكد من أن حقدهم ينصب فى الدرجة الأولى على رؤسائهم .. ثم على الانجليز المحتلين .. ثم على اسرائيل ! بهذا الترتيب تم الاعتقاد بأن الطموح الشخصى للحكم هو المحرك الأول لهم ، وعندما يوضع الطموح الشخصى فى مواجهة المصلحة الوطنية ، فكل شىء يهون فى سبيل البقاء فى الحكم ، ولعل هذا التحليل يفسر فرح بعض الدول العربية .. التقدمية « ! » بعد هزيمة ٦٧ ، لأن ما خسرته الامةمنكرامة وشرف وارض ومقدسات أهون من خسارة الحزب العقائدى والطليعة الثورية !!

يقول « كوبلاند » ان محور كل تأييدنا لعبد الناصر هو أن يوجد فى الحكم فى بلد عربى ذى نفوذ حاكم قادر على اصدار قرارات غير شعبية ، كمعقد صلح مع اسرائيل مثلا .. ان الخطوة الأولى فى برنامجنا كما فى برنامج عبد الناصر كانت فرض النظام بالقوة عند اللزوم » . لكن كوبلاند ، أخفى الغرض الأول والأهم من دعمهم لحركة الضباط ، وهو ضرب حركة الاخوان المسلمين ، بوصفها الحركة المهيئة للثورة التى تشكل الخطر الحقيقى ضد المصالح الاستعمارية وضد قيام اسرائيل .

وقد اعترف « كوبلاند » بأن الاتفاق السرى الذى تم بين رجال المخابرات الأمريكية وتنظيم الضباط الأحرار قد تضمن مادة واضحة كل الوضوح تنص على ضرب الحركة الشعبية التى يقودها الاخوان المسلمون !!

ثم قال : « فى مايو سنة ١٩٥٢ استسلم « روزفلت » لراى السفير كافرى بأن الجيش وحده هو الذى يستطيع اقامة حكومة يمكن للدول الغربية أن تتفاهم معها .. لأنك تستطيع أن تحصل من الدكتاتور على كل شىء ، متى

اوصلته الى د جة يصبح بقاؤه فى الحكم أو استمراره فيه متوقفـــا على مساعدتك وتأيـ ك » .

ولذا كان لابد للرئيس جمال عبد الناصر اذا أراد تزعم حركة اســـلامية موازية للحركة القومية من اخضـاع حركة الاخوان المسلمين له ، او القضاء عليها ، وقد جرب الوسيلتين ففشل فى الأولى ونجح فى الثانية !

لقد كانت لدى الرئيس عبد الناصر ، أسباب شخصية تدعوه للتفكير فى جعل الاسلام اطارا للحركة القومية باعتباره الحضارة المشتركة بمحتـــواها الفكرى ومضمونها الأيديولوجى للقومية والوحدة .. وهو محتوى تشترك فيه جميع الشعوب الاسلامية ولا يقتصر على الشعوب العربية وحدها .. وقد دفعه الى ذلك ما شاهده من النجاح الهائل الذى أحرزته حركة الاخوان وما اتسمت به من جاذبية فى أوساط الشباب والمثقفين ، فكان ذلك كله سببا موضوعيا كافيا للتدليل على ان الدعوة الاسلامية صالحة وملائمة لاجتذاب المؤيدين ..

ولكن فشل عبد الناصر فى ترويض الاخوان لشكهم فى نواياه واهـــدافه حمله على القضاء عليهم ، وشجعه على ذلك أن السياسة الأمريكية كانت واجفة من نمو نفوذ الحركة التى تتناقض مع المصالح الاستعمارية والوجود الاسرائيلى .. ولذا نجد المؤلف يعترف صراحة بأن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تخشى من حدوث ثورة شعبية يقودها الاخوان المسلمون الذين يتميزون « بالتدين المزعج » كما يقول الكاتب ، ونجده يعترف ايضا ان الحكومة الأمريكية قد تعرضت لضغط دولى ، جعلها لا تستطيع أن تؤجل تدخلها فى الشرق الأوسط ضد تلك الحركة المتنامية لاعتقادها بأن الاخوان على وشك القيام بذلك .. وهذا مادعاها الى التعجيل بارسال « كيم روزفلت » الى مصر أوائل عام ١٩٥٢ للعمل على تفادى تلك المصيبة « ! » .

وبهذا التقييم اتفقت الدول الغربية والشيوعية على محاربة ذاك الاتجاه، يضاف الى ذلك موقف الصهيونية المعادى لكل وعى اسلامى بعد الدور الباهر الذى قام به الاخوان وحدهم فى ميادين فلسطين سنة ١٩٤٨ .

ولقد استعملت الدعاية منذئذ ضد الاخوان من كافة الجهات المعادية للاسلام استعمالا وقحا مشينا ، فعمدت أجهزة الاعلام الروسية سنة ١٩٥٤ الى مهاجمة فاشية عبد الناصر وامتدح الاخوان المسلمين لوقوفهم مع الشيوعيين فى وجه طغيان الحكم .. فعلت ذلك غدرا ومكرا وغيلة لتدفع الحكم المصرى الى ضربهم . واعترف المؤلف بأن أجهزة المخابرات الأمريكية قد استغلت هذه الفرصة فاقتنعت اسرائيل بأن تسير فى هذا المخطط المرسوم .. مخطط امتداح الاخوان المسلمين بقصد التشهير بهم لدى انصارهم فى الرأى العام المصرى والعربى .. ومنذئذ « تكاثرت الظباء على خراش » واتخذ العداء لحركة الاخوان وسيلة لتدمير الاسلام سواء من أعدائه فى الخارج أو عملائهم فى الداخل ! حتى سامها كل تافه وكل ساقط وكل نذل ؟

يقول المؤلف : لقد تمت عملية القضـــاء على الاخوان سنة ١٩٥٧ ، ورافق ذلك دعاية مركزة مؤداها اننا فى حاجة الى منظمة اسلامية سليمة على المستوى الدولى لأن الاخوان لم يكونوا يصلحون لذلك .. وأوهموا الناس ان القضاء على الاخوان هو ليس لانهم ضد الحكومة ، بقدر ماهم خطر على الاسلام نفسه وهكذا عمدت الحكومة المصرية فى الوقت الذى أجهزت فيــه على الاخـــوان المسلمين الى انشاء مؤتمر اسلامى ولد هجينا ومات سقطا ..

اما عن القومية العربية فيقول المؤلف : ان عبد الناصر واصحابه لم يؤمنوا بشىء اسمه القومية العربية ، الا بقصد استغلال هذه الفكرة لاغراض « ديماغوغية » وينتهى بهذا المنطق الى حد الزعم بأن عبد الناصر ليس عربيا ولا يكن للعرب عاطفة خاصة .. ويتهم الكاتب جميع القادة العرب بانهم يتجاهلون حقيقة القومية العربية ، ويريدونها فكرة غوغائية « يستغلونها فى اغراضهم السياسية ، سواء فى التناقضات الموجودة بينهم أو بينهم وبين الدول الاجنبية .

ولا شك ان المخابرات الامريكية قد باركت اليوم الذى أعلن فيه عبد الناصر رسميا ، اعتبار مصر بلداً عربيا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ ، اذ يقول المؤلف : « ان ذلك الاعلان جاء فى توقيته متلائما مع وعود الحكومة الامريكية بتوسيع نطاق مساعداتها المالية لمصر ، شرط ان يكون نفوذ مصر الادبى فى العالم العربى ، عاملا على الاعتدال فى الشؤون العربية » . ويفسر المؤلف فى مكان آخر من كتابه أن الاعتدال الذى كانوا يقصدونه هو القبول بحل سلمى للقضية الفلسطينية ، والتعايش مع اسرائيل .. !

ومع ان عبد الناصر قد غير موقفه من الامريكان ، بعد ان تكشفت له نواياهم الخبيثة ، وحصل على الاسلحة الروسية فكسر بذلك نطاق الحكر الذى طوقوا به المنطقة .. فان امريكا التى اذهلها ذلك التغير ، اجمعت امرها للاستمرار فى اللعبة الى آخر مداها ، فهى من جهة احتفظت بشعرة معاوية مع ناصر ، وهى من جهة أخرى اتجهت بثقلها كله نحو اسرائيل لتجعل منها نقطة انطلاق امبريالى فى قلب بلادنا ، تحمى المصالح الاستعمارية وتهدد مصير الدول العربية ...

وعملت منذئذ على التآمر ضد الحركة العربية الجديدة بدفعها الى دوامة المساومات والمزايدات ، والتطرف والعنف حتى تم لها أجهاض الموقف العربى الموحد ، بتفتيت شمل الأمة الى تكتلات ومعسكرات وقوى متناقضة متخالفة يعادى بعضها بعضا اكثر من عدائها لاسرائيل !

وقد فطن الرئيس عبـــد الناصر الى لعبتهم تلك ، لكنه واجههـــا مع الاسف بممارسة عملية شد الحبل بين العملاقين ، غير ان ذلك لم ينطل على القوى الكبرى ، التى تختلف فى كل شىء وتتفق فى تدمير الحضارة الاسلامية والتى كانت ترصد كل حركة للزعيم الراحل فتعمل على اثارته فى الوقت الذى يناسبها لاتخاذ قرارات مرتجلة تنفس عن حقده المكتوم ، مع العجز عن مجابهة كل تلك التيارات الهادرة من حوله .. حتى ساقونا الى شرك معركة الذل سنة ١٩٦٧ .

ولو عمل الزعيم الكبير منذ البداية على ابراز وجه التناقض الحقيقى فى المنطقة بين العرب واسرائيل ، وبذل جهــده لتجميع الصف العربى بدل تشتيته ، وتكتيله بدل تمزيقه ، وعدم التطويح بالقضية المقدسة بين ارجل العمالقة ، واستغلال الصراع الدولى لمصلحة الوطن والمقدسات لا لمصلحة الفتن والشعارات ، لاستطاع بالمقومات الهائلة التى اتاحها له القدر ان يلم شمل الدول العربية تساندها الدول الاسلامية عن طريق الصدام الازلى مع اسرائيل ..

ونحن وان كنا نشك فى الكثير من الوقائع التى ذكرها « كوبلاند » فى « لعبة الشعوب » خاصة وأن توقيت صدوره بعد حرب الايام الستة مباشرة يدل على مهارة مؤلفى التمثيلية ومخرجيها لايهام الجماهير التى لا تدرك ابعاد اللعبة وظروفها ومناسباتها ، فان الهدف لا يخفى على نخبة المفكرين ولذا سقنا هذه المقتطفات لنلقى مزيدا من الضوء على المؤامرة التى لا تفتر لحظة واحدة ضد العرب والمسلمين ! واجمـــل وصف لسياسة الولايات المتحدة ما ذكره الكاتب الامريكى « نورمان ديسى » رئيس اللجنة الامريكية الفلسطينية فى خطاب وجهه الى الرئيس نيكسون فى ١٩٧٣/٥/٣ : « انها قمة الرياء محاولة الاختباء وراء ستار من عدم تشجيع الحرب عندما يكون المرء فى الواقع تاجر موت !! » .

تلك هى صورة شمسية للعبة التي تمارسها السياسة الامريكية فى هذه المنطقة وغيرها من العالم .. سياسة لا أخلاقية تخطط فى الدهاليز المعتمة بإشراف مستشارين يهود ، وتنفذ بتحريك أحجار الشطرنج لتحقيق غاياتها بواسطة شخوص ونماذج تختارهم ، وتضعهم فى الوقت المناسب على مسرح الأحداث ، ليؤدوا الدور الذى رسم لهم .. ثم ينتهى الدور فتسدل الستارة ، ويعتلى المنصة ممثلون آخرون ، وهكذا دواليك !

أما اللعبة التى تمارسها السياسة السوفيتية فتختلف معها فى الشكل وتتفق فى المضمون ، فهى لعبة مكشوفة لا خفاء فيها ولا تلبيس ، تمضى لغرضها بتؤدة ودؤوب ،وبدلا من اختيار النماذج الفردية،يقوم بالأدوارالممثلون و « الكورس » والمتفرجون ، فى حدود الأوامر الصارمة الصادرة من مصدر الاشعاع المـــاركسى فى أورقة « الكرملين » وفق تعاليم الجدلية المـــادية ومبادىء الجدلية التاريخية ، ومفهوم الامية والصراع الطبقى بلا زيادة ولا نقصان !

ولكى نعطى القارىء صورة صحيحة عن اللعبة الروسية نعرض لقصة صغيرة فى حدودها ، كبيرة فى مدلولها ، وهى قصة ــ كما كان يقول كتاب السير ــ لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر .. وما أكثر العبر فى عالمنا العربى ، وما اقل الاعتبار !

لقد سمع الناس حديث الانقسام العميق الذى وقع فى صفوف الحزب الشيوعى السورى مؤخرا . فقد أصدر خالد بكداش رئيس الحزب بيانا

عرف ببيان ٣ نيسان ١٩٧٢ الشهير اعلن فيه أن داخل الحزب « كتلة تحريفية انتهازية مغامرة » (١) .

ثم عرف الناس من المهاترات العلنية التى امتلأت بها أعمدة الصحف فى تلك البرهة ، ان الحزب قد انقسم الى فصلين متعارضين يتبادلان التهم ويتراشقان الانتقادات اللاذعة من القمة الى الكوادر الى القاعدة ، يمثل احدهما خالد بكداش ، ويوسف فيصل ، ويمثل الآخر ظهير عبد الصمد ودانيال نعمة ، ورياض الترك ، وابراهيم البكرى ، وعمر قشاش وغيرهم .

ولم تسكت الكتلة التحريفية كما سموها ، بل نشرت هى الأخرى بيانا قالت فيه : « نعم هناك خلافات تتناول قضايا فكرية وسياسية وخلافات حول مفهوم الوحدة العربية — جوهرها وآفاقها وارتباطاتها بالنضال من اجل الاشتراكية ، وحركة التحرر الوطنى العربية .. وهناك خلافات حول جوهر القضية الفلسطينية والموقف من حركة المقاومة » ...

ولم يكن بد ، بعد أن احتدم الخصام وهدد بتفتيت الحزب الى ملل ونحل كما وقع فى حزب البعث ، من الاحتكام الى الاحزاب الشقيقة وفى مقدمتها الحزب الشيوعى السوفياتى القائد الرائد ..

فذهب المتخاصمون جميعا الى موسكو الوطن الأم ، لتفصل فى موضوعات الخلاف .. وهناك أولى الفلاسفة السوفيات والعلماء النظريون والقادة السياسيون ، قضية الحزب الشيوعى السورى ، الاهتمام اللازم ، ووقفوا موقف الحكم النهائى من الجانبين ، ثم وضعوا مصالحة فى كراس بعنوان « فى سبيل برنامج ماركسى — لينينى — آراء وملاحظات الرفاق السوفيات العلماء النظريين والقادة السياسيين ، حول مشروع البرنامج السياسى للحزب الشيوعى السورى » !

وغنى عن الذكر ان محتويات الكراس ، دعمت موقف بكداش وفريقه ، فرضخ الآخرون لمشيئة أسيادهم صاغرين !

وفيما يلى بعض ما تضمنه الكراس ، وبعض الاستنتاجات المستخلصة من روحه ومعناه ومن المواقف الخطيرة للحزب وقادته ازاء قضية القومية والدين ...

١ — السياسة السوفيتية فى القضية الفلسطينية ، تنطلق دائما من أن اسرائيل واقع موجود ، واذا كان ثمت كفاح عربى من اجل فلسطين فيجب أن يكون هدفه الوحيد هو اقامة انظمة شيوعية فى كل من اسرائيل والدول العربية ، والتآخى بين الجماهير العربية واليهودية فى النضال الأممى . وان اضفاء طابع القضية القومية على المشكلة الفلسطينية يضعف أهداف

---

(١) مناقشة آراء العلماء والقادة السوفييت فى الامة والطبقة والوحدة والمقاومة وقضية فلسطين للاستاذ قدرى قلعجى .

الحزب التي هي تعميق العملية الثورية . ولذا فان شعار ازالة اسرائيل ، رغم انه غير واقعي فليس له كذلك اساس طبقي وان النضال يجب ان يستهدف تغيير الطابع الاستعماري لدولة اسرائيل !

٢ — ضرورة العمل داخل المنظمات الفدائية لصبغها بطابع الماركسية اللينينية ، ومحاولة ابعادها عن مواقعها القوميـــة وتقريبها من الاممية والطبقية ، ولذا يتسم الموقف الروسي بمبدأ الرفض المطلق لتطور حركة المقاومة لتصبح حربا شعبية شاملة ، ضد الوجود الصهيوني كحركة توسعية استيطانية تناقض مفاهيم العصر ونشر الأفـــكار الماركسية في صـــفوفها لتحويلها من منطلق قومي الى منطلق طبقي اممي ، وايهامها بأن عدوها الأول هو الرجعية العربية والاسلام ، لا اسرائيل !

٣ — وهم ينظرون الي امل الوحدة على انه وهم « طوباوي » لأن الميل الى الانفصال في حركة التحرر العربي ، اقوى من الميل الى الوحدة بسبب الفشل الذي اصاب المحاولات الوحدوية ، وتزايد عدد الدول العربية يوما بعد يوم ، ولذا فان الحتمية التاريخية للتطور هي ضد تحقق الوحدة .. والشيوعيون لا يمكن ان يعارضوا الحتمية التاريخية وينجرفوا مع تيـــار « الطوباويين » ، فلننبذ اذن شعار الوحدة .. ومن جهة اخرى لا يمكن النظر الى الوحدة الا من خلال الاشتراكية .. فالاشتراكية هي الهـــدف الاستراتيجي ، اما الوحدة فهدف لاحق ، وليس هدفا منفصلا بذاته ذلك لأن هناك اتجاهين للنضال من اجل الوحدة : اتجاها لقيام وحـــدة على اساس ديني ، واتجاها تقدميا ، ولذا لا يجوز اعتبار كل نضال لأجل الوحدة هو نضال تقدمي الا اذا كان على اساس النظرية الماركسية !

٤ — ان الأخذ بشعار الوحـــدة كيفما اتفق يعرقل النضال في سبيل التقدم الاجتماعي والاشتراكي . فهل يجب التضحية بالتقدم الاجتماعي ، في هذا البلد او ذاك في سبيل الوحدة العربية ؟ لا يمكن جعل الوحدة شيئا مطلقا . فالوحدة ليست هدفا بذاتها .. ان اهم القضايا على الاطلاق هي قضية الاشتراكية ثم الشيوعية ، ولا يمكن أن تحل محلها اية قضية اخرى !

وقد تلقفت الاحزاب القومية العربية هذه الافكار وغاصت في متاهاتها ، فتاهت واتسم نشاطها بالبلبلة والاضطراب والانحراف .. فنرى بعض تلك الاحزاب تدعو الى ضرورة اعلان ايديولوجية محددة للثورة الفلسطينية هي الايديولوجية الماركسية كضرورة حتمية ... ونرى مشيل عفلق يقول في كتابه « البعث العربي — موقف ايجابي » : « ان الاحزاب الدينية ، انما هي في فكر موجهيها والدافعين اليها حركات تقوم على اشياء سلبية محضة (!) على الكره الطائفي والخوف والحذر وغير ذلك من العواطف السلبية ، لكن الشعب الذي يتبع في وقت من الأوقات مثل هذه الحركات التي ننعتها بالرجعية الدينية لا يتحرك بدوافع سلبية .. انه لا يتحرك بدوافع الخوف والكره والبغضاء . واذا نفذنا الى روحه وضميره تبينا ان في تبنيه لهذه الحركات نصيبا كبيرا من الايجابية ، ايا كان لون الحركة ونوعها . وهو في تأييد الحركات الدينية الرجعية في بعض الاحايين ، انما

يرمى الى المحافظة على شخصيته والابقاء على تلك الصلة الروحية الحية بين حاضره وماضيه ، عدا عن أن مثل هذه الحركات الدينية تعبر فى ضمير الشعب عن توقه وحنينه الى مثل عليا سامية . لكن اذا كنا نتفاعل بروح الشعب ونقول بأن روحه روح ايجابية تطمح الى البناء والخلق ، فهذا لا يعنى أن نستكين ونستسلم للافكار الخاطئة .. لكن متى انتبهنا الى خطل الأفكار الموجهة له ، علينا أن نعلن ذلك وأن نخاطب الشعب لنفهمه الخطأ من الصواب » .. أى خطأ الفكر الدينى وصواب الفكر الماركسى . وأن تحقيق فكرة القومية عند عفلق يحتم استبعاد الدين .. أى الاسلام بالذات !!

ويقترح « كمال السيد فى عدد الاهرام ٩ — ٤ — ١٩٧٣ » : ضرورة حماية المال العام — أى مال الدولة — وتحويل احترام المـــال العام الى عقيدة وايمان لدى جميع المواطنين . ويتأتى هذا عن توعيتهم والعمل على تشبعهم بهذه الروح منذ المراحل الأولى لحياتهم أى فى المدارس التى يجب أن توجه جانبا معقولا من جهودها وبرامجها بغرس السلوك الاشتراكى ، وأولى مقوماته احترام المال العام !

وفات الكاتب أن يسأل نفسه : هل استطاعت التجربة الاشتراكية فى مصر ، أن تعلم مواطنا واحدا احترام المال العام ، وكيف يمكن أن يكون التزام اخلاقى بدون الدين ؟

ويقول « شبلى العيسمى » فى كتابه « الوحدة العربية من خلال التجربة »: « ان الوحدة العربية هى التجسيد العملى لفكرة القومية العربية . ولكن مفهومها العلمى الثورى المتطور الذى وضعه حزب البعث العربى الاشتراكى هو فى أن تكون بمحتوى ديمقراطى اشتراكى وفى أن يتحقق الترابط العضوى بينها وبين الحرية والاشتراكية ، وأن نعتبر هذه الأهداف كلا موحدا لا يصح فصل احدهما عن الآخر ولا اصطناع التعارض بينهما » ومؤدى هذا الكلام المرصوف أن لابد من اتخاذ الاشتراكية أساسا لتجســيد فكرة القومية والوحدة ، بديلا عن الاسلام ، بينما تضمن الاسلام من مبادىء العدالة والثورة الاجتماعية ما يتجــاوز الاشتراكية بقرون .. واذا كان هنـــاك اشتراكية ممكنة التحقيق بالنسبة لظروف الأمة العربية وتطورها ، فالاسلام هو وحده القادر على ايجاد الحلول المناسبة لمشاكل المجتمعات المتطورة ، وبرسالة محمد تحققت الثورة الاجتماعية التى تنشدها الانسانية ، واذا كان محمد هو خاتم المرسلين فذلك لأن رسالته قد تضمنت جميع المبادىء الخلقية والاجتماعية والسياسية التى تذوب فى مسالكها المنيرة تخبطات وتطرفات الايديولوجيات المعاصرة .. ولذا فمن حقنا ان نهزأ بما يزعمه المفكرون الثوريون من أن المهام الأساسية للثورة العربية الاشــتراكية تهدف الى التغيير المادى للمجتمع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية على أســـاس « ديالكتيك التطور » ، فلا يمكن التحالف مع الرجعية والبورجوازية ! ولذا يدعون الى الغاء العلاقات الغيبية فى المجتمع — الله أعلم بمرادهم اذ لا يستطيع عاقل أن يفهم معنى هذا القول — كما يدعون الى اطلاق المـــد الثورى من قمقم الأوضاع المتخلفة الموروثة — أى من قمقم الاسلام — لنستطيع التنسيق والتفاعل مع القوى الثورية فى العالم !!

واغرب ما قالوه فى الموضوع أن « مؤامرة الاخوان المسلمين لضرب الثورة الوطنية فى ربيع سنة ١٩٥٤ كانت بدوافع استعمارية !! » ولو صدقوا لقالوا انها مؤامرة الثورة الوطنيــة لضرب الاسلام والمســلمين بداوفع صهيونية !

أعود بعد هذا الاستطراد الذى غلبنى الى صلب الحديث :

٥ ــ الالحاح على ضرورة اندماج سياسة الاحزاب الشيوعية العربية فى الاستراتيجية الشيوعية العالمية ، ورفعها شعار : « الاتحاد السوفييتى دائما على حق ! » والتبعية المطلقة له بغض النظر عن موافقة ذلك أو مناقضته للمواقف القومية والقضايا الوطنية . فجميع القضايا الوطنية تفسر من خلال مصلحة الاممية البروليتارية .

٦ ــ اصرارهم على رفع شعار الصراع الطبقى والدعوة الاممية فوق المشاعر القومية والدينية فى النفسية العربية .

٧ ــ لقد سلكت الشــيوعية الدولية والمحلية ، منــذ بدء المشــكلة الفلسطينية ، مسلكا هجينا مستفربا ، بل مسلكا مرسوما بخيانة الأمانى القومية ، فدعت منذ البداية الى قيام اسرائيل ، والتعايش بين العــرب واليهود ، وتعاون البروليتاريا العربية واليهودية فى مواجهة الرجعية فى الجانبين لاقامة المجتمع الاشتراكى حيث تسود الاخوة بين أبناء الايديولوجية الواحدة ، وتلغى فكرة القومية السخيفة ! ويقضى نهائيا على الدين افيون الشعوب ! فتتحول القضية المقدسة الى صراع طبقى لا موضع فيه لقومية أو دين !

٨ ــ الأمة اليهودية فى مفهوم الشيوعية الدولية والمحلية ، بعد قيام اسرائيل ، قد اصبحت امة فى طريق التكوين كالأمة العربية ، التى هى أيضا فى طريق التكوين لفقدان العامل الاقتصادى المشترك بين اقطارها ، ولذا اصبح لليهود فى فلسطين حق تقرير مصيرهم والوقوف فى وجه هذا الحق هو « شوفينية » عربية ، خاصة وان اسرائيل ستتحول مع الزمن الى واحــة للديمقراطية والاشتراكية فى صحراء الرجعية العربية وأن لا مصلحة للجماهير العربية فى معاداة الجماهير اليهودية التى تريد أن تعيش معها بسلام واخاء ، ولكن المستعمرين الغربيين والرجعيين العرب هم الذين يثيرون العداء بين الشعبين لالهاء الجماهير العربية واليهودية عن الوقوف صفا واحدا ضــد الامبرالية والرجعية .

٩ ــ يقول خالد بكداش : « هناك فريق من القوميين يقولون بأن حــل القضية الفلسطينية يتحقق بالعودة الى الوضع الذى كان قائما فى فلسطين قبل عام ١٩٤٧ ، أى ازالة دولة اسرائيل ، وهو شعار ليس له اساس طبقى كما انه غير واقعى » وهذا القول هو تبعية عمياء لاراء الفلاسفة السوفييت الذين يسمون عملية الاغتصاب الصهيونية للارض العربية : حركة تحرير وطنى ، ويسمون النضال العربى لاستعادة الأرض المسلوبة حربا عدوانية استعمارية .

١٠ — رأى السوفيات فى القضية الفلسطينية ، يتابعهم الزاما الشيوعيون المحليون ، يتلخص فى الاستخفاف بتصور العــرب أنهم سيدخلون اسرائيل بالحراب .. وفى شرعية الكيان الاسرائيلى ، وحق اليهود فى انشاء وطن لهم فى فلسطين ، وانكار حق الفلسطينيين فى النضال والتحرير ، وحل القضية من وجهة نظرهم يتفق مع قرار مجلس الأمن القائل بعودة من يريد العودة من اللاجئين ليصبح مواطنا من الدرجة العاشرة كالهنود الحمر ، أو التعويض على من لا يريد العودة ! ولذا يلحون فى الدعــوة لتآخى الجماهير العربية واليهودية للنضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، واعتبار الصراع العربى الاسرائيلى صراعا طبقيا لا قوميا ، ولذا يريدون من المقاومة أن تتخلى عن أهدافها القومية ومعركتها الحقيقية ، وأن تنصرف الى اثارة معارك جانبية لا علاقة لها بالقضية الأساسية ، لابعادها عن التمركز حول الشعارات القومية والدينية المتعصبة .

وحين زار وفد المقاومة الفلسطينية موسكو فى تموز سنة ١٩٧٢ واجتمع ببعض المسؤولين السوفييت ، نشرت جريدتا البلاغ والصياد مختصرا للنقاش والحوار جاء فيه :

مسؤول سوفييتى : ان الوضع قد تغير منذ لقائنا الماضى بصورة ملموسة . وكما فهمنا ليست اسرائيل هى العدو الوحيد ، بل الرجعية العربية — اى الاسلام — ايضا أو انها اصبحت اكثر عداء . هل نستطيع ان نحدد الوضع هكذا ؟

مسؤول فلسطينى : الجواب اجل ! — مجلة الصياد فى ١٧ — ٨ — ١٩٧٢

١١ — قادة الاتحاد السوفييتى يريدون من العرب أن يوزعوا جهودهم بين قضيتهم الأساسية ومحاربة الامبريالية فى كل بقعة من العالم فينتصروا لفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية وحركة الفهود السود وقضية جنوب افريقيا وروديسيا وموزانبيق وحتى بنغلاديش ، بنفس القــدر الذى ينتصرون به لقضيتهم المقدسة ، لأن الصراع فى العالم فى نظرهم هو صراع طبقى أممى ، لا صراع قومى أو صراع مصيرى كما هو الحال فى معركتنا مع اسرائيل .. وهم لا يفتأون يحذروننا من مقاومة الظلم والاغتصاب والطرد والتشرد والافناء التى عاناها ويعانيها شعبنا الفلسطينى لأن هذه المقاومة فى زعمهم غير اممية وغير طبقية ، بل هى تتسم بالشــوفينية القومية التى تتعارض مع مبادىء ماركس ولينين !

١٢ — لقد بات معروفا ان الاتفاق الذى تم بين نيكسون وبريجنيف فى لقاء موسكو ينص على موافقة روسيا على تهجير اليهود فيها الى فلسطين وموافقة الولايات المتحدة على تقديم الأموال اللازمة لتوطينهم ، وعندما فرضت السلطات الروسية الضريبة العلمية على هجرة الجامعيين هاج هياج الحكومة الاميركية وهدد مجلس الشيوخ بمعارضة الاتفاقيات التجارية بين البلدين ، مما اضطر الرئيس نيكسون الى ايفاد أحد وزرائه الى موسكو ، لالغاء تلك الضريبة . وقد تم ذلك بالفعل .

وقضية هجرة اليهود الروس الى اسرائيل تفتح المجال لنقاش طويل ، فوق كونه يتعارض مع موقف الصداقة الذى تدعيه روسيا للقضايا العربية وخاصة القضية الفلسطينية ، فان مما يدعو الى العجب الشديد ، ويدعونا الى الكثير من التمعن والتأمل والاتعاظ أن أولئك المهاجرين الذين ترعرعوا فى محاضن الماركسية ، ومعظمهم من كبار المفكرين والعلماء الذى أسهموا فى صياغة المذهبية الروسية وممارستها وتطبيقها ، وتشربوا مبادئها مدة خمسين سنة منذ انشاء الدولة الشيوعية الأولى ، لا يكاد الواحد منهم يطأ أرض اسرائيل حتى يخلع رداءه الايديولوجى وينسلخ عن جذوره الفكرية وينخرط فى الايديولوجية الصهيونية الاستعمارية الشوفنية التوسعية الاستيطانية ، الى آخر النقائص والمثالب التى تتميز بها الصهيونية .

هل يعنى هذا الا شيئا واحدا هو أن اليهودى يظل يهوديا متدينا قبل أى شيء آخر . وقد سمعت بأذنى هاتين لقطات من اذاعة اسرائيل لأقوال نفر من أولئك المهاجرين لدى وصولهم الى « أرض اسرائيل » وأصواتهم تجهش بالبكاء تعبر عن فرحتهم بعودتهم الى أرض أنبيائهم التى هى حلم حياتهم الأكبر .. واعترافهم بأنهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية فى روسيا وراء الأبواب المغلقة لأنهم لا يمكن أن يؤمنوا بشيء خلا تعاليم التوراة والتلمود .. وأن أول عمل يمارسونه لدى وصولهم زيارة حائط المبكى ليذرفوا دموع الفرح وعبرات الخشوع ويتمسحوا بخرائب الهيكل المقدس .

فاذا كان هذا هو الوضع مع اليهود الشيوعيين الذين رضعوا لبان الماركسية منذ الصغر ومارسوها ممارسة عقلية وفكرية ونظرية وعملية ، فكيف ببقية اليهود ..

ثم ألا يدل هذا الواقع المادى المحسوس بالسماح بالهجرة الموسعة والنية المبيتة لاغراق الوطن العربى باغراب من البلاد الصديقة ، ليحتلوا دورنا ويقتلعونا من جذورنا ويقذفوا بها الى مخيمات الذل والمهانة والتسكع والاستجداء على مخادعة الجماهير العربية والهائها بالطبقية والأممية ووحدة نضال البروليتاريا عن النضال القومى والوطنى والدينى فى سبيل تحرير الأرض والمقدسات ..

وما قيمة الصداقة اذا كانت الأقوال لا تتجاوز التمنيات المعسولة والمساعدات المقطرة تقطيرا ، لا تغنى فتيلا فى معركة التحرير ، أما الأفعال فظن شرا ولا تسأل عن الخبر ! .

١٣ — ان حالة اللا سلم واللا حرب تتفق مع مصالح الولايات المتحدة وروسيا فى وقت واحد ، فهما قد أمنتا المواجهة الساخنة واتفقتا على دعم التفوق العسكرى الدائم لاسرائل من جانب أميركا ، ورفض روسيا تزويد الدول العربية بأسلحة هجومية ، والاقتصار على مساعدات محدودة ، مقابل تنازلات غير محدودة .

١٤ ــ ان الذى يتحكم فى سياسة روسيا الخارجية هو المصالح الروسية لا المبادىء الشيوعية ولذا نرى دائما أن العلاقة الجدلية بين مسلك الاتحاد السوفييتى ودعوته الأمنية تنتهى بصورة دائمة الى خدمة أهدافه القومية .

١٥ ــ يستبعد الرفاق الروس الحل العسكرى نهائيا ، لأنهم واقعيون لا يثقون بمقدرة الأمة العربية ، ويخافون أن يؤدى ذلك الى تصفية الأنظمة الدائرة فى فلكهم وبالتالى الى تصفية نفوذهم وضياع مصالحهم ، دون أن يلتزموا بتغيير أسباب هذا النقص ، ويعترفون فى الوقت نفسه أن حالة اللاحرب واللاسلم هى أسوأ ما تعانيه النفسية العربية ولذا يلحون فى الدعوة الى الحل الثالث ، وهو النضال فى سبيل حل سياسى على أساس عادل بمساعدة الرفاق .. وغنى عن الذكر أن كل حل سياسى لا ينطلق من موقع قوة هو استسلام .. وكيف يمكن حمل اسرائيل على الحل السلمى اذا لم نكن أقوياء ولن نكون أقوياء حقا الا اذا انبعثت تلك القوة من ذاتنا .. وأن وحدة الصف العربى هى الضابط الأهم والأوحد لمواجهة مصيرنا المهدد بالاندثار ! .

ولكي أزيدك ايضاحا ، أذكرك بالندوة السياسية التى أقيمت فى الجامعة اللبنانية فى شهر آذار سنة ١٩٧٣ واشترك فيها ثلاثة من كبار الكتاب من الشرق والغرب هم « بلاييف » محرر « البرافدا » الروسية و « ستيغنز » محرر « الاوبزرفر » الانجليزية ، و « جان لاكتور » محرر « الاوبزرفاتور » الفرنسية .

فقد جاء فى حديث « بلاييف » قوله : « ان مفتاح الحل فى أيديكم وعليكم أن تكونوا أكثر اتحادا . انهم فى اسرائيل يعرفون أنكم منقسمون وضعفاء » . وبالرغم من كثرة الأسئلة التى وجهت اليه ، لم يطرح عليه السؤال الأهم وهو: من هم الذين جعلونا منقسمين وضعفاء ؟ أليست الدول الكبرى هى سبب التمزق فى الصف العربى ، بما طرحوه ويطرحونه فى الساحة العربية كل يوم من شعارات التلهية والتخدير والتضليل وتشتيت شمل الأمة الى شيع وأحزاب وتكتلات تقدمية ورجعية وسلفية واشتراكية حتى أصبح المجتمع العربى كالرداء المرقع لا ينتمى كما ينتمى المجتمع الاسرائيلى الى قاعدة فكرية واحدة والى نسب تراثى واحد ؟ .

ويهزأ « بلاييف » بالزعماء والقادة العرب فيقول : « أنا أفهم الزعماء العرب عندما يمنون شعوبهم بالجيوش والحشود ولكن الحقيقة أنهم لايريدون الحرب .. ولذا لا يبقى أمامكم فى الوقت الحاضر الا الحل السلمى فقد يكون مثمرا ومفيدا لأننا حريصون على سمعتكم ! ولم يقل لنا الأستاذ « بلاييف » من هم الذين ابتلونا بزعمائنا وقادتنا وسياسيينا الأقزام .. ؟ وأى حل سلمى هو الذى يتحدث عنه .. ؟

هل ترى أصبح استسلام العرب لما تمليه عليهم اسرائيل وحاضناتها قدرا لا محيد لهم عنه ؟ وكيف يكون مفتاح الحل فى أيدينا اذا كان أصدقاؤنا يلحون

علينا بضرورة الاستسلام الذليـل لمخططات اسرائيل ؟ هل هـذا هو المثمر المفيد لنـا . ؟

غير أن « بلاييف » لم ينس أن يقول : « ان روسيا مهتمة بتحسين علاقاتها مع العرب على أساس معـاهدتي الصداقة والتعاون اللتين عقـدتا مع مصر والعراق ! هـل نعود مرة أخرى الى الأحـلاف ومناطق النفوذ ، واستغلال المأساة العربية لانداح المبادىء الروسية فى هذه المنطقة والتطلع الى منـابع النفط . . ؟

وتطرق « بلاييف » الى هجرة اليهود فهون من شأنها وطالب أصدقاءه العرب أن لا يهولوا أو يبالغوا فيها ، لأننا بذلك نكون عاطفيين !!

هجرة خمسين الف شاب يهودى أكاديمى الى اسرائيل كل عام أمر هين عند الرفيق « بلاييف » . ولست أفهم كيف يكون دعم اسرائيل بعشرات الألوف من العلماء والمقاتلين قضية تافهة لا تستحق البحث والنقاش ؟ !

وأبرز « بلاييف » فى محاضرته تفوق اسرائيل العسكرى ! ولم يسـأل نفسه لماذا وكيف حدث هذا التفوق ؟ . . أليس ذلك الخلل فى التوازن مرده الى الدعم الأمريكي اللا محدود واللا أخلاقى ؟ أليس من مقتضى تفانينـا فى صداقة روسيا ، أن تقوم الصديقة الكبرى بنجدتنا لمواجهة ذلك التفوق ؟

وكان آخر كلمة فى محاضرة « بلاييف » قوله بعنف وغضب ردا على سؤال أحد المستمعين : يا أخى اذهبوا قاتلوا وافعلوا ما تشاؤون فليس هناك من يقف فى طريقكم !

وبعد خراب البصرة . . بعد الوعود واخلاف الوعود . . بعد العهود ونقض العهود . . بعد سياسة التهدئة والخداع . . بعـد الأمانى المبذولة والآمال المعسولة . بعد تفتيت الأمة وتشتيت شملها . . وانشغالها بما كادوه لهـا من صراع الشعارات والايديولوجيات . . بعد كل أولئك ، يقولون لنا : اذهبوا وقاتلوا . . اننا ها هنا قاعدون ! .

أما المحاضر الآخر السيد « استيفنز » فقد بنى حديثه على معطيات تاريخية صادقة وصحيحة حـين قال : ان الصراع فى منطقة الشرق الأوسط مرده الى تناقض مصالح العملاقين اللذين ملأا الفراغ السياسى فى الشرق الأوسط بعد انحسار النفوذ البريطانى والفرنسى . . فقد انصرفت الولايات المتحـدة فى مواجهة المد الروسي ونتيجة لتفسخ الصف العـربى بالانقلابات العسكرية والثورات الاجتمـاعية وصراع الايديولوجيات والشعارات . . انصرفت الى اقامة ودعم ترسانتين ذاتى طاقات عسكرية هائلة فى اسرائيل وايران للحفاظ

على مراكز التفوق فى المنطقة وحماية منابع الطاقة فيها ؛ وتضع المشرق العربى بين فكى الكماشة ! .

أما المحاضر الثالث « جان لاكوتور » فقد قال : « لقد حاولت الولايات المتحدة ان تحتوى الثورة المصرية التى قام بها الضباط الشبان سنة ١٩٥٢ ، وان تحل بذكاء محل النفوذ البريطانى فى مصر . . فلم يظهر هؤلاء الضباط اهتماما حقيقيا بالقضية الفلسطينية فى السنوات الثلاث الأولى . غير ان الغارة الاسرائيلية الفادحة على غزة فى شباط سنة ١٩٥٥ غيرت الموقف من اساسه ، ودفعت رجال الثورة الى نشدان التسلح من الغرب ففشلوا ، فلم يجدوا بدا من الارتماء فى أحضان المعسكر الآخر . . وكان ما كان ! .

وقد فسر المحاضر تلك البرهة من حياة الثورة بانها المرحلة التى لم تكن فيها الغاية تنسجم مع الوسيلة . . أو أنها المرحلة التى سادها التوهم ، فارتفعت الشعارات فوق الحقائق ، وكان للخطابة والفصاحة ووسائل الاعلام المضللة دورا اساسى فى القرارات والأعمال .

وقد اتفق المحاضرون الثلاثة على أن العلاقات الدولية بين العملاقين قد انتقلت اليوم من حيز التصادم الى حيز التفاهم . وروسيا تفضل اليوم بصفة خاصة ، التفاهم مع امريكا على حساب استمرار حالة اللاسلم واللا حرب التى تستفيد منها القوى الأعظم تحاشيا للمواجهة ، وتحسبا لأبعاد المستقبل ، وما تضمره من مشاكل طارئة فى مقدمتها حاجة أمريكا الى النفط العربى واصرارها على بقاء النفوذ الأمريكى فى مناطق تلك الطاقة ، مهما تكن النتائج !!

وموقف روسيا الرسمى لا يتعارض مع هذه التفسيرات ، وآخر ما قالوه فى هذا الصدد حديث « كوسيجين » فى « استكهولم » قبل اشهر وجاء فيه ان لمصر الحق فى أن يكون لها جيش قوى تستطيع به الدفاع عن نفسها ضد العدوان وتحرير اراضيها — أى تحرير سيناء .

وقد هللت الصحف العربية المأجورة لهذا التصريح ولكنها أغفلت عمدا الشق الآخر منه وهو قول « كوسيجين » : « لقد كنا بين من تبنوا انشاء دولة يهودية ، ولا نزال نقول اليوم ان اسرائيل دولة يجب أن تبقى وان تنال ضمانات بوجودها واستقلالها » ولست فى حاجة للتأكيد بأن هذه الأقوال لا تختلف فى شيء عما تقوله الولايات المتحدة ومع ذلك لم يقم كاتب عربى واحد يعتب على أصدقائنا الروس تبنيهم قيام دولة غريبة وتمددها فى قلب العالم العربى !!

لقد اسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

ان من تناديهم مشغولون عنك باقتسام الغنائم والاسلاب ، واقتناص المخازى والملذات ! وخير من فيهم مستغرقون فى الأوهام واضغاث الأحلام .

ولقد كان آخر ما جاءنا من كيد القوم ما نشرته جريدة « ليتراتورنايا جازيتا » السوفيتية ، من انتقاد عنيف للرئيس القذافي لأنه يدعو الى اشتراكية تتعارض مع الماركسية ، غير محدودة المعانى والقسمات لأنها تنتمى الى تعاليم الاسلام وتعادى الشيوعية .

تقول الجريدة : « اذا كان التفكير السياسى هو انعكاس للبيئة الاجتماعية، فان البنية الاجتماعية فى العالم الثالث هى بنية قبلية اقطاعية سابقة على مجتمع الراسمالية ، فلم تتبلور فيها بعد ، برجوازية قوية تدفع المجتمع بحتمية تاريخية الى الراسمالية ثم الى الاشتراكية الماركسية . أما التعصب للانتماء القومى والقيم الدينية فتلك سمات تنحرف بالمجتمع عن الأيديولوجيات المعاصرة ، والراسمالية المتطورة المهياة للانتقال الى المجتمع الاشتراكى ! ولذا ينتقد الروس بشدة الدعوة الى اشتراكية غير ماركسية ، لأن الماركسية وحدها هى الاشتراكية العلمية .

وليس فى الدنيا كذبة أبشع من هذه الكذبة ، لأن الشريعة الاسلامية والمجتمع الاسلامى الغائب اليوم هو سابق على هذه الأيديولوجيات كلها التى ثبت فشلها وافلاسها فى اقامة المجتمع الانسانى السليم الذى لا يعترف بالديالكتيكية المادية والتاريخية ، بل يعترف برسالة محمد وشريعة الله ، التى لو تحققت تحققا صادقا مخلصا صحيحا ، لطمست هذه الأيديولوجيات المهتوكة المنخورة ، التى تقترب من نهايتها المحتومة ..

أزمة الفكر العربي المعاصر

الأزمة الفكرية فى اية امة ، حين تكون أزمة جهل .. أو ازمة نفاق وغياب اخلاق ، تصبح شرا رهيبا ومحنة مدمرة !

ذلك لأن الأزمة الفكرية التى تعانيها اية امة هى انعكاس لازمة نفسية تتمثل فى سؤال واحد : كيف نستطيع أن نحول دون تدهور خصائص الانسان فى مواجهة مشاكل المدنية المعاصرة .

واذا كانت وظيفة المفكرين ترمى الى اعمال العقل فى الطبيعة والاحياء والمعضلات المستجدة ، لاستخراج المعادلات السليمة التى تنمى خصائص الانسان وتدفع الانسانية نحو الكمال .. فقد عرف القارىء مما سقناه فى الفصول السابقة أن سبب ما يعانيه الاسلام على يد ابنائه واعدائه على السواء ، هو الجهل به أو الاضطغان عليه .. او تجريمه قبل محاكمته .. والخوض فيه قبل معرفته لعدم تميز ملامحه الأصلية ، وسط الاجواء الصاخبة التى تحف بالمسلمين !

لقد عمد الاستعمار الممهد له بالغزو الفكرى والارساليات التبشيرية ، والاستشراق بعد أن سيطر على العالم الاسلامى وفيه العالم العربى ، الى تجهيل الشعوب وتضليلها ، فوضع لها البرامج التعليمية التى تنسجم مع اغراض السيطرة والاستغلال واضمار الكراهية للاسلام ، فينشأ ابناؤها وليس فى نفوسهم الا أن الدين عقبة ورجعية وتخلف ، وان الوسيلة الوحيدة للارتقاء والتقدم هو احتقار التراث ، والاقتصار على جرعات مركزة مسمومة من قشور الحضارة فى مظاهرها المادية ، وسفالاتها الأخلاقية ثم تتلقفهم المصانع الفكرية فى الجامعات الغربية التى يتولى التدريس فيها نخبة من دهاقنة اليهود ، مهمتهم غسل ادمغة أبنائنا وصبها فى القوالب المنسجمة مع أهوائهم ومخططاتهم التآمرية ، واغراقها فى متاهات الايديولوجيات المدمرة التى تتعارض مع تراثهم وتتناقض مع هويتهم .. ثم يعيدونهم الينا ــ الا من عصم الله ــ عملاء لهم وبلاء على أوطانهم ، بعد أن يمدوهم بالظهر والاداة ، ويدفعوهم الى الانحراف العقلى الذى يحول دون ممارسة البحث الجدى والاستقصاء السليم .. والى اشاعة الفوضى الخلقية والبلبلة الفكرية ، يستحدثونها عن رأى أسيادهم واوامرهم، واكثر ما ينصحون به مشوه مدسوس ، واقله يقبل على التأول ثم لا يلبثوا أن يتسعوا فى ذلك ، حتى ليستخف الطيش من يتولون كبر الدعوة الاثمة ، ويزلقهم الى التعسف والزهو ، فيأخذون الأمور بالظنة المستطيلة ، والتقرير القاطع ، ويبادؤون الناس بالشر ، وقد غرهم املاء الجهلة لهم ، وسول

لهم الغرور ان اقتباس الحضارة العلمية لا يتأتى الا اذا فصلنا عقولنــا من الايمان بالله ..

وهكذا قتل الفكر الحر المبدع بمضيعة لا ناصر له فيها .. وأصبح التقليد الأعمي مثلنا الأعلى .. وأصبحت التبعية الاجترارية وسيلة وغاية ومنهاج حيــاة !

أما نحن فقد صبرنا أنفسنا على ما تكره ، رجاة أن يعتدل الملتوى ويعود المرتد .. ثم حين استشرى الداء وعز الدواء قمنا نقول لهم نبرة صــادقة وصوت جهير : ان الغنى الحضارى العربى الاسلامى ليس عندنا بديلا للمشاركة فى صنع الحضارة الجديدة التى يعيش العربى عنهــا فى حالة اغتراب ، بل ان ذلك الغنى التراثى يكون الحاضن لتلك المشاركة واثرائها .. غير أن تحرير العقل العربى من سلبياته فى مواجهة مشاكل العصر ، لا يمكن أن يكون الا بانتصار القيم الأخلاقية والدعوة الى ضرورة اعادة قراءة التاريخ العربى ، وتقييم نماذجه ، وتفسير أحداثه وقضاياه فى ضوء معطيات الحضارة الانسانية والتقدم العلمى ..

اننا نؤمن ايمانا لا يتطرق اليه شك أنه لا يمكن أن تكون قوة بلا عقيــدة أو عقيدة بلا قوة .. وان القول أن التقدم لا يتم الا بالانتقال من منهج غيبى للفكر والحياة الى منهج علمى تجريبى للفكر والسلوك ، هو ادهان فى الدين وامتهان له ، واستهانة بأثره فى المحافظة على خصائص الانسان العــربى وما ينمى تلك الخصائص من مثل عليا وقيم روحية دائمة خالدة ، وأن ما يسمونه المنهج الغيبى — يقصدون به الاسلام — هو تشويه لحقيقة الاسلام الذى لا يتعارض مع المنهج العلمى الذى يدعون اليه .. وأن السلوك الأخلاقى الذى يتفاصحون به ولا يدركون معناه ، ليس طاقة مادية محــايدة تفحص فى المختبرات وترضخ للتجاريب ، كالعناصر المــادية الأخرى ، بل هو التزام لا يمكن أن يترعرع الا فى أحضان الدين .

ولذا ندعو بحرارة الى الجمع بين مثالياتنا الأخلاقية ومعجزات التكنولوجيا لأن المحافظة على الذاتية والاصالة والمفاهيم الخلقية المستمدة من الايمان ، لا تتعارض مع اتباع المنهج العلمى التجريبى ، والمشــاركة فى الابداعات المــادية ..

وندعو الى كسر طوق الارهاب العقلى الذى يشل حركة المفكرين الصادقين، ويجهض حركة الابداع .. لأننا نؤمن أن ليس كل جديد بدعة كما نؤمن أن التسلط الفكرى الذى يريدون فرضه علينا ضربة لازب ، يجنى على ارادة الاختيار ، وحسن التلقى ، وحرية المشاركة ..

فالارهاب يخلط خلطا فادحا بين الغاية والوسيلة ، ويركز على الأولى مهما تناقضت مع الشرف والمروءة ، تبعا للشعار الميكافيلى « الغاية تبرر الواسطة » .. أما الحرية فتحسم التفاضل بين الغاية والوسيلة .. بين المنطقى والسلوكى ، باعتبارهمــا اقنومين متســاويين يكونان حقيقــة واحــدة .

الارهاب يبحث عن الذرائع .. والحرية تبحث عن الأسباب ..

ونحن اذا احسنا التعرف على حقيقتنا ، نجد أنه لا يمكن أن تتكون للانسان هوية واضحة الا فوق ركائز تراثية تتمثل فى القيم الروحية والمثالية الأخلاقية والالتزام السلوكى التى تكونت للأمم عبر ذكرياتها التاريخية ، ومراحل نموها الحضارى .

ونتيجة لهذا المفهوم نؤمن أن الاسلام هو الاطار الحضارى للأمة العربية ، بخصائصها المتميزة .. وأن تقطيع أوصال ذلك الرباط ، وتشويه معالم ذلك الاطار هو هدف المؤامرة الامبريالية الصهيونية ، كان وما يزال !

ولعل من أجمل وأعمق ما وقعنا عليه فى وصف الأزمة الفكرية التى عانتها الشعوب التى ابتليت بالاستعمار والغزو الفكرى ، قرونا طويلة قول الفيلسوف الفرنسى المعاصر « جان بول سارتر » فى تصديره لكتاب المفكر الافريقى الشهير الدكتور « فرانس فانون » « معذبو الأرض » ترجمة الأستاذين جمال الأتاسى وسامى الدروبى :

« شرعت الصفوة الأوربية تصنع فئة من السكان الأصليين .. اخذت تصطفى فتيانا مراهقين ، ترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادىء الثقافة الأوروبية ، وتحشو أفواههم بشعارات رنانة ، ثم تردهم الى ديارهم وقد زيفوا .. ان مثل هؤلاء أكاذيب حية ، لا يملكون ما يقولون لأخوتهم ، لأنهم ، يرجعون ما سمعوه .. وكنا نحن المستعمرين الأوروبيين نقول لأنفسنا سرا : دعوهم يعووا ، فذلك يسرى عنهم . ان الكلب الذى ينبح لا يعض . وجاء جيل جديد نقل المسألة الى أفق آخر . لقد حاول كتاب هذا الجيل وشعراؤه ، أن يشرحوا لنا فى كثير من الصبر أن قيمنا لا تناسبهم ، مع أنهم لا يستطيعون أن ينبذوها نبذا كاملا ، ومضوا يقولون لنا : لنترك أوروبا التى لا تفرغ من الكلام عن الانسان . ومع ذلك فهى تقتله جماعات حيث تجده ، لقد انقضت قرون وهى تخنق الانسانية كلها باسم مغامرة روحية مزعومة .. ان أوروبا قد بلغت من الجنون والاضطراب فى سرعتها أنها ماضية الى الهاوية ، ويجدر بنا الابتعاد عنها » .

لقد تعمدنا الاستشهاد بقولة « سارتر » القاطعة لأنه يعتبر الامام الأكبر لمفكرينا المراهقين — كما يسميهم — الذين ينبحون فى الساحة العربية اليوم .. لنسألهم : ماذا تراهم يقولون فى تقرير « سارتر » الساطع الباتع أن القيم الغربية — الأخلاقية التى توشك أن تسوق الحضارة الغربية بسرعة الى الهاوية لا تصلح لنا ، بل يجب علينا الابتعاد عنها لأنها لا تصلح لانسان يعتز بانسانيته ويرتفع بها فوق النزوات الحيوانية .. أما علم أوروبا فهو قدر متاح وطاقة مجردة سهلة التناول مفتحة الأبواب لكافة الشعوب الظامئة للمعرفة ، وواجب علينا أن نجتهد ونجد لنأخذها عن القوم ونشارك فى تنميتها وترقيتها ودفعها فى طريق الكمال .. مع المحافظة على قيمنا الأخلاقية .. وهل نقول نحن غير ذلك ؟ !

ثم اسمع ما يقوله صاحب الكتاب « فرانس فانون » عن التبشير فى المستعمرات : « الكنيسة فى المستعمرات هى كنيسة بيض ، كنيسة أجانب .

انها لا تدعو الانسان المستعمر — بفتح العين — الى طريق الله ، وانما تدعوه الى طريق الانسان الابيض .. الى طريق السيد المتسلط .. الى المزيد من العبودية والخنوع » .

« هناك وسيلة اخرى وهى الدين — اى التزييف الدينى — فبواسطة الايمان بالقدرة يجرد المضطهد من مسئوليته باعتبار ان الله علة كل شيء ، فهو الذى اراد هذه الالام ، وهذا البؤس ، ورسم هذا المصير فعلى الفرد ان يقبل ما قضاه له الله » !

« ان رجال السياسة الذين يخطبون ويكتبون ، يجعلون الشعب يحلم .. صحيح انهم يتحاشون فكرة نسف النظام الاستعمارى القائم ، لكنهم فى الواقع يبثون فى ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف » !

« وهكذا يعمد المستعمر الى تكوين طبقة من المفكرين تبشر بمبادئه ، وتثنى على سلوكه الخلقى لا على ابداعه المادى .. وتكوين طبقة من القادة العملاء الذين يمتصون دم الشعب وينفذون مخططات التجهيل والتضليل !

« وحين اتيح للمستعمرات ان تستقل ، كانت شعوبها قاعدة عريضة من الجهل والمرض والجوع ، يجلس على قمة هرمها فئة صغيرة من مثقفين مزيفين ، وقادة عملاء » !

اليس هذا هو واقع الأمة العربية اليوم ؟

مثقفون يتصارعون على الايديولوجيات التى استوردوها فى حقائبهم من الغرب وقادة متناقضون همهم أن يتملكوا المتعة لا المعرفة ، وأن يحتقروا الحقيقة ويزيفوا التاريخ ، ليظلوا حيث اقامهم المستعمر على غارب الأحداث .. !

ويصبح هدف النظام حصر جميع الحقوق فى السادة والحواشى والجوارى والأذناب ، وحصر جميع الواجبات فى القطيع المسحوق .. الأفراد كل مهمل ، والامتيازات كلها للحاكمين ومن يدور فى فلكهم من المنتفعين والمنافقين . وفى انظمة كهذه تغيب المصلحة العامة ، وتحضر المصلحة الخاصة ، وينقسم المجتمع الى قسمين : فئة مدللة تستغل أبشع استغلال فئة ارقاء وعبيد .. « شلل » عميلة مأجورة ترسم ، فى حمى السادة والقادة على مزاجها مقدرات الناس والبلاد والوطن والمصير » !

ما اصدق انطباق هذا الكلام على واقع العالم العربى الأسود اليوم ! ويمضى « فانون » يعرى الحضارة الأوروبية من القيم الأخلاقية ، ويفضح كذبها ويخجلها من نفسها ، ويكشف التناقض بين دعوى الانسانية التى تدعيها أوروبا وبين جرائمها الأخلاقية فى حق الانسان ، فيقول :

« ان رخاء أوروبا ، بل ان حضارة أوروبا المادية قد جبلت من عرق وجثث الزنوج والعرب والهنود والصفر فى آسيا افريقيا » !

« لقد كان تعصب المستعمر المستمر ازاءنا» هو تعصب احتقار ، ولكن حفاظا على مظهر القيمة التى يدعيها المستعمر والتى تنادى بأن البشر متساوون فى جوهرهم ، تدعو هؤلاء البشر المتخلفين الى أن يصبحوا بشرا أسوياء من خلال النموذج الانسانى الغربى المخادع المفتعل الذى تجسده ، وهذا ما يدعو الشعوب المغلوبة بقيادة مفكريها الذين تتلمذوا على النماذج الغربية والثقافة الغربية ، أن تقلد المستعمر ليس فى زيه وثقافته وعلومه فحسب ، بل فى نزوته الحيوانية ، وقيمه المادية واستهتاره بكرامة الانسان، ولا تلبث أن تتكشف نوايا الأحزاب التى قامت باسم الوطنية والقومية ، ثم استحالت بعد التحرير الى دكتاتورية فردية طاغية ، تتكون حولها نقابة محترفة لتقطف ثمار النصر لأفرادها وحدهم على حساب الجماهير ، وتصبح هذ النقابة سدا منيعا بين القيادة وبين الجماهير لتستقل وحدها بالمزايا والخيرات » !

« وتنطوى العقيدة التى ساق الحزب الجماهير الى النضال فى سبيلها وتنتفى الأهداف الوطنية ، ويستغنون عن البناء الحقيقى للطاقات الى تظاهرات شعبية ومؤتمرات واحتفالات موهومة بأعياد الاستقلال ، ويتحول الحزب الى دائرة حكومية تقطف الثمرات .. تشترى سندات مالية من أوروبا وامريكا وتقضى عطلة الأسبوع فى لندن وباريس ، ويصبح سلوكها سلوك عصابة من اللصوص ، وتعامل الشعب على أساس انها قوة عمياء يجب ترويضها باستمرار بالتضليل والتخويف ، ويتحول الحزب الذى وضعت فيه الأمة آمالها غداة الاستقلال الى مصلحة مخابرات ، تراقب الناس ، وتكبت حرياتهم ، وتلجم السنتهم ، وتمتص دماءهم وتمارس فيهم دورا يشبه دور الاستعمار المطرود » !

« واذا قامت معارضة فى وجه هذا التعسف طورد أعضاؤها وحصبوا بالحجارة ، وضربوا بالسياط حتى تتم تصفيتهم ولا يبقى الا حزب واحد هو حزب النقابة الحاكمة ، ومن الطبيعى والمؤكد فى حالة كهذه أن يفوز مرشح الحزب ب ٩٩ ، ٩٩٪ من الأصوات » .

مرة أخرى نقول ما أصدق انطباق هذا الكلام على واقع العالم العربى الأسود اليوم !

ويختم « فرانس فانون » كتابه قائلا : « لقد انقضت قرون وأوروبا تجحد تقدم البشر الاخرين ، وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها — انقضت قرون وهى باسم مغامرة روحية مزعومة تخنق الانسانية كلها .. انظروا اليها الآن وهى تسقط بين تفتت الذرة ، وتحلل الروح .. فيا ايها الأخوة كيف لم نفهم للآن أن هناك ماهو خير لنا من اتباع أوروبا التى لم تنقطع لحظة عن الادعاء بأنها لا تهتم الا بالانسان ..

وقد عرفنا اليوم كم قاست الانسانية من آلام ، ثمنا لكل نصر من انتصار روحها ! هيا يا رفاق ، لقد انتهت لعبة أوروبا ، علينا أن نجد بديلا آخر .. اننا نستطيع اليوم أن نفعل كل شىء شريطة أن لا نقلد أوروبا تقليدا أعمى وأخرق ، لقد بلغت أوروبا من فرط السرعة المجنونة الطائشة نهايتها ..

انها قد افلست اليوم من كل قيادة وكل عقل وان دوارا رهيبا يعصف بها ، ويوردها موارد الهلاك . اننى حين ابحث عن الانسان فى التكنيك الأوروبى لا أرى الا سلسلة من الانكار للانسان .. الا مواكب جرائم قتل الانسان .. فلنحاول أن نخلق الانسان الكلى الذى عجزت أوروبا عن تحقيق الانتصار له .. لقد سوغت أوروبا جرائمها باسم الفكر واضفت بثقافتها ، الشرعية على استعبادها لأربعة أخماس الانسانية .. فهل يجب علينا أن ندفع جزية لأوروبا بخلق دول ومجتمعات تستوحيها ؟

ان الانسانية تنتظر منا شيئا غير هذا التقليد الأعمى الكاريكاتورى » ! « فمن أجل اوروبا .. ومن أجل أنفسنا .. ومن أجل الانسانية ، يجب علينا ان ننشىء فكرا جديدا وان نحاول خلق الانسان الجديد !» .

ونحن نؤكد بأعلى صوت ، وبالحجة وبالدليل والبرهان ، ان ذلك الفكر الجديد ، وذلك الانسان الجديد لا يمكن أن يوجدا الا من خلال الاسلام .

اما مراهقو المفكرين كما يسميهم سارتر .. الذين افتتنوا بالحضارة الغربية ، بوجهها الأخلاقى المنهار ، فماذا يقولون ؟

يقول أحدهم : « ما دامت الشعوب الاسلامية تعتنق قيما ثابتة تخالف قيم الغرب ، وهى القيم الاسلامية ، فلابد اذن من أحد حلين : أما ان يمحى هذا الاسلام بتشكيك الناس فيه وفى قيمة الأسس التى يستند اليها،ويحاصر بحيث لا يتجاوز نفوذه المسجد باقناع الناس ان الدين شىء ومشاكل الحياة شىء آخر .. واما أن يخضع الاسلام للتطور ليتقارب مع القيم الغربية الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية » وهذا هو نفسه هدف المؤامرة الامبريالية والصهيونية بالتمام والكمال !

واضرب لك الأمثال من الذاكرة ، وهى كثيرة تجدها كل يوم ، فيما يكتبه ويقوله الادعياء والعملاء والماجورون ، وفيما تبثه وسائل الأعلام العربية عبر الأثير ..

سفير اردنى جاءنا من وراء البحار ليحلل أبعاد المؤامرة فيقول لنا : ان سبيل النهضة هو العقل والعلم والديمقراطية كانما تلك البديهيات هى أسرار خافية على الناس اكتشفتها عبقرية السفير الهمام ، أما القوة الدافعة التى يحاولون طمسها والتحرج من ذكرها والاحتراز من الاشارة اليها ، بكل أسلوب وكل دليل ، فلم يتطرق اليها السفير العلامة من قريب أو بعيد خشية اتهامه بالرجعية والتآمر ، او بسبب الجهل والغفلة أو عن سبق عمد وتصور .. ولذا اغفل السفير تبصيرنا وتنويرنا بأن الايمان الذى افتقدناه وخلعناه ، والذى هو أمضى الأسلحة فى كل معركة خضناها خلال التاريخ ، فلا شأن للسفير به ، فقد أعمتنا التعميمات الفضفاضة والتجريدات الذهنية عن ادراك نقص قدرتنا على تفسيرها وتنظيرها وتثويرها وأسلوب ممارستها لغياب الخلفية الخلقية التى يستند اليها سلوك الفرد والمجتمع لمعرفة تلك البدائه وامكان تطبيقها .

وهذا استاذ فى الجامعة الأردنية يثرثر فى قضيتنا المقدسة ، ويخرج بنتيجة فى حكم المسلمة الغائية التى لا يأتيها الباطل ، ولا تقبل النقاش

وهى أن الأمة العربية اليوم تحتاج الى قائد كبسمارك ليوحدها ويجمع شملها !

وما أشد هوان أمة لا تجد فى تاريخها المجيد الطويل الغاص بالنماذج الانسانية الخالدة المذهلة ، بطلا تستحضره فى ذهنها ، وتود لو أتيح لها فى ظروف محنتها المعتمة قيادة كقيادته ! ؟

لقد استحى الأستاذ الجامعى الذى يتولى أمانة تنشئة أجيالنا القادمة ان يقول : ان الأمة العربية احوج ما تكون اليوم الى بطل مؤمن يتولى قيادتها كصلاح الدين فيلم شملها ، ويوحد صفها تحت لواء الايمان ! استحى لأن الحديث عن الدين قد أصبح وصمة عار .. حين نجحت المؤامرة الثقافية فى غزو عقول مفكرينا ، فاذا تحدث أحدهم عن المعركة والثار أطل عليك بألف تحليل وألف تخريج ، محجما عن ذكر الدين أمضى أسلحة المواجهة لشحذ ارادة القتال وارادة النصر خشية اتهامه بالرجعية والتخلف !

وهذا «لويس عوض(١)» فى نقده لكتاب «سجداللليل» لصلاح عبدالصبور فى عدد الأهرام ٣ — ١١ — ١٩٧٢ يفسر قول الشاعر : « حتى لا تفجأنى السكين .. أن تصبح كلماتى عما قبل السابع والستين » فيقول : « اننا حين نكثر من الكلام عن صلاح الدين ، فالعالم يسخر منا ، بعد ان كان يرثى لنا، والتنديد بدعاة الاكتفاء بذكريات « حطين » و « مرج دابق » و « عين جالوت » هو تقليد شاع شعرا ونثرا فى الآونة الأخيرة » .

ونسأل الكاتب بتواضع وهدوء : من ترى يدعو الى الاكتفاء بذكريات حطين وغيرها ؟ وهل يسخر العالم منا حقا حين نتحدث عن صلاح الدين وعن حاجتنا الى أمثال صلاح الدين ، بعد أن تمرغت القيادات العربية فى الطين !! ؟ واذا نحن تنكرنا لبطولاتنا ، هل نستجدى بطولات الاخرين ؟ أيريد عوض وأمثاله أن نلغى التراث العربى الاسلامى كله لنكون تقدميين ؟؟

ويقول « السيد يس » فى تعليقه على كتاب « روبرت تكر » أستاذ علم السياسة فى جامعة « برنستن » : « الفكرة الماركسية الثورية » يقول : « اذا كان محك أية نظرية هو التطبيق فقد اثبتت الماركسية بصورة أكثر وضوحا وجلاء من أية نظرية اجتماعية أخرى فى التاريخ ، انها بحق فلسفة القرن العشرين » .

ولو درس هذا الكاتب وتعمق جوهر الدين الاسلامى لعرف ان الثورة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد انتهت بمحمد صلى الله عليه وسلم — كما سيجىء بحثه فى موضعه من هذه الدراسة — « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » وان النظرية

---

(١) اذا أردت التوسع فى معرفة موقف لويس عوض وأمثاله من القومية والدين ، راجع كتاب اباطيل وأسمار للأستاذ محمود محمد شاكر .

الاسلامية هى ايديولوجية كل القرون وكل الأجيال ، لا القرن العشرين وحـــده .

ومن عجب أن يصر السيد يس على هذه الحتمية التى يحتنقها ، فى بلد عربى مسلم كالكويت !

ويكتب المدعو « ابراهيم عامر » فى مقال له بعنوان « دور الجيش فى احداث تركيا » بعدد المصور ١٩٧١/٣/١٩ يقول : « فى ظل تفتت الأحزاب التركية ، وعجزها استشرت الاتجاهات المحافظة والرجعية ، وخاصـــة الاتجاهات التى تتاجر بالدين الاسلامى فى السياسة ، والتى تقيم مائة جامع مقابل اقامة مدرسة واحدة » !! وقد جهل الكاتب أو تجـــاهل ان الدين الاسلامى الحق لا يكون تجارة ، وان ادخال الدين فى السياسة هو من صميم جوهر الاسلام .. وان المسجد فى الاسلام هو المدرسة التى تخرج الأبطال والمجاهدين الذين لا ينامون على ثار .. وان الاسلام فضل العـــلم على العبـــادة ..

غير أن هذا الحقد المتاجج فى هذه الطوايا العفنة هو مظهر طبائع المسخاء الشائهين وكل ما نطلب منهم أن يدرسوا الاسلام قبل أن يتهجموا عليه .. ولا نطالبهم وراء ذلك بنخوة لا تبالى ما يفوتها من النفع ان هى استقامت على سنن المروءة والصدق .. وكيف نطالبهم بذلك ، اذا كان السفهاء يقـــولون على اقدارهم امعانا فى التردى فى مآزق الضلال !.

انظر الى ما يقوله كاتب « متمركس » هو (كلوفيس مقصـــود) فى عدد النهار ١٩٧٢/٨/٨ فى معرض قرار الرئيس السادات بطرد الخبراء الروس : « اليمين العربى تجسد فيه التخلف والارتباط بالمخططات الامبريالية ، واليسار العربى تجسده قوى تقدمية تؤمن بالتغيير الشامل ، فالمناداة بالوســطية خدمة لليمين الرجعى والاعتراضات والخلافات التفصيلية لا يجـــوز أن تبعد عنا العلاقات المصرية بيننا وبين السوفييت وذلك يحتم علينـــا الدعوة الى المزيد من التواجد السوفييتى وليس النقصان منه) .

ويجب أن نسأل الكاتب هنا : ماذا يعنى باليمين الرجعى؟ اذا كان يعنى الاسلام ، وهو غير خاف فيما يسوده من أعمدة الصحف ، فهو كاذب متآمر لأن الاسلام عدو التخلف وعدو الجهل ، ونصير التكنية والعلم والاســـلام أشد أعداء الارتباط بالمخططات الامبريالية ، لأن الدين مروءة ، والمروءة شرف ، وذو الشرف الرفيع ، فى سبيل أن يسلم شرفه من الأذى ، لا يبالى الحياة .. أما الرجعى الحقيقى فهو الذى ينكر الايمان بالله ، وبدون ايمان بالله يصبح الانسان ، شر الدواب على الاطلاق ..

ومن كان بلادين ، فهو بلا مرءوة ، بلا شرف ، ولذا يسهل عليه أن يدعو بقحة ، الى مزيد من الارتباط بالمخططات الامبريالية .. ومزيد من الاستعمار الروسى لبلادنا ..

هؤلاء هم ممثلو القوى التقدمية التى تدعو الى التغيير الشامل بحتميـــة المزيد من التواجد السوفييتى لا النقصان منه ! .. وقد فسره أخيرا « الدكتور

صادق جلال العظم » فى كتابه « نقد المنظمات الفدائية » الذى ينتهى فيه هو الاخر الى حتمية أخرى تشبه حتمية صديقه — وما أكثر حتميات التقدميين ! بل هم الرجعيون حقا ! هى أن « فتح » والمنظمات الأخرى قد آن لها أن تعلن عن هويتها ، وهى الماركسية اللينينية ، وبغير ذلك لا يكون تحرير، ولا تكون حرب شعبية ، ولا يكون انقاذ مقدسات ! وقد أوردت كلمة « مقدسات » هنا عمدا ، لنعطى فلسفة الدكتور العظم ابعادها الحقيقية .

ويقول الصديق الاستاذ غسان التوينى فى مقال له بالنهار : « ان الاسلام يشهد اليوم رجعة اليه ، قبل أن يكون قد استكمل ثورته المدنية ، اى قبل أن يكون قد اجتاز التجارب التى اجتازها الغرب فى عصر النهضة ، والثورات ، فادت الى ما يطالب به دعاة التطور من المسلمين : فصل الدين عن الدولة ، وقيام الدولة العلمانية غير المحتاجة الى استمداد شرعيتها من الايمان الدينى »

ونحن نطلب من الصديق العزيز قبل أن يصفع الحقيقة بتعميماته وتجريداته تلك ، أن يقرأ الاسلام ويفهمه ويتعمقه .. نناشده أن يقرأ كتابنا هذا على الاقل ، قبل أن يعقد مقارناته المبتورة !

ويقول الأستاذ كمال جنبلاط فى حديث لجريدةالانوار ٢٧ — ١ — ١٩٧٣: « المفروض فى الحاكم وفق التعبير الحقوقى الرومانى الأصيل أن تكون له روح السلطة ، وذهنية الابوة فى آن واحد ، ومن ينقصه ذلك لا يستحق أن يتسلم أى مركز فى الدولة » .

يستحى جنبلاط هو ايضا أن يحدد شروط وصفات الحاكم كما جاء بها الاسلام ، وهو ذروة الذروات فى هذا الباب وغيره فى منهج الحكم وتصور الحاكمين ، ويفزع الى التعبير الحقوقى الرومانى ، لأن الاسلام لا يليق بالتقدميين ! واذا كان الخجل عاطفة ثورية كما يقول « ماركس » ، فالخجل مفقود عند الذين تعج بهم الساحة العربية من تقدميين ثوريين ! ومجانبة الحقيقة أبشع صور التأخر والرجعية والسقوط !

ويقول « جنبلاط » حول مشروع الوحدة الليبية المصرية السورية — جريدة الأنباء ١١ — ٨ — ١٩٧٢ : « الوحدة هى من طبيعة واهداف تيار التجمع العربى ، وظاهرة التجمع من النزعات الرئيسية للتطور الاجتماعى البشرى . وكذلك هى نزعة التكور الكونى التى تلعب دورها فى هذا الحقل ! . نود ونأمل أن لا يذكر فى الدستور الجديد للوحدة اى كلمة حول دين الدولة ، لأن ذلك مناف للواقع ولحقيقة المؤسسات الدستورية ثم انه يجعل فئات كثيرة من الشعوب التى تشملها الوحدة تتساءل عن وضعها ومصيرها . بل يجب أن يتضمن الدستور جملة كهذه « ان أنظمة وقوانين الاتحاد الفدرالى اللامركزى ، ومنهج الدولة تستوحى مصادرها ومثالياتها من علمانية للدولة تستلهم الأنظمة التقدمية والروحانية والمناقبية المشتركة لجميع الأديان الموحى بها . فيبتعد الاتحاد عن النظرية الضيقة للتقليد العصبى الدينى ، وعن علمانية الالحاد التى تمثلت أحيانا فى بعض الدول الغربية ، فهدفنا هو اقامة دولة علمانية ترتكز الى المناقبية والى الروحانية التى تتضمنها

جميع العقائد الروحية ، فتجمع بذلك افضل ما فى تراث الشرق وافضل ما فى تراث الغرب » .

واذا نحن فضضنا الطرف من نظرية جنبلاط فى « التكور الكونى » نسأله . اذا كانت ظاهرة التجمع من النزعات الرئيسية للتطور الاجتماعي البشرى ، فلماذا يحارب بضراوة اذن ، فكرة التضامن الاسلامى ؟ وهل اطلع جنبلاط على حقيقة وجوهر الشريعة الاسلامية ؟ ولماذا يفزع من النص على اعتبار هذه الشريعة مصدر التقنين فى دولة الاتحاد ، بعد أن شهد اكبر علماء القانون فى العالم ان تلك الشريعة أسمى وأعظم من كافة الشرائع الوضعية ، كما سيجيء بيانه فيما بعد ؟

واذا كنا نعترف بان للبنان وضعا خاصا ، ونترك له حرية الأخذ بالنظام المنسجم مع وضعه ، انطلاقا من حرصنا على كيانه « الموزاييك » الذى يختلف عن أوضاع البلاد العربية الأخرى ، فمن حقنا أن نرجو الأستاذ جنبلاط ورهطه ، الكف من اطلاق النصائح المبتسرة ، و « التخبيص » فيما لا يعنيهم قبل أن يفهموا مبادىء الشريعة الاسلامية ، ويدركوا حقيقة جوهر الاسلام ؟

وأجمل ما فى كلمة الأستاذ جنبلاط قوله : « اننا يجب أن نجمع افضل ما فى تراث الشرق ، وأجمل ما فى تراث الغرب » .. هذا حق وصدق ، وهو ما ندعو اليه بحرارةوالحاح، فلو نحن استطعنا أن نقتبس العلوم والابداعات المادية والمعجزات التكنية من الحضارة الأوروبية مع المحافظة على مفاهيمنا الروحية وأخلاقياتنا الدينية ، لما وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم من تهافت على فتات موائد الدنيا واستجداء العطف والشفقة من الأعداء !

وكيف ترى يكون ذلك مخالفا للواقع ولحقيقة المؤسسات الدستورية ؟ ..

ومن هى الفئات التى ستتساءل عن وضعها ومصيرها فى دولة الاتحاد . اذا كان يقصد بذلك الاخوة المسيحيين فذاك دس ووقيعة وفتنة . ان الاسلام يحارب العصبية الدينية ، والقبلية والعنصرية ، أكثر الف مرة مما يحاربها جنبلاط — واعوذ بالله من المقارنة والقياس .

واخواننا المسيحيون من قبل ومن بعد ، هم جزء منا ومن تاريخنا وحضارتنا وهم حماة لغة القرآن ، وباعثو الثقافة العربية ، بعد عصور الجهل والظلام واذا كانت الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان فى رأى كبار العلماء والفلاسفة والمفكرين والمشرعين الغربيين كما ذكرنا ، وكما سنثبت بعد حين ، فهل يضير اخواننا وهم شركاؤنا فى السراء والضراء ان نتساوى بالمواطنة فى ظل تلك الشريعة فى الحقوق والواجبات ، أن يعيشوا مع تلك الشريعة الغراء لهم مالنا وعليهم ماعلينا ، لا تنتقص ولا افتئات،ولا فرق بين مسلم عربى ومسيحى عربى الا بالعمل الصالح وشرف المواطنة وخدمة المجتمع والدفاع عن الأرض وصيانة الأخلاق مع احتفاظهم بحرياتهم الدينية كاملة غير مهضومة وهو ما اكده تاريخ الاسلام .

وكيف يجهل رجل كالأستاذ جنبلاط ان الاسلام هو الوعاء الحضـارى والمعين الروحى للقـومية العـربية التى يتغنى بهـا .. وان اعتزاز المسيحى بقوميته العربية هو اعتزاز بذلك الوعاء الحضارى ، وان التفريط الوعاء تفريط بالمحتوى والمضمون ؟

كيف يجهل ان القومية هى نسب حضارى ، وان ذلك النسب موصول الوشائج بالاسـلام .

واذا كانت العلمانية تتفق مع واقع الحياة الاوروبية بعد انفصـالها عن الكنيسة للاسباب التى ذكرناها ، فمن قال بأن واقعنـا الاجتماعى والسياسى والثقافى يلزمنا بان نحذو حذو التجربة الأوروبية بفصـل الدين عن الدولة ؟

الاسلام ليس مجرد علاقة بين الفرد وربه ينتهى عند عتبة المسـجد .. ولا هو عقيدة مجردة نابعة من الضمائر .. بل الاسلام عقيدة وشريعة ومجتمع يؤمن بالدين منهجا وتصورا وتفكيرا وسلوكا ، ودنيا وآخرة .. ينبثق ذلك كله من افراده تعاليه بالالوهية والحاكمية والسلطة ، فهو وحده الجدير بان يطاع ، وشريعته وحدها الواجبة الاتبـاع ، فاما الحكم بما انزل الله ، واما الجاهلية والضياع لا تردد ولا توقف ولا اشتباه ..

لقـد ادى الفصام النكد بين الدين والحياة فى أوروبا القرون الوسطى الى نوع من ازدواجية الولاء للسـلطة الزمنية المتمثلة فى الامبراطور ، والسلطة الروحية المتمثلة فى الكنيسة ــ اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ــ باعتبار ان السلطة القائمة على الأرض .. انما هى كما يقول « بولس الرسول » من أمر الله ، فمن يعصى السلطات الشرعية فكأنما هو يعصى الرب ، وتحل عليه اللعنة ، وقد أدى ذلك مع الزمن الى تزايد سلطة الكنيسة ، واعتبار الحاكم مسؤلا امامها لأنهـا هى الممثل الحقيقى للرب .. ثم كان ما كان من تناقض وتعارض .. ثم تتـارك وانفصـام .

اما الاسلام فيقوم على اساس التوحيد بين السلطتين كما حدث فى تجربة الحكم الاسلامية الأولى التى يعتبرها معظم الفلاسـفة والمفكرون الغربيون ، أعظم تجربة عرفتها الانسانية لأنها تدعو الى تقييـد السلطة بمصلحة الرعية وحسن تطبيق الشريعة .. وان الولاية هى بمثابة عقـد بين الحاكم والرعية .. وان طاعة الحاكم مقيدة بحدود ذلك العقـد فان أخل الحاكم به بطلت طاعته ، وهـذا يتفق مع المفاهيم الديمقـراطية الحديثة ، بانبثاق الحكم من الشعب ، باختيار حر ، لمصلحة الشعب .. وسنزيد ذلك تفصيلا فى الفصول التالية .

ان من يخشـون تطبيق الشريعة من جهة الحرص على مشـاعر وحساسيات الاقلية الدينية واهمون أو مغرضون .. أو هم يجهلون ان هناك فرقا بين قانون الدولة العام وقانون الأحوال الشخصية .. فقـد سبق الاسلام الدنيا كلها منذ مئات السنين ، الى اعطاء الاقليات الدينية

حقها الكامل فى ممارسة شعائرها والرجوع الى محاكمها الخاصة فى الأحوال الشخصية ، حسب مبادئها الدينية .. وجميع القوانين الحديثة فى الدنيا قد اخذت عن الاسلام هذا التفريق .

ولو نحن اتجهنا بصدق واخلاص الي الحوار العلمى الموضوعى ، لتساءلنا عما اذا كانت الشريعة الاسلامية كدستور دولة صالحة لمواجهة متطلبات الحياة العصرية ؟

فاذا كان الجواب بالايجاب ، وانها اصلح من القوانين الوضعية فى المبادىء الانسانية والتطبيقات الاخلاقية والحلول الاجتماعية والاقتصادية ، فهل يصح فى عقل عاقل ان يقول : ان الاقليات الدينية ترفض تلك الشريعة الأفضل ، وتطالب بتطبيق القانون الرومانى ، أو اللاتينى أو الافرنسى أو السويسرى أو الانكلوسكسونى فى بلادنا ! .

ثم ماذا يقول جنبلاط فى الاقليات العنصرية والعرقية الأخرى التى تتساءل — هى ايضا لو أخذنا بمنطقه — عن وضعها ومصيرها فى دولة الاتحاد ؟

ان الرباط الذى يجمع بين هذه الفئات وهذا المجتمع هو الاسلام ولا شىء غيره اما الرباط الذى يجمع بين الفئات التى ذكرها جنبلاط وهذا المجتمع ، فهو رباط ارحب مدى ، واكثر شمولا .. هو رباط المواطنة والمشاركة والهوية والانتساب الى حضارة واحدة . صنعها الجميع وانتمى اليها الجميع .. والانتماء الحضارى ليس صبغة عارضة ، يحكها الاستاذ جنبلاط وحواريوه فتحول وتزول بل هى باقية بقاء الازل ، لا يؤثر فيها الخراصون .. قتل الخراصون !

وفى اعتقادنا ان الاستاذ جنبلاط ظاهرة غريبة تستحق المزيد من الدرس والمعالجة .. فهو مزاج من اختلاط ثقافات وحضارات متعددة ولعلى اقول متناقضة ، فهو قد نشأ فى بيئة عربية وفى احضان الارساليات التبشيرية ، ثم درس فى باريس ، وافتتن با « ليوجا » الهندية ، وقبس من الاسلام ، كما قبس من هذه الثقافات اشتاتا سطحية دون تعمق ، فتاه فى تياراتها المتضاربة ، ثم غلب عليه بحكم زعامته العشائرية طابع التعالم والاستعلاء ، فهو يحسب انه استاذ كل فن ، وكل علم ، وكل معرفة .. ويكتب فى كل شىء اخلاطا تجمع النقيض الى النقيض ، كما تجتمع النقائض فى نفسه فيكون اقطاعيا وماركسيا لينينيا ، والله أعلم بالسرائر .. وينتقل عجلان كحسو الطائر اللعوب بين الثقافة اللاتينية والثقافة الاسلامية والثقافة الهندية ، ويدلى برايه دون توقف فى السياسة والادب والطب .. حتى عدا طوره اخيرا فأخذ ينظم الشعر ، فذكرنا بقوله العرب : يظل المرء فى فسحة من عقله حتى ينظم شعرا ..

ونحن ننجذب حقا الى بدوات الاستاذ جنبلاط ونزواته وتعميماته وتقريراته ونحبه كسياسى نظيف بين سياسة معظمهم موسوم بالعفن والفساد .. ولكن حين نضع ما يكتبه فى القضايا الفلسفية والدينية بعضه

الى جوار بعض نجد التخبط الذى يصل الى العبث ويباعد بينه وبين مساغ العقل والذوق .

انظر مثلا الى قوله فى محاضرة القاها فى حلقة دراسات مفاهيم الحرية فى بيروت ١٩٥٦/٥/٢٣ : « لا يمكن اعتماد حلول تقضى بطرد ابناء فلسطين اليهود منها ، لأن اى حل على أساس القومية ، لابد ان يتجاهل حق الجميع فى مصيرهم ، فالقومية تتحول بحقى وحدى متجاهلة حق سواى .. من الواجب حل المشكلة الفلسطينية على أساس قومية منفتحة انسانيا ، وهى وحدها الوصفة المحكمة التى يمكن الاشادة بها فى هذه المنطقة الحساسة من العالم ، على أساس اتحاد فدرالى عربى يهودى فلسطينى يفسح مجال ادخال فلسطين ودمجها معنويا ان لم يكن سياسيا فى مجموعة بلدان الشرق الأدنى » .

وقال فى جريدة النهار ١٩٧٢/٨/١ : « هل قدر للعرب ان يمهدوا بأيديهم لتوسع دولة اسرائيل من جديد لتكوين ملك سليمان الى أن يتم لهذه الشعوب التى فقدت الحماسة الروحية — على حد تعبير هذا اليابانى المقاتل فى اللد ، ان تستعيد شيئا من ايمانها بقضيتها .. بقوميتها بدينها .. لأنه فى الواقع يعوزنا الدين الحق لأنه لا يوجد لدينا بالمعنى الصحيح ، تعلق بالدين ، بل تعصب . لأن المؤمن الحق لا يخاف الموت » .

وقال فى جريدة الحياة ١٩٧٢/٨/٩ : « ان الأمة العربية انقطعت عن مجرى حضارتها التاريخية منذ ستمائة سنة ، ولم تحاول ان تصل نفسها بهذا المجرى الحضارى الضخم عبر قرون الظلمات ، وليس هذا هو حال الشعوب الحضارية كالصين واليابان والهند التى حافظت على حضارة تعود بها الى خمسة آلاف سنة . واول واجب للعالم العربى ان يعود الى جذوره الحضارية ويستوعبها قبل أن يقلد الغرب » .

قارن بين هذه الكلمات المضيئة الملهمة ، بما قاله فى كلماته السابقة لتتعرف معنا على نزوات هذه الظاهرة الغريبة فى مجتمعنا العربى ..

وآخر « تعليقاته » بعد عودته الأخيرة من موسكو انه يفكر فى وضع كتاب عن مفهوم الالوهية والنظريات الماركسية .. اى ان يؤلف بين الفلسفة المادية والفلسفة الروحية .. فاسمع وتعجب !

اما الشعرة التى قصمت ظهر البعير .. من شطحاته العجيبة فهى محاولته اثبات العلاقة بين البوذية والاسلام ، اذ يقول : « ان تمارين النفس « اليوجيه » التى من شأنها تهدئة الفكر وتجديد طاقته ، نجد لها مثيلا فى عمليات السجود التى يقوم بها المسلمون عند الصلاة ، والتى تدفع بالدم الى الرأس فيرتوى دما وغازا « مؤكسجا » نقيا .. وذلك يذكرنا ببعض وقفات « اليوجا » خصوصا تلك التى ينتصب فيها الانسان على رأسه وقدماه فى العلو .. وهكذا التلفظ بكلمات « الله » بمد طويل .. أو « الله اكبر » التى تستدعى تنشقا واسعا للتنفس . ولاشك ان النبى كان يدرك الوانا من هذا التعبد عندما اعتزل فى غار حراء » — ملحق الأنوار الاسبوعى ١٩٧٣/٣/٢٥ .

ى ن الركوع والسجود فى فريضة الصلاة هى كارتفاع رجلى صاحب اليوجا فى الهواء .. وان قوله الله اكبر هى للتنفس العميق .. وان محمدا قد اعتزل فى غار حراء ليمارس بعض تمارين « اليوجا » وكيف ترى يستطيع عاقل ان يعلق على مثل هذا الكلام ! .

وقارن اذا شئت بين هذا الافك المعيب حقا ، وبين ما يقوله مفكر عربى مارونى تعتز به الحضارة العربية الاسلامية فى كتابه « فى خطى محمد » : « بين الاسلام وجاهليه هوة ساسعى الى ملئها بالورود والرياحين لتغدو ساحة لقاء ، وحقل تلاق ، فاسهم بذلك فى اطلاع اخوة لى مسيحيين على حقيقة هذا الدين ، وما يحتوى ثروات روحية وخلقية .. وعلى ما أدى للانسانية عبر العصور من جلى الخدمات .. وما انشده من الاعماق هو ان ننتقل جميعا من الجهل الى المعرفة .. لأن المعرفة طريق المحبة ومن يمشى على هذه الطريق يدرك الله ، لأن الله محبة . وآمل ان أكون بهذا العطاء ، وضعت مدماكا فى صرح نلتقى فيه جميعا مسيحيين ومسلمين ، ونعيش أخوة متحابين ، جاعلين من امتنا ، سبق شعور بما سوف تكون عليه السماء » .

« ولاخوتى المسيحيين اقول بمحبة .. قبل أن تلجوا هذا الكتاب ، تعروا من كل ما علق فى اذهانكم واستقر ، وامحوا من مخيلاتكم واعماقكم ، ما تراكم فيها عبر الزمن من آراء ونظريات ، ولا تعتبروا كأمر واقع لا جدال فيه ، ما سمعتم وتسمعون فى بعض أوساط لا هم لها سوى زرع البغضاء .. كل ذلك بتأثير من الغرب الطامع بهذا الشرق عبر مسيحييه » .

« ان الدين الاسلامى بالنسبة الى القومية كان كالروح بالنسبة الى الجسد ، فالعربى الذى امتطى جواده ، واستل سيفه فاجترح تلك الأعجوبة ، انما كان جسدا وروحا . القومية العربية جسده ، وروحه الاسلام » ..

ونحن لا نشك فى ان الاكثرية الساحقة من المفكرين المسيحيين يؤمنون بذلك كما يؤمنون بتعاليم سيدنا عيسى عليه السلام ، فلا يجدون تناقضا بين الفكر القومى والفكر الدينى فى الحضارة العربية .

يقول الشاعر العربى رشيد الخورى الملقب بالشاعر القروى

انا العروبة لى فى كل مملكة
انجيل حب ولى قرآن انعام
سل عهد شامى وبغدادى واندلسى
عن عمق فلسفتى عن عدل احكامى

شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت عروبتى مثلى الأعلى واسلامى

هذا هو القول الفصل ، أما فلاسفة المقاهى والبارات ، وحكماء اليوجا ، من المسطولين فهم الذين يمثلون امة الفكر العربى المعاصر شر تمثيل ! ..

العلمانية والإسلام

عندما بزغت النهضة الوطنية فى بعض بلاد الشرق الأوسط ، فى اطار الدعوة الاسلامية على أيدى الرواد من المصلحين الاسلاميين كجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، والزوايا الدينية فى الشمال الأفريقى ، والحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ، اجفل المبشرون والاستعمار ، واصدرت المطابع الغربية الوف الكتب تحض الدول المستعمرة على محاربة هذا الاتجاه ، وبذلوا كل مساعيهم ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية .. كبعث الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان ، والاشورية والكردية فى العراق ، والظهير البربرى فى المغرب .

ولما لم تنتصر هذه الدعوات الاقليمية ، لجأ الاستعمار الى فكرة القومية العربية لتكون مناقضة ومعارضة للاسلام . ومما يؤسف له ان نفرا كبيرا من الشباب العربى الذين درسوا فى الأرشيفات التبشيرية والدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية ، تجاوبوا مع هذه الفكرة واخذوا يناهضون الاسلام سرا ثم علانية تحت ستار العروبة ، وجميع الأحزاب القومية التى نشأت فى بلادنا جعلت همها الأول الدعوة الى العلمانية ومحاربة الاسلام ، فجعلوا العلاقات بين الدول العربية تقوم على رابطة العرق وحده المجردة من كل صلة بالدين . وجعلوا علاقة الدول العربية بالدول الاسلامية فى نطاق هذا المفهوم لا تختلف عن علاقتها بالكونغو والمكسيك والأرجنتين(١) !

وهكذا نشأت فكرة القومية المغلقة على أساس تصورات خيالية وتجريدات ذهنية يجرى فرضها على الواقع بالعنف والارهاب . وساقت هذه التصورات بعض دعاة القومية الى صياغة تعريفات غريبة ، لا مدلول لها ولا مضمون ولا مفهوم ، فى وصف الأمة العربية .. وبذا جعلوا فكرة القومية موازية لفكرة الألوهية ، للتخلص من الاسلام ، ولذا نشأت معظم الاحزاب العربية قومية ثم انتقلت ماركسية لعدم وضوح الرؤية ، وفوضى الشعارات .

وفى الجهة المقابلة ، نجد اليهود يقدمون لنا فى كل صباح دليلا جديدا على محافظتهم على تعاليم التوراة والتلمود ، وان ذلك هو سر تجمعهم وانتصاراتهم ، وليست قصة مشروع الزواج المدنى التى فشلت

---

(١) « التبشير والاستعمار » لمصطفى الخالدى وعمر فروخ .

فى اسرائيل فشلا ذريعا بالرغم من الاقلية الدينية المتطرفة فى « الكنيست » الا مظهرا لذلك التزمت المريب !

ولقد سمعت عضو « الكنيست » « مناحم باروس » يقول فى حوار بالراديو الاسرائيلى : « ان سر بقاء اليهود متمثل فى محافظتهم على تقاليدهم وطقوسهم الدينية المستقاه من التوراة » . وقرأت للكاتب الاسرائيلى « ماتى غولان » قوله : « لقد قامت الدولة لتحقيق وجود واستمرار الدين اليهودى والعنصر اليهودى . لقد عاش الدين اليهودى والشعب اليهودى قرونا طويلة دون دولة يهودية ، ويمكن استمرارها بدون دولة .. لكن الدولة اليهودية لا يمكن أن تعيش بدون التمسك المطلق بالديانة اليهودية » !

وسمعنا اخيرا ان مجموعة من المتدينين الاسرائيليين قد اعتدوا فى وضح النهار وبمرأى من رجال الأمن على متجر لبيع المنشورات الداعرة ، وتحطيمه وحرق محتوياته .. كما سمعنا باعتداءاتهم المتكررة على الارساليات التبشيرية المسيحية لحماية المجتمع اليهودى من الانحراف الدينى .

ونجد ان « شموبل يوسف عجنون » وهو من كبار المفكرين اليهود الحائز على جائزة « نوبل » فى الآداب ، لا يخجل ان يقول : انه يكتب بالعبرية وحدها لأنها لغة الله .. وان كبار القادة والساسة والمثقفين وفى مقدمتهم « شازار واشكول ، وبن غوريون ، وديان ، وايبان وبيرس وغيرهم وغيرهم ممن يزعم بعض مفكرينا انهم ملحدون ، هرعوا عند احتلال القدس العربية فى حرب سنة ١٩٦٧ الى حائط المبكى ، يجارون بالنحيب والبكاء ، ووقفوا حاسرى الرؤوس بخشوع يتلون صلواتهم ، وبلغت العصبية الدينية ببعضهم ان يدس فى شقوق الجدار أوراقا صغيرة كتبوا فيها أمنياتهم .

وذكرت وكالة « الاسوشتدبرس » غداة الاحتفال بتشييع جنازة « تشرشل » فى لندن ، ان « شالمان شازار وبن غوريون » اللذين مثلا الحكومة الاسرائيلية فى ذلك الاحتفال ، سارا مسافة ميل ونصف ، وهما الشيخان اللذان تجاوزا السبعين ، ورفضا ركوب العربة لأن يوم الاحتفال ، كان يوم سبت ، والدين اليهودى يحرم استخدام وسائل النقل فى ذلك اليوم .

وبن غوريون وغيره من القادة اليهود — جميعهم دون استثناء — لا يأكلون الطعام الا اذا أعد وفقا للعقيدة اليهودية وتحريماتها الواردة فى التوراة .. واليهود الى هذه الساعة ، يرجمون السيارات فى قلب تل أبيب اذا سارت أيام السبت فى الطرقات .. و « ويوسف تيكواه » مندوب اسرائيل فى الهيئة الدولية ، يعطل اجتماع مجلس الأمن ، ليقوم بالطقوس الدينية !

والجماهير اليهودية حين وصلت الى حائط المبكى فى السابع من حزيران المشؤوم صلى بهم حاخامهم الأكبر صلاة النصر والظفر ، فعلا النواح ،

وجلجلت الأصـوات الهـادرة : ليسقط محمـد . اليوم انتهى محمـد « محمد مات وخلف بنـات » يا لثارات خيبر !!

لم يهتفوا ضـد ناصر أو الاتاسى أو عارف أو الحسين أو غيرهم من قادة العرب وزعمائهم .. لأن هدف المؤامرة ، هو محمد والاسلام .

ومع ذلك لم نسمع صوتا واحدا يرتفع فى السـاحة العربية للدفاع من محمد ودين محمد ولم نجد مفـكرا واحـدا يكتب حرفا فى تعبير اليهـود بالأرضية الدينية ! ولم نجد عربيا يسـال نفسه : لمـاذا يهتف القوم ضـد محمـد ؟ .. ذلك لأن معظم من واجهوا اسرائيل فى معـركة الذل من التقدميين ! لا يعرفون محمدا بل لا يعرفون الله !!

ثم الم تسمع بالمتدينين ، اليهود يهرعون الى ساحات المسـجد الاقصى ليترعوا البوق وقت الاذان ، فى مسجد عمر ، ويقيموا حلقـات الرقص فى باحات الكنائس والمساجد ، احتقارا واستهزاء بالديانتين السماويتين العظيمتين ؟

وحين يعلن اليهـود فى كل مناسبة ان هدفهم البعيد ، هدم المسـجد الأقصى وقبة الصخرة وبنـاء هيكل سليمان الجديد فوق انقاض الاسلام . ماذا تريدون منا ان نسمى ذلك .. اليس هو الأرضية الدينية للعـدوان الاسرائيلى ، التى تنكرونها علينـا ؟

وحين يقول بن غوريون : « بدون التفـوق الروحى لم يكن شـعبنا ليستطيع البقاء الفى سـنة فى الشتات .. وان لا معنى لاسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس من غير الهيكل ! » . ماذا تريدوننا ان نسمى هذا ؟ وهل نلام اذا استصرخنا المسلمين والمسيحيين ، لينقذوا مقدساتهم من الدمار ؟ !

الا تكفى كل هـذه الأدلة والبـراهين لابراز الطـابع الدينى للغزوة الصـهيونية ؟؟

ان مفكرى العـرب الثوريين ، يعرفون هـذه الحقائق ، ويتعمدون انكارها ، فهم ما انفكوا يقولون لنـا ان المجتمع الاسرائيلى هو مجتمع لا دينى ، وان الدولة الاسرائيليـة دولة علمـانية ، وان كبـار القـادة الاسرائيليين ملحدون ، ليبرروا دعوتهم الى العلمانية والالحاد .. وأول دعواهم التى يبشرون بهـا عدم زج الدين فى معركتنا مع اسرائيل والدعوة الى حرية الكفر ، وان طرح القضية على ارضية دينية خطأ سواء اكان الطرح تاكتيكيا او استراتيجيا ..

مع أن فيما سقناه ، وهو قليل من كثير ، من اقوال زعمائهم وقادتهم ، الف دليل حسى على كذب دعواهم ، ويكفى ان نشير ان اليهود الذين تجمعوا فى اسرائيل من تسعين دولة وجنسية ، ليقيموا مجتمعا متلاحما متضـامنا متكافلا ، انما تجمعوا على أساس الدين وحده .. وان ما عرفناه من انعزال الاقليات اليهودية فى المجتمعات الغربية ، قبل قيام اسرائيل ، مرده

.ى شعورهم بالتفوق العرقى والدينى وفق تعاليم انبيائهم . وقد حافظوا مدة الفى سنة فى الشتات على ما يسمونه نقاء الدم اليهــودى ومبادئهم الدينية .. ذلك لاعتقادهم بان الحرص على هويتهم الدينية المتميزة هو سر بقاء الصهيونية .. ان مجد اسرائيل سيبقى طالما بقى متعلقا بالتوراة .. وان نهضة اسرائل القومية واحياء الدين اليهودى ـــ كما يقول الحاخام « شختر » أمران لا ينفصلان !

ونحن ندعو الذين يكثرون من الثرثرة عن الحاد المجتمع الاسرائيلى الى دراسة البرامج التعليمية فى اسرائيل،من أول مراحل التدريس الى آخرها، فالطالب اليهودى منذ دخوله دور الحضانة الى ان يحمل أعلى شـــهادات التخصص ، يلقن التاريخ اليهودى والدين اليهودى . وتخصص ســاعات يومية فى البرامج لدراسة التوراة والتلمود وقصص البطولات الدينية عبر التاريخ ، وسير انبياء اسرائيل وعظمائها وملوكها وفلاسفتها ، بحيث ينمو الطفل ، وهو يزداد احساسا كل يوم ، أنه ينتمى حقا الى « شعب الله المختــار » ! .

ثم .. اليس الاسلام هو العقيدة التى اعزنا الله بها فى كل معاركنـــا فانتصرنا واذلنا حين تركناه ؟

ولمــاذا يحرق البخور لاسرائيل فى شن حربها الدينية علينـــا ، ويحرم علينا مجرد ذكر الاسلام كعنصر من عناصر المعركة ، ولا اقول أهمها على الاطلاق ؟

القضـــية ببساطة أن العـــداوة الـــكامنة للاســـلام فى اوروبا وأمريكا والصهيونية التى توجه سياسة الدول الكبرى .. والتى تخلق العقـــائد المنحولة ثم تبيدها بما يتفق مع مصالحها وأهوائها .. واخيرا لا آخرا ، صعاليك الفكر الثورى الذين زرعتهم المؤامرة فينـــا وبثتهم بين ظهرانينا ، فتولوا القوامة على قـــدر الأمة ومستقبلها خلال ربع قرن من التبـــدد والتشرذم والتشنج والضياع ، وجعلوا هدفهم الأول ، ابعاد القضـــية المقدسة عن مسرحها الحقيقى !

لقـــد فرضت على هذه المنطقة سنين طوال من الارهاب الفـــكرى والحرب النفسية ، أوقدتها المؤامرة ، ورفدتها الدسائس ، وأعانها الجهل والضلال ، وتولت كبر ذلك اقلام عربية لمفكرين عرب ، احتلوا مراكز القوى والسيطرة والتوجيه ، وانتحلوا صفة المرشدين المشفقين الناصحين بحيث اصبحت قولة لا اله الا الله ، رجعية وتاخرا ووصمة عار .

واستبدلوا بذلك ، الدعوة اللئيمة الى ضرورة الحوار بين الشعوب بدل الحروب ، لنطاطىء الراس لاسرائيل ، ونخضع للامر الواقع ، ويتحول الحوار بالتدريج الى تعايش وســـلام وتفاهم بين البروليتاريا العـــربية واليهودية ضد الرجعية فى الجانبين ، لا الى قضية قومية وطنية دينية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ !

حتى لقد بلغت النذالة والخيانة ببعض المجلات التى تصدر فى بلاد عربية واسلامية دعوة الفدائيين الى وضع ميثاق عمل واحد يجتمع حوله المناضلون العرب وطلائع التقدميين فى اسرائيل ، ويرسم صورة كاملة لمستقبل اسرائيل وفلسطين معا ، على أساس الايديولوجية الماركسية ، وسيادة البروليتاريا .. ويا صعاليك العالم اتحدوا !!

قولوها اذن بصراحة : ان محاربة الأرضية الدينية ، وسلاح الايمان مفضلة ومقدمة عندكم على محاربة اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل !! وعند انتهاء معرككتم تلك ، تنتفى اسباب التناقض بيننا وبين اسرائيل ، ويسود الوئام والوفاق ويسهل التعايش السلمى ، فتصبح اسرائيل قلعة الحضارة ، وسيدة البرارى والبحار ونصبح نحن قطيعا كادحا فى خدمة التفوق الاسرائيلى ومجد الهستدروت !

تقولون انها معركة حضارية ، ومتى انكرنا نحن ذلك ؟ لكن حضارة اسرائيل التى بلغت ذروة التفوق المادى ، لم تغفل حافز الدين ، نجمعت بين التكنية والعلم وبين الدافع الروحى ، اما نحن فقد وقفنا امام الحضارة المادية مبهورين مشدوهين .. عاجزين فاشلين ، واضفنا الى هذه الصفة فقدان الحافز الذى هو وحده ، يؤلف بين الاشتات ويحض على العلم والعمل ، ويزرى بالكسالى والمتخاذلين !

قد أضعنا امضى اسلحتنا فى المعركة وهو الايمان ، وعضوا هم عليها بالنواجذ .. ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم من الوصول الى قمم الحضارة الأوروبية فى الابداع المادى ، ولم نسمع بمن يتهمهم بالرجعية والتخلف لتشددهم فى أمور الدين .

لقد هزمونا بالعلم والايمان ، لاننا واجهناهم بلا علم ولا ايمان .. اخذنا من الحضارة الأوروبية القشور ملفوفة فى « برشامة » الالحاد ، وتركنا لهم اللباب .. اخذنا الايديولوجيات الوافدة التى نخرت عظام الأمة وفتت فى عضدها ، وقضت على كرامتها ، وشلت طاقاتها حتى اصبحت امثولة التاريخ فى الذل والهوان !

والأمة التى تستحى من تراثها وتبتر صلة حاضرها بماضيها ، وتستهزىء بأمجادها ، وتتنكر لحضارتها هى أمة لا تستحق البقاء ..

وما لم نع ان معركتنا مع الصهيونية هى معركة دينية قبل كل شىء ، فكل ما نفعله باطل الاباطيل ..

وبغير رفض دينى كيف يمكن مقاومة احتلال الأرض والمقدسات ؟

أيمكن مقاومة الغزو الدينى العنصرى الاستيطانى بشعارات نلهو بها ونستعيرها من مستنقعات الغرب ؟

لعل بين قادة اسرائيل من هو ملحد لا يؤمن بالله ، ولو كان اله اسرائيل

الظالم الحقود ، لكن ليس بين قادة اسرائيل من لا يدرك دور الطاقة الروحية فى تكوين الحوافز على الموت فى سبيل خرافات التوراة واساطير التلمود!

ان الامم لا تنتصر الا بالقيم الروحية ، ولذا هزمتنا الدولة الملفقة المرقعة من تسعين دولة ، وسقطنا نحن الذين نمتاز على جميع التكتلات الدولية بمستوى نادر من التجانس والتآلف ، صرعى تحت أرجل شذاذ الآفاق !

ان التناقض بين العرب والصهيونية فى هذه المنطقة ، منطقتنا يخضع لمبدأ التنافى الكلى المتبادل ، وهو مبدأ فلسفى عقلى لا شك فيه ، فلا سبيل من ثم الى مساومة أو مهادنة أو مصالحة ... بل نحن وهى طرفا قضية أحدهما زائد يجب ان يزول !

ان الارضية الدينية لقضيتنا ومعركتنا لا تعنى ان نشن حربا للقضاء على الدين اليهودى ... فموسى عليه السلام هو رسول الله وكليمه ، لكننا سنشنها حربا لا هوادة فيها ، مهما طال الزمن ، وتكاثرت العثرات، على الصهيونية التى انحرفت عن التعاليم الاصلية للنبى الكريم ! والتى تسعى لتدميرنا وتدمير عقيدتنا وحضارتنا وتضرب كل محاولة لانبعاث اسلامى جديد ..

ان اتهام الاسلام بالتأخر والرجعية ، اتهام ظاهر البطلان ، واضح الهدف والغاية . والمشاهد من ضعف المسلمين وتخاذلهم يعود الى تنكرهم لدينهم فى اطاره الصحيح ، فهم المتهمون لاندفاعهم فى حياة الترف ، وتقليد الفلسفات المادية وتعطيل الجهاد .. وكل حضارة لا ترتكز على الفكر الدينى ، هى حضارة زائفة مقضى عليها بالدمار والانهيار مهما علت وغلت، واستطالت ، وانبعاث الامم لا يكون الا من فكرها ومثالياتها واخلاقياتها، ولذا فأخوف ما يخافه الاستعمار وتحذره الصهيونية ، هو استقامة امتنا على هدى الاسلام .

ذلك ان الاسلام هو التراث القومى للعرب ولغيرهم من المسلمين ..

والايمان تكليف وامتحان .. ومعيار الصدق فيه البذل والتضحية واحتقار الحياة فى سبيل مرضاة الله فمن لم يحمل تكاليفه ، ليس بصادق ولا مخلص ولا أمين ، ولا هو مسلم حقا الا بهوية وشهادة ميلاد ، مهما صلى وزكى وصام . ومعيار النصر اليوم وغدا فى حماية الاصالة وحفظ الذاتية والدفاع عن المقدسات هو تحويل مبادىء الاسلام الى ايمان وجهاد ، وتحويل كلمة الله الى سلوك .

ان مفهوم كلمة الدين فى الغرب غير مفهومها فى الاسلام ، وكل مقارنة بين المفهومين غش ودس وافتعال. .ولا يصح أن يقال فى التعريف الاسلامى دولة دينية ودولة علمانية ، بل هناك شىء واحد لا خلاف فيه ولا حيدة عنه هو دولة اسلامية .. كما لا يصح القول ان الاسلام اشتراكية ، وان محمدا صلى اله عليه وسلم هو الاشتراكى !! الاسلام رسالة سماوية ونبى بعث بتلك الرسالة الى الناس كافة ، فان اتفقت بعض

مفاهيم الاشتراكية أو الراسمالية مع مفاهيم الاسلام ، فالفضل للسابق وهو الاسلام ، والمنطق العلمى حينئذ يفرض ان يقاس كل شىء عليه ويقارن به ، لا أن يحمل هو على غير محمله ، ويوصف بغير ما وصفه الله كما كان يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ، ورضى عنه وارضاه .

واذا كانت اوروبا قد فصلت الدين عن الحياة لاسباب سقناها لك مجملة فيما أسبقنا من القول ، فهل يجب وجوب الحتم والضرورة ، لنصنع مثل حضارة الغرب المادية ان نعلن الحرب على الاسلام ؟

وهل ما يفعله المجتمع الغربى يصلح بالضرورة للمجتمع الاسلامى مع اتساع الشقة فى الظروف والمناسبات .. والأهداف والغايات .

واذا كان جميع مفكرى الغرب وفلاسفته يرون ان الحضارة الغربية بوجهها الاخلاقى قد آذنت بالانحلال والزوال .. وان تلك الحضارة — فيما عدا وجهها العلمى لا تصلح نموذجا لمجتمع بشرى عاقل سليم ... فما بال التعساء السفهاء منا يريدون ان يخوضوا معركتهم مع الله تغطية لفشل معركتهم مع الأعداء !!

واذا كانت العلمانية لا تتعارض مع المسيحية باعتبار ان هـذه فى اصولها الاولى لم تكن تشتمل على تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية، وانما كانت منوطة بضمير الفرد بسبب الظروف الزمانية والمكانية لرسالة السيد المسيح عليه السلام .. فان العلمانية تتعـارض مع الاسـلام على أساس مبدأ التنافى الكلى بين الفكرتين . فلا يجوز ان نجمع بين العلمانية كنظام وبين الاسلام كدين . ولا يمكن بقاء احدى الفكرتين الا اذا انعدمت الأخرى — كما قلنا قبل قليل — ذلك لأن الاسلام هو عقيدة وتشريع فى حالة تلاحم دائم لا انفصام له . وان أصول الدين الاسلامى وهى القرآن والسنة، قد تضمنت الى جانب العقيدة التى تهدى الى المبادىء الخلقية والقيم الانسانية ، وتضبط التزامية السلوك فى الفرد والمجتمع .. فى الحاكم والمحكوم .. فى الراعى والرعية ، قواعد ، ومبادىء وأسسا تشريعية لتنظيم الدولة ، هى قمة القمم فيما اهتدت اليه البشرية بعد مئات السنين .. وعلى هـذا فالاسلام مرتبط ارتباطا عضويا بالدولة ، فاذا عزل عن موقعه أصبح مهددا بالزوال ، فاما الحكم فى كل شأن من شئون الدنيا والناس وفق أحـكام الشريعة ، واما الجاهلية ، لا مجال لمهادنة أو خيار !

واذا قلت لهم ان الفصام المحزن الذى وقع فى أوروبا بين الكنيسـة والعلم فى المجتمع الغربى قد انعدمت اسبابه فى المجتمع الاسلامى ، ولا يصح فى عقل أو منطق أو مقارنة أو قياس ان ينسحب على جميع العصور والدهور والمجتمعات ، ولم يقع مثله ولا يمكن ان يقع فى ديننا وعقيدتنا وشريعتنا ، لأنه مستحيل الوقوع .. اذا قلت لهم ذلك ، ردوا عليك بالحجة الداحضة والمماحكة السقيمة ، واستشهدوا بما قـاله المستشرق « ولفردو كانتول سمث » ان العلمانية التركية التى قام بها « اتـاتورك » فى تركيـا هى حركة اصلاحية اسلامية ، وهكذا يجب أن يفهم الاسلام » . وتناولت هذا القول الخبيث وامثاله الاقلام العميلة المأجورة للدعوة الى علمانية الدولة ، وفصل الدين عن الحياة ، وقامت جميع الاحزاب القومية والعقائدية بيننا على

ضرورة الانسلاخ عن الدين وحتمية اقصائه عن واقع الامة العــربية ، فى معركتها مع اسرائيل بالذات ، ليخلو الجو لاسرائيل المدججة بالعلم والايمان ، تصنع بنا ما تريد وترتع فى ارضنا ومقدساتنا كما تشــاء ، بعد ان تخلينا عن العنصر الأساسى والاهم فى معارك المصير .

وحين قامت تلك الاحزاب ، أصبح مفهوم الحزبية عندها معــاداة الاسلام على اساس ما افتعلوه من تناقض بين القومية والدين ، فماذا كنت مسلما حقا او مسيحيا حقا تعلن التمسك بهويتك التى لا تصــلح انسانيتك ولا تستقيم الا بها ، ولا يمكن ان تكون اذا تخليت عنها ذا التزام قومى أو اخلاقى ، فانت الرجعى الخلفى السلفى عدو القومية والتقدمية والتمدن .

اننا نقرر بكل ما فى نفوسنا من يقين ، اننا نؤمن بالقومية العربية والوحدة العربية ، ولكننا نؤمن قبل ذلك أن لا الوهية الا لله ، ولا حاكمية الا لله ولا سلطة الا لله ، ولا اخلاق ، ولا شرف ولا تقوى ولا مروءة الا بالدين . وان شعارات التقدمية والرجعية ، والتمدن والتخلف .. ومجتمع الكفاية والعدل والحرية والديمقراطية والمساواة كلها شعارات زائفة الغرض الأول والأخير من اطلاقها واعتناقها ، الحقد على الاسلام .

وماذا ترى يضير فكرة القومية العربية اذا انطلقت من الفكر الدينى ! وكيف ترى تضار اية فكرة حين توضع فى اطار اخلاقيات الدين ، ومحبة الله ومخافة الله ، الحياء من الله ؟

وهل يمكن ان نطمئن او نثق بمن ينكر وجود الله ؟

وماذا يبقى من انسانية الانسان حين ينكر وجود الله ؟

ان من لا دين له لا مروءة له .. ذلك هو دستورنا الأخلاقى .

من لا دين له لا يفهم معنى الالتزام بالواجب .. ومعنى الوقوف فى وجه الظلم ومعنى الجهــاد فى سبيل الأرض والوطن والمقدسات ، والثــأر من الاعداء !

فكل من يدعو الى القومية ، وينكر وجود الله هو حيوان فى صورة انسان !

كل من يبشر بالحرية والاشتراكية والوحدة والمساواة والحياة الأفضل ، وهو فى قرارة نفسه كافر ملحد لا يؤمن بالوهية وحاكمية الواحد الأحــد ، فهو جاهل غبى مخلوق خطأ ، خطر على المجتمع كالمفلت من أسوار مستشفى الأمراض العقلية لا يمكن رفع اذاه الا اذا قيدته ولجمته ، واعدته من حيث جاء ، ووضعته حيث يجب أن يكون !

أفيجب ان ننكر ديننــا لنغدو قوميين ؟

أفيجب أن نترك عقيدتنا لنغدو قوميين ؟

اى عاقل فى الدنيــا يستطيع ان يزعم لنــا اننا لكى نغدو قوميين يجب ن نغدو أولا غير مسلمين ؟

ولكى نغدو تقدميين يجب أولا ان نكون لا دينيين ؟

اما نحن فنؤمن بالوحدة العربية ، على منهاج الله وحده ، لا على منهاج ماركس ولينين ونيكسون وماوتسى تونج .

والوحدة العربية فى يقيننا الذى لا يتزعزع خطوة لا محيد عنهـا فى سبيل تحقيق الاطار الأكبر ، وهو الاتحاد الاسلامى .

ذلك لأن الأمة فى مفهومنا الدينى هي الأمة الاسلامية ، وليست العروبة الا عنصرا من عناصر كثيرة ، وشعبا من شعوب كثيرة يحتويها ذلك المفهوم الكبير .

وقد قرأت لوزير الخارجية المصرية آراء غريبة عجيبة فى مدلول الأمـة فهو يسمى الشعب الفلسطينى الأمة الفلسطينية ، والشعب السورى الأمة السورية والشعب الأردنى الأمة الاردنية ، والشعب اللبنانى الأمة اللبنانية ، وهكذا يقسم الشعب العربى الى أمم بعدد الدويلات والأمارات والمشيخات .. واكاد أقول بعدد القبائل والعشائر فى دنيـا العروبة .. وهل يريد لنـا الاستعمار ، أو تريد لنـا الصهيونية غير هذا التبدد والتمزق ، غير هـذا التهتك والضياع ؟

وقرآننا الكريم حين يقول لنا : **« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »** انما يقصد الأمة الاسلامية ، لا الأمم الفلسطينية والـكويتية والقطرية والعياذ بالله ! ، ولا حتى الأمة العربية بكافة تقسيماتها الجغرافية المهترئة !

والقرآن الكريم لا يقصر خطابه على العرب ، فيقول : ايها العرب .. بل يقول : ايها الناس . لأن الاسلام دين الناس جميعا لا فرق بين اسود وأبيض وأحمر كلهم امام الله سواء .. ولا يتفاضلون الا بالتقوى والصلاح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وتلك هى الأممية المستقيمة على منهـاج الحق ، حلم البشرية الوردى .

وحين يستنكر القرآن عنجهية العرق وعصبية الجنس ، وسدف الظلام التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ، يخاطب العرب : **« الاعراب أشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله »** ، تدليلا على أن من يتبجح بالاستعلاء العنصرى والغطرسة العربية هم اشـد الناس كفرا ونفاقا .. وهم على مستوى العقل العارف ، والضمير الراشـد لا يستحقون ان يدركوا معنى حدود الله .

وهذا التقرير على بساطته ونصاعته ووضوحه ما يزال خافيـا على المفكرين المستأجرين أو انهم يخفونه لحاجة فى نفوسهم هى عزل الكابح الأخلاقى الوحيد الذى يحدد التزامية العمل والسلوك ، وايهام الجهلة الأغبياء أن الحضارة الأوربية التى بهرتهم ، بعجرها وبجرها .. بخيرهـا شرها ، هى واجب الوجود وغاية الغايات ، ونهاية المطاف .. وان مايعونه

باقتباس تلك الحضارة هو ان نأخذها بسموها المادى ونزولها الأخلاقى .. وحين نعجز عن ادراك السمو المادى نكتفى بأخذ سفالات القوة الميسرة المتاحة ، فلا نعود الا بأوساخ الرفضية والعدمية والعبثية .. ولا نحصل من الحضارة الأوروبية الا على صورتها العفنة النتنة المنهومة بالجنس والأفيون .. ونحسب اننا قد أصبحنا متحضرين متمدنين وثوريين تقدميين .

ونحن يا هداك الله ، لو عقلنا فاقتبسنا من غيرنا وشاركنا من سبقنا فى الكشوف العلمية والابداع المادى ، والتكنية وفلق الذرة والكمبيوترز والالكترونات ثم حافظنا على قيمنا الأخلاقية التى أمرتنا بها عقيدتنا ، والمبادىء التنظيمية التى أمرتنا بها شريعتنا لجمعنا فضائل الحضارات فى نسق متناغم لا عوج فيه .

ان الثقافة تراث انسانى ، والعلم طاقة مجردة محايدة ليست من خصائص هذه الدولة وحدها أو تلك .. وضرورة تلقى واتقان تلك الطاقة فرض كفاية على كل مسلم ، والتخلف فيه يعيبه أمام ربه .

اما ان نكتفى من الحضارة بالدعوة الى العلمانية لنتحلل من الكوابح الأخلاقية التى لا تكون الا بالدين ، فذلك هو البلاء العظيم والشر المستطير .

بهذا التفسير الذى سقناه لك ، نستطيع أن نتفهم علة موقف الرفض العنيف الذى وقفته بعض الدول العربية المسماة بالثورية التقدمية ، ازاء دعوة التضامن الاسلامى التى أطلقها الملك فيصل برؤياه الصادقة وحدسه الملهم قبل حرب حزيران .. ثم كانت تلك الدول — كما أوضحنا ذلك من قبل — أول من بارك تلك الدعوةولباها ، بعد هزيمة المذلة والهوان ، فكان مؤتمر الرباط ، وما تلاه من مؤتمرات التضامن الاسلامى ، التى لم تستطع أن تحقق للآن مع الأسف ، بعض الأمل المنشود ، بسبب أن تلك الدعوة قد جاءت من « ذوق » ولم تك نتيجة مخاض شعبى ودراسات علميـــة ، واعداد سليم .. وان ممثلى الدول الاسلامية فى المؤتمرات التى عقدت .. وفى مقدمتهم بعض ممثلى الدول العربية ، لا يؤمنون بالفكرةايمان الضرورة التاريخية، والقدر المصيرى ، بل لعل فيهم من يتخذ الاجتماعات والمقررات عملا وظيفيـــا لابد لهم من ممارسته بحكم مراكزهم الرسمية .

غير أن زيارة الملك فيصل الى أفريقيا فى أواخر سنة ١٩٧٢ قد حققت نتائج مثيرة فى نطاق الاخوة الاسلامية ، تلبت موازين الأحداث فى القــارة المسلمة حين استطاعت أن تضع الفكرة فى موضع التطبيق العملى ، فهتكت استار وأسرار اسرائيل التى استطاعت ان تتسلل الى تلك القارة فى غفلة من صراعات الأيديولوجيات المشؤومة فى الساحة العربية . ونهضت الدول الشقيقة المسلمة لتشارك مشاركة العقيدة الفاعلة فى قضية العرب والمسلمين ولتؤكد من جديد أن الوشائج بين اخوة الدين هى أقوى الوشائج فى تيـــار السياسات الدولية .

ان الدول الاسلامية تحتل مناطق استراتيجية هامة فى قلب العالم وينطوى ثراها على ثروات هائلة لعلها تعادل ما فى الدنيا بأسرها ، دون أن يكون

لها قول مسموع أو رأى مرجح فى المشاكل المحيطة بها ، بل دون أن تملك القدرة على حماية أرضها ومقدساتها من الغزو الامبريالي الصهيوني ، بسبب تمزقها ، والتناقضات المدخولة بين قياداتها .. مع أن غريزة البقاء وحدها دون سواها تملى عليها أن تلملم شملها وتوحد صفها وتلتقى عند الحد الأدنى من التفاهم والتعاون لتعود سيدة مصيرها لا المفرطة بذلك المصير .

وقد فطنت اسرائيل ومن وراءها الى التأثير البالغ لقوة التجمع العربى فى اطار التضامن الاسلامي ، فعملت فى الظاهر والخفاء لاثارة الخصومات المفتعلة بين الدول العربية وبين شقيقاتها الدول الاسلامية ، لعزل بعض هذه الدول أو تحييدها وابعادها عن المشاركة الفعالة فى معركة الحضارة الاسلامية التى تعتز بالانتماء اليها .

فهل ترى ايقظتنا الكوارث ؟ وهل ترى وعظتنا الحادثات ؟

كلا الف مرة ، فالمفكرون المراهقون يتعاورون الساحة العربية صاغرا عن صاغر ، يدعون الى العلمانية ، وينكرون الالوهية وينادون بالالحاد .. سبيلا اوحد ، للتقدم والمدنية .. والقادة العرب يجفلون من ذكر المعركة معركة البقاء او الفناء ، لانهم قد اختاروا العمى على الهدى والفساد على الضلال والذل على الجهاد ، كل فريق بما لديهم فرحون ، فانتقلت عدوى المهانة من الرعاة الى الرعية .. فكره الجميع التكاليف النفسية للجهاد والمرابطة والاستعداد ومقارعة الأعداء .. فى سبيل المتع الدنسة ، والملذات الرخيصة ، حتى لقد أصبحنا أمة مهتوكة لا يجمعها هدف ولا تلتقى عند خطة ، قد استنامت على الخزى ، حتىفقدتالقدرة على الاحساس بالعار !

وقد سبقت كلمة ربك جل وعلا فى وصف ما نحن فيه .

« يا ايها الذين آمنوا ، ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل . الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم » .

وهكذ كان .. اما الايمان فقد غاب .. وأما العذاب فانتظروه !

وقد أمر الاسلام بتطهير الصفوف من دعاة الفتنة والتخلف والعقود ، حتى يكون الجيش المقاتل ذا عقيدة واحدة لا عقائد شتى ، فقال تعالى فى هؤلاء من مثبطى العزائم ، مؤججى الحرب النفسية : **« لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم »** .

ولكان الله تعالى بواسع علمه قد رأى ما ستكون عليه حال الامة فى هذا المآل الذى آلت اليه ، فقد اثاقلنا فى الأرض ولم ننفر فى سبيل الله فاذاقنا عذاب الهون ، واستبدل بنا قوما غيرنا فى أرضنا ومقدساتنا .. اما من خرجوا منا للقتال بغير عقيدة ، فلم يقاتلوا الا قليلا ، بل لم يقاتلوا على الاطلاق .. فلم يزيدونا الا خبالا ، وبغونا الفتن الجانحة تأخذنا من كل جانب لتلهو بها عن الجهاد فى سبيل الله .

وقد نبه الاسلام الى مضار ومخاطر الحرب النفسية التى تتمثل اليوم فى الغزو الفكرى والارهاب الخلقى ، والتخويف من قوة العدو ، والدعوة الى الاستسلام ، فقال تعالى : ((**لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم**)) . ((**واذا جاءهم امر من الأمن أو الخوف أذاعوا به**)) .

وقال تعالى يصف تآمر الأعداء علينا .. أعداء الداخل والخارج : ((**ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**)) .

وليت شعرى كيف يقاتل امرؤ عن شرفه وأرضه وعرضه دون ايمان بالله ؟ لقد عرف اعداؤنا مقتلنا ، فاغفلونا عن اسلحتنا ، وشنوا علينا هجماتهم الشرسة لتفريغ المقاتل العربى من هذه الشحنة الهائلة التى لا يكون بغيرها نصر ..

وقال تعالى : ((**وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . ان الله قوى عزيز**)) . ففى هذه الآية حث ظاهر على الاستعداد للمعركة بانشاء المعامل الحربية لصناعة الأسلحة بمختلف انواعها ، واقتباس ما حققته الشعوب والأقوام التى سبقتنا فى هذا المضمار .

اما وقد وصل بنا البحث الى هذه المرحلة من الحوار ، فيجدر بنا ان ننطلق بعزيمة المؤمن لنرد على دعاة العلمانية ، بالتى هى احسن ، فنقارن بين القوانين الوضعية والشريعة الاسلامية ، لنقرر ما اذا كانت هذه الشريعة تصلح لكل زمان ومكان .. ولنبين ان الحضارة البربرية البيضاء اذا كانت تهدف الى تدمير الحضارات الأخرى ، فان الحضارة الاسلامية قد تفاعلت فى الماضى وهى قادرة أن تتفاعل فى الحاضر والمستقبل ، مع الحضارات الأخرى ، فتأخذ منها وتعطيها .. تأخذ منها دون ان تذوب فيها لأنها تأخذ ما يتفق مع اصالتها ومقوماتها الأساسية .. تأخذ مثلا من الحضارة الأوروبية العلم ، وتعطيها التشريع والأخلاق .

ومن المستحيل تصور الثقافة العربية منفصلة عن الفكر الاسلامى ، فهى مطبوعة به ، فى الماضى والحاضر والمستقبل . وقد اثبت الفكر الاسلامى بجوهر ايديولوجيته القائمة على الايمان بالله والاعتقاد بالألوهية والحاكمية له وحده .. اثبت صلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء وجدارته بحماية المصير الانسانى .

فالاسلام لم يصرع .. ولا يمكن أن يصرع .. لكن المسلمين اليوم هم الذين صرعوا .. لابتعادهم عن روح الاسلام ومبادئه واخلاقه .. وبقاء الايمان معزولا فى النفوس دون ممارسة وتطبيق !

الدولة في الإسلام

بين الألوهية والمادية

الصراع الفكرى فى الدنيا كان وما يزال بين الفلسفة العقلية والفلسفة الروحيـــة .

وتصور حقيقة الاله هو جوهر الديانات السماوية ، وهو أكثر ما يكون وضوحا وتألقا وبساطة فى الاسلام .

يقول (الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده) : « العقل الانسانى الذى يلاحظ ما فى هذا العالم من تنظيم وانضباط ، وما فيه من حدوث وتغير وزوال ، لابد له وان يتجه الى نتيجة حتمية ، هى ان وراء هذا الكون قوة فاعلة مدبرة » .

وقـــد حاولت الفلسفة منذ بدأ الانسان يناقش حالة وجوده فى هـــذا الكون الرحب ، ان تصل الى الحقيقة وصولا عقليا ، فاتفق معظم الفلاسفة عنـــد المبدأ الفلسفى المعروف ، وهو مبدأ « العلية الكافية «Principle of Sufficient Reason» وتفسيره الانسان اذا رأى شيئا أو حادثا فانه بفطرته يسأل عن سببه ويبحث عن حقيقته . وكل العلم قام على هذا الاساس .

وقد فسر الفيلسوف الألمـــانى « ليبنتز » هذا المبدأ بالقول بالعلية كمبدأ فكرى رئيسى ، ووضع صيغته على النحو التـــالى :

« لا واقع يمكن ان يكون موجودا ، ولا حكم يمكن ان يكون حقا الا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك لا على خلافه .. وان كانت العلل فى الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنـــا لقصور العقل الانسانى عن ادراكها » .

ومع ان آراء المفكرين فى كلامهم عن علية الاشياء قد تنوعت فان الغالبية العظمى منهم قرروا انهـــا علة غير مادية ، وغير مشابهة لمـــا فى هذا العالم وقد اتفق رأى فلاسفة المسلمين مع رأى غالبية المفكرين المحدثين فى ان علة الوجود الى جانب كونها المصدر الذى يفسر ظهور الموجودات ، فهى أيضا رمز القيم الخالدة ومصدرها واليها يستند النظام الأخلاقى . ومنذ عرفت الانسانية الوصايا الاخلاقية العشر ، ثم اكدتها الاديان السماوية ، تقررت القيم العليا والقيم السفلى تقريرا نهائيا ، وأصبحت حقائق ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تحرف ولا تزيف . وقيمة الدين ان يزودنا بالوسيلة الدائمة الثابتة لمعرفة الحق من الباطل ، والخير من الشر فلا يحصر علمنا باخلاقية السلوك بالعقل أو المشيئة أو التجارب أو العلوم الانسانية ، فقط ، فتتغير

احكامنا الأخلاقية بتغير هذه الوسائل ، ولا يكون لهـا مقياس ثابت القرار . تلك الوسيلة الثابتة الدائمة المؤكدة المقررة هي كتاب الله وسنة رسوله . فالاسلام يحب للمسلم ان يعول على الوازع الداخلى النفسى لا على الوازع الخارجى القسرى ، بالتقيد بتلك الأحكام .

وهكذا أصبح القول بوجـود اله هو التفسير المنطقى لهذا العـالم ، والحقيقة الكلية التى تنبثق منها القيم الأخلاقية وينطلق منها النور الذى يضىء التقدم الانسانى . وصار الاعتقاد بالالوهية محور كل تفكير فلسفى .

واثبات الالوهية فى المسيحية والاسلام يقوم على ذاك المبدأ العقلى الفلسفى اى طريق الاستدلال بالعلة الفاعلة ، فنحن نلاحظ حولنـا عللا فاعلة ، لكننا لا نستطيع ان نفهم كيف يمكن لشىء منها ان يحدث ذاته بلا علة .. ولا يمكن من ثم ، الارتقاء فى تسلسل العلة الفاعلة الى ما لا نهاية ، بل لابد من الانتهاء الى علة اولى ، والا فانه لا يوجد شىء ، لأن كل علة فاعلة سابقة هى علة لمـا يليها ، فلابد من الانتهاء الى علة فاعلة ، لا علة لهـا وهى « الله » . لأن خروج الموجود الممكن الى حيز الوجود ، لابد ان يسبقه وجود موجودواجب،والا لما حدثت الممكنات اصلا وهذا الموجودالواجب الوجود ، يجب أن يكون واحدا عاقلا ازليا مطلقا لا يتغير ، يستحق كونه العلة الأولى لكل موجود .

فالاشياء الحادثة لا يمكن ان تكون قد أحدثت نفســها فذلك تناقض عقلى . كما ان الأشياء الحادثة لا يمكن ان تكون قد حدثت من غير علة ، فذلك أمر مرفوض عقـلا .

والعلة الأصلية اى ذات الله ، أمر لا يدرك ، ولا يستطيع ان يحيط به العقل ولا يمكن تفسيره تفسيرا منطقيا ، لأنه فريد فى وجوده فلا تحيط به المدركات الحسية ، التى لا يمكن ان تخرج عن حدود الأشياء الحادثة .

وفى هذا التعليل الفلسفى ، رد مفحم على من يقول ان فكرة الألوهية هى فكرة غيبية لا تخضع لنقاش عقلى .

وفى هذا المعنى يقول (الكندى) : « كل ما جاء به الدين الاسلامى يمكن ان يفهم بالمقاييس العقلية التى لا يرفضها الا جاهل » ويقول (ابن رشد): « لما كان الدين حقا فانه لا يمكن ان يناقض العلم البرهانى ، لان الحق لا يضاد الحق ، بل هو يوافقه ويشهد له . ولذا يصبح الايمان بالله باعثا على احترام حكمته والاقرار بهـا ، فيكون العلم مؤيدا للايمان » ولـمـا كان العلم طاقة محايدة فان هذه الطاقة لا ينبغى ان تستعمل الا فيما يحقق خير البشر وفق الفكر الدينى ، والالتزام الأخلاقى النابع من الدين .

وفى الجهة المقابلة ، نشـأت الفلسفات المادية مع بدء النهضة الأوروبية التى قامت على أساس ان كل تقدم انسانى يجب أن يكون معزولا عن الدين !

فالفلاسفة الماديون — وهم قلة ضئيلة فى تاريخ الفلسفة — يزعمون ان لا موجود الا المــادة المحسوسة .. فهم فى الحقيقة ليسوا أصحاب نظرية فى تفسير الكون ، بل أصحاب رأى فى طبيعة الوجود ؛ وهو رأى تعسفى لأن المــادة كما نراها لا تفسر شيئا ، وليست علة حقيقية لشىء .. ولأن العقل الانسانى يقر بقصوره عن ادراك ما وراء هذه المــادة .

انهم يعتقدون ان المــادة المحسوسة هى الوجود الحقيقى ومنهــا نشأت الحياة صدفة على وجه غير مقصود لذاته .

يقول (ماركس) : « ان الوحدة الحقيقية للعالم تنحصر فى مادية الانسان . وليست الأفكار والمشاعر الا نتاج الدماغ البشرى .. وليس الانسان الا نتاج الطبيعة ، وان الأفكار يبتدعها دماغ الانســان ، وهذا الدماغ ليس الا مادة دقيقة التركيب ، وهى جزء من جسم الانسان يعكس مؤثرات العــالم الخارجى » .

وفى الرد على هذا ، يقول : (الدوس هكسلى) : « لم يعد لنــا مناص من الاعتراف بانبعض البشرمزود بالقدرةعلى استشفاف المجهولبطريقةخارجة عن نطاق الحواس ، وان جهلنا بالطريقة التى يتم بهــا هذا الاستشفاف لا يبرر انكارنا له الذى لا يزيد على جهلنا بالطريقة التى تتم بهــا عملية الادراك وعملية التذكر ، فمن منا يستطيع ان يعرف كيف تتم معجزة الادراك أو التذكر ؟ كذلك فنحن لا نفهم كيف يتم الاستشفاف ، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية » .

ومعنى قول «هيكسلى » : انه اذا كان العقلمادةفانالأفكارفىذاتهاليست مادة لأنها لا تتحدد بحدود الزمان والمكان ، ولا يمكن فى المذهب المادى تفســير قضية التخاطر «Telippathy» والتذكر والاستشفاف .

ويقول « فريدريك انجلز » — صاحب ماركس ورفيقه : « تقوم النظــرية المــادية على المبدأ الآتى : « وهو أن الانتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فالأسباب النهائية لــكافة التغيرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنهــا لا فى عقول الناس ولا فى سعيهم وراءالحق والعدل الأزليين،وانما فى التغييرات التى تطرأ علىأسلوب الانتاج والتبادل . واذن فعلينا أن لا نبحث عن هذه الأسباب فى الفلسفة ، وانما فى اقتصاديات العصر الذى تعنيه » ! .

« وعلى هذا الأساس فالأخلاق ليست حقيقة موضوعية ، ولا هى قيمــة ثابتة وانما هى نتيجة التفاعلات الاقتصادية فى المجتمع . فاذا تغيرت علاقات الانتاج ، تغيرت معها القيم الأخلاقية . وليست هناك معايير ومفاهيم ثابتــة تقاس بها الأمور . وعلى هذا فالدين هو أفيون الشعوب،ابتدعه الاقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير وشغلها عن الصراع الطبقى .. والمثل العليا هى أوهام المحرومين » ! .

ولذا فالشيوعية تحدد مطالب الانسان بالغذاء والكساء والاشباع الجنسى كما حددها « كارل ماركس » فى المانيفستو وسماها الكفايات الثلاث
«The three Satisfactions»

والمذهب المادى يرد تحصيل الانسان للحقائق الكونية الى التجربة الحسية وحدها أى أن الشىء المشاهد والمدرك عقليا بواسطة الحواس ، هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية ، وبذا يعتبر الفكر الدينى مناقضا للعقل .

وخلاصة الماركسية : ان المادة توجد قبل العقل ، ولذا فهى أكثر أهمية من العقل ، لأن العقل متوقف عليها فى وجوده ، ولا يمكن أن يوجد منفصلا عنها ، بل هو انعكاس لها ، وأن كل شىء يوجد فى حالة تغير مستمر وفق الحركات الاقتصادية ، وما يطرأ عليها من تغيير وتبديل ، فالاعتقاد بقيم أزلية ثابتة هو اعتقاد فاسد ، والتغيير المتطور يحدث ببطء وتدرج ، ولذا لا بد من الثورة للتعجيل فى هذا التغيير ، ذلك لأن الأحداث الاقتصادية هى القوى المادية الرئيسية ، أما الأحداث السياسية والأخلاقية فما هى الا انعكاس للأحداث الاقتصادية التى تكون البواعث النهائية لكل الأعمال الانسانية .

والمادية الماركسية ، تقوم على مبدأ النقائض فتقول : ان كل شىء يتضمن قوتين رئيسيتين متقابلتين ، احداهما « دعوى » والأخرى « مقابل الدعوى »، وهما فى تناقض مستمر حتى تهدم احداهما الأخرى ، وينشأ من الهدم وضع جديد هو « جامع الدعويين » ثم يقوم مقام هذا « الجامع » « دعوى جديدة » ، و « مقابل دعوى » وينشأ من تقابلهما وتناقضهما « جامع جديد » وهكذا الى ما لا نهاية . وهذا هومايسمونه « الديالكتية المادية » .

لكن نظرية النقيض ونقيضه ، تضع النظرية الماركسية فى مأزق حرج ، لأن الشيوعية عندها هى نهاية المطاف . غير أن ضرورة التغير المستمر ، توجب اعتبار الشيوعة ، حلقة مرحلية لابد أن تتحول هى الأخرى وفق هذه الفلسفة الى دعوى ، ودعوى مقابلة ، وجامع جديد .

وعلى هذا فان قولهم بضرورة التغير المستمر ، وقولهم بانتهاء التغير عند الشيوعية فكرتان متناقضتان لا يمكن التوفيق بينهما .

وقد اقتبس « ماركس » نظريته من فلسفة « هيجل » . غير أن « هيجل » قد طبق نظريته هذه فى دائرة « الأشياء » . أما ماركس فطبقها فى دائرة الأشياء والأفكار والأخلاق على السواء . ولذا وقع « ماركس » فى شطط « مرحلية الشيوعية » وغائيتها فى نفس الوقت .

وللتمثيل على ما ذكرناه يقول « ماركس » : المجتمع الملكى سقط وتحول الى الجانب المقابل له . والجانب المقابل له ذو طرفين : وهما حكام الملك من جهة والعبيد والفقراء فى الرعية من جهة أخرى . ومن هذين النقيضين تكون الجامع بين الدعوى ومقابل الدعوى ، وهو المجتمع الاقطاعى . ومن صراع النقيضين فى المجتمع الاقطاعى : « الملاك والارقاء » نشأت الراسمالية الصناعية .. وبذا تحول الاقطاع الى القوة المقابلة له وهى الراسمالية . وفى الراسمالية كما فى غيرها دعويان متناقضتان : أصحاب مال وعمال . ولابد من أن يسقط أحد الطرفين فى القوة المقابلة له . وهى قوة العمال ، لينشأ المجتمع الجديد وهو مجتمع « البرولتاريا » .

غير أن مبدأ التناقض هذا فى ضوء نظرية التغير المستمر لا يقف عند مجتمع « البروليتاريا » ، بل يستتبع بالضرورة قيام دعوى و مقابل دعوى فى هـــذا المجتمع كما وقع فى غيره .. الى ما لا نهاية ..

وهكذا تتقوض النظرية الماركسية من الأساس .

وليس الغرض من وضع هذه الفصول أن نخرج للناس كتابا فى الفلســـفة والميتافيزيقا ، لكننا أشرنا اشارة عجلة مقارنة مبسطة ، لا يستعصى فهمهـــا على القارىء العادى ، الى أسس الفلسفة الالهية والفلسفة المادية ، لنناقش القضية برمتها من جهة مصلحة الانسانية والمصير الانسانى .. فنسأل دعاة المادية : هل من مصلحة الانسانية والمصير الانسانى القول بثبات القيم الخالدة أو القول بتغيرها ؟ .

هل من مصلحة الانسانية والمصير الانسانى ــ بغض النظر عن كل اعتبار آخر ــ القول بوجود الاله ، أو بالغاء وجود الاله ؟ .

هل من مصلحة الانسانية والمصير الانسانى وجود الوازع الدينى والكابح الخلقى فى الفرد والمجتمع ، أو غيابهما ؟ .

هل من مصلحة الانسانية والمصير الانسانى أن نقول : « **ان هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** » فنغوص فى المعاصى والجرائم والآثام بلا وازع ولا رادع .. أو أن نقول : ان هذه الحياة الدنيا هى برزخ للحيـــاة الباقية ، حيث يجزى كل امرىء بما اجترحت يداه ؟ ..

وكيف ترى تكون حالة المجتمعـــات ، اذا غاب الضـــابط الدينى ، فانفلت الانسان من أحاسيســـه الرفيعة ومشاعره النبيلة ، ليصبح حيوانا تحـــكمه غرائزه الدنيا ، كمـــا هو حادث فى المجتمعات الغربية اليوم ، وكما نخشى أن يحدث فى مجتمعنا الاسلامى فى الغد القريب ؟ .

الستم ترون طلائع النزوات المدمرة ، تطل علينا من كل فج عميق ؟ .

وما الذى يردع المفلت حين يفتقد الالتزام السلوكى ، أن يغدو قاتلا أو زانيا أو لصا ، أو عميـــلا ، أومخربا ما دام لا يؤمن بالله ، فلا يؤمن بمروءة ونخوة وكرامة وأخلاق ؟ ان الملحد انسان قلق حاقد منقبض ، يعتقدانه هو صـــانع نفسه وخالق مصيره ، وحين تصبح حرية الانسان كما فى الفلسفة الوجودية ابنة الفلسفة المادية ، هى الأساس الذى تقاس عليه القيم ، ولو تعـــارضت مع حريات الآخرين .. فكيف يمكن أن يقوم مجتمع سليم ؟ وماذا ترى أن تكون نتيجة المسار الانسانى فى هذه الفوضى العارمة التى لا تفهم الا الرفض والعبث والهدم والتدمير ؟ .

ان معنى الالتزام الأخلاقى الذى يحمى خصائص الانسان من هـــذه النهاية المأساوية ، هو تطابق سلوك الفرد مع معتقده .. ومثل هذا الالتزام لا يترعرع الا فى أحضان التدين والايمـــان بالله . وعقل الانسان الذى أصبح الهه فى

الحضارة الغربية يقف عاجزا أمام اقتدار الايمان على الاتيان بخوارق الأعمال، وكونه أقوى حافز عرفه تاريخ الأخلاق .

الم تقراوا قوله تعالى : « **ياايها الانسان انك كادح الى ربك كدحافملاقيه**» وقوله جل وعلا : « **لاخير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس** » فالايمان تكليف وامتحان وكدح وجهاد وتكريم للانسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .. أما الصخب الهادر والتجديف الداعر ، والنجوى الفاسدة ، فانك لوملأت بها أطباق السموات لم تساو أمرا بمعروف او نهيا عن منكر ، أو اصلاحا بين الناس ..

ان العقل الانسانى ما يزال طفلا يحبو ، وكثير مما نسميه حقائق علمية ، ليست ذات صفة قطعية ، لأن العلم يقوم على التجربة والاختبار ، وكثيرا ما تخطىء التجربة ويسقط الاختبار ، وما نسميه اليوم حقيقة قد تصبح غدا باطلا ، فالايمان المطلق بمعطيات الحواس مجازفة وغرور ، وما اكتشفه العقل من منجزات هائلة لا يتجاوز نقطة فى بحر ، وذرة فى صحراء من أسرار الكائنات. فهل يصح فى عقل عاقل أن تكون المعارف الحسية ، هى غاية الغايات ، ومصدر السلوك والأخلاق ؟ ! .

يقول « رسل تشارلز ارنست » استاذ علم الاحياء والنبات بجامعة فرانكفورت : « اننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية ، قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ،وأن ملايين الملايين من الخلايا الموجودة على سطح الأرض ، تشهد بقدرته تعالى شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذا فاننى اومن بوجود الله ايمانا راسخا .. » .

ويقول « ايرفنج وليام » أستاذ العلوم الطبيعية بجامعة «ميتشجان» «ان العلم لا يستطيع أن يفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق المتناهية فى الصغر التى تتكون منها جميع الأشياء ، كما لا يستطيع العلم أن يفسر لنا كيف تتجمع تلك الدقائق لتنتج الحياة الا بالاعتماد على فكرة المصادفة ، وهى فكرة لا تتفق مع العلم . ان دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أكثر الدراسات اظهارا لقدرة الله».

ويقول الدكتور « الكسيس كاريل » فى كتابه « الانسان ذلك المجهول » : « يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالا يملكون الابتكار والذكاء والجراة .. وفى كل قطر تقريبا يرى الانسان فى الطبقة التى تمارس ادارة الأمور وتملك زمام البلاد ، انحطاطا فى الاستعداد الفكرى والخلقى .. ان المناخ الذى نشأ عن العلوم الطبيعية لا ينسجم مع الخصائص الانسانية وشخصية الانسان .. ان الأمم التى ازدهرت فيها الحضارة الصناعية تسير سيرا حثيثا الى الهمجية ، ولكنها لا تدرك ذلك . ان علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الانسان ، متأخر جدا عن علمنا بالماديات ، وهذا التأخر هو الذى جنى علينا » .

ويقول العالم المعاصر « ديل سوارتزن دروبر » : « كيف نفسر نظام الكون والابداع الذى يتجلى فيه . هنا طريقان : اما أن يكون الكون قد حدث بطريق الصدفة وهو ما لا يتفق مع المنطق والتجربة ، ولا مع قوانين (الديناميكا)

الحرارية التى اكتشفها العلم الحديث . واما أن يكون هذا النظام قد وضع بتفكير وتدبير وتصميم وحكمة وهو الرأى الذى يقبله العقل . اما ماوصلنا اليه من التفسيرات العلمية الأخرى فهى ليست ثابتة ، وليس لها صفة الاطلاق ».

ويقول « اينشتاين » : « ان الانســان الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ، ليس تعيسا فحسب ، بل غير مؤهل للحياة » .

ثم يقول : « ان العقل البشرى مهما بلغ من سمو الادراك والتفكير عاجــز عن الاحاطة بالكون ، ولا يمكن أنيدرك أكثر من الطفل الذى يدخل مكتبة كبيرة تضم عــددا ضخما من الكتب المختلفة بلغــات متعددة ، فهو يعلم أن هنـــاك اشخاصا قد كتبوا مثل تلك الكتب ، ولكن لا يعرف من كتبها ولا كيف كتبها ، ولا يعرف اللغات التى كتبت بها . والطفل يلاحظ ان هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ونظاما خفيا لا يدركه هو ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، فذاك شبيه بموقف العقل البشرى من الله ، مهما بلغ من العظمة والسمو » .

وقد سأله مرة صحفى يدعى « فيرك » : هل تؤمن بالله ؟ فاجاب : « ليس أمام أحد الا ذلك،والافلينظر الى السماء وليسمع موسيقاها الرياضية ، وليقل لى بعد ذلك : من هو ذاك الموسيقار المهندس العظيم ، ووراء كل شىء ، وكل نفس وكل عقــل،أننى لست ملحدا ، ولا أدرى ما اذا صح فى القول باننى من انصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة أوسع نطاقا من عقولنا المجردة » .

« اينشتاين » الذى يعتبر بحق قمة العقل العلمى فى العالم ، يؤمن بأن نطاق العقل محدود .. وأدعو القارىء الى مقارنة هذا التواضع العظيم ، ببعض صغار العقول من أنصاف المتعلمين الذين يسمون انفسهم مفكرين ثوريين .. وكل ثقافتهم حصيلة نتف سطحية من هنا وهناك ، ولا يستحون أن يعتقدوا سفها انهم بلغوا قمة المعرفة ، فحق لهم انكار ذات الله ! .

ويقول « وليم جيمس » : « ان الحياة تستحق أن نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وأنه يوجد الى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة موجودة فى عالم غير مرئى ، وهذا يفسر السعادة الروحية والنفسية التى يحسها من آمن بالله . أما الملحد فهو مخلوق يحطمه القلق فلا يستطيع الحصول على مثل هــذه السعادة ، ويدفعه موقفــه السلبى من الكون الى ارادة تدمير كل شىء ، كل القيم ، والأخلاق والحوافز الانسانية » .

ويلخص الأستاذ محمد قطب والمرحوم الأستاذ ســيد قطب مجمل هــذه الآراء فى دراستهما الاسلامية « بأن القول بسبب أول للوجود يقتضى أن يكون هذا السبب واجب الوجود فى ذاته وليس محتاجا لغيره لكى يوجد . أما أن تكون العلة الأولى فى حاجة الى علة لوجودها فان ذلك يجعــل العــلة الأولى ، حلقة فى حلقات لا تنتهى ، ولا يتصور عقليا أن تكون سببا أولا فىذاتها. والذى يقود الى ذلك الادراك هو صوت الفطرة وحدس البداهة . ولا يصح للعقل أن يقيم نفسه حكما على أساس مدركات الحواس .. مع ما نرى من تغير وتبدل هذه المدركات ، واقحام العقل فى قضايا هى فوق ذرع العقــل . ذلك لأن المدركات العقلية تبدأ من المنظور والمحسوس فهى عملية جمع شواهد واستنباط نتائج،وكثيرا ما يثبت فيما بعد أن كل ذلك عرضة للخطأ والتصويب»

ولو نحن نظرنا الى الكون نظرة كلية تتجاوز التفريعات والجزئيات ، لوجدناه مخلوقا ومسيرا وفق قوانين دقيقة من أصغر الكترون الى أكبر مجـرة . فهو اشبه بسمفونية متناسقة مضبوطة كل حركة فيها بمقدار ، وجميع الموجودات ترتد الى أصل واحد ، والخلافات الظاهرية، هى خلافات فى الكمية والكيفية والتركيب والتكوين .. وهذه الوحدة فى الخلق تعنى وحـدة الخالق المتعالى الذى يعطى الصفات ولا تحيط به صفات .

ويقول الدكتور ـ مصطفى محمود فى كتابه «رحلتى من الشك الى الايمان»: « اما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود ، لهو جدل لفظى لا يقوم الا على اللعب بالالفاظ . والعدم فى واقع الأمر غير معدوم ، وقيـام العدم فى التصور ينفى كونه معدوما ، والعدم هو على الأكثر نفى لمـا نعلم ، ولـكنه ليس نفيا مطلقا مساويا للمحو المطـلق .. وكلمتا العـدم والوجود تجريدات ذهنيـة كالصفر واللانهاية ، لا يصح أن نخلط بينهـا وبين الواقع المحسوس المتعين ، والكون الكائن المحدد أمام الحواس . فالكون اذن ليس أزليا انمـا هو كون مخلوق ، كان له بدء ، بدليل آخر من قاموس العـلم هو ما يعرف باسم (القانون الثانى للديناميكا الحرارية) ويقرر هذا القانون ان الحرارة تنتقل من الساخن الى البارد .. من الحرارة الأعلى الى الحـرارة الأولى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحرارى . ولو كان الكون ابديا ازليا بدون ابتداء ، لكان التبادل الحرارى ، قد توقف فى تلك الآباد الطويلة ، وبالتالى لتوقفت كل صور الحيـاة ، ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كل شىء .

ان العلم الحق لم يكن أبدا مناقضا للدين ، بل انه دال عليه مؤكد لمعنـاه ، وانما نصف العلم هو الذى يوقع العقل فى الشبهة والشك ، خاصـة حين يكون العقل مزهوا بنفسه يعتقد أنه كل شىء .

وكما لا يمكن التنبؤ بما يأتى به الغد فى حياة فرد فانه يستحيل القول بالحتم والجبر فى مجال المجتمعات والتاريخ ، وكل ما يمـكن القول به هو الترجيح والاحتمال .. وهو ترجيح يخطىء ويصيب ، ويحدث فيه التفاوت فى طـرفيه . وانما تأتى فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطىء للانسان على أنه جسد بلا نفس ولا روح ولا عقل ، واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبى . ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانـين الفسيولوجية ، يستنتج الفكر المادى أن الانسان والانسانية بأسرها مغلولة فى القوانين المادية ، مع أن الصدق العلمى هو صدق احصائى . والنظـريات العلمية انمـا تستنتج من متوسطات أرقام . أما حكم البداهة ، فله صـفة القطع والاطلاق ، ٢ × ٢ = ٤ هى مقولة بديهية وحقيقية مطلقة صادقة لايجوز عليها ما يجوز من نسخ وتطور وتغـير فى نظريات العلم . وحركة الكون كله جدول من القوانين الحقيقية الصادقة المطلقة ، كتلك المقولة البديهية لها صفة القطع والاطلاق » .

وأخيرا .. يقول العالم النفسى الكبير « يونغ » فى كتابه « الدين وعلم النفس » : « ان الانسان يصبح مريضا عصبيا عندما يفقد ثقته بنفسـه ، والثقة بالنفس تكون قلقة غير مستقرة اذا لم تقترن بالايمان بالله ، والثقة به والتوكل عليـه » .

شريعة الله

وبعد .. لقد سقت الفصول السابقة مدخلا للنقاش العلمى المقارن ، وارادة التدليل بالبرهان الساطع على أن الشريعة الاسلامية صالحةللتطبيق فى كل زمان ومـــكان . فاذا كان الأمر كذلك ، فمـــا الذى يمنع من اتخاذها دستورا عاما فى البلاد العربية والاسلامية .. ؟ ولماذا يفزع أنصاف المفكرين من الملاحدة ومستوردى الشعارات من ذكر الاسلام ؟.

وانا لا ازعم لنفسى القـــدرة على الخوض فى هذا المبحث الجليل بدقائقـــه وتفصيلاته واعترف بقصورى وعجزى عن الاحاطة به ، وفى أمتى من هم اطول باعا وأكثر اناة وحكمة ، واعمق معرفة وفهما بمبادىء الاسلام واحكام الشريعة، لكننى أرسم خطوطا عريضة واضع مؤشرات هادية على معالم الطريق ، تقيم الحجة وتهدى الى الرشد ، مستلهما آراء كبار الصحابة والتابعين والائمـــة المجتهدين الذين أناروا لنـــا المحجة ، ووضعوا الأسس للاجتهـــاد فى ادراك مضامين الشريعة الغراء واستنباط الاحكام ، وقابسا من العلماء المحدثـــين منهجهم فى البحث والتنقيب ، وفى مقدمة هؤلاء الذين شرفت بالتتـــلمذ عليهم والأخذ عنهم ، الشهداء حسن البنا وسيد قطب وعبد القادر عودة والأساتذة الندوى والمودودى ومحمد عبده ومحمد البهى ومحمد قطب والدكتور اقبـــال وعبد الوهاب عـــزام وعبد الواحد وافى ومصطفى الزرقا وعطيـــة مشرفة ، وغيرهم كثير ، وما توفيقى الا بالله .

وقد أخذت نفسى فى دراستى هذه بمبداين صارمين لا احيد عنهما قيد انملة .

١ — مناقشة الاسلام فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله ، وفق تجـــربة الحكم الاسلامية المضيئة فى تاريخ الانسانية ، لا فى عتمة دياجير الظـــلام التى طمست الق الاسلام فآل عند أصحابه الى ما هو عليه اليوم .

٢ — ان المذاهب الاسلامية ، خاصة الأربعة الشهيرة منها ، ليست حتمية الاتباع فهى اجتهاد أناس مثلنا يصيبون ويخطئون ، قد تكونت عقولهم فى برهة زمانية تجاوزتها تيارات التطور الحضارية . كما وان اختلاف الفرق الاسلامية انما هو اختلاف فى الجزئيات لا فى الـــكليات ، فى الفروع لا فى الأصول ، وان الاحتكام الى القرآن والسنة وحدهما فى استقراء الأحكام واستنباطها تمـــين بأن تلغى تلك الخلافات فى نطاق متطلبات العصر .. وأن الأمة التى اطلعت تلك العقول الجبارة لن تعقم عن ابراز علماء محدثين قد واكبوا حركات التطور الفكرى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، فأصبحوا اقدر على استخراج الأحكام الموائمة لزماننا هذا من مصدريها الثابتين الازليين .

ونحن لو فهمنا حديث رسولنا صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة » فهما صحيحا لأدركنا أن اسلامنا ، يسر لا عسر . وأن شريعتنا تحترم الفكر والعقل ، وتؤيد اختــلاف الرأى فى سبيل الله ، وبروح التجــرد والايمان ، فضالة المؤمن البحث عن الحقيقة أينماكانت واعتناقها وممارستها والدفاع عنها.

فأول ما يتوجب علينـــا ازالة تلك التناقضات واعادة النظــر فى اجتهادات الفقهاء ومذاهبهم فى البحث والاستنباط ، للاتفاق على رأى موحد فى انبعـــاث اسلامى جديد يتولى أمره علماء تعمقوا دراسة دينهم مع النظر الواثق فى كافة النظم والنظريات التشريعية والقانونية التى تضمنتها الحضـــارات المتعاقبة ، وما طرأ عليها من تغير وتطور .

ذلك ان القرآن والسنة انما قررا القواعد الأساسية الكلية الجامعــة دون التفاصيل والجزئيات ، وتركا لنا الحرية فى فهم النصوص وتفسيرها ، عملا بقوله تعالى : **« ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »** . ومصداقا للقصة المشهورة التى تضبط ما قلناه ، قصة « معاذ بن جبل » حينما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قاضيا فى اليمن ، فسأله : كيف تصنع اذا عرض لك قضاء . قال : اقضى بمـــا فى كتاب الله . قال الرسول: فان لم يكن فى كتاب الله ، قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله . قال فاجتهد برأيى ولا آلو . فأقره الرسول على ذلك .

أى ان الاسلام يتنافى مع التحجر والجمود ، والتطور الفكرى ، دعامة من دعاماته . وأصحاب المذاهب الذين سبقونا — كما قلنا — بشر مثلنا قــد يخطئون فى اجتهادهم وقد يصيبون ، والقصص كثيرة عن عودة بعضــهم عن رأى رأوه اليوم اذا بدا لهم رأى أصوب فى الغداة . فهذا أبو حنيفــة مثلا يقول لأصحابه : « لا تكتبوا هذا الرأى عنى اليوم فمن يدرينى لعلى اذا أصبحت غدا أعطيتكم رأيا مخالفا له » . لقد اجتهدوا ولم يألوا وفق ظروف زمانهم ، وعلينا نحن أن نجتهد ولا نألو وفق ظروف زماننا ، مستهدين بمـــا تركوه لنا من ثروة ضخمة وتراث عظيم .

وفى هذا المعنى يقول « جولد زيهير » : « الشريعة الاسلامية الصحيحة لم توصد باب الاجتهاد والتجديد .. وهذه المرونة هى التى أغنت الحضارة الفكرية العربية بأفكار الحضارات التى سبقتها » .

وثانى ما يتوجب علينا القيام به ان نتداعى لوضع الشريعة الاســلامية فى منهاج علمى مماثل لمنهاج القوانين الحديثة ، تبويبا وترتيبا ، ونصـــنفه مثل تصنيفه ليسوغ عند شبابنا ، فأكثر الجهل مأتاه من العجز أو عـــدم التفرغ لدراسة مبادئها العظيمة فى عشرات الألوف من الكتب الفقهيــة القديمة حيث تضيع الفكرة أو المـــادة أو المبدأ فى بحر من الشروح والحواشى والتعليقات والتفريعات والتفاصيل .

لقد كان الغزو الفكرى الذى واكب الاستعمار ، ومهد له ، يتمثل — كما قلنا — فى التبشير والاستشراق ، وفى الاسرائيليات الد...ة عمدا فى أحاديث

الرسول واقوال الصحابة والتابعين لادخال الشبهات فى النفوس . فوضعت الوف الكتب والدراسات الجامعية والمباحث الفلسفية الهادفة الى فكرتين مدخولتين أساسيتين ، لتشويه حقيقة الدين الاسلامى : فكرة بشرية القرآن . وفكرة عزل الدين عن الحياة .

وقد عمل ذلك الغزو عمله المدمر — كما أوضحنا من قبل — فى عقول فئة كبيرة من شبان مفكرينا الذين نشأوا فى أحضان مدارس الارساليات التبشيرية ثم تلقفتهم اقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية .

وكانت عدوى اتجاه الاستشراق والاسرائيليات فى نفوس ابنائنا وعقولهم تطرح فى استحياء واستخفاء حتى أوائل الخمسينيات ، ثم طرحوها علانية من خلال الانقلابات العسكرية التى ابتليت بها هذه المنطقة ، واصبح محور الصراع الايديولوجى الذى استشرى وامتد فى طول البلاد العربية وعرضها ، حتى أن جميع الشعارات المطروحة فى الساحة العربية ، تؤدى فى النهاية الى غرض واحد هو تصنيف المواطنين العرب والمجتمعات العربية والدول العربية الى مسلمين وغير مسلمين .. المسلمون هم الرجعيون المتخلفون قياسا على ما هو حادث بالفعل فى معظم البلاد التى تتخذ الاسلام هوية لا مضمون لها.وغير المسلمين هم الملاحدة وممثلوا الشعارات الوافدة الذين ينظرون الى الدين نظرة عداء حتمى بالضرورة تحت ستار الليبرالية والتكنية والعلم والتقدم ، افتتانا بابداعات الحضارة الغربية المادية فى مجالات الكشوف العلمية ، التى حققتها — فيما زعموا — حين تنكرت للدين ، ووضعته فى مكانه الصحيح (!) باعتباره تصورا منوطا بضمير الفرد لا علاقة له بالحياة كما فى الدول الراسمالية ، أو باعتباره خرافة ومخدرا وافيونا للشعوب يجب مطاردته والقاؤه من حياة الناس كما فى الدول الشيوعية .

وكان غرض الغزو الفكرى ، القضاء على الترابط الخلقى والنفسي والدينى بين الشعوب الاسلامية للحيلولة دون تلاقيها وتضامنها وتوحدها فى وجه الصليبية المستمرة ، والصهيونية والاستعمار .

وساعد على نجاح المؤامرة ركود الفكر الاسلامى ، فى عصور الجهل والظلام فكانت أولى الخطى فى تدمير المسلمين ابعادهم عن تراثهم المجيد ، بتشويه البرامج التعليمية التى تزرع فى نفس المسلم منذ الصغر الشكوك والاراجيف ، ليؤخذ بالترغيب والترهيب على اعتناق مساوىء الحضارة الغربية دون محاسنها ، واقتباس القوانين الغربية والقيم الغربية والسلوك الغربى والأخلاقيات الغربية ، دون توقف ضربة لازب ، وقضاء مقضيا .

اليس من الغريب المستهجن ، تلك الفقرة التى وردت فى معاهدة «مونترو» سنة ١٩٣٨ ، بالغاء المحاكم الأجنبية فى مصر ، والتى تلزم الحكومة المصرية باتباع روح التشريع الغربى .. أى الغاء الشريعة الاسلامية فى حياة المسلمين !!

ومن المؤسف حقا أن ما نراه اليوم من يقظة الوعى الاسلامى لا تستند فى الغالب الى فهم صحيح للاسلام ومبادئه ، بل تقوم على مجرد التعصب

المزوج بالجهل لغياب الموجهين الصالحين والدعاة المستنيرين ، والمفكرين الذين جمعوا الى تعمق دراسة الاسلام ، دراسة الأيديولوجيات الغربية ليستطيعوا مقارعتها وتفنيدها ورد التهم الباطلة والشبه الدنيئة التى الصقت بالاسلام وهو منها براء .

وكيف تستطيع العصبية الجاهلية ان تصمد فى هذا الصراع العنيف ؟

وكيف تستطيع ان تفهم أن التدين ليس تعصبا ولا تحزبا وانما هو دعوة حق ، ولذا نعتز باسلامنا لأنه الدين الوحيد الذى يعترف بكافة الرسل والأنبياء والكتب المنزلة ، ويختمها حكما وتشريعا .. فيضع أسس الأممية التى يحلم بها الطوباويون .

ولست اقصد ، حين اشير الى مساوىء الحضارة الغربية الأخلاقية ، ان نتخلى عن دراسة اللغات الأجنبية أو الأخذ بمنهج البحث الأوروبى ، أو بأساليب العلم التجريبية ، بل ان اسلامنا يدعو الى ذلك جميعا ، فنأخذ ما يناسبنا ويلائمنا من محاسن تلك الحضارة العلمية ، ونمعن فيه امعانا شديدا مع المحافظة على قيمنا الروحية ومفاهيمنا الأخلاقية التى أمرنا بها ديننا ، كما فعلت أمم قبلنا واءمت بين اقتباس افضل ما فى تلك الحضارة مع الاحتفاظ بمقوماتها الحضارية ، فاستطاعت أن تسبق الغرب فى ميدانه ، دون ان يتهمها احد بالرجعية والتخلف ، واجمل مثل على ذلك ، اليابان .. بل اسرائيل !

وبعد ، ما هو الاسلام ، وما هى الشريعة الاسلامية ؟ . وكيف تكون الدولة فى الاسلام ؟ وكيف أمكن تحقق أعظم تجربة حكم فى التاريخ زمن الرسول وخليفتيه ؟

سنحاول اجمال ذلك فى المبادىء التالية :

١ ـ الدولة فى نظر الاسلام هى تحويل القيم الأخلاقية والمبادىء المثالية الى قوى زمانية مكانية . ولذا فالدولة فى الاسلام ليست « ثيوقراطية » اى بمعنى ان على رأسها خليفة لله على الأرض ذا عصمة مزعومة .

٢ ـ الاسلام دين ودولة معا ، اما فكرة الفصل بين الدين والدولة ، فهى فكرة اوروبية لا يمكن حدوث مثلها فى الاسلام ، لأن المسيحية لم تنزل لاقامة وحدة سياسية أو مدنية ، وانما نزلت سلوكا اخلاقيا فى عالم دنس .. ولذا فهى لم تحفل بشؤون الدنيا ، بل خضعت للسلطة الرومانية . وعندما أصبحت الدولة مسيحية ، وقفت من الكنيسة موقف التعارض والتناقض ، فنشأت الخصومات التى ادت الى المتاركة والصدام .. ثم الانفصال .

وهذا ليس رأينا نحن وحدنا ، بل هو رأى جميع المفكرين الغربيين الذين يعتد بهم ونجتزىء هنا بالاشارة الى رأى « ماومان » فى كتابه « رسائل عن الدين » حيث يقول : « ان المسيحية حين جاءت لم تظهر اهتماما بحفظ كيان الدولة ، ولم تحفل بالتشريع ولم تعن بأحوال المجتمع الانسانى ، ولذا

كانت النتيجة ، اما أن يلقى الناس بانفسهم بين براثن الفوضى متعمـــدين ، واما ان تكون لهم شرعة سياسية الى جانب العقيدة الدينية » .. « ولذا كانت الكنيسة ، كما يقول « سباين » فى كتابه « تطور الفكر السياسى » ، تتسهل فى اعتبار الحاكم هو ظل‌الله على الأرض وانه يحكم بارادة الله وتفـــويض منه . ولا تجوز معارضته مهما انحرف وجار لأن مسؤوليته مرجاة الى الحياة الآخرة وهكذا تعلو السلطة على الحرية ، ويبرر الاستبداد . وبالرغم من أن المسيحية الأصلية تدعو الى الحرية والمساواة بين كافة البشر ككل الأديان السماوية الا أن الكنيسة فسرت ذلك تفسيرا روحيا يسمو فوق أعراض الدنيا الزائلة ! ، ليس المهم أن يتحقق فى هذه الدنيا المليئة بالشرور ، بل أن يتحقق فى « مدينة الرب » الباقية بعد زوال هذه الحياة الدنيا » .

ويقول « ليوشتراوس » فى كتاباته « تاريخ الفلسفة السياسية » : « ان الكنيسة كانت تهتم بالتطهر النفسى والسمو الروحى اكثر من اهتمامهــا بقضايا الحرية والمساواة فى تطبيقاتها الانسانية » .

أما الاسلام فهو منهاج دنيا وآخرة يقوم على أفراد الله تعالى وحــده بالالوهية والحاكمية والملك ، وما يستتبعه ذلك من افراده تعالى وحــده بالتشريع .. فاذا استحال فصل الألوهية المطلقة عن الحاكمية المطلقـــة ، فكذلك يستحيل فصل العقيدة عن الشريعة .. واستطرادا لهذا التصور ، فكل تشريع من عند غير الله هو تشريع باطل هو تشريع الطاغوت . سواء أكان هذا الطاغوت فردا أم جماعة .. راسمالية أو شيوعية .

٣ ــ الانسان هو اكرم المخلوقات عند الله واحسنها تقويما ، وهــو خليفته على الأرض . ومقتضى تلك الارادة الالهية أن يحافظ الانسان على هذه الأمانة التى أودعها الله فيه ، فلا يفل ولا يهون ، ولا يخاف ، ولا يرضــخ لحكم الضرورات ، بل تصبح حياته كلها وفى كل لحظة ، جهادا موصــولا فى محبة الله ورضاه ، فلا يقول الا ما يرضى الله ولا يفعل الا ما يرضى الله ، حتى ليصبح نشدان‌ذلك‌الرضا نافلة من نوافل الكمال ، لا تتحقق بغــيره انسانية الانسان .

٤ ــ الاسلام يعترف من جهة أخرى ، بالكائن البشرى كما هو بنوازعه وميوله الفطرية ولكنه يهذب ذلك جميعا ، ويضع له الحدود والقيود والحقوق والواجبات فى الدائرة التى تتحقق بها مصلحة الفرد مصلحة الجمـــاعة على السواء . وهو من ثم يعترف بحق الفرد فى الاحساس بالنوازع الفطـرية وممارستها فى الحدود المشروعة دون استقذار أو كبت أو رهبنة أو كهنوت .. فالارادة الحرة هى مناط المسؤلية فى النظام الاسلامى كله .

لقد خلق الله الانسان من الطين ، ونفخ فيه من روحه فكان من هـــذا المزاج كائن فذ لا هو باله ولا هو بشيطان ، بل هو كل متوازن لا تطغى ماديته على روحانيته ولا روحانيته‌على‌ماديته . فاذا غلبت عليه الروح ، انعزل وانطوى وتكهن ، وأصبح عالة على الانسانية .. واذا غلبت عليه المـــادة فسد وفسق وضل . وحين يضل الأفراد يضل المجتمع وتهوى الانســـانية

الى الحضيض . اما حين يستقيم هذا التوازن فى الفرد فيستقيم التوازن فى المجتمع .. وذلك هو عمل الاسلام .

٥ ــ اذا كانت القدرة الالهية قد خلقت كل شيء بالحق ، وان كل موجود يستمد اسباب وجوده من الله وحده دون سواه ، فليس من الحق أن تكون هذه الحياة الدنيا آخرة المطاف ، بلهى برزخ وممر الى الدار الآخرة ، لحكمة ارادها الله ، قد يعجز العقل عن الاحاطة بها ، لكن الروح القابلة لتلقي الهدى تدرك تلك الحكمة وتدرك العجز ازاءها ، وتصل أسبابها بتلك القدرة بالخضوع والتسليم .

فالحياة الدنيا ابتلاء وامتحان ، والدار الآخرة جزاء وحساب ، ومثوبة وعقاب . وحين تستقر هذه الصورة فى النفوس والأذهان تكون نتيجتها الطبيعية أن هذه الحياة الدنيا هى مكان السلوك الباقى والالتزام الأخلاقى الخلاق ، فلا يأس ولا قنوط ولا طمع ولا عدوان ولا خضوع ولا استجداء ، ولا قبول بالظلم ، ولا انحناء لغير الله .

٦ ــ ليس فى الشريعة الاسلامية حكم لا تترتب عليه عقوبة أخروية فوق الجزاء الدنيوى . فهى بذلك تقضى على الجريمة قبل وقوعها مخافة غضب الله . اما القوانين الوضعية فان الناس لا يطيعونها الا بقدر ما يخشون من الوقوع تحت طائلتها . ومن استطاع أن يرتكب جريمة وهو آمن من سطوة القانون الوضعى ، فليس ثمة ما يمنعه من ارتكابها اذا غاب وازع الدين .

٧ ــ الشريعة الاسلامية كاملة ابدا لأن صانعها يتصف بالكمال . أما القانون الانسانى فناقص أبدا لأن صانعه يتصف بالنقص ، فهو من ثم عرضة للتغيير والتبديل ، اذ هو مجموعة قواعد موقتة تضعها الجماعة لتنظيم شؤونها وسد حاجاتها فهى من ثم متأخرة عن الجماعة أو هى فى مستوى الجماعة اليوم ، متخلفة عنها غدا .. لأن القوانين لا تتغير بسرعة تطور الجماعة . أما الشريعة فثابتة لا تقبل التغيير والتبديل ، لأنها من عند الله . ولذا جاءت مبادىء الشريعة الأساسية الثابتة من المرونة والسمو والشمول تتسع لحاجات الجماعة مهما تغيرت الأزمان وتطورت الجماعات . فلقد تطورت القوانين الوضعيةفىمدى الثلاثة عشر قرنا الماضية،وتغيرتوتبدلت عشرات المرات ، مع أن مبادىء الشريعة ونصوصها ظلت أسمى من مستوى الجماعات المتعاقبة ، وأكفل بتنظيمهم وسد حاجاتهم ، وهى أقرب الى طبائعهم واحفظ لأمنهم وطمأنينتهم .

ولذا اكتفت الشريعة بايراد الأحكام الكلية فى نصوص عامة مرنة وتركت لأولى الأمر ان يتموا بناء التشريع على أساس هذه القواعد . وأولو الأمر لا يملكون حق التشريع ، فهو حق الله ورسوله ، وقد انتهى وجودذلكالحق بوفاة الرسول وانقطاع الوحى ، وانما عمل ولاة الأمور ان لهم حقالتنفيذ والتنظيم والقياس والاجتهاد فى اطار المبادىء والقواعد العامة للشريعة .

فالاسلام يحرم على المسلم ان يتخذ من غير شريعة الله قانونا ، تحريما قاطعا وكل خروج على ذلك أو الرضى به ، فهو كفر وضلال بعيد ، ولذا فكل

ما يخالف الشريعة محرم على المسلمين ، وان أمر به ولى الأمر أو اباحتــه السلطة الحاكمة ، وواجب المسلم لا أن يمتنع عن تطبيقه وتنفيذه فحسب ، بل واجبه الدينى أن يقف فى وجهه ويحاربه جهد ما يستطيع .

٨ ــ طاعة أولى الأمر لا تجب الا فى طاعة الله . ولا خلاف بين الفقهاء والمجتهدين ان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وأن تعطيل أحكام الشريعة أو اباحة ما لم يأذن الله به هو كفر وردة . وان الخروج على الحاكم المسلم اذا ارتد واجب على المسلمين ، وأقل درجات الخروج هو عصيان أوامرهم ونواهيهم المخالفة للشرع .

٩ ــ الغرض من الشريعة هو تنظيم الجماعة وتوجيهها الوجهة الصالحة فى نفس الوقت . أما الغرض من القوانين الوضعية ، فالأصل فيه أن تشرع لتنظيم الجماعة وليس لتوجيهها وتفصيل ذلك أن القوانين الوضعية منوطة بالظواهر اما الشريعة الاسلامية فهى منوطة بالظواهر والسرائر . ولذا فالفضيلة فيها التزام من الداخل لا الزام من الخارج .

١٠ ــ أحكام الشريعة كلية كاملة لا تقبل التجزئة والفصل والتفريق .

١١ ــ وظيفة الشريعة المساواة المطلقة بين الناس ، وكفالة الحــرية والعدالة الاجتماعية . ولو نحن تتبعنا المبادىء الانسانية والاجتماعيــة والقانونية والاقتصادية التى عرفها هذا العصر ، وفاخر بها أبناؤه لوجدناها كلها واحدا واحدا فى الشريعة الاسلامية على أحسن الصور وأفضل الوجوه .

١٢ ــ الاسلام هو الدين الوحيد الذى يجعل العمل الصالح ، وطلب العلم ومكارم الأخلاق فى منزلة العبادة ، وهو الدين الوحيد الذى يجعل العــدل فى الرعية عبادة ، ودفع الظلم عبادة ، ومقارعة المعتدين عبــادة لايكتمل بغيرها الدين .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا خير فيمن كان فى أمتى ليس بعالم ولا متعلم » ويقول : « اذا عجزت أمتى أن تقول للظالم ، يا ظــالم فقد تودع منها » أو ما هو بمعناه . ويقول : « يذاد أناس من أمتى عن الحوض يوم القيامة فانهض لأشفع لهم ، فيقول الله لى : يا محمد لا تفعل ، انك لا تدرى ما احدثوا بعدك . فأقول يا رب وما أحدثوا ؟ فيقول سبحانه انهم كانوا يمشون بعدك التهقرى على أعقابهم » .

ويقول سبحانه فى محكم كتابه : **« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها »** والمكر هنا بمعنى الفتنة والفساد . ويقول : **« واذا أردنــا أن نهلك قرية أمرنــا مترفيها ففسقوا فيها »** .

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله لو أن بغلة عثرت بحجر فى أرض العراق لحسبت أن الله سيحاسبنى ان لم أسو لها طريقها » .

وكل من يتوخى العزلة للابتعاد عن مشاكل المجتمع مدعيا التفرغ للعبادة ليس بصادق الايمان ، فالرسول يقول : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » . ويقول : « الدين النصيحة فمن احجم عن النصيحة أو كتمها لغرض دنيوى ليس بصادق الايمان » .

ويقول : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . ويقول : « اذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السفهاء » فانظر مصداق هذا الحديث الشريف فيما نحن فيه اليوم !

١٣ — وعلى هذا كانت أولى مبادىء الشريعة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنظمت ذلك تنظيما معجزا ووضعت له التفريعات والأصول والحدود .. فالمعروف على ثلاثة أنواع : المفروض أو الواجب المندوب أو المستحب . المباح أو الجائز .. فالمفروض أو الواجب هو الزامى قطعى لا يجوز فيه تهاون أو اجتهاد .. والمندوب أو المستحب هو كل ما تقتضيه الشريعة وترجو أن يقوم فى المجتمع ويروج ويعم . واما المباح او الجائز فهو كل شيء لم تنه عنه الشريعة ، ودائرة ذلك واسعة جداً حتى أن كل شيء فى الدنيا ما عدا المحظورات المحدودة مباح لا حرمة فيه . ودائرة الاباحة هى الدائرة التى أطلقت الشريعة فيها لنا الحرية الكاملة لوضع القوانين والأنظمة التى توافق حاجات التطور ومشاكل الزمان والمكان .

اما المنكر المنهى عنه ، فهو نوعان : المحرم أو المحظور ، والمكروه ، فالمحرم هو الزامى التجنب فى حياة الفرد والجماعة وقد جاءت أحكامه فى الشريعة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . وأما المكروه فهو كل ما قد اظهر الشارع كراهيته له صراحة أو كناية ، وترك رعاية ذلك لأولى الأمر وعلماء المسلمين يجتهدون فيه ويقررون ، ما يجب وما لا يجب أن يكون .

وعلى هذا فان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو مظهر الايمان وهو التزام دينى ، بل هو أعلى مراتب الممارسة السياسية فى أسمى صورها ، لا يجوز لمسلم أن يتهرب منها أو يتخلى عنها . والحرية السياسية فى الاسلام مكفولة بحكم الشريعة ، ومن المستحيل الفصل بين السياسة والدين .

١٤ — الحقيقة النهائية فى نظر الشريعة هى حقيقة روحية يتحقق وجودها فى هذا النظام الدنيوى الذى تجد الروح فيه فرصتها بل فرحتها فى تحقيقه ، فكل ما هو دنيوى هو طاهر فى جذور وجوده ، والدولة فى نظر الاسلام ليست الا محاولة لتحقيق الروحانية فى بناء المجتمع الانسانى .

١٥ — الاسلام كوحدة روحية مثالية ، يتضمن — كما يقول الدكتور محمد اقبال — مبدأين أساسيين ، يساعدان الفرد والمجتمع على مسايرة التغير المستمر فى العالم الواقعى وهما ختم الرسالة الالهية والاجتهاد فى الأحكام . فالاعتقاد باختتام الرسالة السماوية ، يسوق الى الاعتقاد بانتهاء الثورة الاجتماعية وتحرير الانسان وانتهاء الوصاية عليه . وليس معنى ذلك احلال العقل محل الرسالة ، بل أن الشريعة جاءت بالأحكام والقواعد الكلية

الشاملة المرنة السهلة الميسورة التى تنظم شؤون الفرد وحاجات المجتمع تنظيما مثاليا لا معقب عليه . وعمل العقل الانسانى أن يستنبط من تلك الأحكام الكلية ما يتلاءم مع كل زمان ومكان .

وعلى هذا تعتبر الحزبية فى الاسلام خيانة ، لأن الأمة كلها مرتبطة ارتباطا عضويا بحزب واحد هو الاسلام ، وكل ما عداه خيانة وخروج عن الصف وتمزيق للوحدة .

وقد حض الاسلام على حرية الانسان المطلقة فى السيطرة على الطبيعة واكتشاف اسرارها واستثمار كنوزها ، والوصول الى قمة الابداع المادى .

ومؤدى ذلك استبعاد فكرة انتظار « المخلص » كما فى المجوسية ، ثم فى اليهودية والمسيحية ، وابطال الرهبنة والعصمة ووراثة الحكم ، ومناشدة العقل التجربة على الدوام .

١٦ — الشريعة الاسلامية مستمدة من القرآن والسنة،اى اقوال الرسول وافعاله وسيرته فى القيادة والحكم ، وهى فى كل ما عدا ذلك يصح أن يؤخذ منه أو يرد عليه ، ولوكان من كبار الصحابة ، فان اقوالهم وافعالهم لا تعتبر حجة شرعية ، وفى ذلك يقول «الشوكانى» فى كتابه « ارشاد الفحول » :
« ان الله سبحانه وتعالىلم يبعث الى هذه الأمة الا نبينا محمدا ، والأمة كلها مأمورة باتباع الكتاب والسنة لا فرق بين الصحابة ومن بعدهم ، ولا شك أن مقام الصحابة عظيم ، ولكن فى الفضيلة وارتفاع الدرجة وعظم الشأن ، ولا تلازم بين هذا وجعل الواحد منهم مشرعا كالرسول .. حتى ان طاعة الرسول نفسه مقيدة فيما أمر بتبليغه ، وما صح عنه من قول أو عمل . فطاعته محمولة على نسبته الى كتاب الله . أما فيما عدا ذلك فهو رجل يخطىء ويصيب ، وكثيرا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بشىء ثم يستشير أصحابه فيأمرون بغيره .. فيترك رايه ويعود الى راى أصحابه .

اما كبار الصحابة فقصة عمر المشهورة اوضح بيان لما قصدنا اليه . فقد كتب له ابو موسى الاشعرى يوما كتابا الى أحد الولاة ختمه بقوله:«هذا ماارىالله عمر » فيقول له عمر : « امحه واكتب هذا راى عمر ، فان يك خطا فمن عمر » !

صفوة القول انه لما انتشرت الدعوة الاسلامية واتسع نطاق الاسلام ، اذن الرسول لبعض الصحابة بالفتيا ، فكانوا يحكمون بين الناس بالكتاب اولا وبالسنة ثانيا ثم بالاجتهاد أخيرا .

كان الخلفاء الراشدون يحتاطون فى قبول الحديث خشية نسبة الخطأ الى الرسول ، فلا يقبلون من الحديث الا ما شهد به اثنان سمعاه من الرسول .

واكتملت ادلة التشريع بهذه المصادر الثلاثة واضيف اليها القياس . فكان الخلفاء الراشدون يجمعون الفقهاء ويستشيرونهم اذا لم يجدوا نصا فى الكتاب

والسنة فاذا اجمع رايهم على شيء قضوا به وبهذا ظهر الاجماع ، وهو الاتفاق على الامر الدينى عن اجتهاد . اما القياس فهو تنزيل الاحكام على نظائرها فلا يصيب الناس ما اصاب من سبقهم من خلاف حول التكاليف المشروعة .

والاجماع والاجتهاد هما مفتاح التطور فى الشريعة الاسلامية ، لانه يكفل لها حياة متجددة تتمشى مع مقتضيات التطور .

ذلك ان التشريع فى القرآن قام على اسس ثلاثة : الاول رفع الحرج عن الناس « **وماجعل عليكم فى الدين من حرج** » . « **يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر** » . والثانى التخفيف من التكاليف . « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » وقول الرسول : « ما نهيتكم عنه . فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ، فانما هلك الذين قبلكم من كثرة سائلهم واختلافهم مع انبيائهم . والثالث التدرج فى التشريع لاخذ الناس بالرفق لاصلاح امورهم تدريجيا كى لا يشعروا بانقلاب مفاجىء او ارهاق معجز . والتدرج فى التشريع يفسر علة نسخ الاحكام .

والاجمال فى التشريع عماده أن يتسع لمتطلبات كل زمان ومكان ، وما يجد من حاجات ومشاكل فيقتصر التشريع على قدر حاجة من شرع لهم لا لحوادث فرضية قد تجد فى المستقبل .

يقول « ريورند باسورث سميث » عضو كلية انثليت فى محاضراته المجموعة عن محمد والاسلام سنة ١٨٧٤ : « اننا نجهل الكثير عن ديانات بوذا وكونفوشيوس وزرادشت ، ويشتمل الغموض حياة المسيح واصحابه وحوارييه ، ليس لدينا الا مراجع قليلة لا تغنى عن حياة موسى اما الاسلام فأمره واضح كله ، وفى ايدى الناس تاريخه الصحيح » .

ذلك ان القرآن قد جمع بتثبت بعيد انتقال الرسول الى الرفيق الاعلى ، فكان القرآن الكريم بذلك هو الكتاب المنزل الوحيد الذى سلم من التحريف والزيادة والنقصان .. وتأخر تدوين السنة الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وبذا اصبحت نصوص المصدر الثانى للتشريع الاسلامى مسطورة مكتوبة ، يسهل الرجوع اليها غير ان تأخر تدوينه افسح المجال لادخال الكثير من الشبه الاسرائيلية والاحقاد الشعوبية ، واختلافها فى اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاكب رجال الطبقة الثانية على تمييز الصحيح المجمع عليه من غيره مع دقة التحرى وحسن الاختيار ، لقرب العهد به ، فكتب الحديث الصحيح فى ستة مصنفات اجمع المسلمون على انها اصح الكتب مصدرا للشريعة بعد كتاب الله ، واطلق عليها لفظ الصحاح .. ثم أطل عصر تدوين الفقه على يد الائمة الاربعة الكبار .

ثم اعترى الدولة الاسلامية ما إعتراها من التفكك فنشأ عصر المقلدين بسقوط بغداد على ايدى التتار سنة ٦٥٦ هجرية واستمر ذلك الى اليوم فانعدمت روح الاجتهاد ، ووقف نمو التشريع .

مع ان الائمة الاربعة انفسهم قد نهو عن تقيدهم وذموا من اخذ اقوالهم بغير حجة .. فقال الامام ابن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم فان التقليد

لغير المعصوم مذموم » وقال أبو حنيفة : هذا راى ابى حنيفة وهو احسن ما قدرنا عليه . فمن جاءنا بأحسن منه ،فهو أولى بالصواب » . وقال مالك: « انما أنا بشر أخطىء واصيب فانظروا فى قولى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ماخالف ذلك فاتركوه» . وقال الشافعى مثل قوله .

ثم جاء الغزو الصليبي بعد تبدد شمل المسلمين وغلبة الجهل والتقليد على خاصتهم وعامتهم على السواء ، فانهمرت الكتب الملفقة المختلفة عن سيرة الرسول وكلها مبنية على العداء للاسلام ، بتوسل الدس والتزوير والكذب . واستعاضوا عن دراسة التفسير الحديث والفقه والتشريع بابراز صور الصراع التى المت بالمسلمين فى عصور ضعفهم ، ولم يكن هدفهم التحرى عن الحقيقة ، بل الوضع والتزييف !

١٧ — الدولة فى الاسلام تنفرد بطابعها الانسانى العالمى ، فهى حكومة انسانية لا الهية ، مكفولة بالتضامن والتساوى فى الحقوق والواجبات والمحافظة على الكرامة البشرية التى لا يجوز أن تقهرها حاجة ، أو يسحقها ظلم . فهى من ثم دولة اخلاقية لا بوليسية ، ولا طبقية ، ولا فردية استبدادية، وهى متفردة بخصوصيتها الفكرية ، القائمة على الالتزام لا القهر والالزام .

وطبع الدولة الاسلامية الجهاد الدائم المستمر ، لا العزلة عن متع الحياة المشروعة ، ولا التواكل والتخاذل والخضوع لحكم الطاغوت . والاستمتاع بالحياة فيها يتنافى مع الافتئات على حقوق الاخرين ، فالاسلام هو الدين الوحيد الذى يجمع بين حق الملكية فى اطار المصلحة العامة مخالفا بذلك جميع النظم والحضارات .

دولة تنفر من التخلف والجهل وتسعى الى التقدم والعلم ، وتدعو الى العدل فى سعة من العفو والاحسان .

دولة يلتزم فيها الأفراد التزاما عفويا بحكم القانون لانه شريعة الله ، لا شريعة طبقة أو فرد أو حزب أو عائلة أو عشيرة ، ولا يسود فيها الا الاعتبار الانسانى وحده ، فلاوثنية ولا تاليه ، ولا انتماء كاذب ولاخضوع ذليل . فقس ذلك على بعض النظم السياسية المعاصرة التى تجعل للحزب عصمة قطاع ولا تناقش وتجعل للزعيم قداسة الاله ، لا راد لحكمه ولا دافع لقضائه !

١٨ — مفهوم الاسلام للحرية هو الايمان بالله سيادة وحاكمية والوهية ، فذلك وحده يضع حدا لسيادة الانسان على حرية الانسان ، أو قهر النظام لحرية الانسان أو قمع الكوادر الحزبية لحرية الانسان . .

الحرية الانسانية الفردية أن تحققت كان المجتمع انسانيا بتفكيره واتجاهاته، وان فقدت كان المجتمع همجيا جاهليا بتفكيره واتجاهاته ، وللحرية الفردية فى الاسلام مضمون خاص ومضمون عام . خاص من جهة تحرر النفس البشرية باستعلائها وارتفاعها على الضرورات . وعام من جهة رفض السيطرة من أية جهة كانت الا فى حدود الشريعة والنظام العام . فاذا تقررت هذه

الحرية أصبح سلوك الفرد أخلاقيا بالضرورة ، لأن الارادة الحرة هي أصل السلوك الحر والعمل الأخلاقي .. والارادة الحرة هي وحدها القادرة على تحدى الاغراء من جهة ، وتحدى الظلم من جهة أخرى .

وكل حضارة ، مهما سمت فى ابداعها المـادى ، لا تعكس التفكير الحر ، والارادة الحرة مهددة بالزوال والاندثار ، ذلك لأن كل النشاطات العقليـة طاقات مجردة لا يمكن وصفها بأنها حضارية أو متمدنة أو تقدمية الا اذا استعملت استعمالا أخلاقيا .

والفرق بعيد بين التوكل على الله ، وبين التواكل .. التوكل على الله هو رمز الشجاعة والتصميم لأنه يمسح القلق النفسى واليأس المدمر ويحفز على العظائم .. وأخلاق النصر تتكون فى الفرد والمجتمع من حوافز الايمان ، وعلى طول التاريخ نجد النصر دائما معقودا بلواء الرجل المؤمن .. الذى يعتقد بأن الله قد وهبه القدرة التى لا تغلب ، ولا تبالى ما فاتها من مغريات الدنيا اذا هى استشهدت فى سبيل الله .

ولذا كان العرب يهتفون فى معاركهم المظفرة : هبت ريح النصر اى غلبت على المجاهدين أخلاق النصر .

ونقطة البداية فى كل هزيمة غياب الايمان فى نفوس المقاتلين فيخـافون الردى ويفقدون ارادة القتال ..وتهب عليهمرياح التفككوالجبنوالانهزامية، كما هو حال العرب اليوم وهو شبيه بحال عصر الطوائف فى الأندلس ، حينما كانت حصون المسلمين تدك واحدا تلو آخر ، والمعتمد بن عباد يلعب الشطرنج ، مع وزيره ابن عمار .. ويلهو بمحظياته وجواريه !! ما أشـبه الليلة بالبارحة !!

الاسلام اذن يقرر بصيغته القطع والالزام ، انه ما دام الله هو الحاكم الأعلى ، فلا خضوع لغيره ولا تزلف ولا نفاق ، ولا انحناء ولا استخذاء .

فالايمان بالله قوة لا تدانيها قوة مهما بلغت من العتو والجبروت .. لكنها ليست قوة سلبية ، اى أن نمضغ ايماننا بالله ونستريح ! بل الايمان قـوة حركية ديناميكية بتعبير اخواننا الثوريين ، توجب على المؤمنين أن يعـدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن علم وتخطيط . فقد حددت الآيةالكريمة وسائل النصر تحديدا جامعا ، اذ أن أعداد القوة يوجب أن تتسلح الأمة بالعلم والايمان ، بالقوة المعنوية والقوة المـادية ، لا تغنى احداهمـا عن الأخرى ، ولابد من أجتماعهما لتحقيق النصر .

أما التواكل فهو الرضوخ لأحكام الضرورات المـادية وتغليبهـا على المروءة والنخوة ودفع المظالم ورد المعتدين . ومعنى « القناعة كنز لا يفنى » هو الاستعلاء على ما فى يد الآخرين من متاع تافه يرخص الى جوار العزة والكرامة والوقوف فى وجه الطغاة .. وأن التكالب على عرض الدنيا بغل شرف المجاهدة ، هو مرض المـادية والمـاديين ، والثورية والثوريين ، والتقدمية والتقدميين ، فى معيار هذا الزمن القذر ، الذين يستسهلون الهوان

والعبودية لكل من ملك السلطان فى سبيل الحصول على نزوة عابرة ، وشهوة غامرة ، ومتاع الى حين !

والفرق بين المادى والمؤمن كالفرق بين من يريد ان ياخذ ولا يعطى ، ومن يريد أن يعطى من ذات نفسه اذاحزب الأمر وضاق رحب الفضاء .. المادى يسرق ويقتل ويكذب وينافق ويخون لأن هدفه أن يتملك قصرا أو سيارة او سلطة أو مركزا اما المؤمن فيعف عن الدنايا لكنه يقف فى سبيل حقه وكرامته ، موقف الشجاع الندب الذى لا تستهويه متعة ولا يضعفه اغـراء .

ولذا فالمادى لا ينتصر لكرامته اذا اعتدى عليه ، بل يجبن ويذل ارادة الاحتفاظ بما فى يديه .. اما الذى ينتصر لها ، فهو المؤمن الذى لا يثنيه عن غرضه وعد أو وعيد .

ولذا يقسم الاسلام الناس فى حالة الاستنفار لرد العدوان الخارجى الى فريقين : « آخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » فالجهاد ليس بالقتال وحده بل بالعمل على توفير الحياة الكريمة للمقاتلين . وهذا هو مجتمع الحرب .. مجتمع المعركة فى أسمى صورها واعلى مراتبها .

وهدف الجهاد هو الحرص على توكيد وتثبيت الايمان بالله على هذه الأرض لمصلحة المسيرة الانسانية .. ولذا كان القتال من اجل هذه الغاية فريضة وواجبا على من يستطيعه **« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »** . فالقتال اذا كان يشق على النفس لأسباب غريزية ، فهو فى سبيل الله عبادة ، وفريضة غير موقوتة بزمن ، ما دام فى صالح البشرية كلها لاقرار الايمان بالله وحده ، ولولا الجهاد لتقرير الايمان بالله لطغت الفتنة المادية على الخصائص الانسانية ، ولعاد البشر جميعا الى شريعة الغاب .

فاذا تاكد هذا فى نفس المؤمن كان جهاد من أخرجونا من ديارنا بغير حق واجبا مضاعفا ، لحماية الايمان بالله من الشرك والكفر من جهة ، ولردع الظلم ودفع العار من جهة أخرى .

وعدو المؤمنين بالله ، هم الكافرون من اهل الكتاب والكافرون من اهل الشرك واصحاب المادية . ولذا وجب على المسلم ان ينهض لمقاتلة اسرائيل بدافعين .. الدافع الاول ، كونهم يدخلون فى مفهوم الكافرين من اهل الكتاب، والدافع الثانى لاعتدائهم الفادح البشع على ارضنا واهلنا ومقدساتنا .

فقد وصفهم القرآن الكريم بانكار رسالة موسى وتحريفها وتزييفها ، والخضوع للخرافات والاساطير التى اختلقوها وابتدعوها تسفيها لما جاء به دينهم،ولذا فهم يؤمنون بالله ظالم متدسفاح ، يختص برحمته شعب اسرائيل وحده دون سواء ويحض على الظلم وسفك الدماء البريئة فى سبيل مجد اسرائيل !

فيقول القرآن الكريم فيهم : « **كلما جاءهم رسـول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون** » يعنيهم من الدين شيء واحد ان يسيطروا على العالم وأيديهم ملطخة بالدماء .

والاسـلام يضع الاسس الصحيحة للمواجهة ، فهو فوق امره بالاستعداد المادى والمعنوى يأمر المؤمنين ان يثبتوا عند اللقاء ، وان يصبروا ويرابطوا مهما طال كيد القوم،ويأمرهم ان لايتنازعوا فيفشلوا فتذهب ريحهم،فوحدةالقاعدة الفكرية .. ووحدة العقيدة ، ووحدة الصف هى وضع اوامر الله موضع التحقق والتطبيق ، وكل من يخرج عليها خان الله ورسوله والمؤمنين . واذا قعد المؤمن عن الجهـاد فرط فى دينه وخـالف عن اومر ربه ونواهيه .. ومجال الاختبار والامتحان ، ان من نكص واختار زينة الحياة الدنيا فليس بصادق الايمان ، بدافعين .. الدافع الاول ، كونهم يدخلون فى مفهوم الكافرين من اهل الكتاب فليس الايمان بالتمنى — كما يقول الرسول الكريم — بل الايمان هو ما وقر فى القلب وصدقة العمل ..

ومشروعية الجهاد تقررت لدفع الاعتداء الواقع من هنـا او هنـاك ، فى اطار الحدود الانسانية التى لا تظلم ولا تجور ، فهى لهدف معين فى حـدود معينة لا ينبغى تجاوزها . وجنوح الجانب المعتدى للسلم على اساس لرد الحقوق كاملة غير منتقصة ، يفرض على المؤمن ان يجنح له ، بلا مكابرة ولا عناد ولا تفريط ولا عن ضعف وخوف .

والجهاد هو مجال اختبار ايمان المقاتل ، وعزوفه عن الدنيا ومجاهدة النفس بايثار التضحية والاستشهاد على هوان الدنيا والآخرة . والمهم ليس الغلبة او النصر ، فالنصر من عند الله ، شرط الاستعداد له ، وتوفر ارادةالقتال.. والهزيمة من عند الله ، لمخالفة اوامره ونواهيه ... بل المهم ان لايضعف المجاهد ولا يستكين « **ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله،وتلك الأيام نداولها بين الناس** »، وامارة المؤمن فى المعركة مهما تكن نتائجها،ان لايستخذى ولا يهون. فان تك هزيمة ، فهى موضع عبرة ، تقود الى اعتدال المسيرة من من جديد . وان يك نصر ، فلا غلو ولا اسراف ولا استكبار . ولولا النكبات فى تاريخ الامم ما اتضح الفرق بين الصابر حقا والصابر كرها .. والمحن هى محك الافراد والامم على السواء ، فتواجهها بالارادة والتصميم ، والاتعاظ بما وقع من خلل أو تفريط أو انحراف .. والنصر هو حق القوى فى ايمانه بما يقاتل من أجله ... والاستعداد له بالعلم والتنظيم والتخطيط .. والعاقبة للمتقين مهما عدت العوادى وطال الزمن ، وغلا غرور الأعداء .

ولو فطن العرب والمسلمون الى حقيقة دينهم ومعنى جهادهم ما هانوا ولا وهنوا ولا ضعفوا ولا ذلوا ، ولا استجاروا بالاعداء ولا تمرغوا على اعتاب الطواغيت ، بل لكانت نكبتهم منطلقـا الى ترسـيخ ايمانهم بربهم وبارضـهم ومقدسـاتهم لا سـبيلا الى تكريس الذل والاستسلام .

وكيف يقاتل من ليس له مبدأ يمسك به وعقيدة ينافح عنها ؟ هل يقاتل الا مكرها ؟ ومن يقاتل مكرها مهيأ للهزيمة ولو تسلح بالقنابل الذرية والصواريخ!

اما المجاهد فهو الذى يقاتل عن اختيار لانه يرى فى القتال تربى الى الله وسعيا فى رضاه ، فثباته فى المعركة ، استحياء من الله ومحبة فى الله وخشية من غضب الله ، من اجل حماية الانظمة المنخورة ، وحكم الطواغيت ، وصراع الايديولوجيات .

١٩ — لا يستقيم فى التصور الاسلامى التلاقى على مودة مع الملحدين **« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم ، أو اخوانهم أو عشيرتهم »** فالتناقض هنا يخضع لمبدأ التنافى الكلى ، فانسانية الانسان لا تكتمل الا على هدى الايمان بالله ، ومن لم يؤمن بالله يعتبر فى حكم المتخلى عن انسانيته ، فلا مهادنة ولا مساومة ولا ثناء ، عملا بمبدأ التنافى المطلق ، بين انسان ، وبين حيوان فى مسلاخ انسان .

وعلى هذا فالمودة الحقيقية لا تستقيم الا بين المؤمنين بالله واليوم الاخر ، اما من يحادون الله ، أو من يوادونهم ويمالئونهم ، فهم ليسوا منا ولا نحن منهم ، لأنهم لا يشاركوننا صفة الانسانية .

ولذا نكرر هنا الدعوة من هذا المنطلق الى ضرورة تلاقي وتواد المؤمنين بالله لحماية الانسانية من الدمار .. وذلك لا يتأتى الا بالتآخى بين المسيحية فى صورتها الأصلية ، والاسلام فى الته الأصيل .. والعمل على ازالة رواسب الأحقاد التى كادتها أوروبا للاسلام عبر القرون .. تلك الرواسب التى يتخذها أعداء المؤمنين ذريعة لبذر بذور الكراهية المفتعلة بين المسلمين والمسيحيين .

وحين تدرك أوروبا الغربية المغرقة فى ماديتها ، هذا التوق ، وتعود الى ايمانها بالله وما يحتمه ذلك من مصادقة المسلمين ، وصدق النية فى الاطلاع على جوهر الاسلام ، وحقيقة الحضارة الاسلامية وتفادى التصادم ، نصل الى الرجاء فى مستقبل هذه السيارة .

ان المؤمنين الذين وضع الله فيهم أمانة محاربة الفساد والانحلال الأخلاقى والظلم والطغيان هم أتباع الرسالات الالهية الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام .. فاذا كان اليهود قد حرفوا كلام الله عن مواضعه ، وخانوا مواثيق أنبيائهم ، وأخذتهم العزة بالاثم .. فما بال المؤمنين من مسيحيين ومسلمين يقتتلون ويتصارعون .. اننا كمسلمين ننظر الى المسيحيين فينا ، كأقرب الناس مودة لنا .. وفى هذا أبلغ رد على من يتهم المفاخر باسلاميته ، باثارة ضغينة الدول الغربية المسيحية ، ضد الاسلام والمسلمين . ان ايدينا ممدودة لكل مسيحى صادق المسيحية ، وقلوبنا مفتوحة لهم ، ولانضمر لهم عداء ولا حقدا ، بل مودة ومحبة ورحمة ، أملنا اذا كنا جميعا مخلصين فى ايماننا بالله ان نلتقى فى صعيد واحد ، لنصارع ونصرع طواغيت المادية والالحاد والفساد ، وفى جبهتها الأولى طاغوت الصهيونية البشع .

واذا كان الثابت تاريخيا وواقعيا ، أن الصهيونية العالمية ترمى الى التحكم فى مصائر الانسانية بتدمير المسيحية والاسلام ، وممالأة المذاهب المادية ،

واستغلال الحركات السرية ، فان ذلك يكاد يتم لها فى غياب الايمان بالله فى الشعوب المسيحية والاسلامية .. وغياب الايمان بالله الذى بشر به دهاقنة صهيون ، يتمثل اليوم فى الشعارات الليبرالية والعلمانية والماركسية والراسمالية المنحرفة عن المسيحية التى تؤدى كلها الى هدف واحد هو انكار الالوهية والغاء الوازع الدينى من حياة البشر ، وتحويل الانسان الى آلة ، أو دابة همها العلف والسفاد !!

حبذا لو فهم المبشرون الذين يسعون الى تدمير الاسلام ، معنى الآية الكريمة ((**يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم**)) . اليس المسلمون مؤمنين صادقين يرفعون سيدنا المسيح وأمه العذراء البتول الى أسمى درجات التعظيم ، ويعترفون برسالة رسول المحبة كما يعترفون برسالة رسول المساواة .

فاذا كان رمز الدين المسيحى هو المحبة ، فان رمز الدين الاسلامى هو المساواة .. فالمحبة هى شعار الرحابة والشمول ، والمساواة هى الشعار الذى ترنو اليه البشرية منذ اهتدت الى التعقل ، ولكنها قصرت عن تحقيقه الى اليوم فى أرقى بلاد التمدن والتقدم العلمى .

ويوم تلتقى قلوب المؤمنين فى رحاب المحبة والمساواة تنتفى الالام وتختفى الدموع وتلتئم الجراحات ، ويصبح الانسان الضال الضائع فى متاهات الجاهلية والأثرة ، المنهوم بزينة الدنيا الفانية ، خليفة الله فى الأرض .

٢٠ ـ الاسلام يكفل حرية الفرد فيما يعتقد ، اذ أن الاكراه قد يضمن الظاهر ، أما الباطن فلا سبيل لغير الله عليه . ولذا يجعل قضية الهداية والكفر شأنا من شؤون الله وحده ، لكنه يعمد الى الاقناع العقلى بأسلوب مهذب رفيع ((**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**)) .

والايمان من ثم ، ليس قولا يعلن أو شهادة ينطق بها اللسان ، بل هو ما استقر فى أعماق الضمائر وحنايا النفوس فخالطها ، حتى طهرها ونظفها واقامها على منهاج الحق .. فهو بهذا المفهوم وسيلة وغاية تتحققان فى التطابق التام والانسجام الكلى بين الاعتقاد والسلوك ، فلا مجال لكذب أو دجل او تدليس ، اذ لا يكون الايمان صادقا الا اذا تحقق فى مظهر خارجى هو العمل فى حدود الالتزام الأخلاقى المنبثق من الداخل لا المفروض قسرا من الخارج .

وعلى هذا فالاسلام ليس دعوة مجردة الى الحق منوطة بضمير الفرد ازاء خالقه . بل هو سياسة وتنظيم وتشريع .. هو منهاج عقيدة ومنهاج شريعة لا يقبلان التجزئة والتفريط ، فالعقيدة ممارسة نفسية وتدريب عقلى ، وحضور دائم لذات الله وصفاته فى نفس المؤمن تأمره كل لحظة بالمعروف وتنهاه عن المنكر والبغى والافتئات على أرزاق الآخرين وأرواحهم. والشريعة هى دستور الله الذى لا يقبل التغيير والتبديل والتحوير فى المبادىء الكلية ، لا قانون فرد أو فئة أو حزب أو دولة .. وبهذا يتميز الاسلام عن جميع

الاديان بانه دين ودولة لا يمكن الفصل بينهما ، ولا يمكن الأخذ بجزء والتخلى عن جزء ، فاما ان يؤخذ بكامله واما ان يترك بكامله ، وكل محاولة تبذل للتشكيك فى هذه الحقيقة الربانية هى جزء من التآمر ضد الايمان الحق ، ورسالة الله الخالدة .

ومن عجائب اعجاز هذه الشريعة ، ان كل ثورة سياسية او اجتماعية أو اقتصادية عرفتها الدنيا منذ جاء الاسلام ، تجد الحلول الاجدى والاكرم فى رحبة تلك الشريعة السمحاء ، ذلك ان سبب كل تلك الثورات يتلخص فى مساوىء ثلاث : سوء استغلال النفوذ ، وسوء استغلال الملكية ، وسوء استغلال الثروة وقد عرفت الشريعة الغراء كيف تحسم هذه المساوىء ، فتقف وسطا متميزا بين قطعتين متنافرتين : فوضى الحرية من جهة ، والغاء انسانية الانسان من جهة اخرى ، فقربت النافر ، وادنت المشتط ، فلا سرف ولا تفريط ولا كبت ولا طغيان . واين فى الدنيا عدالة ، واخوة ومساواة ، ومشاركة حقة ، ومحافظة على كرامة الانسان ، تبلغ من السمو والسماحة والشمول ما تبلغه فى الاسلام ؟

فليس كالشريعة الاسلامية دستور يصون حرمة النفس وحرمة المال وحرمة العرض وحرمة المسكن ، وحرمة الشهادة اى العدل ، وحرمة العهد اى الوفاء به وحين يتحقق ذلك يختفى التناقض والحقد والصراع الطبقى ، وتستقيم العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فلا امت ولا اعوجاج .

والمسلمون من ثم اخوة ، بكل ما تعطيه هذه الكلمة من معان .. اخوة فى السراء والضراء .. فى بناء المجتمع وحمايته من الاعداء .. فى المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات .. بعضهم أولياء بعض تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم .. ولا يفرق بينهم لون أو جنس او لغة او قوة او مركز أو جاه أو سلطان ، الا من اتى الله بقلب سليم ..

واذا كان الاسلام يشجب الاكراه فى العقيدة فهو من جهة اخرى لا يتساهل فى الحض على حماية المجتمع الاسلامي من التفكك الداخلى والفتنة والفساد وردة من ارتد بعد ان اهتدى تقية او مكرا .. أو من الغزو الخارجى بالدعوة الى المناجزة وهو الجهاد الذى فرضه الدين فرض كفاية أو فرض عين .

حق الحماية والوقاية للمجتمع من الضعف الداخلى توجب على المؤمنين وجوبا قاطعا محاربة البدع والمبادىء والعقائد الالحادية ، والتشكيك فى ذات الله .

وحق رد العدوان الخارجى يفرض على المؤمنين ان يعيشوا دائما فى حالة تهيؤ واستعداد واستنفار .. شاكى السلاح فى مواجهة المعتدين فلا مهادنة ولا مساومة ولا استسلام .

٢١ — يضع الاسلام الحد القاطع للصراع الذى يقوم فى نفس الفرد بين أمر الله من جهة ، وزينة الحياة الدنيا من جهة أخرى ، فهو يجعل

سلامة المجتمع من مثل هذه النزوات فوق كل اعتبار ، فيخاطب الضعف الانسانى بقوله تعالى : « **ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، احب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره** » ، وبقوله تعالى : « **واذا راوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما . قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة** » .

لقد قررت هذه الآيات الكريمة الحد القاطع للصراع الذى قد يقوم فى نفس الفرد بين مصلحته الخاصة ، ومصلحة الجماعة السائرة على منهاج الله ورسوله . فان غلبت الانانية واستحكمت الأثرة ، هزمت الأمة كما هزمنا .. وان غلبت التقوى والصلاح ، اصبح المجتمع اقوى من ان تناله سهام الاعداء !

فالارادة الحرة التى يقررها الاسلام ويضع لها المبادىء والحدود تستتبع الشعور بالمسئولية الجماعية فى تحقيق المصلحة العامة .

اما فى المجتمعات المادية ، فهدف الفرد تحصيل المنافع الخاصة ولو على حساب الآخرين ، فيعم الطمع ، ويسود الجشع ، وينقسم المجتمع الى طبقات متناحرة متناقضة متعادية ، ولا يمكن ان يصبح مجتمعا لا طبقية فيه ، مهما ارجف المرجفون ، لأن الطبقات المستضعفة ليست حرة الارادة فى اختيار ما تريد ، ورفض ما تكره ، بل هى مضغوطة مسحوقة بلا مشيئة ولا اختيار . والايمان بالله وحده ، ولا شىء غيره ، يعيد للفرد حرية اختياره دون اكراه ويزيل من المجتمع رواسب الاحقاد .

ولذا نرى الانتماء فى المجتمعات العربية اليوم ، هو انتفاع على غير استعداد للتضحية فى سبيل تنمية المجتمع وتماسكه وبقائه ، وحمايته من اعدائه فى الداخل والخارج على السواء ولذا فهو انتماء مهزوز ، يدوم ما دامت النعم ويختفى باختفائها .. مثل هؤلاء هم الذين يسميهم القرآن : المنافقين ، وما أكثرهم حين تصاب الأمة بنكبة تحجزها عن مسارها ، فوظيفتهم حينذاك التشكيك والتثبيط ليسلم لهم ما هم فيه من نعيم مقيم ، يتسللون اليه عبر نكبات امتهم ومآسيها . حتى اذا جد الجد اختفوا فجاة كما ظهروا فجاة كالفقاقيع .. وهم المعنيون بقوله تعالى : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ، ويفسدون فى الأرض . اولئك هم الخاسرون** » .

ومن عجب ان مثال هؤلاء الخاسرين هم الذين يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع ، ويطفون على سطح المستنقع ، ويتحركون على المسرح يمثلون الادوار القذرة التى اختارها لهم اعداء أمتهم .

ولذا يشد الله تعالى فى أمر هؤلاء الخونة الذين يرتزقون بما يصيب امتهم من كوارث ، فيقول تعالى : « **يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم** » فيجعل النفاق فى درجة الكفر .

واعجب ما فى امر الأمم الضائعة والمرتدة ، حينما تصاب بالانهيار والانهزام والتبدد ، ان تقتعد تلك الطبقة من المنافقين ، مراكز القوى المؤثرة

فى المجتمع ، مثلا تعيسـا ، وقدوة سـيئة ، وفيهم العمـلاء والقوادون والمربون ! .. الا ترى الى مراكز القوى فى العالم العربى المهتوك ، يحتلها امثال من ذكرنا يتصدرون للتحكم فى مقدرات الناس ومصير الأمة المغلف بالظـلام !

ان الله جل شـانه يضع المؤمنين — واين هم اليوم ؟ — بين طريقين لا ثالث لهما : اما أن ينهضوا جميعا خفافا وثقالا ، بكامل طاقاتهم وقدراتهم للقاء عدوهم واما أن ينتظروا العذاب فى الآخرة والهوان فى الدنيـا .

فالايمان بالله وحده هو سبيل التحرر من هوى النفس والسـمو عما يذلهـا .

وهو القوة الهائلة التى لا تعرف الا النصر أو الشهادة .

ولقد غاب علينا بعض أحلاس المقاهى من مراهقى المفـكرين المعتزين بالحادهم قولنـا : ان الله قـد تخلى عنا حين تخلينا عنه ، فحسبوا اننا نطلب من الله ان يمدنا بملائكة يقاتلون معنـا ، ولم يستطيعوا ان يرتفعوا الى سمو الادراك بطاقة الايمان كحافز على الاستشهاد . كما عابوا علينا قولنا : ان الجندى الاردنى لم ينسحب من المعركة لجبن او تقاعس ، بل تراجع لنقص فى سلاح المعركة واداة الحرب فانصبت عليه نيران العدو من كل جانب دون ان يملك القدرة على اتقائها ، لأن أمته قد بخلت أن توفر له زاد المعركة وعتاد الحرب ، وتأبت عليه ان يعد للعدو ما أعده العدو له من طائرات تتناوشه من كل اطرافه ، وقنابل نابالم تتسـاقط عليه من السماء .. عابوا علينا اننا لم نقل مثلهم ان الأمة العربية قد انهزمت لأنها لم تكن « اشتراكية » بالقدر الكافى — هذا أسلوبهم — ولم نقل مثلهم : الحمد لله على هـذه الهزيمة ، اذ لو انتصر العرب لكان ذلك انتصـارا للاسـلام !!

وليس يزعم عاقل ان الشجاعة وحدها تكفى فى ميدان المعركة ، او ان الايمان وحده يكفى فى معارك المصـير .. لكن اذا كانت قوة المقاتلين تتمثل فى نوعيتهم لا فى عددهم وكثرتهم ، فان الايمـان هو الحافز الأكبر للاستبسال وحب الموت فى سـبيل الله .. ونحن فى غنى عن التأكيد أن الأمة العـربية لو وضعت قدراتها وطاقاتها ، بل بعض بعضها من أجل المعركة ، وسلحت جيوشها بمعدات الحرب الحديثة ، ووحدت خططهـا وأهدافها ، ولمت شملها وجمعت صـفها ، وازالت التناقضت بين قادتها، ثم اندفعت للقاء عدوها ونفوسها عامرة بالايمان ماكانت بالهزيمة لتكون .

ان خمرة الانتقام أقوى نشوة من خمرة الحب ، كما يقـول « طاغور » لكن القادة العرب ، والساسة العرب ، يفضلون نشوة المخازى على نشوة الثـار !!

لقـد كان التناقض فى هذه الدنيا وسيظل ، بين الايمان بسمو انسانية الانسان الذى هو خليفة الله على الأرض وبين الشرك بالله وتأليه فرد أو

فئة أو حزب أو فريق . وسبيل الاسلام الى معالجة هذا التناقض ، هو الدعوة الملحة بالحكمة والحسنى والموعظة الصادقة والكف عن المباداة بالمناجزة . الا اذا بلغ اخلاف المعتدين حدا لا تدبير معه فيجب حينئذ النهوض لدفع الظلم مهما يكن الثمن « **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سـواء** » .

ان الالتزام الاخلاقى بالقيم الخالدة هو الذى يهدى المؤمنين ، فلا يصدرون عن انفعال من الكراهية والحقـد ، انما يصدرون عن المبـادىء الجديرة بالانسان : مبدأ العدل لذاته ، ومبدأ الوفاء لذاته ، ومبدأ المروءة لذاته « **لا يجرمنكم شـنآن قوم على الا تعدلوا . اعدلوا هو اقرب للتقوى** » .. تلك هي صفات المؤمنين ، الترفع عن الخضوع للاهواء والمحافظة على الكرامة الانسانية ، وليس السلم عندهم تمهيدا لغدر او خيانة ، الا اذا اعتدى عليهم . وليست الحرب وسيلة للتوسع المادى ، بل لصيانة المبادىء العليا ، والمبادىء السامية ، عملا وتفكيرا .

٢٢ ــ الاسـلام هو الذى أعطى العروبة مضـمونها الفكرى وهويتها الحقيقية ، ولم ترد كلمة العروبة فى أى نص ادبى قبل الاسلام بمعنى الأمة الواحدة .. بل كان الواقع هو واقع العصبية القبلية والانتماء العشائرى .. وجاء الاسلام فمحى تلك العصبيات والعنجهيات ، والمفاخرة بالانسـاب والاحساب ، ونقل تلك القبائل المتنافرة الى وحدة الأمة ، ووحدة الثقافة والتاريخ .. ونقلهم الى وحدة اللغـة بفضل القرآن الكريم ، فما من أمة استطاعت لغتها ان تمتد أربعة عشر قرنا ، بحيث لو بعث ابناء العصور الأولى لفهموا لغة هذا العصر ، وتلك ظاهرة اقتصرت على العربية لاتشاركها فيه أية لغة أخرى على الاطلاق .

٢٣ ــ الدعوة الى الحق ليست سلعة أو حرفة ، بل هى هدف فى ذاتها لا ينبغى اشراك امر آخر مع القيم العليـا التى تصـدر عنها ومن ثم لا مكان للمجاملة والمساومة على حساب الدعوة ، ولا الاستعلاء فى طلبهـا ، ولا جعلها احترافا أو طريقا للكسب وشبهة الاستغلال .. وغاية الجهاد فى الاسلام ، هى رد العدوان وافساح المجال امام المؤمنين لاداء رسالتهم فى الحياة ، فليس الجهاد استعمارا أو غزوا أو توسعا ، بل هو دفاع عن النفس ودفاع عن ممارسة النظام الالهى ، الذى هو الطريق الوحيـد لصيانة المصير الانسانى كله ، وتحقيق العدالة والمساواة والسلام لجميع الشعوب على اختلاف الوانها واجناسها . وكل هدف آخر للجهاد كالحصول على المغانم والاستئثار بالسلطة ، واستغلال الناس ، والاعتداء على حرماتهم وحرياتهم ، يخرج به عن معناه الأصيل .

٢٤ ــ الايمان بالله هو صـفة القوى لا صفة الجبان ، صـفة العاقل لا صفة الجاهل . القوى العاقل المؤمن هو الذى يرسم هدفا مثاليا يندفع اليه كالسهم بشحنة الايمان التى تعطيه القدرة على الاستبسال واحتقـار الموت فى سبيل ما يؤمن به ، اما الجبان الجاهل فالايمان عنده تواكل وتخاذل وتخل عن التكاليف ، وترقب معجزة تنزل من السماء .

ان النصر مقدور بأسبابه ولابد من المعاناة والجهاد لتحقيقه . والايمان بالنصر حركاً لا ركود ، وسلوك اخلاقى ملزم لا استغراق فى وهم . والمؤمن هو الذى يعد للمعركة ما تحتاجه من مقومات الظفر وهى العلم ، وربط الأمور بعللها والظروف بمتطلباتها ، والالمام التام بحقائق الأمور . أما أن نرضى بالواقع على أساس أنه قضاء الله وتدبيره ، فذلك ما يأباه الله . صحيح أن كل حادث هو من تدبير الله ، لكن تدبيره تعالى منوط بعدم التخلى عن أمره بالاستعداد والجهاد ، فاذا لم يتحقق النصر المنشود ، فليس ذلك لخلل فى تدبيره — جل وعلا — بل لخلل فى تدبير الخلق الذين لم يمتثلوا لارادته ولم يؤمنوا به حق الايمان .

٢٥ — اذا كانت الفضيلة هى وسط بين رذيلتين فان الشريعة الاسلامية هى منهاج وسط بين رذائل الراسمالية ورذائل الشيوعية . اما ما جاء فى ميثاق العمل الوطنى فى مصر — بيان ٣٠ مارس من قيمة الحل الاشتراكي وان الاشتراكية العلمية — اى شيوعية ماركس — هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم وان اى منهاج آخر لا يستطيع بالقطع ان يحدث التقدم المنشود .. فهو رأى عجيب مناقض للاسلام مناقضة التنافى الكلى !

النظام السياسي في الإسلام

يقوم النظام السياسي فى الاسلام على أساس الشورى والبيعة .. هذا هو المبدأ الكلي العام ، ويمكن استنباط الكيفية التى تجرى عليها الشورى وتتم بها البيعة ، وفق تطور الزمن واختلاف الظروف .

ومعنى الشورى ، الاقرار بحق كل مواطن فى اختيار ولى الأمر .. ثم حقه فى مناقشته ومحاسبته اذا زل أو ضل .. فاذا اجتهد الحاكم فى غير مورد النص ، كان اجتهاده كاجتهاد بقية العارفين بشئون الشريعة،مقصورا عليه وحده لا يتعداه الى غيره ، ولذا فالشورى مبدأ أساسي للالتزام بطاعة ولى الأمر فيحدود الشريعة،فاذا وقع خلاف فى الاجتهاد بين الحاكم وغيره من العارفين ولأصحاب الخبرة والدراية والاستقراء والاستنباط والاجتهاد ، رد الأمر الى كتاب الله وسنة رسوله ، ثم الى مصادر الشريعة الأخرى من اجماع وقياس فمن خالف عن ذلك ، فهو خارج على الشريعة مناقض لها .

ولذا نظمت الشريعة مثل هذه الحالات العارضة باقامة دواوين الحسبة والمظالم ، الأولى لمراقبة تطبيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والثانية للحكم فيما يقوم بين الرعية وحكامهم من منازعات فى الحقوق العامة والخاصة .

وذلك لا يقوم على مفهوم منح الناس حق الاعتراض فحسب ، بل على مفهوم الايمان بأن الحكم خدمة مجردة للناس والبلاد ، فاذا خرجت عن هذا الوضع الى مزالق الشهوات والشبهات ، أصبحت تحكما وتسلطا وعدوانا ومحادة لله ورسوله .

وحين تتحقق هذه المساواة الفعلية لبنى البشر ، مع احاطتها بالاحترازات الرادعة ، يتعذر بروز الطاغية أو الدكتاتور أو الطبقة التى تشرع وتحكم لمصلحتها دون باقى النـاس .

واذا كان معنى الديمقراطية فى مفهوم الأنظمة الغربية هو : من الشعب وبالشعب والى الشعب ، فمعنى الشورى والبيعة ومراقبة الحكام فى النظام الاسلامى عند التطبيق الفعلى المحكوم بشريعة الله ، أكثر سموا وارتفاعا . اذ أن جميع الناس هنا سواء فى حقهم فى انتخاب ولى أمرهم ، أو فى توكيل من يقوم عنهم بهذا الحق .. مساواة خالصة لا مساواة مزيفة ، مدونة فى الدساتير ، لكنها متعذرة التطبيق .

وولى الأمر فى نظر الاسلام ، فرد من الناس لا يتميز الا باقتداره وارادته على الحكم بما انزل الله ، لا بما يفرضه هو او تقرره طبقة أصحاب المال او طبقة العمال ، او تجمع قوى الشعب العاملة .

هو فرد من غمار الناس اختاروه عن رضي وطواعية ، وحرية ارادة ، له ما لهم جميعا وعليه ما عليهم جميعا ، لا يمثل طبقة ولا حزبا ، ولا يستقل بمتاع ، ولا يحظى بامتياز ، ولا يملك ان يشرع لطبقة او فئة وفق هواها او هواه ، بل يجب عليه وجوبا قاطعا ، ان يحكم بما انزل الله ، فان خرج عن حكم الله ، بطلت ولايته وعاد الأمر الى الناس من جديد ، فلا سلطان للحاكم الا السلطان الذى يستمده من شريعة الله .. ولا دكتاتورية راس المال القائمة على التحيز والربا والاحتكار .. ولا دكتاتورية البروليتاريا القائمة على الكراهية والبغضاء والاحقاد وسحق كرامة الانسان .

وبهذا نجد أن نظام الحكم فى الاسلام هو نظام منفرد متميز متكامل ، لا يماثله اى نظام مستحدث او قديم ، فلا يستساغ القول بأنه نظام ديمقراطى أو اشتراكى ، اذ كيف تصح المقارنة بين نظام كامل لا نقص فيه ، من صنع الله ، وانظمة من صنع البشر تحمل بذور الضعف الانسانى .

والدين فى المفهوم الاسلامى ـ كما يقول سيد قطب ـ مرادف لكلمة النظام فى الاصطلاحات الحديثة ، مع شمول المدلول للعقيدة فى الضمير ، والخلق فى السلوك ، والتشريع فى المجتمع ، فلا يقبل من احد أو فئة أو حزب ادعاء حق الشرائع والأنظمة الأساسية الكلية ، لأن هذا الحق لله وحده دون سـواه .

والدولة فى المفهوم الاسلامى ، جهاز يكفل تنظيم المجتمع ، وحمايته ، وتوزيع الأدوار على افراد ليقوم كل واحد بما يقتضيه هذا التنظيم ، بما يترتب له من حقوق ، وما يتوجب عليه من واجبـات فى حـدود المبادىء الانسـانية المنبثقة من المثل والقيم العليـا الخالدة البـاقية وهى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتمـاعية ، وتحقيق الكفاية والمساواة لجميع أفراد الشعب دون تمييز أو تفريق ، وهذه الشروط مؤكدة مقررة لا يمكن الترخص فيها فى الشريعة الاسلامية .. ولا يمكن توفر هذه الشروط الا فى مجتمع اسلامى مرد أمره الى القانون الالهى ، لا الى القوانين الوضعية التى تشرع فى حقيقة الأمر ، لمصلحة فئة او طبقة على حساب آلام بقيـة النـاس .

فالحرية الفردية فى الدولة الاسلامية ، تتمثل فى أسمى معانيها ، فى حق الشورى المتكافئة اى حق انتخاب ولى الأمر ، وفى كفالة حرية الراى والاعتقاد .. فلا تعارض بين المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية ، ولا تناقض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع . ووجود الحاكم لا يعفى الفرد من ممارسة مسئولياته فى مراقبة تطبيق شريعة الله . فاذا لم ينفذ الحاكم ما أنزل الله من شريعة او لم يحمل تكاليف الدعوة بامانة واخلاص ، فقـد بطلت بيعته ووجب خلعه .. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهـد الله ، يعمل فى

عباد الله بالاثم والعدوان ، كان على الله ان يدخله مدخله » . وقوله : « أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر » . وقوله : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقوله : « ان الناس اذا رأوا المنكر ولم يغيروه اوشك ان يعمهم الله ببلائه » .

ولسائل ان يسال هنا : كيف يمكن تحقق مراقبة الحكام وادانتهم ؟ والجواب على ذلك ان نظام الحكم فى الاسلام ، قد حدد الطريق الى ذلك بواسطة « محكمة المظالم » التى اقامها الاسلام لتنظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات ضد الحاكم واجهزة الدولة الأخرى ، اذا كانت القضايا تتعلق بأعمالهم فى الحكم ، ولتفصل فى تفسير نصوص التشريع ، والقرارات التى تضعها الحكومة .. ولهـا صلاحية الالغاء المطلق الذى لا يخضع لمراجعة ، اذا كان مخالفا للشريعة .. وتنظر كذلك وهذا هو الأهم فى مخالفات رئيس الدولة للشرع ، وفى تطبيقه الأحكام الشرعية ، ولهـا صلاحية عزله دون ان يكون له صلاحية عزلها ، لاستتباب الأمر على وجهه الصحيح ، وللحد من نزوات الحاكمين باساءة التصرف فى الرعية .. وهذا ما لم تعرفه أرقى الأنظمة الحديثة الا فى هذا القرن .

ولا خلاف فى أن الحاكم اذا أخل بشرع الله استحق العزل عملا بالآية الكريمة : « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول** » اى ردوه الى حكم الله ورسوله . وأكثر الفقهاء على ان المراد بالتنازع هنـا هو تنازع المؤمنين مع أولى الأمر .

والى جوار « محكمة المظالم » تقوم « الحسبة » ، ووظيفة المحتسب ان يمنع الغش ويحمل الناس على الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، تحقيقا لقول الرسول : « من غش ليس منـا » باطلاق كلمة « الغش » لتشمل المسلمين وغيرهم ومدلول هذا الاطلاق ان « الغاش » قـد تجرد عن صفته الانسانية ، فخرج من الجماعة وخرج عليها . ومجمل عمل المحتسب ، ان يحمل الناس على آداب الاسلام .

ذلك لأن نظام الحكم فى الاسلام يعطى الوسيلة اهمية الغاية ، فالوسيلة الى الحرام حرام ، والوسيلة الى الواجب واجبة ، والأصل النظر فى مآلات الأفعال وما تنتهى اليه ، فان كانت مآلاتها فاسدة كانت الأفعال المؤدية اليها فاسدة . مع ان انظمة الحكم فى أوروبا وامريكا ما زالت تقوم على « المكيافيلية » وهى ان الغاية تبرر الواسطة ، مهما اتسمت الوسـيلة بالدناءة والا اخلاقية والاجرام وليست فضيحة « ووترجيت » عنا ببعيدة !

ومن مقتضى ان الرسالة الاسلامية هى للناس كافة ، فان الدولة الاسلامية ليست دولة خاصة لجنس او عرق او شعب أو امة أو فريق من النـاس فى زمان معين ومكان جغرافى خاص ، بل هى ذات طابع أممى عالمى ، واذا كانت التربية القومية فى الدول الغربية وغيرها ترمى الى ايجاد المواطن الصالح ، فان التربية الاسلامية ترمى الى ايجاد الانسان الصالح ، على اطلاق غير مقيد بزمان أو مكان .

ولذا فان المبدأ الذى يدور حوله نظام الحكم فى الاسلام هو المساواة المطلقة بين الناس فى الاعتبار الانسانى ، ووضعهم فى مواجهة مسئولياتهم الفردية والجماعية موضع التماثل التام ، فلا اعتداء ولا تمايز ولا افتئات .

فنظام الحكم فى الاسلام فوق القومية التى تدعو الى العصبية الجاهلية ، وفوق التكتل على اساس روابط العرق والعنصر واللون ، وفوق الرأسمالية والشيوعية وجميع أنواع وأصناف الايديولوجيات الأخرى .

وليست الدولة الاسلامية دولة الاكثرية أو الاقلية او البروليتاريا أو النبلاء ولا حكومة الدكتاتوريين والعسكريين الذين يقفزون الى الحكم بدبابة وعشرة جنود وبيان مذاع . .بل هى حكومة شريعة الله ، وكونها كذلك لا يعنى فى المفهوم العصرى « الحكم الثيوقراطى » حكم الكهنوت والاكليروس ، فليس فى الاسلام طبقة رجال دين ، وليس الاسلام حرفة أو مهنة تفرض فرضا على الناس .. انها شريعة الله لكافة الناس .. والمجتهد فى الشريعة ملزم باجتهاده وتطبيق كتاب الله يخضع للخطأ والصواب ، ولذا وجبت الشورى ، ووجب الاجتهاد فلا عصمة لمخلوق فى تطبيق كتاب الله ، بل تطبيقه يخضع للنقاش والحوار ، وقياس الأمور بنظائرها ، وانزالها منازلها . وحين تنتفى العصبة وينتفى الاحتكار للدين فالحكم الاسلامى ليس حكما « ثيوقراطيا الهيا » وانما هو حكم بشرى انسانى مستمد من الشريعة الواضحة المبادىء والأهداف ، المنسجمة مع العقل والمنطق والتقدم العلمى والارتقاء الحضارى .

هى دولة انسانية عالمية اخلاقية ليبرالية ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، لأنها تمحو جميع الفوارق ، وتأخذ بالاعتبار الانسانى وحده ، فلا يتميز فرد عن فرد بالجاه أو المال أو العائلة أو النفوذ ، بل يتميز بمقدار ما يستطيع ان يقدمه للمجتمع من خدمات تغنى القيم السامية التى يستمد منها المجتمع قوته ومتانته وتلاحمه ، فالتمايز هو فى الصلاح والاصلاح لا فى الفساد والافساد . هو فى الصدق والاخلاص ، لا فى الجهل والنفاق كما هو واقع الأمة الاسلامية وفيها الشعوب العربية ، اليوم .

وهنا يتبدى لنا الفرق بين الالتزام والالزام .. فالتزام الفرد فى المجتمع المسلم هو دافع ذاتى وحضور دائم لحقيقة الألوهية فى نفس الانسان ، والالزام هو ان يحمل الفرد بقوة خارجية على ما يريد وما لا يريد ، وبممارسة هذا الالتزام الذاتى يصبح السلوك الاخلاقى طابعا عاما يؤدى بمشيئة حرة ، وكل عمل يقوم به الانسان منشأه من الايمان بانفراده تعالى بالألوهية والحاكمية هو قوة دافعة لا قوة مثبطة ، والتوكل على الله يتنافى مع التواكل والخمول لأنه حافز على مزيد من العمل الصالح ، وتحقيق أمر الله فى السعى المتواصل لاكتناه أسرار الكون ، وتعزيز كرامة الانسان ، وحماية المثل العليا فى نفس الفرد والمجتمع على السواء .. وهو حافز لا يقع تحت طائلة المغريات ولا يخضع لحكم الضرورات بل يخضع لأمر الله وحده ، والرضى بقضائه .

والفرق بين الاسلام والنظم المعاصرة ، ان الولاء فى الاسلام هو لله وحده ، بينما الولاء فى النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية ، هو للطاغية أو الدكتاتورية أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدى أو الايديولوجية المتسلطة ، ولذا فهو

ولاء اكراه وضغط وارهاب فكرى وقهر بوليسي ، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والاخوة .. فالمعدة والفرج فى الأنظمة منتحلة التقدمية هى مفتاح الطاعة والانتماء ، ليس العقل ولا كرامة الانسان ، واحتكار الجاه والسلطة والمـــال بالباطل هي الوسيلة وهى الغاية ، لا خدمة المجتمع وصـــيانة المصـــير الانسانى !

وعلى هذا تكون سلطة الحكم فى الاسلام سلطة خلقية لا سلطة ارهاب واستغلال ومخابرات . ومهمتها تذكير النـــاس ، واخذهم باحكام الشريعة بلا هوادة ولا اعتساف .. وكل من خرج عن مجال هذا الالتزام يجب ان يرد فى الحال الى أوامر الله ونواهيه . ويكون الشـــعار الذى يميز المؤمن فى المجتمع الاسلامى هو المسارعة الى القبول والرضى والطاعة والصـــدوع بالأوامر المتصلة بالايمان به ، بينما شعار المنافق أو الدهرى أو المـعادى ، اعلان القبول رهبة من سيف مصلت ، أو رغبة فى متاع رخيص ، فاذا لم يتحقق له من القبول والطاعة نفع مادى انصرف عنه وتملص منه حين تسنح الظروف .

والصراعات الايديولوجية التى تمزق الشعوب العربية اليوم ، لا تؤمن بالله ، فلا تؤمن من ثم بقيم خالدة ومبادىء ثابتة يرد اليها امر المتصارعين ، ليعرف الكاذب من الصادق والمخطىء من المصيب ، فكلهم خراصون كذابون . بينما الايمان بالله ، يوجب على المؤمنين اذا تنازعوا فى امر ان يردوه الى الله ورسوله .. ان يعيدوه الى دستوره الاساسي وهو الدين ، دفعا للفرقة وصونا لوحدة الأمة وتضامنها .. وهذا هو عمل ولى الأمر الذى يجب أن يكون هو ذاته قدوة صالحة نقية نظيفة ، حتى يملك القدرة على اعادة الأفراد الى الرشد ليعود أمر المجتمع الى سداد .

والالتزام الأخلاقى للحاكم وللمواطن نابع — كما قلنـــا — من الحرية والاختيار .. والحقوق والواجبات المتقابلة هى انعكاس للالتزام الأخلاقى الذى يفرضه الفرد المؤمن على نفسه باتباع منهج الاسلام عن حرية واختيار ، وليس وجوبا عليه من غيره بالتسلط والاكراه .. وحين يتعلق الأمر بمصلحة الجماعة تنتهى حدود تلك الحرية وذلك الاختيار ، ويعتبر الخارج على مصلحة الأمة خارجا على منهاجها ومجتمعها وخيرها وتكافلها ، خارجا على النظام العـــام ، يجب ردعه وتعزيره واعادته الى السبيل القويم .

ولذا فان قوله تعالى : ((**يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم**)) لا يعنى اطاعة ولى الأمر طاعة عمياء ، لأن طاعة الله ضرورة لبقاء المجتمع الاسلامى ، وطاعة الرسول فيما صح عنه من قول أو عمل ضرورة لبقاء ذلك المجتمع ، اما ولى الأمر فطاعته منوطة ، بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، فاذا خرج عن ذلك فبيعته منقوضة وطاعته مرفوضة حتى يفىء الى أمر الله ، ومعيار سلوكه وعمله وتصرفه ان نرد ذلك الى الله ورسوله فان اتفق مع شريعة الله وسنة الرسول ، وجبت طاعته دون نزاع ، وان خرج باجتهاده الشخصى المغلف بالغرض والهوى فهو اجتهاد الخارج على المنهاج القـــويم .

ذلك لأن الاختلاف فى الرأى طبيعة بشرية .. والتفكير الانســـانى يختلف تبعا لمؤثرات البيئة والتنشئة والتوجيه .. ولذا كان كتاب الله وسنة رسوله

هما الفيصل فى حسم النزاع بين آراء المؤمنين واجتهاداتهم سواء اكانوا حكاما أم مواطنين !

وعلى هذا فان مقولة : « ان المجتهد الذى يصيب له اجران والذى يخطىء له اجر واحد » لا يصح ان تؤخذ على اطلاقها .. اذ ان هدف الاجتهاد يجب أن يكون البحث عن الحقيقة من مصادرها الأصلية ، وليس الخصومة واللجاج ، فمن جاء برأى يخالف تلك المصـــادر لا يكون مجتهدا ، بل يكون رافضا ، ولا يصيب به اجرا او اجرين بل يصيب الذلة والمهانة ، لمحاولته تبرير انحرافه عن النظام العـــام .

ومثل هؤلاء بلاء على المجتمع ، ولذا فان ضرورة تلاحم القوة المعنوية ، توجب مناهضة المنافقين والمرجفين والحاقدين والمزورين والمزيفين ومثيرى الفتن فى الداخل ، حتى يسلم المجتمع من شوائب الشائعات والاكاذيب والحرب النفسية والشعارات المجلوبة التى تمزق شمله وتبدد قواه .

ونعود لنزيد الأمر ايضاحا فنؤكد ان الحكم فى نظر الاسلام يقوم على مبدأ الالتزام الذاتى المنبعث من الايمان بالله ، لا على سلطة خارجية قاهرة لارادة الأفراد وحرياتهم . فايمان المؤمن بالله ، هو مصدر الالزام وهو مصدر الطاعة اما القوانين الوضعية فتقوم على مبدأ الالزام الجبرى . ولذا فالفرد فى المجتمعات المادية قل ما يلزم نفسه بالطاعة عن مشيئة واختيار ، بل هو يسعى جهده للتملص من رقابة القانون الوضعى . وعلى هذا يصح القول بان الدولة فى الاسلام هى دولة اخلاقية ، بينما هى فى انظمة الحكم الأخرى دولة بوليس ومخابرات ورقابة فاحشة على حريات الأفراد ، ولذا كان عمل الحاكم فى النظام الاسلامى مشقة فادحة وتكاليف كثيرة ، ، فلا يقبل عليه من يقبل الا من وجد فى نفسه القدرة على الخدمة العامة ، فى حيطة وحذر وامتلاء بالمسئولية الخطيرة التى تنأى بصاحبها عن مفادح التفاخر والعنفوان ، أو التجبر والاستعلاء ، او هوى النفس وهوان الضمير .

والنظام الاسلامى يضع الحلول الحاسمة للامراض الاجتماعية وللجرائم الاجتمـــاعية .

فالامراض الاجتماعية التى تتلخص فى ســـوء استعمال النفوذ وســـوء استعمال المال وسوء استغلال الثروة القومية ، وتمزق المجتمع الى فئات متصارعة بسبب هذه المساوىء يواجهها الاسلام مواجهة صارمة .. بالتربية والتوجيه لتمكين الوازع الدينى والالتزام الأخلاقى فى نفوس المواطنين ، فاذا شذ الأمر من هنا أو هناك تدخلت الدولة لتحمى النظام العام ، وتضع كل شأن من شئون المجتمع فى مكانه الصحيح .. كما سيأتيك بيانه غير بعيد .

اما الجرائم الاجتماعية التى تتلخص فى الاعتداء على حرمات العرض ، أو المـــال أو النفس أو المعتقد ، فان كل واحدة منها تشكل اعتداء على المجتمع كله وليس على فرد بذاته ، اذ انهـــا اعتداء على الروابط التى تحفظ للمجتمع مقوماته ، ولذا كان كل منها فى نظر القرآن الكريم جريمة اجتماعية لا جريمة فردية ، ولخطورة هذه الجرائم على سلامة المجتمع وامنه ، جاء

القرآن بتحديد عقوبات رادعة لهـــا ، ولم يدع الجزاء عليها محلا لتقدير الانسان فى اى وقت واى مكان ، فحدد عقوبة جريمة الزنا وهي الاعتداء على العرض ، وجريمة السرقة وهى الاعتداء على المال ، وجريمة القتـــل وهي الاعتـــداء على النفس وجـــريمة الشرك وهى الاعتـــداء على العقيـــدة. والايمان أو ما يسمى اليوم بالنظام العام . وسنفصل القول فى هـــذه الحدود فى الفصول التالية .

وغنى عن الذكر ان تواجـــد المجتمع الاســـلامى لا يتحقق الا بالتربية الاسلامية فى الاسرة والمدرسة ، التى تغرس فى نفوس الأفراد منذ الصغر اخلاقية السلوك والايمان بالله عن طريق دراسة العقيدة والشريعة دراسة موضوعية تنسجم مع المناهج العلمية الحديثة . وترســـخ فى عقولهم معنى الكرامة الانســـانية بالمواءمة بين الحرص على الحرمة الفردية والحـــرمة الجماعية ، وبالمواءمة بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، فى اطار الشريعة العظيمة ، فلا يجور جانب على جانب ، ولا يفتئت فريق على فريق ، بل تكافل وتضامن وتوازن وانســـجام .. وتبذر فى أرواح الأفراد الحس باليقظة الدائمة والشعور بالمسئولية الجماعية ، والاستعداد فى كل لحظة للدفاع عن المجتمع الاسلامى بالأموال والارواح ، وحماية مبادئه واهدافه التى ترسم للبشرية الصراط المستقيم ، فيتكون عقل الطفل فى نطاق تصور يقينى ان المجتمع الاسلامى هو نواة المجتمع الانسانى الواحد والحضارة البشرية الواحـــدة .

ان الفرد الصالح لا يستطيع تحقيق نفسه والغاية من وجوده الا فى مجتمع صالح ، والمجتمع الصالح لا يمكن ان يقوم الا فى النظام الاسلامى ، الذى يضع كل فرد فى مكانه الصحيح .

والبديهية الأولى لوجود الفرد الصالح هى التربية الصالحة منذ نشـــاته فى احضـــان والديه الى التدرج فى مراقى التدريس من دور الحضـــانة الى الجـــامعة .

والتربية الصالحة هى التربية الاسلامية ، وحين نقول التربية الاسلامية فاننا نعنى التربية الانسانية .. واعتقد جازما اننا لو استطعنا فى الدول العربية أن نجمع بين العلم الغربى والأخلاق الدينية ، لاستطعنا من خلال هذا المزاج المتناغم فى صورته الأسلبة ان نقـــدم للعالم كله المثل الاعلى فى التربية ، ولغسلنا عفن العقول وضغن النفوس ورواسب العصبية ضـــد الاسلام من قلوب ابنائه المنحرفين واعدائه الموتورين ، ولارسينا للبشرية القواعد المضيئة فى محق الفساد والالحاد ، من وجه هذه الدنيـــا البائسة التى يسمونها سيارة الدموع .

واى أب فى الدنيا يأنف ان يربى ابناءه على مبادىء التربية الاسلامية التى يمكن تلخيصها فى الأسس التالية :

١ ـــ ضبط النزعات الفطرية وتنظيمها بدل كبتها وتشويهها ، لاستنقاذ اطفالنا منذ الصغر من مساوىء الاضطرابات العصبية والنفسية .

٢ ــ تعويد الطفل منذ الصغر على الايثار والمحبة والتعاون اختيارا وتطوعا ، لا قمعا وتقريعا ، وتنظيف مشاعره الغضة من نزعات الطمع والجشع ، والخوف والفزع .

٣ ــ تنشئته منذ الصغر على الايمان بالله ومحبة الله ، والاستحياء من الله ، ومخافة الله ، فى كل قول أو عمل وسلوك ، فلا يقارف منكرا ولا يهيم برذيلة !

٤ ــ اذا استقر الايمان بالله فى نفسه ، سهل علينا ان نزرع فيها الانفة والعزة والكرامة الانسانية التى تأبى ان تتضع لارادة بشر مهما علا اذا خالفت ارادة الله .

٥ ــ نعلمه كيف يكون فردا صالحا فى مجتمع صالح له حقوق وعليه واجبات متكافئة متعادلة فى ضوء العدالة المطلقة ، والمساواة المطلقة والفرص المتاحة للجميع .

٦ ــ نعوده كيف يرفض الظلم ، سواء أكان هذا الظلم من الداخل أو من الخارج . بتملك القدرة الذهنية والروحية على مقارعة النفس ، والجهاد فى سبيل الوطن والأرض والمقدسات .

غير ان هذه المبادىء لا تقوم ولا تستقيم ولا تطبق الا فى ظل المجتمع الاسلامى والنظام الاسلامى..

اما انظمتنا الحالية ببرامجها التعليمية التى صاغها لنا الاستعمار ، فتعمل بوسائلها الظاهرة والخفية على تضليل اطفالنا وتجهيلهم بحقيقة هويتهم واصولهم الحضارية وينابيعهم الروحية ، وتهيئتهم للافتتان بمباذل الأخلاق الآتية الينا من وراء البحار . فينشأون بالتبعية هيبين ، عبثيين ، رفضيين لا يرتبطون بأرض ولا يؤمنون بالله .

والانباء المثيرة المبنية على الاحصاءات الدقيقة ، تحمل الينا كل يوم صورا من الدمار الخلقى الذى اصاب أجيالنا القادمة التى نعدها لتكون جيل النصر.

فقد كنت اقرأ بالامس ، استفتاء قامت به مجلة فرنسية فى أوساط الطلبة الجامعيين فى بيروت ، اعترف فيه ٢٥٪ من الطلاب والطالبات انهم يشجعون تعاطى المخدرات وحرية الحب !

ولا ابعد بك ، بل ارجو ان تنظر معى فى صور شبابنا الرافض العابث بأزيائهم المرذولة ، وشعورهم القذرة الطويلة !! هل ترى يستطيع هؤلاء المخنثون ان يكونوا جيل النصر ؟

ذاك هو السقوط الخلقى الذى بهرنا فى حضارة الغرب ، فاستغنينا به عن طلب وجه تلك الحضارة المضىء فى العلم والمعرفة ، واكتفينا من الاحساس

الوطنى والانتماء القومى ، بالتظاهرات والهتافات والاضرابات وهجر مقاعد الدرس ، والدعوة الى الهدم والتدمير !

والمقارنة مع اعدائنا فى هذا المجال شيء محزن حقا .

البرامج التعليمية لليهود تصنعها لجان فنية متخصصة فى علم النفس والتربية الاجتماعية والدينية ، بينما البرامج التعليمية عندنا من بقايا سخائم الاستعمار وما استجد منها وضعه انصاف او ارباع مثقفين همهم الكسب المادى لا المصلحة العامة ، ولا الصدق والاخلاص .

اول كلمة يتعلمها الطفل اليهودى فى دور الحضانة « اورشليم الحبيبة » واول فعل يصب فى ذهنه ، فعل : قتل يقتل . اما عندنا فاول كلمة ينطق بها اطفالنا فى دور الحضانة : « راس روس ودار دور » وليلى والذئب ، واول فعل نصبه فى اذهانهم : ضرب زيد عمرا .. وما زال يضربه منذ مئات السنين وعمرو المسكين الذليل ، لا يملك الا التضرع والشكوى والاستخذاء !

وحين يشب اطفالهم يملأون نفوسهم وعقولهم بخرافات التوراة والتلمود ، ويحفظونهم اقوال حكماء صهيون وانبيائها .. اما نحن فحين يشب اطفالنا نعلمهم ان المثل الاعلى فى الايثار التضحية هى « فلورنس نايتنجيل » كأنما تاريخنا قد عقم عن تقديم مثل واحد للتضحية والايثار .. ونقول لهم ان صلاح الدين الأيوبى وخالد بن الوليد بطلان عربيان ، خشية أن نوصم بالتخلف والرجعية اذا قلنا انهما بطلان اسلاميان .

وحين يكبر اطفالهم يدرسون بدقة وتفصيل واحكام تاريخ الشعب الاسرائيلى شعب الله المختار على الأرض . وان التعاليم التى جاء بهـا انبياء اسرائيل ، هى التى وحدت الشعب اليهودى بعد الفى سنة من الشتات ، واعادته الى ارض المعـاد !

اما حين يكبر اطفالنا فنعلمهم بطولات فرسان اوروبا فى القرون الوسطى ومبادىء الثورة الفرنسية وشرعة حقوق الانسان ، ونستحى ان نقول لهم ان تلك المبادىء والحقوق ، عرفها الاسلام وشرعها فى اعلى صورها واسمى مراتبها ، قبل ان تعرفها فرنسا او هيئة الأمم المتحدة باثنى عشر قرنا او تزيد .

وحين يذهب شبابهم الى الجامعات ، يستمرون فى تعميق تعاليم دينهم ، وامجاد تاريخهم فى دروس يومية لا هوادة فيهـا .. ويذهب شـبابنا الى الجامعات بعد أن ينسلخوا عن حقيقة هويتهم ، وجوهر دينهم وعظمة تراثهم وينتقل اليهم بالعدوى والايحـاء حقد اساتذتهم فى الجامعات الأوروبيـة والأمريكية على العروبة والاســلام .

ولست اقول هذا تجنيا او تحاملا أو افتراء .. بل اضرب لك الأمثال من تجربتى الحسية مع اطفالى فى الصفوف الابتدائية .

يقرأ ابنى مثلا فى مقرر القراءة العربية للصف الخامس الابتدائى : « انا اردنى عربى لا اقبل ضيما ولا أنام على ثار ، وهكذا خلقت » ويجيء المساء فنسمع

طفلى فى المذياع ويرى على شاشة الصور المرئية ما يرتكبه اليهود من اغتصاب لأرضنا وتدنيس لمقدساتنا ، فيسألنى : ما دمت عربيا لا أنام على ثأر فكيف تقبل امتى وهى مائة مليون هذ العـــار ؟

ويقـــرأ فى كتابه : « كانت معركة حطين بداية هزيمـــة الفرنج الغاصبين وطردهم من أرض العرب . والقدس ثغر من ثغور المسلمين العظيمة يتجـــلى تصميم أهلها فى الثبات فيها والدفاع عنها بما ينشئونه يوميـــا من مشروعات اقتصادية وعمرانية تدل على الثقة والاطمئنان والعزم والتصميم » .

ويتساءل الطفل : اين القدس اليوم يا ابى ؟ .. واين اهلها ، وهل بقى لها أهل .. ؟ ولماذا يكذبون على .. ؟

ويريد المؤلفون تعريف الحرية فلا يجدون أمامهم الا قصة الهرة التى استيقظ صاحبها على صوتها تمـــوء بجانب فراشه ، فعرف أنهـــا تريد الانطلاق الى الخارج .. وهذه هى الحرية !! أما تحرير الوطن المغتصب وانقاذ المقدسات المسلوبة ، وحرية الرأى والفكر فى وجه طغيان الحكام الفاسدين ، فلا تدخل فى تعريف الحرية ! والحق مع ابنى حين قال لى : ان الهرة أعقل منا يا أبى ،لأنها تموء على الأقل،أما نحن فنكاد حتى أن نفقد القدرة على الاحساس بالاصفاد التى تكبلنا فى داخل الحدود وخارجها ! .

واذا اراد الأساتذة الـــكرام مؤلفو البرامج أن يعلموا أطفالنا معنى الوفاء استشهدوا بالكلاب !

ويقرأ الطفل فى كتابه مقالا مطولا عن هيئة الأمم المتحدة يطرى أعمالهـــا فى المحافظة على الأمن والسلام والحرية والعدالة فى العالم .. ثم يسمع أباه فى المساء يناقش أصدقاءه فى اتهام الهيئة بالعجز والافلاس ازاء تحدى اسرائيل لقراراتها التى تجاوزت المئات فى موضوع قضيتنا ، بل استهزائها بها .

ويقرأ الطفل فى كتابه مقالا آخر عنوانه « بوابة الدموع.» جاء فيه :« نشرت الصحف الأردنية أسماء القادمين من المنطقة المحتلة لحضور احتفالات عيـــد الميلاد المجيد ، وذهب والدان ينتظران ابنتهما التى تركاها فى الناصرة صغيره اثناء الهجرة الأولى ! فلم يستطيعا التعرف عليها لأنها قد كبرت وأصبحت فى التاسعة عشرة من عمرها . ولمـــا عرفاها اقبلا يعانقانها وجلسوا جميعـــا يبكون وينتحبون ، وتجمع الناس حولهم يستطلعون الخبر » . فيسألنى ابنى : لمـــاذا يا أبى نبكى ونحن أمة كبيرة ذات طاقات هائلة وقوى بشرية عظيمة ؟ ولماذا لا نقاتل بدل البكاء ! .

ويقرأ ابنى فى كتابه وصف رحلة من اربد الى نابلس فيسأل : ما هى واين هى نابلس ؟ .. ولماذا لااستطيع ان اقوم برحلة اليها اليوم ؟ .

وهكذا نكذب على أطفالنا ، ونبث فى نفوسهم روح اليأس والانهزام ونتفادى أن نبصرهم بحقيقة المأساة التى تطحن أمتهم دون هوادة .. فنعدهم لمواجهتها بنفوس مؤمنة وعقول مستنيرة ، ونكتفى باجترار قصص مهترئة مترهلة نحشو

بها عقولهم ، ونتحاشى بكل وسيلة تلقينهم معنى الجهاد ، ومعنى الثـــأر والاستشهاد،ومعجزة الرسالة الاسلامية التى أعطتللأمة العربيةمضمونها الروحى واصالتها الخلقية ، فانداحت فى الآفاق خلال سنوات قليلة .. فهذا عقبة بن نافع يخوض بجواده مياه الأطلسى ، وذاك محمد بن القاسم يطــرق ابواب الصين .

ان التربية الاسلامية لا تتحقق الا فى مجتمع اسلامى ، وفى ظل نظام اسلامى على أساس قاعدة فكرية واحدة وخلقية حضارية واحدة .. وحين يعتقد الفرد انه مستخلف عن الله فى الارض،وأن كرامته الانسانية مستمدة من كرامة الله، يدافع بلحمه وروحه عن حقوقه التى اقرتها له شرعة الله ، ويؤدى واجباته بحرية واختيار ، فيرفض العدوان ، ويوطن نفسه على معركة المصـــير كما يأبى أن يخضع لسلطان جائـــر ، يحكم فى رقاب الناس رهطـــا من الفساق والمجان ، يبتزون عواطف الجمـــاهير ويساومون على مقدراتهم ويسومونهم سوء العذاب ويفرطون فى الحق العربى والأرض العربية والمقدسات الدينية فى سبيل نعمة متاحة مغموسة فى الهوان ، ويعدونهم ترهيبا وترغيبا للرضوخ لمنطق الذل والاستسلام .

أما الاستغلال الذى يتنادون للقضاء عليه ، ومجتمع الكفاية والعدل الذى يتبارون فى ادعاء تحقيقه ، فلفظ فارغ وشعارات خلابة لان القومة على شؤون الأمة غير مهيئين بحكم تكوينهم العقلى والنفسى والخلقى لممارستها وتطبيقها .. فقد سبقت كلمة ربك أنها لا يمكن أن تصبح حقيقة ملموسة الا فى ظل النظام الاســـلامى .

ذلك لأن الأساس الذى بنى عليه الرسول وخلفاؤه اختيار الولاة والقضاة والحكام وقادة الجيوش هو رعاية مصلحة الجماعة والاستبسال فى الدفاع عنها ، دون تحيز أو موادة لصداقة او قرابة . قال صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شـــيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منـــه للمسلمين فقد خان الله ورسوله والمسلمين » وليس المراد بالصلاح التقوى والخلق فحسب ، بل المراد اضافة الى ذلك الصلاحية والجدارة والاستحقاق لعبء الوظيفة وتكاليف المسؤولية ولو اقتضى الأمر اسناد بعض شؤون الدولة الهامة الى الذميين ، فقد ولى عمر بن الخطاب ، النصارى ادارة الدواوين لعلمهم بها ، وولاهم معاوية مصالح الدولة الهامة فعهـــد الى « سرجون بن منصور » بادارة الأموال وهى من أهم مراكز الدولة .. وشعار ولاة الامور أن الجنة قد حفت بالمكاره والنار قد حفت بالشهوات .. وان الله يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمراكزهم وأن جور الراعى هلاك للرعية ، واستعانتـــه بغير اهل الثقة والخير هلاك للعامة .

فالرسول الأعظم يقول : « اذا أراد الله بقوم خيرا استعمل عليهم الحكماء وجعل اموالهم فى ايدى السمحاء ، واذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السفهاء وجعل أموالهم فى ايدى البخلاء » « وان اشرف الناس امام عادل ، وأوغد الناس امام جائر » فانظر يا رسول الله هل ترى الا وغدا أو سفيها ؟.

وكان عمر بن الخطاب يقول لعماله : « اننى لم ابعثكم جبابرة ولكنى بعثتكم ائمة ، لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

وكان من تولى من أمور المسلمين شيئا يخاصم نفسه خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، ويسأل الله دائما أن لا يكله فى شىء من أمره الى نفسه .

فقد قال رجل لعمر : « اتق الله يا عمر ، واكثر عليه ، فقالوا له : اسكت فقد اكثرت على أمير المؤمنين فقال عمر : دعوه ، لا خير فيهم ان لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها منهم » .

فالحكم فى النظام الاسلامى أمانة ، المفرط بها كالمفرط بشرفه وعرضه .. وحقيقة الانسان انما تعرف من سلوكه وطرائق سعيه فى مرضاة الله ، وخير الناس لا من تعبد وتزهد وتهجد واعتزل ، بل خيرهم من رعى مصالح الناس فى حدود شريعة الله ، لا يخاف لومة لائم ، ولا يخاف منه جور فى حكم أن حكم. فلقد كان الرسول الأعظم صلوات الله عليه يقول : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا . لكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » .

ويقول على بن ابى طالب كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يرجع اليهم الغالى ويلحق بهم التالى » .

والله تعالى يقول فى محكم كتابه : « **وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** » فنظام الحكم فى الاسلام هو النظام الوسط ، بين غباء اليمين المتطرف ، وجهل اليسار المتعجرف ، ولو عرف الناس حقيقة الاسلام ، لأصبحوا جميعا مسلمين ..

لقد فشلت الراسمالية ، وأفلست الشيوعية ، وبقى رجاء الانسانية ، منوطا بالاسلام . والمستقبل لهذا الدين مهما طال الزمن ، فهو دين السماحة والأخوة والمساواة والعدالة والسلام .



النظام الاجتماعي في الإسلام

المجتمع الاسلامى هو المجتمع الشريف النظيف لانه يهدف الى تحرير الفرد من الخوف والجشع وتحرير الجماعة من الفتنة والفساد . وبغير الشريعة الاسلامية فان مثل ذلك المجتمع النظيف غير قابل التحقق وغير ممكن الوجود ، ولذا قلنا ونقول أن الشريعة الاسلامية كنظام وعقيدة ومنهاج عمل وسلوك ، هى وحدها المهياة لتكون نظام الانسانية الاكمل والأمثل . وحين ندعو الى الشريعة الاسلامية فاننا ندعو اليها بوله المؤمن بكرامة الانسان واستقامة المجتمع وسيادة الخير والفضيلة والمساواة المطلقة لكافة الناس .

لقد افلست الشيوعية او تكاد ، لانها تخالف الفطرة الانسانية ، وتهدر كرامة الفرد ، وتقوم على الانغلاق الصارم والكبت الرهيب ، وتحكيم المادة وغياب الايمان ، وتسعر الصراع بين الأفراد والافراد ، وبين الطبقات والطبقات .. ونظام يقوم على حتمية الصراع ، وتحويل الانسان الى قطعة فى آلة او رقم فى قطيع ، هو نظام ينمى الرذيلة ويعرى الفضيلة ، ويؤرث الحزازات ، وينمى التناقضات . فالتلاحم الظاهرى هو قشرة رقيقة تخفى التمزق الباطنى ، ودكتاتورية البروليتاريا هى اكبر كذبة عرفها هذا القرن ، لانها فى الواقع ، دكتاتورية الطاغية الفرد الذى لا راد لحكمه ولا دافع لقضائه، مع فقدان وازع اليقين الدينى ، وكابح الالتزام الخلقى الذى لا يمكن أن ينبثق الا من ذات الله .

وظاهرة سقوط الايديولوجية الشيوعية تتمثل اليوم فى ارتماء الدب الروسى الهرم فى مخالب النسر الأميركى الجشع البشع الغارق فى الفضائح الاخلاقية ، لكى يتمكن « بريجنيف » من سد حاجة الشعب السوفييتى الى لقمة الخبز ، قبل متطلبات الحياة الأولية الأخرى اللائقة بكرامة الانسان .

وقد أفلست الرأسمالية ، لأن المثل العليا التى اضفوها على الايديولوجية النظرية للديمقراطية ، قد سقطت هى الاخرى فى مهاوى الخيانات والفضائح.

وعدت الديمقراطية بتقريب الفوارق بين الطبقات ، لكنها عمقت تلك الفوارق ..

وعدت بضمان العدالة والحرية والمساواة للجميع ، لكن حقوق المواطن الاساسية مهددة بالضياع ! .

وعدت برفع المعيشة للافراد ، فارتفعت بداخيل « الكارتيلات » وافتقر الفرد وجاع ! .

شرف المواطنة المتوازية تحول الى سحق وقهر وتدمير !..

والانتخابات الحـــرة اصبحت مهـــزلة يتعاور أدوارها المخـــزية فريق من الانتهازيين ! واصبح المنتخبون نقابة لصوص لامتصاص دم الناخبين ! .

لقـــد شاخت الديمقراطية ، ودوختهـــا الأمراض القـــاتلة ، وتحولت الى بيروقراطية مقبلة على الانهيار المؤكد . .

واذا انهارت الديمقراطية ، وسقطت الشيوعية .. وقفز الى الحكم جيل العبث والرفض ، والجنس والأفيون ، انفسح المجال للعدمية ، وحلت روح المغامرة الجنونية ، محل التعقل والخلق والاتزان ..

فالأمل الباقى للانسانية وسط هذه العواصف الهوج ، هو فى الشريعـــة الاسلامية لا بديل ، ولا عديل ..

النظام الاجتماعى فى الاسلام يؤكد ويقرر ان المجتمع الصالح هو حصـــيلة افراد صالحين . وان المجتمع الفاسد هو نتاج افراد فاسدين ، تلك سنة الله فى خلقه .

ولذا فان الاسلام لا يغفل حق الفرد ، ولا يغفل حق الجماعة ، ولا يستعدى فئة أو يستثير فريقا ضد فريق ، فيقوم التعاون مكان التباغض والتلاحم مكان التمزق ، والتوازن مكان الاختلال ، والايثار مكان الاثرة ، والتكافل مكان التبدد ، وتصبح علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الأفراد بالمجتمع ، علاقة محبة ومودة ، وتواد وتراحم ، وتعاون ، لا صراعا بين طبقات ولا ايثارا للاقليـــة الجشعة على حساب الأكثرية المدعوسة ، ولا تفضيلا مزاجيا لشخص على شخص او مجموعة على مجموعة ، بل الكل سواء فى الحقوق والواجبات ، وبذا تنتفى الصرخات المجنونة والصراعات المفتونة التى تجيئنا من وراء البحار : « يا اغنياء العالم اتفقوا على الفقراء ، او يا صعاليك العالم اتحدوا ضد الأغنياء » .

واذا كانت مقدمة الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر فى ١٠ — ١٢ —٤٨ تطالب بتوفير الحرية للناس وتحقيق العدالة والمساواة بينهم اعترافا بكرامة افراد الأسرة الانسانية ، وحقوقهم المتساوية التى لا يجوز التنازل عنها ، سعيا وراء مفاهيم العدل والسلام والمساواة لعالم يكون الناس فيـــه احرارا فيما يقولون ويعتقدون وفى مأمن من الفزع والعوز ، فاننا نؤكد ان الاســـلام قد رسم وحدد وقرر حقوق الانسان قبل اربعة عشر قرنا فى صورة ادق واشمل واعم واكمل .

واذا كانت شرعة حقوق الانسان ، توصية دولية ، مفرغة من الالزام والالتزام ، وتخالف كل يوم الف مرة فى ارقى الدول ، اذا كان معيار الرقى هو القوة المـــادية ، لا السمت الأخلاقى ، فان الاسلام قد أمر باعتبـــارها التزاما اخلاقيا ، لأنها كلمة الله الذى يراقب سلوك الأفراد والمجتمعـــات ، باعتبارها شريعة الهية فهى من ثم لا تخضع للمراجعة والمساومة والتغيير والتحريف والتزييف .

ومن السخف والجهل والغباء ، تعمد بعض مفكرينا المأجورين مقارنة مبادىء الاسلام بما هو حادث اليوم فى الديار الاسلامية حين انحرفت عن مسارها الالهى وهديها المحمدى ، فذلك كما يقول الامام محمد عبده : « مما لا يلصق بطبيعته ولا يخلط بطينته ، بل هو عليه دخيل ، ولا يتفق مع اصول الدين فى كثير أو قليل » .

والاسلام وراء ذلك ، ليس حكرا لفئة او شعب او امة ، بل هو دين الناس كافة ، ولذا يخاطب القرآن جميع البشر لا فريقا بخصوصيته ، وتتجه احكامه بعموميتها المطلقة الى بنى آدم كلهم دون تمييز .

ومن مقارنة مبادىء الاسلام بشرعة حقوق الانسان نجد ان الخلاف البين الوحيد : هو حرية العقيدة .. والاسلام اكثر الاديان تسامحا فى توفير وحماية حرية العبادة لغير المسلمين ، لكنه تشدد فى المرتد ، لانه فى حكم ما نسميه اليوم بالخيانة العظمى ، فمن دخل فى الاسلام ، فقد دخل فى النظام العام للجماعة ، فاذا خرج منه فهو قد قصد التشكيك فيه ، والاساءة اليه ، والاضرار بالدعوة الاسلامية التى هى شريعة الله .. والروايات التاريخية تؤكد أن بعض اليهود كانوا يكيدون للاسلام بأن يؤمنوا غدوة ويكفروا به عشية ، ليلبسوا على الناس دينهم ، ويزينوا لهم ان يصنعوا صنيعهم ، وقد روى ابن جرير كما جاء فى تفسير المنار وتفسير الجلالين والكشاف : ان بعض اليهود صلوا مع النبى صلاة الصبح وكفروا آخر النهار ليروا الناس ان قد بدا لهم فارتدوا . وحقيقة معنى الحرية الالتزام بالنظام العام ، والمرتد فى حكم الخائن لمخالفة ذلك . ويرى بعض الفقهاء المحدثين ان الكفر بنفسه ليس مبيحا للدم ، وان المبيح للدم ان يحارب المرتد المسلمين او يحاول فتنتهم عن دينهم . والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى الزرقا لم يذكر حد الردة — جريا على هذا المفهوم — بين الحدود فى كتابه الجليل « الفقه الاسلامى فى ثوبه الجديد » .

وقد أمر ابو بكر رضى الله عنه الامعان فى حرب المرتدين وحقنت دماء من فاء منهم الى أمر الله .

وفيما عدا ذلك فان الاسلام يقوم على عدم الاكراه فى الدين اى على حرية العقيدة للمواطنين المستظلين بنظام الاسلام **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا » « افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » « وما انت عليهم بجبار » ، « فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، الا من تولى وكفر »** .

وبهذا الأمر القاطع ينتفى من الاسلام الاكراه او التكيف به ، ويصبح لكل انسان فى المجتمع الاسلامى الحق فى حرية الاختيار الكامل للعقيدة التى يعتنقها ، وحرية ممارستها فى ظل المودة والتسامح .

وفى التاريخ الاسلامى من قصص التسامح الدينى ، والتشدد فى المحافظة على حقوق غير المسلمين فى عقيدتهم وممارساتهم وأموالهم وتقاليدهم وطقوسهم وقضائهم ما لا مثيل له فى تاريخ الانسانية كلها .

فحين حضر أمير المؤمنين عمر ، الى ايلياء لعقد الصلح مع أهلها ، نظر الى بناء بارز قد ظهر أعلاه وطمس أكثره ، فسأل ما هذا ؟ قالوا هيكل لليهود قد طمسه الرومان بالتراب .. فأخذ عمر رضى الله عنه ، من التراب بفضل ثوبه ، وألقاه بعيدا ، فصنع الجيش صنيعه ولم يلبثوا الا قليلا حتى بدا الهيكل وظهر ليتعبد فيه اليهود » .

ويقول « السير توماس ارنولد » الاستاذ بجامعة لندن فى كتابه « الدعوة الى الاسلام — بحث فى تاريخ نشر العقيدة الاسلامية » : « ان أحد قواد المسلمين فى عهد المعتصم أمر بجلد امام ومؤذن لأنهما اشتركا فى هدم أحد المعابد واستعملا حجارته فى بناء مسجد مكانه » .

« وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، مرة وفد من نصارى نجران فأنزلهم فى المسجد ، وسمح لهم باقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون فى جانب منه ، والرسول والمسلمون يصلون فى الجانب الآخر » .

وعمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحا . وتحين صلاة العصر ، وعمر داخل الكنيسة فيأبى أن يصلى فيها كيلا يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لتحويلها الى مسجد .

وشكت اليه امرأة من أقباط مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها فى المسجد كرها منها فيسأل عمرا عن ذلك ، فيخبره أن المسلمين كثروا وضاق بهم المسجد وفى جواره دار لهذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ فى الثمن فلم ترض ، مما اضطره الى هدمها وادخالها فى المسجد ، ووضع قيمة الدار فى بيت المال تأخذه متى شاءت ، ومع أن هذا الصنيع تجيزه جميع قوانين الدنيا الوضعية ، ويعذر عمرو فيما صنع ، غير أن عمر بن الخطاب لم يرض ذلك وأمر عمرا أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد الى المرأة دارها كما كانت » .

فهل استطاعت حضارة القرن العشرين أو تستطيع أية حضارة أخرى الى آخر الدنيا أن ترتفع الى سمو هذه العدالة ، وهذا التسامح ، وهذا الاحترام لحريات الأقليات الدينية وكراماتهم ؟ ؟

وللفرد فى المجتمع المسلم صفتان متلازمتان متوازيتان ، صفته كفرد مستقل وصفته كعضو فى مجموع ، وعمل الاسلام على التوفيق بين المطالب الفردية والجماعية ، بحيث يتحقق صالح الفرد ، وصالح المجتمع ، من خلال المبادىء العظيمة التى لا يعتريها خلل ، ولا ينحرف بها التباس !

ذلك ان انسانية المسلم الصادق كما يقول الأستاذ محمد قطب — هى دائما فى حالة حضور ، فهو فى الظاهر ملزم باتباع سبيل المودة والرحمة والتعاون ؛ وهو فى الخفاء خاضع لرقابة الله فى كل لحظة وفى كل آن .

والنظام النفسى والخلقى الصارم الذى يأخذ المسلم نفسه به باخلاص شديد يعيد المجتمع المختل الى التوازن والانسجام فلا تفريط ولا افراط ، ولا افتئات ولا اعتباط !

والشريعة الاسلامية قد أدركت الدوافع السيكولوجية للجريمة ، قبل أن يعرفها الغرب بمئات السنين ، فلا يقام حد على مواطن الا بعد أن يقضى المجتمع على حوافز السقوط ودوافع الجريمة .

أما انظمة اليوم ، فالراسمالية تنظر الى المجرم كنتاج مجتمع مختل ، لا ارادة له فيما يقع منه ، مع اباحة الحرية الفردية الى اقصى الحدود ، ليسلى الفرد همومه بالاستغراق فى الجنس والمخدرات والاجرام .. والشيوعية تنظر الى المجرم على انه كتلة مهملة لا قيمة لها ولا حس ولا شعور ، فاذا شذ وجب بتره واقصاؤه بأبشع صور البتر والاقصاء !

وحين يرى « فرويد » : ان الغريزة الجنسية فى « عقدة أوديب » فى الأساطير اليونانية ، هى مصدر جميع المشاعر الانسانية .. اذ عشق الأبناء أمهم فقتلوا اباهم ثم ندموا فنشأت القداسة ونشأت الأديان ، وتجنبا لتصارع الأبناء ، فى تملك أمهم ، نشأ الكبت ، فنشأت الأخلاق والمشاعر الانسانية ونشأت الحضارة ــ الحضارة الأوروبية .. فان « فرويد » يبنى نظرياته المبتسرة ، على الفرد المريض الشاذ لا على الأسوياء .

وحين يقرر « فرويد » أن جميع المشاعر الانسانية ، ثنائية الطبيعة والاتجاه فاللذة مرافقة للالم بطريقة ذاتية ، والحب يصحبه الكره .. ومن هذا التخالف والتناقض نشأ الدين ، والحضارة والتقاليد ، فان هذه الثنائية لا وجود لها الا فى النفوس القلقة المريضة التى لا تصلح أساسا حتميا تبنى عليه نظريات . ولذا يقع فرويد فى التناقض مع نفسه فيخالف ما قرره هنا كمسلمة ثابتة ، اذ يقول فى موضع آخر : « ان للكراهية أسبابا موضوعية ، وأنها لا تنشأ نشوءا ذاتيا من الحب ، لأن الحب سابق فى ظهوره على الكره .. الى آخر هذه « التلبيخات » التى افتتن بها مفكرونا واعتنقوها دستورا يكفرون من يخرج عليه .

وفرويد الذى صنعته الصهيونية لتدمير الفكر الدينى ، يفسر الجريمة بحوادث الكبت المرضية الشاذة ، ويعطيها المبررات على هذا الأساس ، فكل أعمال الانسان ترتد الى « عقدة أوديب » ، ولكن فرويد يعترف ان تلك حالات شاذة وأن الغالبية العظمى من الناس ترتفع حينما تشب عن ذلك الشذوذ .. فهو فى كل ما قاله يغفل دوافع الانسان النظيفة ويكره الفطرة الانسانية على ما ليس فيها .

وأعجب مقولات « فرويد » : « اعتقاده أنه اذا تركت الحرية الغريزية التامة أى حرية الجنس ــ على هواها ، ظهرت ضوابط غريزية ذاتية لمخاطر تلك الحرية وبذا ينتقل السلوك الخلقى من طور الضوابط القسرية المفروضة من الخارج الى طور الضوابط المتقبلة تقبلا ذاتيا اختياريا » وبهذا المنطق نعود القهقرى فى الحلقة المفرغة الى قصة الضمير بديلا للوازع الدينى .. ونترك للمفكرين الجادين أن يتدبروا هذا الخلط الذى يجعل السلوك الأخلاقى منبثقا من الغريزة .. أية غريزة ؟ ؟ غريزة كل فرد وحريته المطلقة فى وضع منهاج سلوكه الأخلاقى !! ونظرية فرويد هذه هى مصدر فلسفة الوجوديين !

مثل هذه النظريات المبنية على الندرة الشاذة المريضة لتكون دستور المجتمع كله ، هى التى ساعدت على تدهور الوجه الأخلاقى للحضارة الغربية انتاج عظيم فى عالم المادة ، وضآلة مخزية فى عالم النفس والروح ، وترد مخيف فى مستوى الأخلاق .

أما الاسلام فيقرر منذ البداية أن الانسان مزاج من مادة وروح فاذا اختل المزاج تولدت المشاعر الرديئة ، واذا اعتدل المزاج وتوازن ، فلا كبت ولا اضطراب .. ولا شذوذ مرضى ، ولا « عقدة أوديب » .

وغنى عن الذكر أن «فرويد» قد بنى نظرياته على أساس التناقض والصراع الذى قام فى أوروبا بين الكنيسة والعلم ، ما ساق اليه ذلك من انضواء الكنيسة ، واعتزال رجالها المجتمع بالترهب والهروب من مواجهة الحياة ، باعتبار ان الحياة دنس يجب ابتذاله باعتزاله .

« فعقدة أوديب » لا مكان لها فى المجتمع المسلم ، والقداسة لا تنشأ من الندامة بل هى انعكاس الفطرة السليمة واعتبار الغريزة الجنسية أساس المشاعر الانسانية نزول بالانسان الى مرتبة الحيوان . ولذا لم يستطع « فرويد » فى كل ما قاله أن يفسر شعور الايثار والتضحية ومحبة الله والحياء منه ، لأن تلك المشاعر صفات انسان سوى لا انسان مريض .

هذا فى المجتمع المسلم ، اما فى المجتمع الراسمالى والشيوعى ، فان الحرية المطلقة للفرد فى الأول ، يتيح المجال لتفسير الجريمة وتبريرها ، وان الحرية المطلقة للجماعة فى الثانى ، وهى فى الواقع حرية الطليعة الحزبية الرائدة القائدة كما يسمونها تتيح المجال للقضاء على انسانية الانسان وتحويله — كما قلنا من قبل — الى قطعة جامدة فى ماكنة تطحن دون هوادة .. أو فرد ضائع فى قطيع ضال وحين يسعى الفرد هنا الى ابراز هويته الشخصية يعتبر خارجا على مجتمعه وتدوسه الأقدام .

وبينما ترى الراسمالية أن نشوء الجريمة حتمية اجتماعية ، ترى الشيوعية أن نشوء الجريمة فى المجتمع الراسمالى حتمية اقتصادية لا مبرر أخلاقى لمقاومتها ، اذ لا سبيل الى قيام الفضائل فى نفوس الفقراء الجائعين والاغنياء المترفين .. وايمان الشيوعية بالجبرية الاقتصادية والحتمية التاريخية يسوقها الى الاعتقاد بأن الأخلاق والقيم الخالدة والمثل العليا ، كالحق والخير والفضيلة والشرف والمساواة والعدالة والمروءة ، هى معادلات متغيرة بتغير معادلات الانتاج والاستهلاك .. ولذا فهى لا ترى أن الجرائم الأخلاقية التى اتفقت الرسالات السماوية على تحريمها ، جديرة بالاعتبار ،بل الجريمة الوحيدة التى تستحق الملاحقة ، هى جريمة مناهضة النظام ، أو تحرر الفكر الانسانى من ربقة الضغط والكبت ورهق المذلة والهوان . ولذا فان أعدى أعداء الشيوعية هى حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية الاختيار . والدليل الحسى على ذلك ، انطفاء شعلة الخلق الفنى والابداع فى المجتمع الشيوعى والتجاء كبار الكتاب والفلاسفة والشعراء الى الغرب هربا من الارهاب الفكرى والنفسى والالتزام بخط الدولة وأيديولوجيتها .. ومن بقى منهم فهو اما معزول عن المجتمع ينظر اليه بزراية واحتقار ، واما يقاسى فى مناق سيبريا النائية أبشع أنواع العذاب والشقاء ، والوحدة القاتلة .

اما الاسلام الذى يهتم بسلامة الفرد وسـلامة المجتمع ويسـوى بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ويلغى تسلط الحزب وتحكم رأس المـال ، فهو بتحريه العدالة المطلقة يلغى اسباب الجريمة ومبرراتها ، فاذا شـذ الانسان بعد ذلك فى المجتمع المتوازن المتكافل القائم على المحبة والايثـار والجهاد الموصول لمواجهة ضرورات الحياة واجب اقامة الحد عليه دون توقف للمحافظة على حقوق الأفراد والجماعات .

ولذا ينظر الاسلام الى الجريمة بعين الجماعة ، ويعطيها حقهـا فى حماية نفسها فى ظل مبادئه وتعاليمه ، ولكنه ينظر كذلك بعين الفـرد فيزن دوافعه للجريمة ويعطيها حقها الكامل من التقدير والرعاية ، ويضع الاحترازات المشددة فى اقامة الحق قبل أن يفرض العقوبة ، حتى ليصبح فرضها نادرا جدا فى حد السرقة ويكاد يكون مستحيل التحقق فى جريمة الزنا ، الا اعترافا ، وكثيرا ما تدرأ الحدود بالشبهات وفى هذا تقول عائشة رضى الله عنهـا : « ادرؤوا الحدود عن المسلمين بالشبهات ما استطعتم ، فاذا وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فان الامام لأن يخطىء فى العفو ، خير من أن يخطىء فى العقوبة » . ومصيبتنا فى الذين يثيرون الضجة المنيفة حول حد السرقة ، يجهلون أن ذلك الحد لا يطبق على من يسرق وهو جائع ، لأن الحاجة فى المجتمع الاسلامى مستحيلة الحدوث ، وأن تعريف الشريعة للسارق هو الذى يعتدى على أموال الاخرين دون مبرر معقول !

والشريعة الاسلامية تغسل القلوب بادىء ذى بدء ، من الضغينة والحقد ، وتزرع فيها مشاعر الحب والمودة والتعاون ، ثم تقيم العدالة بالقضاء على الترف والحرمان وتوفير العمل الشريف لكل مواطن ، حتى اذا اعجزه الكسب، تكفل بيت المـال بما يقيم أوده ويحفظ كرامته الانسانية ، وبهذا تنتفى المبررات الاقتصادية والاجتماعية للجريمة . وحين يكون واجبا علينـا أن نمنع الظلم الاجتماعى والاقتصادى ، يكون من حقنا أن نطالب الناس بالتعاون البناء وكبح العدوان . فاذا اختل ذلك التعاون ، واهتزت تلك العـدالة ، يباح للفرد أن يقتل من فى يده الطعام اذا منعه عنه ، وخاف على نفسـه الهلاك . وتباح السرقة بدافع الحاجة التى لابد من اشباعها .

وبذا فالتنظيم فى الاسلام هو معيار الجدية والمسؤولية ، والجـدية هى ضمان الحرية ، وضمان الحرية ليس هدفا فى ذاته ، بل هو وسيلة لضـمان الحكم . ومع الظلم الفادح ، يصبح العنف ضرورة لا محيد عنها ولا نزاع فيهـا .

والقاعدة الأساسية فى التنظيم الاسلامى قوله تعالى : « **واتقوا فتنـة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » .

النظام الاقتصادي في الإسلام

اذا كان الحاكم فى الاسلام رجلا من المسلمين ، لا يمثل طبقة او بيتا او حزبا ، قد اختاروه بملء ارادتهم ، لينفذ شريعة الله ، لا شريعة خاصة . . وأن نصيبه من هذه الشريعة ، هو نصيب أى فرد آخر من المسلمين ، فلا امتياز له الا حق الهيمنة والاشراف ، وحق السمع والطاعة ، طالما كان ذلك فى حدود الشريعة فاذا شذ عنها وخرج عليها ، سقطت طاعته ووجب اقصائه . .

فكذلك المال فى الاسلام ، ليس ملكا حقيقيا لاحد ، انما هو مال الله يستخلف فيه الناس ، والمالك موظف فيه بعمله وجهده ، وحسن التصرف فيه فاذا اساء التصرف فيه سفها أو اسرافا أو منعا ، كان لولى الامر باسم الجماعة ان يسترده كله او بعضه ، ويعطيه لمن هو ارشد ، كما ان لولى الامر ان يسترد كل المال او بعضه فى اى وقت ، اذا اقتضت الضرورة .

ومبدأ الاستخلاف فى الارض ينسحب على كل شيء ، حتى ليصبح الخليفة مستخلفا فى الناس كولى اليتيم ، ان استغنى استعف ، وان افتقر اكل بالمعروف .

والاقتصاد الاسلامي مبنى علي قواعد ثلاث : الملكية . التصرف فى الملكية . توزيع الثروة . وهذه القواعد تخضع لضوابط ثلاث :

١ — الكسب المؤذى حرام .

٢ — يجب ان ياخذ المال من المكلفين بحقه ، ويوضع فى مصلحة المجتمع بحقه .

٣ — ان حيازة المال هى وظيفة اكثر منها امتلاكا .

يجمع كل هذه القواعد والضوابط قوله تعالى : **« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »** .

فالايمان بالله ورسوله هو التزام ذاتى بتطبيق الشريعة فى حدود السلوك الاخلاقى فلا جور ولا افتئات فى التكاليف المالية . . ولا سرف ولا تفريط فى الانفاق وكل من خالف ذلك كان عدوا لله ورسوله والمؤمنين .

اما الملكية من حيث هى تملك فهى لله قد استخلف فيها الناس .

واما التصرف فى الملكية ، فانه بالنسبة للملكية العامة ، حق للدولة نيابة عن الامة وهو ما يسمونه فى المذهب الاشتراكى اليوم — ملكية وسائل

الانتاج — ولكن الشارع يمنع الدولة من التصرف بالملكية العامة بالمبادلة او الصلة ، اى الخروج عنها اعتباطا ، وحرية اعطائها للافراد او الفئات.. ويجيز التصرف فيها بحسب احكام الدين .

اما توزيع الثروة ، فتحديد الملكية بالكيف لا بالكم . اى ان التملك المشروع له شروط ، كما ان للتصرف فى الملك شروطا ، فلا تخرج الملكية عن مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ، ولا يصبح المـال دولة بين الاغنياء، باعتبار الافراد جزءا من الجماعة ، تتكافأ مصالح الجميع .

والاسلام ينظر الى حق الملكية الفردية ، كمظهر من مظاهر غريزة البقاء، كما ان الزواج مظهر من غريزة النوع ، والعبادة مظهر من مظاهر غريزة التدين .. فالاجتراء على هذا الحق مخالف للفطرة الانسانية ، فهو مخالف للشريعة .

غير ان هذا الحق ليس مطلقـا ، لان اطـلاقه يؤدى الى الفوضى والاضطراب وصراع الافراد والطبقات .. اذ يسوق الى الاشباع الشاذ او الاشباع الخاطىء ، وكلاهما ضار بالفرد والمجتمع على السواء ولذا كان لابد من تحديد الكيفية التى تتحقق بها هذه المظاهر تحقـقا سـليما موزونا . فوضعت القواعد والاصـول من جهة منشـأ الثروة واقتنائها والعدالة فى توزيعها ، وتفتيتها بالارث وخـلافه لكى لا تنشأ الطبقـات المتباعدة فى الدخل ، المتناقضـة فى الحـقوق والواجبات ، المتكالبة على الاحتكار والاكتناز .

ولا خلاف على حق ولى الامر فى التدخل والمراقبة والتوجيه لحمـاية المجتمع وتحـقيق التوازن الاقتصادى فيه .. ولـذا يصـبح التخطيط الاقتصادى — وفق « استراتيجية » طويلة الامد — تبعا لذلك مطلبا شرعيا ويكون التخطيط مرتبطا بالمتابعة بحسـن القيام عليه ، بأمانة وفعالية ، لتحقيق اهداف التنمية الاقتصادية .

ولا خلاف كذلك فى التفريق بين نظرة الاسلام الى مادة الثروة عن نظرته الى الانتفاع بها . فالحيازة شىء ، والانتفاع شىء آخر ، ولذا تتدخـل الشريعة فى كيفية الانتفاع ، باشتراط ان يكون الكسب حـلالا والمنفعة مباحة .

يقول الاسـتاذ « محمود احمـد عميد جامعة « ميربوخـاز » فى ازاد كشمير : ان القواعد العامة التى يقررها الاسلام لبناء نظامه الاقتصادى مع حرية الاجتهاد فى تحرى النصوص التفسيرية والتفاصيل المستجدة فى ضوء تلك القواعد العامة ، وفق تطورات الزمان والمكان ، يمكن اجمالها فيما يلى :

١ — تحريم الربا

٢ — تحريم احتكار المـال

٣ — تحريم اختزان الاموال واكتنازها

٤ — تحريم اخفاء المواد الضرورية فى الأزمات بقصد الانتفاع بهـــا استغلالا لحاجة المواطنين .

٥ — حرية العمل وتدسيته .

٦ — حرية التملك فى حدود الشريعة والمساواة فى ذلك بين الرجـــال والنســـاء .

٧ — الضمان الاجتماعى عن طريق فريضة الزكاة .

٨ — العدل فى توزيع الثروة بين الناس ، ومنع تجمعها ، وحق الدولة فى الأموال الخاصة عند الضرورة .

٩ — المحافظة على كرامة الشخصية الانسانية .

١٠ — حظر الاستثمار دون تعويض عادل .

١١ — مصادرة الملكية الخاصة للضرورة الاجتماعية أو المصلحة العامة مقابل تعويض عادل .

١٢ — حق الملكية الخاصة فى الأراضى ليس حقا مطلقا وانمـــا هـــو خاضع لمتطلبات الرخاء الوطنى .

١٣ — ضرورة معاملة الاجراء بالحسنى ، ودفع الاجر المناسب للعمل المناسب دون تسويف ، ومن مقتضى هـــذه القاعدة ، تقرير حـــد ادنى للاجور وساعات العمل ، وتوفير الضمان الاجتماعى الكامل للعمال .

١٤ — انتفاء صراع الطبقـــات .

١٥ — اقرار مبدأ تاميم الأرض للمصلحة العامة — وهو ما يسمى اليوم بقانون الاصلاح الزراعى — وكذلك تاميم ما تراه الدولة ضروريا من وسائل الانتاج — وهو ما يسمونه الاشتراكية .

يمكننا بدراسة هذه المبادىء الجامعة دراسة علمية موضوعية ، مع التوسع فى حرية الاجتهاد ، ان نطلق على هذا النظام الاقتصادى فى التعريف الحديث ، اسم نظام ليبرالى تقدمى ، حر موجه ، هو وسط بين الراسمالية والشيوعية ، ويجمع افضل ما فى النظامين بلا قسر ولا فوضى ولا ارهاب ، فيراقب حركة رأس المال ويحمى حرية الفرد ، ويوفق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فهو يصون المبادرة الشخصية وحرية الملكية ضمن المبادىء والقيود التى وضعتها الشريعة ، لمنع الظلم والشطط والتفريط . وهو يضع الحـــدود لحقوق الملكية الخاصة ، ويحارب مبدأ الربا والاحتكار .

ان نظـام الفوائد المصرفية ـ الربا ـ الذى هو الدعامة الاساسية التى يرتكز عليها بنـاء الاقتصاد الحديث فى الدول الرأسمالية ، يقـود الى الاحتكار ، وتجمع السلطة والثروة فى أيدى القلة المتحكمة التى تضع القوانين لمصـلحة امتيازاتها .. كما يؤدى الى تتابع الهزات الاقتصـادية والازمات النقـدية والاضطرابات العمالية التى تصيب ما يسمى بالعـالم الحر بين الفينة والفينة ، حتى يشوقها الى الدمار .

ولذا يعتقد بعض كبار الاقتصاديين الغربيين ان الاقتصـاد المتحرر من الفائدة ، هو السبيل الوحيـد لتجنب تلك الكوارث ، ويتعرفون ان الفائدة دخل غير مشروع ، ولذا يقترحون الغـاء النظام المصرفى ، واقامة نظام آخر جديد يرتكز على مبدأ المشاركة بين المصرف من جهة ، وبين أصحاب الحصص والمساهمين والشركات من جهة أخرى وتوزيع الارباح والخسائر حسب ناتج العمل .. وعند ازالة الفائدة تنهج جميع المؤسسات المالية الاخرى بما فيها شركات التأمين هـذا النهج ، ويصبح الغاء الفائدة بالتدريج أمرا ميسورا .

ونكتفى فى هذه العجالة الموجزة ان نشير الى ما ذكره أكبر اسـاتذة الاقتصاد فى هذا القرن ، وهـو الدكتور « شاخت » المشهور ، فقـد جاء فى محاضرة له فى الجامعة السـورية بدمشق بسـنة ١٩٥٣ قوله « ان النظام الربوى يسوق الى الدمار لأنه يؤدى الى تجمع المـال فى أيد قليلة . لأن الدائن المرابى يربح دائما .. والمدين معرض للربح والخسارة ، ولذا فان نهاية المـال ان يصير الى الذى يربح دائما .. وهكذا نرى ان معظم مال الأرض يملكه بضـعة آلاف ، وان الآخرين ليسوا سوى اجراء يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين » .

ونضيف الى ما قاله الدكتور « شاخت » : ان الاكثرية الساحقة من تلك البضعة آلاف هم يهود .. ومع ان الأديان السماوية كلها تحرم الربا تحريما قاطعا لأنه استغلال بشع للضعف الانسانى ، فقد انحرف اليهـود عن تعاليم دينهم وجروا وراءهم المسيحيين والمسلمين ، لتدمير معـانى الرحمة والاخوة الانسـانية ، وتحكم الصهيونية عن طريق المـال فى مصائر الدنيا والدول والأفراد .

ان اهم ما يمكن ان يحققه نظام كالنظام الاسلامى المتحـرر من الربا والاحتكار هو انشاء مؤسسات مصرفية وغيرها على أساس مبدأ المضاربة أى شراكة رأس المال والعمل ، وتقاسم الارباح والخسائر ، بصورة عادلة وبذا تزول حتما الخلافات الدائمة بين العمال وأرباب العمـل ، وتنتفى الاضرابات التى تهز النظام الراسمالى وتكاد تقوض دعائمه من الاساس ، وهذا هو النظام الوسط الذى ترنو اليه الانسانية ولا تقع عليه .

ولنتصور قيام الأفراد من أصحاب الودائع ، والمدخرين والمستثمرين ، بايداع كافة أو معظم ما يملكونه من نقـد فى مؤسسة مصرفية اسلامية ، وقيام هذه المؤسسة بتمويل المشاريع الصناعية والزراعية والتجارية ، وتقسيم ناتج الربح بين المؤسسة وبين المساهمين والمودعين ، فيصبح

الجميع متساوى الحقوق فى الحركة الاقتصادية ولا يعود الافراد بحاجة الى الاكتناز والادخار ، ويتحررون من الفوائد التى كثيرا ما تؤدى الى الفواجع والكوارث .. ثم يكون للدولة الحق فى اقتطاع جزء من الارباح الصافية لرعاية الضمان الاجتماعى ، واقامة المؤسسات التعاونية وغيرها ، وسد العجز فى موازنتها الى آخر ذلك .

ولو طبق هذا النظام على الدول الاسلامية التى تملك ثروات نقدية هائلة تودعها فى المصارف الأجنبية ، حيث يتلاعب دهاقنة اليهود بقيمتها ، حتى تذوب بعد سنين قليلة أو كثيرة ، كما نرى اليوم .. لو طبق ذلك النظام الالهى على الدول الاسلامية المتخمة بالثروات النقدية الهائلة ، والمداخيل القومية العظيمة ، فوضعت تلك الأموال الطائلة فى مصارف اسلامية لاستثمارها على الأسس التى ذكرنا ، لامكن ان تتحول جميع الدول الاسلامية مع الزمن الى قوة اقتصادية زاهرة مؤثرة فى السياسة الدولية ، ويصبح للكتلة الاسلامية عندئذ سوقها المشتركة وثرواتها المشتركة ومؤسساتها ومصارفها المشتركة ، بالتكافل والتضامن .. ولا يمكن ان يتضح مدلول هذا الكلام فى اذهاننا ، الا اذا ادركنا الاتجاهات الفكرية السياسية الجديدة فى النصف الثانى من هذا القرن ، فقد تضاءلت فكرة الوطن المعزول والقومية المغلقة ، ونمت فكرة التكتلات الاقليمية والعقائدية .

وقد عبر عن هذه الاتجاهات الكاتب البريطانى « انتونى سامبسون » فى كتابه : « الأوروبيون الجدد » حيث يعرف أوروبا — ويقصد أوروبا الغربية — بانها وحدة عضوية قوامها العامل الاقتصادى ، ويغلب عليها شعور الوطنية الاقتصادية ، الظاهر فى السوق الأوربية المشتركة ، التى ستتحول مع الزمن الى اتحاد سياسى ، وهو يعتقد بان الفلسفة المقبلة للعقلية الأوروبية هى تغليب مصلحة القارة على مصلحة الوطن ، ويعزو ذلك الى التجانس الاوروبى الغربى فى الفكرة والثقافة المشتركة والعلوم الانسانية والذوق الاستهلاكى .

فكيف ، وتلك هى فلسفة العصر يجرؤ مفكر سليم العقل على تجريح من يدعو الى تقارب عربى جاد ، سمه وحدة أو اتحادا أو تكتلا ، وتغليب مصلحة الكيان العربى المتلاحم على مصلحة الاقاليم العربية والكيانات العربية والامارات والمشيخات ؟ خاصة وهى تواجه جميعا ، ان لم يكن اليوم ففى الغد القريب ، خطر الغزو الماحق الذى يدق ابوابها بعنف والحاح ؟؟

وكيف يجرؤ عاقل على تجريح الانطلاق من فكرة التكتل العربى الى الدعوة لتكتل اكبر متفق معه فى الظروف والاتجاهات والقاعدة الفكرية والخلقية الدينية فى نطاق التضامن الاسلامى ، بدءا بسوق مشتركة ومصارف مشتركة ومشاريع مشتركة وتصنيع مشترك ، وتكنولوجيا مشتركة ومعامل اسلحة مشتركة ، ومواقف سياسية منسجمة وسط التيارات الدولية الهادرة وفى اطار انبعاث اسلامى جديد يعزز التجانس الفكرى والفنى والخلقى والثقافى .. وحتى الذوق الاستهلاكى بين مجموعة الدول الاسلامية ..

وهل التجانس بين الدول الأوروبية الغربية الناشطة فى سبيل الوصول الى اتحاد سياسى ، هو أكثر من التجانس بين الدول العربية ؟

وهل أسس التكتل الاسلامى الذى تحقق مرات ، تتضاءل امام أسس الوحدة الأفريقية مثلا ، أو تجمع دول « الكومنولث » ؟

ونعود بعد هذا الاستطراد الى استكمال النظر فى النظام الاقتصادى فى الاســلام .

يصنف الأستاذ « سيد قطب » فى كتابه « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » القواعد الأساسية للنظام الاقتصادى فى الاسلام على الوجه التــالى :

١ ــ قيامه على قاعدة الاستخلاف المشروط .. وشرطه التصرف فى الملك بشريعة الله ، فاى خروج على هذا الشرط ، فهو مبطل للتصرف ، ناقض لعهد الاستخلاف .

٢ ــ ان الاستخلاف عام لكن الأفراد يحصلون على حق الملكية الفردية مقابل عمل ومن ثم يملكهم الشارع قسما معينا من هذا المــال ، ويحوط هذا الحق بكل الضمانات التى تجعل المرء عزيزا كريما مطمئنا على رزقه ، كى يتفرغ للقيام بواجبه فى رقابة تنفيــذ شريعة الله . ذلك لأن حمــاية الثروة العــامة من ضراوة المحاباة وشراسة السرقة والسفه والاختلاس هى حق النــاس جميعا لا حق فئــة أو عائلة أو عشيرة على حســاب مصلحة الجمــاعة .

٣ ــ ان الملكية الفردية وهى قاعدة هذا النظام مقيدة بشروط فى وسيلة التملك ووسيلة التنمية ، وسيلة الانفاق ، تتحقق بهــا مصلحة الفــرد ومصلحة الجماعة ، وتمنع من طغيان الفرد أو طغيان الجماعة .

٤ ــ ان التكافل مع الاحتفاظ بحق الملكية كما مر ، هو قاعدة الحياة العامة فى الأمة المسلمة ، وهذه القاعدة تفرض تكاليف على الملكية الفردية بينتها الشريعة .

٥ ــ تحقيق مبدأ الفرد ، وبلائه ، الى جوار مبدأ الفرد وحاجته ، وهو آخر الشوط الذى تأمل الشيوعية بامكان الوصــول اليه ، ولم تستطع تحقيق بعضه حتى اليوم .

٦ ــ يباح لولى الأمر حرية التصرف فى المــال العام لازالة الفوارق بين الطبقات واعادة التوازن الاقتصادى الى المجتمع .

٧ ــ الضمان الاجتماعى العام ، والقضــاء على غوائل الحاجة والعجز والحرمان .

٨ ــ مبدأ التكافل العام ، فلو اتلف الجوع احــد أفراد المجتمع فان الجماعة كلها مسئولة مسئولية جنائية باعتبارهم قتلة ذلك الجائع وهو مقيم فيهم .

٩ ـ عدم الاقتصار على الفرائض والتكاليف ، والتطلع ، تطلعا ذاتيا لما هو فوق الفرائض والتكاليف تجاوبا مع اليقظة الدائمة التى يفرضها الاسلام على ضمير الفرد ، وما يثيره من شعور مرهف بالحقوق والواجبات للفرد والمجتمع ، بل للانسانية كلها فى نطاق الحياء من واهب النعم والفناء فى محبته ورهبته فى العلن والخفاء . وهذا الاحساس بالمسئولية الذاتية امام الله ، هو الذى انتقل بالمثاليات الاخلاقية التى ما تزال الانسانية ترنو اليها مع القصور عن بلوغها ، الى نماذج بشرية تعتبر بالقياس الى أرقى النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة اليوم فى قمة حضارتها الأوروبية خوارق انسانية لا يمكن مجاراتها .

١٠ ـ اباحة الاستمتاع بطيبات الحياة فى حدود الشريعة ، مع مجاهدة النفس للارتفاع على حكم الضرورة ، فالاسلام يحبب الى المؤمنين العفو عند المقدرة ، لكنه يحضهم ويوجب عليهم الأخذ بالثأر . يبيح لهم التملك لكنه يحبب اليهم الانفاق ولو خرجوا عن مالهم جميعا — يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . يبيح لهم استشعار الكراهية للقتال ، لكنه يحبب اليهم الاستشهاد فى سبيل الله ، بل يفرض عليهم الجهاد ، ويجعل ذلك جزءا من دينهم وعقيدتهم .

١١ ـ تقرير مبدأ « من أين لك هذا » فلا حصانة لحاكم تمنع الجماعة من محاسبته على ما اكتسب من مال .

١٢ ـ ان العدالة الاجتماعية ، والإخوة الانسانية ، والمساواة ، والمروءة والشرف تتحقق عن طريق هذا النظام بأفضل ما تتحقق فى اى نظام آخر من صنع البشر كان أو سيكون .

خلاصة ما اردنا ان نثبته ونؤكده ونجلوه هو بكلمة موجزة ان الاسلام يتيح للمؤمن ان يستمتع بمعطيات الحياة الى الحد الذى لا يخرجه الى الغلو والسفه ، اى الى المادية وما تستتبعه من شرك وتأليه ، وفاحشة وفسوق .

وانه يؤكد دائما على ان يكون الاستمتاع بالكسب الحلال لا بالكسب الحرام فالله سبحانه يقول : **« ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون »** . فالاستجابة لمتعة الفتن الحسية واغراءاتها فى نزواتها الفاحشة ، هو ذل ، والتعفف ليس هو الحرمان ، بل هو التجربة النفسية فى أعلى مراتبها على الاكتفاء بما احله الله ، والانصراف عما حرمه .

والاسلام لا يربط بين الملكية والمنفعة الخاصة ، بحيث يكون الانتفاع بالمال لمن يملكه فقط ، بل يرى ان المال وان كانت هناك ملكية خاصة هو لجميع الناس ، لا لمن يملكون وحدهم. والهداية فى الانتفاع بالمال كما أمر الاسلام لا تقل شأنا عن اعطاء المال نفسه ، فالمال وهو مال الله موجود للاستمتاع به ، ومعنى الاستمتاع به متوقف على عموم الانتفاع به ، وانتفاء اقتصار هذا الانتفاع على فريق دون فريق . . فاذا لم تلاحظ المنفعة العامة فيه ، مع الملكية الخاصة له،خرج الأمر عن مجال الاستمتاع الى مجال الاستذلال والاسترقاق،

وعلى هـذا فان نظرية الاسلام فى المـال ، هى نظرية وسطى ــ كما تتنا ــ بين الراسمالية والشيوعية ، فالراسمالية ترى ان الملكية للمـال هى ملكية خاصة ، وان الانتفاع به انتفاع خاص ، والشيوعية ترى ان الملكية للمال هى حق الدولة ، والانتفاع به انتفاع عام للافراد جميعا ، كل على قدر انتاجه ، وحسب حاجته .. ثم تنعدم القدرة عند التطبيق .

بينما الاسلام يلبى غريزة الفرد فى الملكية والاقتناء من جهة ، ولكنه لا يغفل حاجة من لا يملكون بحيث تتوفر الكرامة الانسانية مع العدالة الاجتماعية .. ثم هو لا يغفل الالزام بالانفاق عند الضرورة فى سبيل المصلحة العامة .

ولذا حرم الاسلام الربا لأنه اكراه فى صورة اختيار ، لا يقوم على التراضى ، بل على الحاجة الملحة من جهة ، والجشع الملح من جهة اخرى . بحيث يؤدى فى النهاية الى طغيان المستبد بما فى يده من مال .

والاسلام يريد الانفاق فى سبيل المصلحة العـامة التزاما ذاتيا يحسه المؤمن ويمارسه عن اختيار ، فمن تخلف فالشرع له بالمرصـاد . وبهذا الاختيار يتحقق تكافل المجتمع وتضامنه .. وتكون متعة الانفاق فى سبيل الله والمصلحة العليا للمجتمع أكبر من متعة الاكتناز والادخار ، والتكثر من تملك الترف والمتاع . وبذا يصبح تحقيق المنفعة العـامة من المـال الخاص واجبا دينيا قبل ان يكون واجبا اجتماعيا ، اى ان اداءه طاعة لله سبحانه وتعالى . وحين يكون طاعـة الأمر لله فالمصـلحة الاجتماعية كامنة فى تلك الطاعة ونتيجة حتمية لهـا . وبذلك تتحقق حكمة النظـام الاسلامى فى الحكم الذى هو اساسا نظام اخلاقى يعتمد على الضمير لأمر وانسانية السلوك الناجمة عن الايمـان بالله لا عن ضغط واكراه يولدان الحقد والكراهية والفروق الطبقية .

ولذا فان فريضة الزكاة توجب ان يكون اخراج المـال وصرفه ناشئا عن التزام المؤمن بالله لا تشوبه شائبة قهر .. فزكاة المؤمن عبـادة ، والعبادة التزام حر .. وبهذا المفهوم تختلف الزكاة عن الضريبة ، فالزكاة عبادة لله والضريبة واجب للدولة ، فلا يكون احدهما بديلا عن الآخر .

ونصل بعد هذا البيان المبين الى مسلمة ذهنية لا تقبل اللجج والخصومة وهى ان المدنية الغربية التى فتنت بعض شبابنا لأنها تخليهم من مسئولياتهم الانسانية ، انما تتقدم فى اتجاه واحد هو الاتجاه المادى ، اما الانعتـاق الروحى الذى يبصر البعد الحقيقى للحياة لأنه منبثق من الايمان بالله وحده فلا وجود له فى مادية تلك الحضارة ولذا تبقى ، قوة بلا محبة ، وعلما بلا سلوك وتكنولوجيا بلا اخلاق ..

ولو نحن طبقنا الاسلام كما امر به الله وجاء به محمـد ، لشبع الجائع وأمن الخائف ، وتعلم الجاهل ، وعوفى المريض ، ولمـا استطاع تحريض المنحرفين فى الدنيا ان يعطى قيمة أو يدمر مجتمعا أو يهز كيانا ..

الشريعة الإسلامية والمجتمع الفاضل

بعد ان اوجزنا مقومات الشريعة الاسلامية فى مصادرها الأصلية ، وعقدنا المقارنة الموضوعية العلمية بينها وبين القوانين الوضعية ، وقابلنا بينها كمنهج وتصور ودستور حياة وبين الايديلوجيات العفنة التى تطبق علينا من كل جهة .. نصل الى التساؤل الذى أثرناه فى مقدمة هـذا البحث : هل يستطيع الاسلام ان يصمد فى وجه التيارات الفكرية الحديثة ؟ فيبنى مجتمعا متقدما ودولة متمدنة ، ويعالج مشاكل الحياة فى تقلبهـا وتطورها ؟

فكل حوار يهدف الى معرفة الحقيقة وانتصارها ، يجب ان يدور فى فلك هذا التساؤل . وكل ما عدا ذلك لا يستحق الالتفاف .

لقد رأينا مما استعرضناه ان الاسلام يشتمل على تنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية صالحة لهذا الزمان ولكل زمان . اما ما يلوكه بعض المفكرين الثوريين(!) من ابنائنا ، مما يتعارض مع هذه الحتمية الواضحة المستقيمة فى مساغ العقل والمنطق ، فهو رداء محـوك لنـا فى مغازل الصهيونية والاستعمار ، لا يوائمنا ولا يناسبنا ، تتلفع به فيما يطوف بنا من شر ، وتتمطى فى مجالسنا الداعرة ، تتفاصح بتجريدات ذهنية ، وتعميمات لفظيـة ، وشـبهات داحضـة مقصودة لذاتهـا نقيمها مقـام الحق الذى لا يخضع لنقاش .. ذاك هو مزاج الجهلاء لا مزاج العلماء .

ونحن الذين اكرمنا الله بالاطلاع على حقيقتنا والرجوع الى هويتنا ، نتحدى فى ضوء ما ستناه من حجج متلاحقة يعضد بعضها بعضا ، وبراهين لا يأتيها باطل من وحى الشيطان وتلبيس الوهم .. جميع مفكرى الدنيـا أن يأتونا بنظائر لشريعتنا تماثلها بل تقاربها سموا وارتفاعا ، فى القوانين الوضعية التى عرفتها الانسانية .

فاذا كان كذلك وهو ما لا ينكره الا مغرض أو جاهل أو متآمر ، فما الذى يحجزنا عن التمسك بشريعتنا الالهية التى هى وسط لا غلو فيه ولا اسراف بين القطبين المتناقضين والطرفين المتباعدين ـــ الشيوعية والراسمالية .. ولمـاذا نطوف اطراف الأرض نستورد الشعارات والعقائد والايديولوجيات التى لا تنسجم مع فطرتنا التى فطرنا الله عليها .

غير اننا نعرف ان المفتونين بالحضارة الغربية لا يصدقون الا ما يأتيهم من وراء البحار ، ولذا سنفجاهم باقوال عدد من خيرة المفكرين والفلاسفة

والمشرعين الغربيين ، الذين تعمقوا دراسة الشريعة الاسلامية او اتيح لهم التعرف على حقيقتها فى مظانها الأصلية : فاذهلتهم الكنوز الهائلة التى تنطوى عليها ، واعترفوا لها بالتقدم والتميز على افضل القوانين الوضعية الغربية القائمة على العلمانية التى يتباهى بها مفكرونا الثوريون !

يقول عميد كلية الحقوق فى جامعة فينا الاستاذ « شبريل » : ان البشرية تفخر بانتساب محمداليها ، ذلك الامى الذى استطاع ان يأتى بشريعة سنكون نحن الاوربيين اسعد ما نكون لو وصلنا الى قمتها بعد الفى عام ».

ويقول الفيلسوف والشاعر الالمانى « جوته » : اية شريعة فى الدنيا لا تستطيع ان تعلو على شريعة محمد ، وسوف لا يتقدم عليه احد . واذا كان هذا هو الاسلام فكلنا مسلمون » .

ويقرر المجتمع الدولى للقانون الذى ضم كبار فقهاء الدنيا عام ١٩٥١ : « ان الشريعة الاسلامية تنطوى على ثروة هائلة من الأصول الفقهية تجعلها صالحة لكل مطالب الحياة الحديثة » .

ويقول المستشرق الفرنسى « جان برك » وهو من اكبر الفلاسفة المعاصرين .. يقول عن الواقع العربى اليوم : « ان حركة التحرر العربى الحالية ستعيد بشكل او بآخر التاريخ الثورى الاسلامى فى عهده الاول. لقد كان الاسلام مرادفا للحضارة العربية وتعبيرا عن الذات العربية ، ومما لاشك فيه ان تلك القوة الحضارية هى التى أعطت الشعوب العربية الكثير من امكانات المقاومة ضد المستعمرين ، وفى تعبير آخر لقد كان الاسلام نائبا عن القومية ، ولا اجد تناقضا بين القيم الاسلامية والتكنولوجيا الحديثة » .

ويقول « ايرهارد ابلر » وزير التعاون الاقتصادى فى المانيا الاتحادية : « مفهومنا للعالم العربى يعنى أن الدول التى تنتمى اليه تلتقى جميعا حول عقيدة واحدة ولغة واحدة ، منذ مئات السنين ، وسوف تعثر الدول العربية يوما على الصيغة الملائمة للوحدة على اساس التراث الثقافى المشترك الذى يبدو انه اقوى منه فى اوربا ، بل ان الاشتراكية العربية مستمدة اساسا من الاسلام ، وتقوم على تعليم السلوك الاجتماعى استنادا الى تعاليم العقيدة ، والاسلام بطبيعته يقدم اساسا عمليا لحياة متكاملة » .

ويقول « جوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « لم يعرف التاريخ فاتحا ارحم من المسلمين » .

وقبل بضعة اشهر ذهب وفد من كبار علماء القانون ورجال الفكر والسياسة الى المملكة العربية السعودية ممثلين لهيئة الامم المتحدة ، ليناقشوا موضوع تطبيق شرعة حقوق الانسان . وعقدوا ثلاث ندوات فكرية مع علماء الشريعة الاسلامية ، والاساتذة الاكاديميين الذين يجمعون بين دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية ، ودراسة الايديولوجيات والانظمة الغربية فى منابعها الاصلية .

وعندما اطلع الوفد على ما كانوا يجهلونه من انه لابد من التمييز فى الشريعة ما بين القواعد العامة التى لا تقبل التغيير والتبديل ، وبين تطبيقات الاحكام التفصيلية لتلك القواعد العامة ، وهى وحدها التى يتسع فيها الاجتهاد والاستنباط والقياس تبعا لتغيرات المصالح والازمان وان من القواعد العامة التى لم تعرف الدنيا بعضها الا فى هذا القرن ، وجوب العدل المطلق دون تمييز بسبب الدين او الجنس او اللون او القرابة او حتى العداوة ، الا بتقوى الله ، واعلان ان الناس جميعا متساوون كاسرة واحدة من اب واحد ، ولهم اله واحد خلقهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا فيما فيه خيرهم وصلاح امرهم لا ليعادى بعضهم بعضا أو يحتقر بعضهم بعضا ، او يظلم بعضهم بعضا . وان مبادىء الثورة الفرنسية وشرعة حقوق الانسان قد اقرها الاسلام ومارسها قبل ثلاثة عشر قرنا . وان تفسير الديمقراطية بانها حكم الشعب بالشعب ، تفسير عرفه الاسلام وطبقه قبل مئات السنين حينما كانت اوربا تغط فى دياجير الجهل والظلمات .

عندما سمع وفد العلماء الغربيين ذلك اظهروا دهشتهم واعجابهم بحقائق الشريعة الاسلامية ومبادئها العظيمة التى سبقت وما تزال تسبق جميع القوانين الوضعية واعترفوا بان حقوق الانسان فى الاسلام سابقة ومفضلة على جميع ما حققته الانسانية فى هذا القرن ، ونعوا على علماء المسلمين تقصيرهم فى شرح هذه الشريعة وايضاحها وتعريف الناس بهـا .

وقال « مستر لويس » أحد اعضاء الوفد فى مؤتمر صحفى عقده فى « جدة » بعد الندوة : « ان الكيان الفكرى والاجتماعى فى السعودية ممتاز حقا ، ويعود الفضل فى ذلك لمحافظة المملكة على مبادىء القرآن وتعاليم الشريعة . وان حقوق الانسان التى هى من وضع البشر قابلة للتغيير والتبديل ، اما حقوق الانسان فى الاسلام فهى مخلدة دائمة ضامنة لكرامة الانسان . وان المظالم والمآسى التى تتعرض لها الانسانية فى بعض مناطق العالم كالتمييز العنصرى قد وضع لها الاسلام الحلول العادلة الخالدة قبل اربعة عشر قرنا » وفى ختام المؤتمر أعرب الوفد عن أمله فى أن يتمكن من نقل مدلولات ومعطيات تعاليم الدين الاسلامى الحنيف ومدى ما يستطيع تحقيقه من خير وسعادة للانسانية الى كافة أنحاء العالم .

وقال لى صحفى امريكى أن الملك فيصل فى احدى زياراته للولايات المتحدة دعى الى مؤتمر صحفى عالمى ليجيب على اسئلة كبار الكتاب والمفكرين والمعلقين السياسيين وفيهم الكثير من اليهود . فسأله احد هؤلاء قاصدا احراجه : « سمعنا يا صاحب الجلالة انكم تعاقبون السارق بقطع يده ، والزانى بالرجم ، وتلك عقوبات بربرية همجية ترفضها مدنية القرن العشرين » فأطرق الملك برهة ثم نظر الى اليهودى وقال بهدوء : « أحب أن أؤكد لك أن تطبيق تلك العقوبة خلال السنة الماضية قد اقتصر على حادثتين اثنتين فى بلاد شاسعة كالمملكة العربية السعودية يزورها كل سنة ملايين الخلق لأداء مناسك الحج والعمرة ، وقد حققت قسوة تلك العقوبة التى هى أمر الله ما نطمح اليه ، فقد انقطع دابرالسرقة أو كاد فى بلادنا ، ويستطيع أى

زائر أو أى مواطن ان يتنقل بمفرده آلاف الأميال ، وهو آمن على نفسه وماله ضامن انه لن يعتدى عليه انسان . ثم قل لى أنت . هل حققت قوانينكم الوضعية القضاء على السرقات ، أو انها شجعت الناس بالفعل على التفنن فى السرقات .. لقد قرأت فى صحفكم اليوم مئات الحوادث من السرقات المصحوبة بالعنف بالأساليب العلمية التى يذهب ضحيتها كل سنة مئات الألوف من الأبرياء ، واحصاءاتكم تؤكد أن اكثر حوادث القتل ناجمة عن السرقة . فدعنى أسألك اذن هل تعتقد صادقا أن قطع يد شخصين ثبتت عليهما جريمة السرقة دون مبرر من حاجة أو املاق ، فسلم المجتمع كله واستقر الأمن وشاعت الطمأنينة . هل هذا القانون افضل ، أم قانونكم الذى ترتكب فى ظله أبشع جرائم القتل بدافع السرقة والاغتصاب . أما عن عقوبة الرجم للزانى والزانية فقد أحاطها الاسلام بالاحترازات الكثيرة التى تجعل اقامة الحد فيها متعذرة بالبينة ، بل مستحيلة . ولم تطبق هذه الجريمة فى حكم الاسلام كله الا بالاعتراف .. أفهذا افضل أم ما فى مجتمعكم من مباذل أخلاقية أستحى أن أشير اليها .. ؟ » .

فحنى اليهودى رأسه موافقا وضجت القاعة بالتصفيق .

ولعل جهل بعض حكام المسلمين بحقيقة الحدود التى أوجبها كتاب الله الكريم يشبه جهل هذا اليهودى .. بسبب البيئات التى نشأوا فيها والمصادر التى أخذوا عنها والدعايات المسمومة والشبهات المحمومة التى حملت عليها وهى منها براء . وبسبب تقليدنا الأعمى للغرب نتيجة البرامج التعليمية التى زرعها فينا المستعمر قبل ان يجلو عنا ثم بسبب غلبة الدنيا على كثير من علماء المسلمين الذين يختارهم الحاكمون ليسيروا فى ركابهم ، ويفتوا لهم بما يخالف الدين حبا فى مركز تافه أو جاه رخيص .

من هذا الجهل ما ذكره أحد المفكرين المسلمين قال : « ان رئيس دولة اسلامية تحدث فى حفل قومى عن نهضة بلاده وتطورها والانجازات التى تمت فى عهده الميمون (!) فندد بالذين يطالبون بتطبيق حدود الاسلام ، وقال : ماذا يريد هؤلاء ؟ هل يريدون أن نطبق عقوبة السرقة مثلا فنقطع أيدى الناس فى القرن العشرين ؟ !

يقول الكاتب : « فذهبنا اليه من الغداة ولمناه على ما تعرض له بجهل، وقلنا له : ان الاسلام لا يقطع يد السارق الجائع وانما يضرب على ايدى الذين اجاعوه . وتاريخ تطبيق هذه العقوبة يشهد انها حسمت الجريمة حسما يكاد يكون نهائيا . مع ان الذين طبقت عليهم لم يتجاوزوا الآحاد .. فأى حق للقرن العشرين فى مؤاخذة الاسلام على حسم الجريمة التى لم تزل تثبت احصاءات الشعوب انها المسئولة عن اكثر جرائم القتل ؟ فأبدى الحاكم أسفه الشديد لما قال لانه يجهل حقيقة الاسلام ! !

واذا نحن عرفنا الشروط التى توجب توقيع هذا الحد ، ادركنا ندرة تطبيقه . من تلك الشروط التى تختلف من مذهب الى آخر مثلا ، حصول فعل السرقة خفية فأخذ المال اختلاسا او مجاهرة يتنافى مع الخفية . وان يكون المال مملوكا للغير ، فلا يقام الحد اذا وجدت شبهة الملك .

كما يجب ان يكون المال المسروق محرزا ؛ مع توافر نصاب معين . ولا يوقع الحد الا على السرقة التامة . وفى راى بعض الفقهاء ان المقصود بالسارق هو من احترف السرقة ، وفى مثل هذه الحالات يفلت من الحد . وتوقع عليه العقوبة التعزيرية . واهم شروط الحد شبهة الحاجة وظروف المجتمع .

ويقول الدكتور حسن عباس زكي الوزير المصرى السابق ومستشار رئيس دولة اتحاد الامارات العربية ، والمستشار الاقتصادى للرئيس جعفر النميرى ، فى مقال له بجريدة الانوار ١٥ / ٦ / ٩٧٣ : « انه قرأ لمؤلف فرنسي كتابا جاء فيه : لو ان العرب عرفوا قيمة الاسلام لحكموا العالم الى ان تقوم الساعة » وان احد الكتاب الانكليز تناول نظام الزكاة فى الاسلام ، فوصفه بانه افضل حل اجتماعى لمشاكل العالم . وان النظام الاسلامى يشتمل على روائع لو درست على حقيقتها وطبقت لكان لها نتائج باهرة . اننا احوج ما نكون الى تحليل ودراسة وتعميق لمفاهيمنا الحقيقية بطريقة علمية وعملية » .

ويعتقد المفكرون الغربيون على اختلاف نزعاتهم ، باستثناء اقلية ضئيلة من الملاحدة الماديين ان سبب الضياع الوجدانى والعقم الروحى اللذين اصبحا طابع الحضارة الغربية اليوم واوشكا ان يؤديا بها الى الاندثار والدمار هو غياب الدين ، وأن الحل الوحيد للمشاكل المعقدة التى تهدد تلك الحضارة هو الحل الدينى ، وقد سبق أن اشرنا الى آراء بعض أولئك المفكرين ،وآخر ما وصلنا من تنبؤاتهم الموحية قول رئيس أكاديمية نيويورك : « ان الرقى والاحترام وعظمة الأخلاق والعطاء الروحى والمشاعر السامية ، لا يمكن الوصول اليها عن طريق الالحاد . لأن الالحاد مظهر لسخف الانسان الذى يريد أن يجلس على عرش الله . ان حضارتنا تنتحر لغياب الوازع الدينى ، وسوف يجىء يوم قريب ، يتحول فيه النظام الى فوضى ، وينعدم التوازن وضبط النفس ، ويتفشى الشر فى كل مكان . ويبدو أن الأمور لن تستقر الا بالعودة الى الله » .

وفى هذا يقول « جوليان غرين » الفيلسوف الانجليزى الذى أختير عضوا فى الأكاديمية الفرنسية على غير المألوف اذ جرت العادة ان يظل هذا الشرف مقصورا على الفرنسيين . يقول : « ان ظاهرة هذا الجيل هى الانحلال والتفسخ ، وأن لا شىء ينقذ الحضارة الغربية الا الانعتاق والتغلب على نوازع الجسد بالتأمل الروحى والارتداد الى الدين الذى يستطيع وحده أن يحل فى النفس البشرية السكينة والأمل محل القلق والتمرد » !

لقد أدرك أولئك المفكرون ان العلم طاقة نسبية متغيرة متطورة ، أما الله فمطلق وعلة غائية ، وكيف يمكن لعقل قاصر وطاقة نسبية أن تعالج ما هو مطلق بالشك وفرضية الصدفة .

وفى هذا يقول الكاتب الهندى الكبير الأستاذ وحيد الدين خان :«ان ما نراه على الأرض من مادة عادية خالية من الروح تحتاج الى ملايين البلايين من السنين حتى يتسنى امكان وجود « جزيئى بروتين » فيها بطريق الصدفة ، بدلالة العناصر المشعة التى تثبت انه قد مر الف واربعمائة مليون سنة

على تجمد اقدم جبال الأرض . فكيف يمكن ان توجد خلال مدة الألفى مليون سنة التى هى عمر الأرض فى تقدير كبار العلماء ، ملايين أنواع الحيوانات والنباتات التى توجت بخلق الانسان ؟ هل يمكن الاعتماد على نظرية النشوء والارتقاء على أساس الصدفة المحضة ؟ . لقد حاول الرياضى الشهير « باتو » تقدير هذه التغيرات بحسبة رياضية ، وكانت خلاصة أبحاثه ان احتمال تغير جديد فى جنس واحد قد يستغرق مليونا من الاجيال .. وصل الى نتيجة تشبه الحتمية العلمية ، وهى أن الامكان الرياضى فى توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة فى نسبتها الصحيحة يقرب من لا شىء » .

لابد اذن من العودة الى الله .. ولابد من الحل الدينى والفكر الدينى لمواجهة معميات ومشكلات الحياة .

ان استقراء ما اوردناه فى هذه الصحائف عن تجربة الاسلام الفريدة فى تاريخ الانسانية يؤكد لنا تاكيدا قاطعا أن العقيدة ، لا « عقدة أوديب » هى التى صنعت تلك الشفافية الروحية المتميزة فى حياة البشر ، وان الشريعة، لا مبادىء فرانسيس بيكون وكارل ماركس ، هى التى احدثت ذلك الانقلاب الهائل فى التفكير والشعور والسلوك بما يحفظ للانسان كرامته وللمجتمع استقامته ، وللدولة مسؤوليتها بحيث يصبح ازهد الناس فى العيش أملكهم لأسبابه واقدرهم عليه .

ولقد سقنا لك فى كتابنا « مجتمع الكراهية » من قصص تلك النماذج البشرية الباهرة التى حققت تلك التجربة بعفوية مذهلة ، ما يكاد يدخل فى حكم الخوارق للعرف الانسانى .. وكتب التاريخ والسير والفقه مكتظة بالبطولات النفسية والروحية والخلقية الفريدة العجيبة التى كان تحققها مرة دليلا على امكانية تكررها ، اذا استطعنا أن نرتفع الى مستواها الرفيع .

هذا محمد وقد اصبح سيد الجزيرة العربية دون منازع يقضى على شبهة الغرور فى نفسه فلا يعف عن أن يخصف نعلهويغسل ثوبه ويرقع قميصه .

وتقول السيدة عائشة ام المؤمنين : كان ياتى علينا الشهر لا نوقد فيه نارا انما هو التمر والماء . وما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثا حتى مضى لسبيله .. وما اكل آل محمد اكلتين فى يوم واحد ، الا وكانت احداهما تمرا .

ويلحق الرسول الأعظم بالرفيق الأعلى وليس عند أهله الا سبعة دنانير . ويدخل المسجد فى مرضه الأخير ، متكئا على كتفى عمه العباس وابن عمه على ، فيأمر ابا بكر أن يصلى بالناس ، ثم يقوم بعد انتهاء الصلاة : أيها الناس من كنت ضربت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت أكلت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه .

وجرى ابو بكر على سنة صاحبه رسول الله ، فقد روى عنه انه كان قبل البيعة يقضى حاجة جارة له فيحلب لها شاتها ، فجاءته شاكية أن الخلافة

منصرفه عما كان يؤديه لها من خدمة ، فيقوم معها وهو خليفة الرسـول وصاحب حروب الردة ، فيحلب لها شاتها كما كان يفعل من قبل .

وهذا عمر يشارك المسلمين ويساويهم بنفسه فى عام الرمادة فيجوع حتى يتغير لون وجهه من طول اكل الشعير دون ادم ، وفى بيت المال الكثير لو اراد وهذا ابنه عبد الله يراه قادما يحمل قربة ماء فيقول : ماذا صنعت بنفسك يا امير المؤمنين ، فيقول : خفت على نفسى الغرور فاردت أن اقدمهـا بمـا ترى . .

وقصص تشدد عمر فى المساواة بين الناس أكثر من ان تحصى ، ويكفى ان نذكر بقصته مع جبلة بن الايهم أو بقصته مع عمرو بن العاص ، ولعل من اعظم الكلم الخالدة فى تلك التجربة المعجزة قولة عمر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ وقولته لابن القبطى : اضرب ابن الاكرمين اى ابن عمرو بن العاص ، امير مصر،وماأدراك مامصر ، كنانة الله فىأرضه فلا يوجد فى الاسلام كبير وصغير . . اكرمون وغير اكرمين . مدللون ومسحوقون سادة وعبيد . . حكام وارقاء . . بل هناك مسلمون متساوونكاسنان المشط لا يفضل بعضهم بعضا الا بالتقوى والصلاح وخدمة المجتمع والامر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ولذا قرر الاسلام اخلاقية الممارسة الفعلية والسلوك النبيل فالنذل نذل ، ولو ارتطم راسه بالسماء ، والفاضل فاضل ولو كان اجيرا او حجاما .

يقول « ابن خلكان » : « شهد عند ابى يوسف يوما الفضل ابن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد ، فرد شهادته ، فعاقبه الخليفة فى ذلك قائلا: لم رددت شهادته . قال : سمعته يقول لك : انا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للعبد ، وان كان كاذبا فكذلك ! .

وقصة على بن ابى طالب المشهورة ، حين شكاه يهودى الى عمر ، فقال له عمر : قم يا أبا الحسن ، الى مجلس القضاء مع خصمك . فامتعض على وبان الغضب على وجهه ، وبعد اصدار الحكم ، سأله الخليفة ، لم غضبت ، فاجابه : لانك قلت لى : يا أبا الحسن ، والكنية تعظيم لى وتمييز على خصمى ! .

ولعل من اعظم واخلد الوثائق التاريخية فى نظم القضـاء وأصوله رسالة عمر بن الخطاب الى قاضيه ابى موسى الاشعرى :

« سلام عليك ، اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . وآس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » . حتى يقول : « ان الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات،والايمان بالشبهات.وإياكوالقلق والضجر

والتاذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فان الحق فى مواطن الحق يعظم به الأجر ويحسن به الذكر ، فمن صحت نيته ، واقبل على الناس كفاه الله ما بينه وبين النـــاس ، ومن تخلق للناس بما يعلم انه ليس من نفســـه ، شانه الله » .

فهل يستطيع زاعم ان يزعم ان ارقى ما وصلت اليه النظم القضائية فى المجتمعات الحديثة يعادل هذا المنهج الذى لخصه عمر فى كتابه هذا ؟ وهل يستطيع جميع فلاسفة الدنيـــا ان يخرموا حرفا واحدا مما الهمه عمر قبل اربعة عشر قرنا ؟

ولمـــا قدم على عمر رضى الله عنه « بأخماس فارس » نظر الى شيء لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة ، فبكى ، فقـــال له عبد الرحمن بن عوف : هذا من مواقف الشكر فما يبكيك ؟ قال : اجل ولكن الله لم يعط قوما هذا الا القى بينهم العداوة والبغضاء » .. ما اصدق نبوءتك يا امير المؤمنين !

وجاء فى كتب السيرة : « كنا مع النبى فى جنازة فلما انتهينا الى القبر ، جثا النبى فاستدرت فاستقبلته ، فبكى حتى بل الثرى . ثم قال : اخوانى ، لمثل هذا اليوم فاعدوا .. ان القبر ليقول : يا ابن آدم ماذا اعددت لى ، الم تعلم انى بيت الغربة ، وبيت الدود ، وبيت الوحدة ؟ »

ومرت به يوما جنازة ، فوقف لهـــا فى خشوع ، حتى اذا جاوزته،قال له اصحابه : يا رسول الله انها جنازة يهودى ، فأجابهم غاضبا : يا سبحان الله ، اليست نفســـا ؟

وعندما افتتح رسول الله « خيبر » قال له اليهود : نحن اعلم بعملها منكم . فأعطاهم اياها بالنصف ، ثم بعث عبد الله بن رواحة يقسم بينه وبينهم ، فأهدوا اليه فرد هديتهم وقال : لم يبعثنى النبى لآكل أموالكم ، وانما بعثنى لاقسم بينكم وبينه ان شئتم كلت لكم النصف وان شئتم كلتم النصف . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

لم يكن قصدى من ايراد هذه القصص لهذه النماذج الشامخة ، الحصر ، بل الدلالة . وكتب السلف مكتظة بأمثالها فى الروعة والسمو والعدالة ، والارتفاع على المغريات ، وحب الموت فى سبيل الله .

سقناها لنتحدى المفكرين الثوريين التقدميين المبهورين بنماذج الحضارة الغربية مع قصور عقولهم عن التفريق بين الغث والسمين ، نتحداهم ان يقنعونا ان الابداع المـــادى الذى حققته أوروبا استطاع ان يرتفع بنفوس من صنعوا تلك الحضارة الى تلك الذرى السامقة .

فنتحداهم ان يثبتوا لنـــا ان هناك حضارة فى العالم تستطيع ان توازى أو تدانى حضارتنا فى اخلاقياتها وقيمها الانسانية ومفاهيمها الروحية .

نتحداهم ان يجيئونا بشريعة وضعية تصل بالتنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الى ما تسامت اليه شريعة الله .

نتحداهم ان يدلونا على منهج حياة يعادل منهج الاسلام فى البر والرحمة والتكافل الاجتماعى والتنظيم والتخطيط واقامة التوازن بين الفرد ومجتمعه ، بل بين جميع الاجناس والالوان دون تمييز !

ان سبب مصائبنا هو انضواء العقيدة التى صنعت تلك النماذج ، وانطواء الشريعة التى وضعت تلك المبادىء ..

ولذا فان المعركة فى هذه المنطقة هى صورة مصغرة للمعركة فى الدنيا كلها اليوم .. هى معركة الدين قبل كل شىء وبعد كل شىء .. ومن يستطيع ان ينكر وهو يرى ويسمع ما يغمر ساحتنا اليوم ، ان المعركة المحتدمة هى معركة بين العرب والاسلام اكثر مما هى بين العرب واسرائيل ..

واذا كنا نفهم لماذا يحارب الاسلام اعداؤه من صهيونية عالمية وشيوعية دولية ، وراسمالية صليبية ، فاننا لا نستطيع ان نفهم لماذا يحارب الاسلام بعض ابناء الاسلام .

لماذا يخضعون خضوعهم الاعمى للمؤامرة الدنيئة التى اوهمتنا ان سبب تخلفنا هو الدين ، واننا لن نصبح اقوياء الا اذا كنا ملحدين ، واننالانستطيع ان نكون متمدنين الا اذا انكرنا وجود الله ! .

الم يعلموا انهم بذلك يقفون فى صف اسرائيل ؟

لكن امثال هؤلاء يجهلون حقيقة القوى الهائلة التى ينطوى عليها الاسلام . ان الله يمهل ولا يهمل ، فهذه الاكثرية الصامتة التى عاشت ربع قرن معزولة عن الاحداث ، فاغضت طويلا على القذى ، وسكتت طويلا عن الاذى ، وهى ترى رؤوس الفتنة واذنابها يسرحون ويمرحون .. هذه هى تتململ ، وتتحرك وتتجمع ، بعد ان بلغ السيل الزبى ، ووصل الماء الى الابطين ..

واذا نهد انصار العقيدة ، ونهض حماة الايمان فالزبد سرعان ما يختفى ويبقى ما ينفع الناس .

اننا لا نخاطبهم بهاجس الرهبة مما يكيدون ، هم واسيادهم الاولون والاخرون ، فالاسلام رغم انوفهم بخير ، وهو كان وسيظل دائما الاقوى والابقى ، والاقدر والاجدر ، مهما تلاحقت المكائد والدسائس والمؤامرات ..

هو سلاح النصر لهذه الامة .. واساس البقاء !

ولن يهزم اسرائيل غير الاسلام والجهاد تحت راية الله اكبر ، ولا اله الا الله .. والعاقبة للمتقين .

وهـــذه هي تباشير العـــودة الى الله تتردد اصداؤها فتطغى على نباح المسعورين .. وصخب المأجورين .

هذه هي الدعوات الخيرة تتنادى ، وتتجاوب لاقامة مجتمعاتنا على أساس العـلم والايمـــان .

هذه هي المـــادة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية تنص على ان الشريعة الاسلامية مصدر رئيسى للتشريع .. والمـــادة السادسة من دستور اتحاد الجمهوريات العربية ، تؤكد على القيم الروحية ، وتتخذ الشريعـــة الاسلامية مصدرا رئيسيا للتشريع .. والمادة الحادية عشرة من الدســـتور تلزم كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد ان لا يتعارض دستورها مع أحكام دستور الاتحاد .

لقد اسمينا هذه البوادر تباشر ، لانها كانت قبل سنين قليلة — قبيل معركة المذلة والهوان ، من احلام اليقظة ، واوهام الحالمين ! فقد كان مجرد ذكر الاسلام وصمة عار فى دساتير العقائديين والتقدميين والثوار(!) .. وتلبسا بالجريمة فى دول المخابرات والخونة والعملاء .

التقدمية فى مفهومهم ، التهجم على الدين .. والثورة فى مفهومهم ثورة على الاســـلام !

وهؤلاء هم بقايا فلولهم يطلون برؤوسهم من جديد ، من كوى الامبريالية ، وصوى الصهيونية ، يريدونها جذعة عودا على بدء .. والله ناصر دينه ولو كره الكافرون .

ومن تلك التباشير ، اجماع اساتذة الحقوق فى العـــالم العربى فى الندوة التى عقدوها فى بيروت فى أواخر ســـنة ١٩٧٢ ، على ضرورة احياء الشريعة الاسلامية فقد عرض الدكتور مصطفى زيد الأستاذ فى كلية الحقوق فى جامعة بيروت العربية لقصور مناهج الشريعة الاسلامية عن استيعاب جوانب الفقه الاسلامى ، واكد ان الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وابدى اله لأننا لا نتعامل بها قانونيا .

وطالب الدكتور « عبد المنعم الصدة » رئيس الندوة وعميد كلية الحقوق فى جامعة بيروت العربية ، برفض كل رسالة تقدم فى الدراسات الحقوقية العليا اذا تجاهلت أحكام الشريعة الاسلامية .

وطالب الدكتور عبد المنعم البدراوى عميد كلية الحقوق فى جامعـــة القاهرة بانشـــاء معهد للدراسات المقارنة للشريعة الاسلامية .

واوضح الدكتور على راشد الأستاذ فى كلية الحقوق فى جامعة عين شمس ان الهدف من تدريس الشريعة الاسلامية فى كليات الحقوق هو التمهيد لاحيائها وتقنين أحكامهـــا .

واوضح الدكتور عوض عوض الأستاذ فى كلية الحقوق فى الجامعة الليبية : انه من السهل على رجال الشريعة الاسلامية الرجوع الى كتب القانون الوضعى لكن من الصعب على رجال القانون الرجوع الى كتب الشريعة الاسلامية .

واكد الدكتور محمد حلمى رئيس قسم القانون العام بكلية الشريعة والقانون فى جامعة الأزهر : على ضرورة تدريس الشريعة الاسلامية بكليات الحقوق ، بواقع ثلاث ساعات فى الأسبوع . لأن دراسة تلك الشريعة فى كليات الحقوق متخلفة عن ركب التطور ، ولذا يظل خريجو هذه الجامعات عاجزين عن استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها . وانه قد آن الوقت لتصبح قوانيننا الوضعية متفقة مع الشريعة الاسلامية .. وان على القضاة ان يتفهموا القانون وان يطبقوه فى ضوء أحكام الشريعة الاسلامية وان يستلهموا احكام هذه الشريعة فى وضع القوانين وتفسيرها وتطبيقها .

وتساءل : هل تكفى دراسة الشريعة الاسلامية فى كليات الحقوق بوضعها الحالى لاعداد الشخص القادر على وضع التشريع المتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية ؟ . أو اعداد القاضى القادر على تطبيق القوانين المستمدة من الشريعة الاسلامية وتفسيرها : واجاب على السؤالين بالنفى ذلك ان دراسة الشريعة الاسلامية فى كليات الحقوق بوضعها الحالى قاصرة عن بلوغ هذين الهدفين .

ومن تلك التباشير ما قاله الدكتور يوسف السباعى وزير الثقافة فى مصر ، اخيرا فى حديث له منشور فى جريدة الأنوار ١٩٧٣/٤/٩ وهو ما لم يكن يجرؤ أحد على قوله من قبل : « ان الرئيس عبد الناصر قد حدد معالم الاشتراكية العربية بأن الدين فيها اساس المجتمع » .

وقول الرئيس انور السادات فى خطابه امام مجلس الشعب فى ٧٢/١٢/٣١ : كلنا مطالبون بان نلتزم بقيمنا وتقاليدنا ونرفض أى تيار يهدد تلك التقاليد » .

وقول الرئيس حافظ الاسد فى رسالته الموجه الى الشعب السورى قبل الاستفتاء على الدستور : « ان الاسلام هو دين العدالة الاجتماعية .. الدين القادر على استيعاب روح العصر ومواكبة التطور ، القادر على ان يكون دافعا الى التقدم » .

اما تجربة الرئيس القذافى ، فهى أشهر من ان نشير اليها ونسأل الله له الهداية والتوفيق .

ولست ادرى ما اذا كان القادة العرب يدركون هذه الحقائق ادراك يقين وتفهم وايمان أو ادراك لجلجة واستغفال واستغلال.. او دفعا لتهم الخصوم وتمشيا مع شعارات الوقت . ودلالة اقوالهم التى لا تخطىء ان التيار الاسلامى الصادق آخذ يهدر من جديد ، ولن يستطيع احد ان يعترض سبيله .. او يعارض مجراه .. والويل لمن تسول له نفسه ان يتخذ كلام الله وسيلة وذريعة فاذا انقلبوا الى شياطينهم استهزؤوا به .. الله يستهزىء بهم .

لقـــد كان المؤمنون قبل الخامس من جزيران ســـنة ١٩٦٧ يتورعون عن مجرد الهمس بمثل هذه الحقائق المنيرة خشية الارهاب الفكرى المصلت فوق اعناقهم ، وخوفا من الاتهام بالرجعية والتخلف ، فاصبح القـــادة والمفكرون الصادقون يقولونها اليوم بصوت جهير ، بعد أن جربنا جميع ايديولوجيات الدنيـــا اوغفلنا عن الايديولوجية الوحيدة التى تكون الحافز على الاستبسال وهى ايديولوجية الاسلام .. لقـــد استنفر القـــادة للخير بوخز جماهيرهم الظامئة للثار ، وهذه هى قافلة الاسلام تسير من جديد كما يقول الشاعر العظيم والمصلح الكبير والمفكر الثائر محمد اقبال .

ان الشباب المؤمن الذى اعتنق مثاليات الاسلام واخلاقيات الاسلام ونظامه الفريد يعيش اليوم واقعا اسود متناقضا مع تلك المفاهيم .. ولذا يعانى الكثير من الشكوك والكثير من التساؤلات ، لعرفانه بأن مبادىء الاسلام لو طبقت تطبيقا صحيحا لوضعت الحد القاطع لتلك الشكوك والتساؤلات .

اننا نقول لأولئك الشباب : لا تقنطوا من رحمة الله ، فالله ناصر دينه حين يقوم من ينصره ، ومن طبيعـــة الاسلام الخالدة انه يتجدد بعد كل « كربلاء » جديدة ، فالشرور المحيطة بنا لن تدوم وفينا عرق ينبض وفى يدنا كتاب الله ، والفرص المتـــاحة التى تلوح بشائرها على الأفق القـــريب تدعو المؤمنين الى التضامن والتكتل هى أقوى ألف مرة من رياح التناقضات الموجودة بينهم اليوم، مما يجعل اقامة المنظمة الاســـلامية المنشودة امنية ممكنة التحقيق لاسمادير احلام ، وانما نحتاج الى من يضع أول لبنة فى البناء الشامخ ويخطو اول خطوة فى رحلة الألف ميل . نقول لأولئك الشباب : ان التحزب كفر وخيانة ، وتفسير ذلك بالمنطق الموضوعى الهادىء والحوار الجاد ، ان المتحزب لا يحقق مصلحة خاصة أو مصلحة عامة ، فتحقيق المصلحة الخاصة أن يكون الفرد مواطنـــا شريفا كريما نظيفـــا فى مجتمع شريف كريم نظيف ، وتحقيق المصلحة العـــامة لا يكون بالخروج على الجماعة وتمزيق شمل الأمة الى ملل ونحل وتناقضات.

نقول لأولئك الشباب : ان الايمان بلا علم تواكل يلفظه الاسلام ، وأن الدين بلا ممارسة مراء وهراء يتعارض مع بديهيات الحياة .. العلم والايمـــان طرفا مشكلة فكرية وخلقية ، وتعانقهما معا ضرورة حتمية للبقاء ولذا فان ما نراه من اعتماد الدول الاسلامية على استجداء المنجزات العلمية من الغرب لا يجـــدى فتيلا . يجب أن نبدع نحن تلك المنجزات لنكون سادة انفسنا لا كلا على غيرنا، يقطع عنا ويمنع حينما يشـــاء . اليس من المستغرب أن نكون متسولين وأن نملك فى نفس الوقت الحرية والاختيار ؟ ان قوتنا الحقيقية تنبثق من ذاتنـــا ، لا من ارتمائنا فى أحضان أعـــدائنا .. وأى عاقل يصدق أن أعداءنا يمكن أن يمنحونا معدات الدفاع عن انفسنا ازاء ما يكيدونه لنا كل صباح ! .

ولمـــاذا تعجز الدول العربية والاسلامية عن اعداد القدرات الفنية واقامة المعامل والمصانع الحربية ، بطاقاتها المادية التى لا تنفذ، لنملك أمر أنفسنا ونحك جلدنا بأظافرنا ؟! .

لقد عرفت الصهيونية هذه الحقائق .. ومنذ مؤتمر « هرتزل » الأول أعدت العدة لتنفيذ مؤامراتها بالتعاون مع الاستعمار ، بزرع الفوضى والتمـــزق فى

العـــالم العربى ومن ورائه العـــالم الاسلامى ، واعداد المنـــاخ الملائم لقيام اسرائيل .. على اشلاء اسلامية المسلم وارضه ومقدساته .. ووضعت المخططات العلمية المدروسة مرحلة بعد مرحلة بدءا بالارساليات التبشيرية ومدارس الاستشراق التى تشكك المسلم فى دينه وتسلخه عن أصوله الحضارية وينابيعه الروحية ، وتحمله بالرغبة والرهبة على اعتناق المذاهب الغـــربية والفلسفات الغربية والاخلاق الغربية ، التى تبدد ولا توحد،وتبعده عن اقتباس العلم الغـــربى .. فيعود الينا معظم ابنائنـــا الذين نوفـــدهم الى الجامعات الغربية ، محملين بالقـــاذورات الغربية بدل العلوم الغـــربية . وبذا أصبحت الساحة العربية أو كادت مباءة لأبواق الاستعمار من أصحاب الشـــعارات والايديولوجيات وخلت او كادت من العلمـــاء المبدعين المختصـــين فى فنـــون التكنية والنظريات العقلية العلمية المبنية على التجربة والاختبار .

اجل .. لقد عرفت الصهيونية كيف تدمر الشخصية العربية فتلهيهـــا بالتفاهات وتحجزها عن ادراك مسلمة بسيطة فى جملة واحدة بسيطة هى : أن من لا دين له لا مروءة له : وان معنى ممارسة الايمان فى ظل المنهج الاسلامى هو قوله تعالى : « **لم تقولون مالا تفعلون** » فحق علينا امر الله:نقول مالا نفعل ونفعل مالا نقول .. وقوله تعالى : « **ان هذه امتكم امة واحدة** » فاصبحنـــا ثمانى عشرة امة بعدد الدويلات والامارات والمشيخات .. ! وقوله تعـــالى : « **والمؤمنون والمؤمنات : بعضهم أولياء بعض** » .. فطفقنا الآفاق نفتش عن أولياء لنا من الأعداء ! وقوله تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه،أشداء على الكفار رحماء بينهم** » فاصبحنا رحماء مع الكفار ، اشداء فيما بيننا!وقوله تعالى : **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد** » دعوقلنا الى الاتعاظ بما جررناه على انفسنا ، فكانت العبرة الوحيدة التى استلهمناها من مأساتنا الفـــادحة ، القعود عن الجهاد والركوع لمشاريع التسوية والاستسلام ! .

وبذا اختفت الشخوص الواعية التى يوجهها العلم ويحركها الايمان .. التى تستعلى على عدوى الجماهير التى علموها شيئا واحدا : كيف يمزق حناجرها الهتاف ويقطع اياديها التصفيق لمواكب الدكتاتورين والقادة الفاسدين والساسة المهرجين !! فتحولت المجتمعات العربية الى قطيع لا يدرك ماذا يراد به ، وماذا يريد ؟!

وكأننا من يكون الافراد الذين يتألف منهم القطيع ومهما تفرقت طرائقهم فى الحياة ، واختلفت اعمالهم واخلاقهم .. وتميز ذكاؤهم فانهم يتحولون فى القطيع الى جهاز عقلى ممسوخ .

الفرد فى القطيع يصاب بهزة نفسية تجعله يرضخ للغريزة التى كان بامكانه السيطرة عليها لو استطاع التحرر من عدوى القطيع ! فيخضع للتدليس والكذب وكأنه مخدر مغطى على بصيرته .. وتذوب شخصيته فى شخصية من خدروه ، ويصبح آلة لا عقلانية لا اخلاقية يحـــركها الحماس المفتعل للجماهير .

الفرد فى القطيع يتسلم ، لا شعوريا لا اراديا ، لنبض مفتعل مشوب بالدوار فينحط سلوكه الاخلاقى ، ويأخذ الاراء الفجه كسلمات ويصبح كالطفل غير قادر على التحكم فى ارادته وادراك ابسط صور التفكير .

وفى هذا يقول « الشاعر كبلنج » : « اذا استطعت ان تحتفظ بعقلك بينما جميع من حولك قد فقدوا عقولهم ، فقد يكون ذلك لانك لم تسمع الانباء بعد » !

هكذا تحول المجتمع العربى الى مجتمع كراهية وانانية وأحقاد ، وقطيع سادر لا يدرى متى تتناوشه سكاكين الذباحين .

ورضخ رضوخا اعمى لعملاء الصهيونية والشيوعية والامبريالية الذين صنعت عقولهم فى دهاليز الاعداء المعتمة ، وانبثوا فى الدنيا العربية يبيعون الناس الغش والتفاهة فى اطر براقة .. ويجرعونهم برشامات دواء مترعة بالجراثيم ! .

لكنهم خدعوا بعض الناس ، بعض الوقت ، او كل الناس بعض الوقت .. وهؤلاء هم قد انكشفوا وانفضحوا وتهتكوا واخذوا يتهاوون كورق الخريف ويلهثون كحمر مستنفرة فرت من قسورة ..

ان الاثرة والطمع والجشع هى طابع الواقع العربى اليوم . والاسلام لا يعتبر حب الذات خطيئة ، فالذى لا يحب ذاته لا يعرف كيف يحب الاخرين او لماذا يجب أن يحبهم ، ولا يدرك معنى الاخلاص لقضية أو فكرة . لكن الاسلام يحارب الاثرة لانها انعزال وحقد وطمع لما فى ايدى الاخرين ومثل هذه الأثرة هى التى تحول المجتمع الى شظايا وخلايا وفرديات متعارضة بل متعادية وذلك هو مجتمع الكراهية الذى يناقض المجتمع الاسلامى المتضامن المتكافل القائم على المحبة والايثار .

مجتمع الكراهية.. وطريق النصر

الإسلام بين سفه الخاصة
وجهل العامة وتخلف العلماء

مرد النكبات التى حلت بالشعب العربى والامة الاسلامية ، الى ان وجود الدين الاسلامى ، يكاد يكون متوقفا فى الدنيا اليوم ، بسبب تخلى الدول الاسلامية عن مبدأ الدين الاساسى فى افراد الله تعالى وحده بالالوهية والحاكمية ، وانصرافها عن الحكم بشريعة الله وحدها فى كافة شؤون الحياة.

وبدل أن يكون لكل سلوك انسانى غاية اخلاقية ، اصبح لكل سلوك انسانى غاية نفعية مادية .

وقد تم ذلك كله وفق مخططات المؤامرة الصهيونية الامبريالية .

فنقرأ فى « بروتوكولات حكماء صهيون » مثلا : « يجب ان نعمل لتنهار الاخلاق فى كل مكان ، لتسهل سيطرتنا . ان « فرويد » منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوءالشمس ، لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همه الاكبر ارواء غرائزه الجنسية . لقد رتبنا نجاح « دارون وماركس وفرويد » بالترويج لآرائهم . وان الاثر الهدام للاخلاق الذى تحدثه علومهم فى الفكر غير اليهودى ، واضح لنا بكل تاكيد » .

لقد كان هدف اليهود حين تنكروا لرسالة موسى ، وصنعوا لانفسهم الها ظالما يسوقهم الى العدوان والقتل والسرقة والكذب فى سبيل مجد شعب الله المختار ، محاربة الاديان السماوية التى تأمر بالمحبة والمساواة وهى المسيحية والاسلام .. وقد استطاعوا مع الاسف أن يثخنوا فى المسيحية ، ولم يبق فى مواجهتهم الا الاسلام . وهذا يفسر لنا اضطغانهم الشديد ضد الحضارة الاسلامية ووضع الخطط الجهنمية للقضاء عليها قضاء مبرما ، ليخلو لهم وجه الارض ..

وليست المادية الراسمالية والمادية الشيوعية الا مؤسسات يهودية ، أرست الصهيونية قواعدها لتدمير العالم غير اليهودى ، باقصاء الدين عن الحيـــاة .

ولذا دعونا وندعو الى ضرورة التقاء الاسلام والمسيحية فى جبهة واحدة لمواجهة شرور الصهيونية ومخططاتها التدميرية ، ولحفظ كرامة الانسان وصيانة مصيره من الفساد والالحاد والانحلال .

ومن اعجب عجائب هذا العصر ان الغرب الذى يشعر بعقدة الذنب الملفقة ازاء اليهود ، هو اشد شعورا بعقدة الانتقام المفتعلة ازاء المسلمين منذ اندحار الصليبيين فى القرن الثالث عشر .

مع ان الحروب الصليبية كانت عدوانا صارخا ، من جانب الغرب ودفاعا مشروعا عن النفس من جانب المسلمين .

لقد أوقد نار تلك الحروب المشؤومة الكهنة المتعصبون المخالفون لدين المسيح وفرسان أوروبا المهووسون المضللون .

من منا لا يذكر خطاب البابا «اريان الثانى » فى باريس سنة ١٠٩٥م «أيها المحاربون المسيحيون الأبطال الذين تمعنون فى محاربة بعضكم بدل أن تتجهوا جميعا لمحاربة الكفار . لقد وجدت لكم وظيفة سماوية اذهبوا وقاتلوا البرابرة واغمسوا أيديكم فى دمائهم ، ولا تصغوا لغير انين القدس » .

وما تزال هذه العداوة كامنة فى نفوس الغربيين ، فهم قد يتنكرون للاله وينكرون كل دين ، ولكنهم لا يتخلون أبدا عن حقدهم الأسود على الاسلام والمسلمين .

لماذا ؟ والاسلام صنو المسيحية ورفيقها فى حماية الانسانية ؟ .

لماذا ؟ والمسلمون يؤمنون برسالة السيد المسيح عليه السلام وطهارة امه العذراء البتول أكثر من ايمان الغالبية العظمى من الغربيين ؟ .

لقد جاء الاسلام مكملا لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وواضعا اسس الشريعة الاسلامية للحكم فى الناس .. واذا كان الاسلام لم يكتف بالدعوة الى التقوى والمحبة والصلاح بل وجد ان الانسانية قد اصبحت مؤهلة لشريعة الله فحدد المنهج ورسم الطريق فى تجربة حكم فريدة هى ظاهرة متميزة فى تاريخ الدنيا كلها .. قد ختمت الرسالات ووضعت حدا نهائيا للثورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. فان ذلك يجب أن يحسب له لا عليه ، ولو عرف أعداء الاسلام ، ما انطوى عليه من مبادىء وما جاء به من تشريع .. لوادركوا ذلك بعمق وتجرد ونزاهة لشاركونا الراى فى أنه أمل البشرية الباقى لانقاذها من مهاوى الفساد والضلال والدمار ، بدل أن يناصبوه العداء ، ويساهموا مع عدوتهم الكبرى الصهيونية فى مؤامرة تقويضه من جذوره والقضاء المبرم عليه .

لقد وضع الاسلام الأسس الصحيحة للمجتمعات الصحيحة وللاممية الصحيحة ، ولوحدة الانسانية فى اطار التسامح والمحبة والمساواة والبراءة من عصبيات العرق والجنس واللون حين قرر أن الفكر الدينى متصل اتصالا عضويا بالالتزام الاخلاقى . وبدون ايمان بالله لا يمكن أن يقوم سلوك اخلاقى .. وبدون ايمان بالله لا تكون مرؤة ولا يكون شرف ولا تضحية ولا ايثار، ولا قدرة حقيقية على مواجهة مشاكل الانسانية لأن الايمان هو الاحساس الشفاف بامانة الاستخلاف فى الأرض والشعور المرهف بالمسؤولية المترتبة على ذلك . وعندما يضعف الايمان او يحتضر كما هو الحال اليوم ، تنطفىء جذوة الخير وتخبو حياة الكلمة فتصبح عفنة يابسة تنزف الطاقة وتجرح الحقيقة .. وانما تحيا الكلمة بالسلوك ولا يكون السلوك الا عن ايمان .. فاذا فقد الايمان شاه السلوك وغاب الالتزام وتدهورت الأخلاق .

وهل يقول الفلاسفة الغربيون الذين يشفقون مما تعانيه الحضارة الغربية من دمار خلقى .. هل يقولون غير ما نقول ؟ .

ان المسلم الصادق الايمان لا يعادى المسيحى الصادق الايمان ، ولذا نعتقد نحن المسلمين بانتفاء التناقض بين اصالة الديانتين السماويتين العظيمتين ، فلا ينبغي عندنا ان تقوم خصومة أو يقع صدام بين المسيحية والاسلام، بل محبة ووئام . والصراع الذى كان هو حصيلة الجهل والهوس والجنون .

ذلك لأن المعركة الأساسية فى هذه الدنيا ، معركة المصير الانسانى كله هى بين الكفر والايمان .. بين الاعتراف بوجود الله أو انكار وجود الله ، وأكبر خطيئة ترتكبها أوروبا أن تربى أبناءها منذ الصغر على الحقد على المسلمين .. حقدا ظالما لا يستريح الا بالقضاء المبرم على الحضارة الاسلامية والدين الاسلامى .

ان عداءنا للصهيونية هو عداء مزدوج لا هوادة فيه ، فهى أولا قد ارتكبت جريمة انسانية جماعية فى حق شعب آمن لا يمكن أن تهدأ ثاراتها أو يرضى بها مخلوق ، مهما غلا الثمن وعظمت التضحيات ولو امتدت المناجزة بين حقنا وباطلها الى آخر الزمان .

وهى ثانيا قد حرفت فكرة الالوهية التى جاءبها موسى عليه السلام فصنعت لنفسها صنما متحيزا حاقدا ناقما قد اختص برحمته شعبا واحدا مختارا فحمله هذا التحيز الظالم وذاك الاختصاص اللا اخلاقى على اجتراح اكبر الكبائر وأبشع الجرائم بأنذل واحط المبررات .

ولقد قامت الدنيا كلها فى وجه النازية كفكرة خاطئة ضارة بمسار البشرية لأنها قامت على أساس سيادة العرق ورغبة التسلط على مصائر الدنيا والناس .

فعجبى الذى لا ينقضى لماذا وكيف لا تنهض الدنيا كلها لانقاذ المجتمع الانسانى من فكرة الصهيونية البشعة القائمة على سيادة العرق والعنف والتحكم بحيث أصبحت صورة ممسوخة شائهة للنازية التى طواها الزمان ، هدفها تدمير مفاهيم الانسانية واخلاقيات الشعوب ؟ .

اقرأ ما يقوله دهاقنة اسرائيل :

يقول الكاتب الصهيونى « آموس آلون » فى كتابه : « المؤسسون والأبناء »: « منذ مطلع هذا القرن وضعت البرامج التعليمية على يد المهاجرين الأول لتوحيد التعليم فى إطار مبادىء التلمود ، فتكون فكر سياسى واحد ينبع من تراث اليهود القديم ، وكان الفضل الأكبر فى تحقيق ذلك يعود للاباء المؤسسين الذين وفدوا من روسيا يحملون خمائر الأفكار الاشتراكية الجديدة . وفى « منسك MinSK » عام ١٩٠٢ ولدت « الحركة العمالية الصهيونية » ويروى « آموس آلون » : « ان احدى اللجان البريطانية التى ارسلت الى فلسطين سألت « وايزمن » : « بأى حق يدعى اليهود أن فلسطين لهم . فأجاب : بحق أن اليهود لم ينسوا فلسطين والذين ينسون أوطانهم يفقدون حقوقهم فيها » ! ولولا

جامع الدين واساطير التوراة وخرافات التلمود لتمزقت اسرائيل قبل ان تقوم .. وكل هذا التراث الفكرى والثقافى والدينى يغرس فى نفس اليهودى منذ نشأته الأولى انه ينتمى الى شعب الله المختار وان جميع الشعوب الاخرى هى شعوب ضالة جاهلة لا يستحقون اكثر من ان يكونوا حميرا يمتطيها اليهود الى اغراضهم الدينية .. وكان الدين اليهودى كما صنعه حكماؤهم اختلاقا هو القاسم المشترك الذى وحد بين غايات واهداف وامانى ذلك المـدّ البشرى المتناقض سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، المؤتلف دينيا على اساس التفوق والتميز والاستعلاء العنصرى .

ويقول موشى ديان فى معرض تعريفه لنظرية الأمن الاسرائيلية : « انعلى اسرائيل ان ترسم اهدافها القومية فى حدود الوطن التاريخى لليهود ، أى من النيل الى الفرات ، بل الى منابع النفط العربية ! ولذا يرى « ديان » ان الحدود الحالية افضل من ورقة سلام لا ينسجم مع تلك الامانى ..

ويقول « ابا ايبان » فى كتابه « شعبى My people » : ان اسرائيل لا تنتمى الى شرق أو غرب ، وانما ولاؤها الأول والأخير هو لتراث انبيائها وحكمائها » .

ويقول « وايزمن » غداة قيام اسرائيل : « اعطونا نصف فرصة لنثبت لكم خرافة الوحدة العربية » !

ويقول « بن غوريون » : « نحن لم نهزم العرب ولا مرة .. العرب هم الذين انهزموا امامنا كل مرة » !!

ان مبادىء التلمود تحض على القـتل والاستغلال والابتزاز وابتداع الايديولوجيات اللاأخلاقية التى تخدع الاغرار وتدفعهم الى الصراع الدموى ، فيصفو لهم الجو للتحكم والتسلط على مقدرات الشعوب ، وليس المهم الكثرة العددية بل المهم الاستيلاء على مراكز التوجيه والتأثير الحقيقية وهى المـال والاعـلام ، وبهما استطاعت الصهيونية ان تسيطر سيطرة رهيبة على الاتجاهات السياسية للدول الغربية والشرقية على السواء ، فتسوقها برغمها لدعم مجد اسرائيل ! .

وخضـوع الولايات المتحدة لمـا تمليه عليها اسرائيل لا يحتاج الي بيان حتى لم يعد من الممكن التمييز بين المصالح الأميركية والمصالح الاسرائيلية أو التمييز بين واشنطن وتل أبيب ! .

واستخفاف اميركا وغيرها بالحق العربى رغم حاجة الجميع الى النفط والمال العربيين ظاهرة لا تخفى دلالتها ، فارضاء اسرائيل مقدم على مصلحة تـلك الدول نفسها والسبب فى ذلك غياب الموقف العربى الموحد ، وانحدار الشعوب العربية الى أحط مستويات القلق والتشتت والتبدد بحيث فقد القدرة على التأثير فى السياسة الدولية .. مع انها تحتل مركز القلب من العالم وتنطوى على نصف مخزون الطاقة التى تستطيع بها وحدها أن تملى أراداتها لو توحدت على الكبير والصغير ! .

نستطيع أن نستخلص من هذه المقدمات نتيجة واحدة راسخة هي أن جمع شتات اليهود المتناقضين ثقافيا وفكريا واجتماعيا وسياسيا من تسعين دولة مختلفة الهوية الذاتية والانتماء العقائدى انما قام على أساس قاعدة فكرية واحدة منبثقة من التراث اليهودى ، وعلى خلفية دينية واحدة منبثقة من الخزعبلات والأساطير . وكل ما يكتبه المتحذلقون من مفكرينا عن تفسخ المجتمع الاسرائيلى وعن التشنجات الاجتماعية بين « الاشكناز والسفرديم » .. كل ذلك تضليل للرأى العام العربي المفترى عليه وايهامه بالخداع والتدليس ان المجتمع الاسرائيلى مهدد بالانهيار الداخلى ، وما علينا الا أن نظل فى مطارحنا متخاذلين متشردين نمضغ اوهامنا فى انتظار المعجزة التى لا ريب فيها وفق احكام حتميات الجدلية المادية ! والجدلية التاريخية ! والضحك على الذقون . مع اننا رأينا بأم اعيننا بلا فلسفات ولا تبريرات كيف تختفى تلك المتناقضات المزعومة فى الشدائد والأزمات ، ولا يبقى فى مواجهتنا الا المجتمع المتلاحم المتماسك المتضامن المنطلق لتحقيق المخططات وتنفيذ المؤتمرات ! .

اما نحن فان فى مقدمة اسباب هـذا الشلل الذى نقاسيه ، تبدد الهويـة النفسية والقاعدة الفكرية والخلفية الدينية فى الشعوب العربية بسبب كثرة المبادىء والعقائد والنحل والايديولوجيات ، حتى لقد غدا لكل مهتم بالمعركة المصيرية ، قضية تتناحر مع قضية غيره .. كل حزب بما لديهم فرحون ، ومآل الجميع الى الشتات والضياع ..

وانت لو سألت : ما هو التيار الفكرى السائد بين المثقفين العرب ـــ كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود ، فلن تقع على جواب . فكل صوت مسموع فى دنيا الفلسفة له بيننا اصداء .. ليس لنا مناخ فكرى واحد ، أو قاعدة فكرية واحدة ، بل كل فرد منا برج مغلق على نفسه ، بغير نافذة يطل منها على الآخرين .

اختر حفنة من المفكرين العـــرب .. اخترها كما اتفق ، تجدها تمثـــل كل عصور الفكر منذ فجر تاريخنا الى اليوم .. طاقات فـــكرية سائبة متضاربة لا تلتقى عند هدف . منها القديم الذى لا يعرف عن الجديد حرفا . ومنهـــا الجديد الذى لا يعرف عن القديم حرفا .

ان فى لبنان وحـــدها عشرات من الأحزاب اليسارية ـــ نسميها احـــزابا تجاوزا ، فلعل المنتمين الى بعض تلك الأحزاب لا يزيدون على أصابع اليـــد الواحدة ـــ التى تتخذ الماركسية عقيدة ، ومع ذلك يسودها التناقض والتناحر ولا تلتقى الا على محاربة العروبة والاسلام .. وانتظار الثورة البروليتارية فى اسرائيـــل ! .

ويرى « اقبال » : « ان سر تخلف المسلمين ، يعزى الى امرين: تعودهم عن النهضة العلمية التى كونت الحضارة الغربية المادية ، بسبب ركود التفكير الدينى الصحيح فى القرون الخمسة الأخـــيرة .. ثم جهلهم بالقوة الروحيـــة الدافعة التى جاء بها الاسلام فى عقيدته السمحة وشريعته العظيمة .. ويوم يعى المسلمون أن المواءمة بين ايمانهم من جهة وبين الأوضاع العصرية من جهة أخرى هو ضرورة حتمية للنهوض من حالة الركود التى يعانونها ، يضعون اقدامهم على الطريق الصحيح » .

ان الفرد الأوروبي في الحضـــارة المعاصرة غير قادر بحــكم تكوينه النفسي والخلقي على تحمل تبعات التقدم العلمي ، ووضعه في خدمة الانسانية ، أما الفرد المسلم اذا استطاع السمو الى أهــداف ايمانه ، واستطاع تحقيق الابداع المادى الذى حققه الغرب ، فهو القادر وحده على ان يحمل تلك التبعة، ويخوض معركة الكرامة الانسانية في وجه الالحاد والفساد الذى يشوه وجــه الدنيا .. والصراع الوحشي الذى تغرق فيه تلك الحضارة .

واصلاح الفكر الديني في الاسلام ، الذى يجب أن يكون القــاعدة الفكرية للامة في مواجهة معركة بقائها أو فنائها ، لا يكون باتباع فلسفة من فلســفات الغرب ، بل في فهم الاسلام فهما صحيحا على نحو ما فهمه الأوائل ، لا على ما صار اليه الأمر ، في عصور التخلف والجمود .. وحين يستطيع المســلم ذلك ، سيتمكن من السيطرة على الابداع المادى الذى وصل اليه الغــرب مع ابتعاده عن المباذل الأخلاقية التى تدمر المجتمع الغربي .

واجب العربي والمسلم ان يعي ويدرك ان الكون اكبر من ان يحيط به عقل انسان ، ولو كانت الحقائق العلميــة ثابتة ونهائية ، اذن ، لتوقف التقــدم العــلمي ..

ان في فطرة الانسان أن يفكر على الدوام في مصيره وعلاقته بالكون ، وهو ممتلىء شعورا بأن العقــل لا يملك القدرة على تفسير كل ظــاهرة .. وأن ما عرفه الانسان عن طــريق العقل هو جزء ضئيل من كل كبــير مغلق على اسراره . وان مدركات العقل البشرى لم تصل الى عشر معشار الحقيقــة الكلية ، ولا يمكن ان تصل ، وان مناهج العلوم التجريبية ، في هذا العصر انما تقوم على احتمالية النتائج لا على حتميتها .

ان العلم في نظر الاسلام ، قيمة أساسية من قيمة فلا يمكن أن يقوم بينهما تعارض أو تناقض .. وأول تحقق لهذه القيمة اعتقاد الاسلام بأن هذا النظام الكوني المتناسق المتناغم مطرد السنن وفق قوانين ثابتة لا تتغير ، عن طريق الاستقراء العقلي ــ كما أوضحنا من قبل ــ وكذلك المجتمعات البشرية تحكمها قوانين لها نفس الاضطراد والثبات ، عن طريق الاستقراء التاريخي .. وفي هذا وقف الاسلام موقف النقيض من التصورات « الميثولوجية » لأنه يعتقد أن الله قد خلق الكون والمخلوقات بالحق ، لا باطلا ولا عبثا ولا صدفة ، بل بتقدير وتحديد واحكام .

من أجل هذا يخافون الاسلام ، ويفزعون من مجرد ذكره ، ذلك لأن الاسلام منهج حياة متكامل ، بتصورها الاعتقــادى ونظمها الأخلاقية والسياســية والاجتماعية والاقتصادية .. ولذا كان وما يزال هدف المؤامرة الصليبيــة الشيوعية الاستعمارية حصر الاسلام في نطاق الوجدان والطقوس وعزله عن الحياة . وحين افلحت المؤامرة أو كادت ، اخذت بعناصرها الأجنبية وعناصرها الوطنية من المدسوسين والعملاء تكيل الضربات المتتالية لاعاقة البعث الاسلامي ليأخذ مكانه الأزلي في حماية مصير البشرية .

لقد اعتسفت الانسانية طرائق متعددة في حدود التصور البشري لحل مشكلة الانسان كفرد وكمجتمع ، لكنها فشلت كلها واخذت تتهاوى واحدة تلو اخرى ،

ولم يبق لانقاذ الانسانية من الظلمات التى تكتنفها من كل جهة غير الاسلام ، لانه النظام الوحيد الذى يفرد الله سبحانه بالالوهية والحاكمية والقوامة والتشريع ومصدر السلطات ، بينما النظم الاخرى تعبد آلهة وارباباً من الناس تجعل لهم القوامة من دون الله ، فيعبد العبيد العبيد ، ويرضخون لهم ويخضعون لاهوائهم .

فالدين الاسلامى هو دين الانسانية كلها ، فهو يلح على ضرورة جمع شمل المؤمنين على اختلاف كتبهم وشرائعهم وانبيائهم على اساس الوحدة الانسانية الجامعة للمؤمنين بالله ، ذلك لأن المسلمين يؤمنون ان جوهر الدين واحد ، فما نزل على محمد هو فى جوهره ما تلقاه عيسى وموسى من قبله **« ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك ، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » .. « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون »!.**

يقول الامام محمد عبده فى كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »: « الدين دين الله ، وهو دين واحد فى الاولين والآخرين ، لا تختلف الا صوره ومظاهره ، اما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون اجمعون على السن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير : ايمان بالله وحده ، واخلاص له فى العبادة ، ومعاونة بعضهم لبعض فى الخير ، وكف اذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا ، ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول : لأنه ختام النبوات والرسالات ، ومن اهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب **وفى هذا يقول الرسول الأعظم : « الانبياء اخوة امهاتهم شتى ودينهم واحد »**.

فاذا استقر هذا فى اذهان ابناء هذا الوطن من مسلمين ومسيحيين ، انتفت الفرقة ، وانطوت الاحقاد التى يؤرثها الاستعمار وعملاء الاستعمار .

واذا استقر فى يقيننا فى ضوء ما سقناه فى هذه الصفحات ، ان الشريعة الاسلامية اسمى واعلى واقوم واسلم من جميع القوانين الوضعية ، فليت شعرى من ذا الذى يملك إن يمارض تطبيقها والاستظلال بمبادئها وقيمها الخالدة وتنظيماتها الصالحة لكل زمان ومكان .

ويجب أن لا ننسى هنا ان أول مبادىء الشريعة : **« لا اكراه فى الدين »** ونحن نعى وندرك ان للبنان العربى الوجه واللسان والحضارة والثقافة مكاناً فريداً فى قلب العالم العربى ، فاذا شاء أهله فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ، واذا أبوا فهم وما يختارون لأنفسهم .. وليس ما يمنع أن يكون للبنان العزيز كيانه المستقل ونظامه المميز ، ووضعه الفريد .

بل نحن نذهب الى ابعد من هذا المدى ، فلو نحن استطعنا أن نطرح الشريعة الاسلامية فى ثوب علمى جديد ، للعالم كله لوجد فيها الضالة التى ينشدها ولا يدركها .

فليس فى الدنيا تشريع كالتشريع الاسلامى يساير الفطرة السليمة ولا يوقع الباحث والمفكر فى حرج وضيق ، فقد جاءت احكامه وقواعده العامة مجملة شاملة مرنة فسيحة تتسع لكل جديد ، ولكل تطور سليم . وكل تلك الاحكام والقواعد بنيت على أساس مراعاة المصالح ، فالحكم يتبع علته ويتغير بتغيرها خاصة فى مسائل المعاملات التى كثيرا ما تتأثر باختلاف الزمان والمكان ، فالحكم يدور مع علته وجودا وعدما فيتغير تبعا لذلك من حال الى حال . وعند تضارب المصالح ، تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة « أينما كانت المصلحة فثم شرع الله » .

وفى هذا يقول الأستاذ المستشار على على منصور رئيس اللجنة العليا لمراجعة التشريعات فى الجمهورية الليبية : « لقد تضمن الاسلام أسمى تنظيم لعلاقات الناس من قواعد أخلاقية وقانونية ، ووضع الأسس الكاملة التى تقوم عليها الدولة : » : « البيعة والشورى » أسمى مثاليات الديمقراطيات الحديثة . وحريات الناس مصونة ورقابتهم على الحكام مشروعة ، والمساواة بينهم تامة ، والملكية الفردية ليست مطلقة ، تجنح الى الكنز والاستعلاء والاستغلال ، ولا هى معدومة فيفقد الناس حوافز الجد والتنمية ، وانما هى وسط بين هذا وذاك .. وسطية تجعل الملكية وظيفة اجتماعية ، فالمال مال الله ، والناس مستخلفون فيه ، ومن أساء التصرف فقد حقه .

واحكام الشريعة نوعان : احكام قطعية لا تتأثر بظروف الزمان والمكان ، نزلت قواعدها محكمة ومحدودة ، ومنها العقائد والعبادات .. وفروع لا يضير فيها الاختلاف وتخضع للتطور ، وبذا رحم الله عباده وفتح فى تلك الفروع باب النظر والاجتهاد حسبما يساير المصالح من الظروف المستجدة ، ولذا قام الفقهاء بتدوين الفقه وفق اجتهادات العلماء الأجلاء .. ومن مجموع تلك الاجتهادات تكون الفقه الاسلامى ، وهو ثروة تشريعية وقانونية لا مثيل لها فى العالم قديمه وحديثه ، تشتمل أحدث النظريات القانونية لحل مشاكل الحياة فى كافة الأزمان ، وتقوم على أساس رعاية المصالح واقامتها على العدالة الشاملة والمساواة المطلقة والنظام المستقر ، مع دفع الضرر ورفع الحرج .

ويعترف معظم أساتذة القانون فى الدنيا ان الشريعة الاسلامية أوفت على الغاية وسبقت جميع التشريعات الوضعية ، وهى تنطوى على ذخائر ومبادىء مضيئة لا تعادلها اية تشريعات اخرى . فقد سبقت الشريعة الاسلامية الى المناداة بالحرية والأخاء على انها مبادىء أساسية لا مجرد شعارات براقة ، تطبق هنا ولا تطبق هنا ك .

والاسلام فى المعاملات هو أول من نادى بقانون الكسب الحرام .. وكان عمر يقول لعماله : « لا يحل لوال ان يتجر فى سلطانه » وهى عبارة جامعة تحرم استغلال النفوذ .

كتب عمر لفاتح مصر وواليها عمرو بن العاص : « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن لك حين وليت مصر ، فمن أين لك هذا؟ انى قد خبرت من عمال السوء ما كفى ! » الى آخر الرسالة المشهورة .

وكتب الى ابى ذر عامله على البحرين : « لقد وليتك البحـرين وليس لك نعلان فمن اين لك هذا ؟ .

والاسلام اول شريعة انشأت تكافؤ الفرص فى الوظائف العامة مع مراعاة الكفاية وعدم المحاباة . وولاية الوظائف العامة امانة مقيدة بالصالح العام .

وقضـاء المظالم فى الاسلام هو القضـاء الادارى الذى ظنت فرنسا انهـا استحدثته منذ قرنين ، ففى الشريعة الاسلامية ، يجب على كل مواطن يرى مظلمة وقعت من الولاة والحكام على بعض الناس أن يرفع الأمر الى قاضى المظالم ، ولو لم يقع الضرر عليه مباشرة . ومن أروع الأمثلة التى تضرب لذلك حادثة وقعت لأهالى « سمرقند » فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، وذلك أن قائد جيش المسلمين دخل سمرقند ليلا مفاجئا أهلها ، ويقضى الاسلام على القائد قبل أن يهاجم أية مدينة أن يخير أهلها امور ثلاثة : الاسلام او دفع الجزية، فان لم يقبلوا بأيهما يعلمهم فى الثالثة انه سيهاجمهم فى وقت معين لا مفاجأة. فشكا أهـل « سمرقند » ذلك الى الخليفـة فامر أن ترفع القضية الى قاضى الولاية المجاورة ، فلما ثبتت لديه صحة الدعوى ، قضى باخراج جيش المسلمين من مدينة سمرقند ، وتعويضهم عما خسروه من أموال وأرواح ، وجعـل دية من مات منهم كديـة المسلم ، فتعجب أهـل سمرقند ، وما حولها من بـلاد التركستان والروس ، من عدالة الاسلام ودخلوا فيه طواعية واختيارا » .

ولمـا رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين ، وعونا للمسلمين على أعدائهم ، فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين ، رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم ، فاتى اهل كل مدينة رسلهم بان الروم قد جمعوا جمعا لم ير مثـله ، فأتوا الى الأمير الذى خلفه ابو عبيدة عليهم فاخبروه بذلك ، فكتب الى ابى عبيدة يخبره بذلك ، فكتب ابو عبيدة الى كل وال ممن خلفه فى المدن التى صالح اهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخـراج ، وكتب اليهم ان يقولوا لهم : انما رددنا عليكم أموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وانا لا نقدر على ذلك . ثم انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، فلما رأى أهل المدن التى لم يصالح عليها ابو عبيدة ذلك ، بعثوا اليه يطلبون الصلح ، فاعطاهم الصلح على مثل ما اعطى الأولين — كتاب الخراج لابى يوسف — .

وعندما فتح عمـرو بن العاص مصر أعطى الأمان الـكامل لاقباطها على انفسهم واموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخـل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص » . ومنذئذ واقباط مصر يعيشون مع مسلميها فى أمان ووئام وسلام ، وفى وحدة وطنية متلاحمة لم يوهنها تآمر المستعمرين .

وجاء فى مسند احمد : « ان ابا بكر بعث الجيوش على الشام ، وبعث على راسها يزيد بن ابى سفيان واوصـاه : « اوصيكم بتقوى الله ، ولا تعصوا ولا تغلوا ولا تجبنوا ولا تهدموا بيعة لا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا زرعا ولا تذبحوا بهيمة ولا تقطعوا شجرة مثمـرة ولا تقتلوا شيخا كبيرا ولا صبيا ولا صـغيرا ولا امرأة . وستجدون اقـواما قد حبسوا انفسهم فى الصوامع ، فـدعوهم وما حبسوا انفسهم له » .

وجميع عهود المسلمين تجرى هذا المجرى الرفيع الذى لا يمكن ان يقاس عليه ما تجترحه الأمم القوية فى عصر الوثنية الغربية والحضارة الأوروبية ازاء الشعوب الضعيفة المنافحة عن كرامتها وحريتها واستقلالها ومقدساتها، وليس عنا ببعيد ما صنعه اليهـود فى قبية ودير ياسين ومئات غيرها وما يصنعه الأمريكان اليوم وغـدا فى كامبوديا وفيتنام ، وما صنعته روسـيا بالأمس فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا وهنجاريا وغيرها ، ما صنعته قبلها بريطانيا وفرنسا فى مستعمراتها الأسيوية والأفريقية ، من المظالم والمفاسد والقتل الجمـاعى . ولم تكن همجية التقتيل والتدمير والابادة والافناء التى رافقت بربرية الرجـل الأبيض مقتصرة على الشعوب المستضعفة وحـدها ، بل كان العنف الدموى والسلوك اللا اخلاقى فى الداخل كثيرا من الأحيان هو السبيل الوحيد لتصفية الخصوم وابادة الانداد والمعارضين . فقد اثبتت الاحصاءات الأخيرة ان مالايقل عن عشرة ملايين شخص قد لاقوا حتفهم بأبشع أساليب الافناء والتعذيب فى عهد « ستالين » .. منظر الماركسية اللينينية ، الذى فاقت وحشيته وحشية هولاكو وجنكزخان .. ومع ذلك كان هذا الطاغية خلال سـنى وعى الأمة العربية وعهودها الاستقلالية معبـود الاحزاب الشيوعية الغربية ، والـه الجماهير الهاتفة للناعقين .. ! وهاهم يستبدلون كل يوم صـنما بصـنم ومعبودا بمعبود .. كلما جاء أحدهم لعن أخاه . لعنة الله عليهم اجمعين . .

اما فى الاسلام فاسمع لـما يقوله الرسـول الأعظم فى الحض على البـر والرحمة وعدم المحاباة : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى أحـدا عليهم محاباة ، فعليه اللعنة الى يوم القيامة ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » .

وذهب العباس بن عبدالمطلب عم الرسول اليـه يطلب أن يوليه ولاية ، فنظر الرسول فوجده غير اهل لها ، أو أن هناك من هو اقوى منه عليها فقال له : يا عم انها لأمانة وإنها يوم القيامة لخزى وندامة ، الا من اخذها بحقها، ووفى الذى عليه فيها .

وحين ولى عمـر بن الخطاب سعدا بن ابى وقاص عامـلا له على الكوفة قال له :

« والله ما وليتك لقرابة او نسب ، ولا يغرنك ان يقال خال رسول الله ، فان الله ليس له باحد قرابة او نسب » .

ومما يؤكد توكيدا عقليا عبقرية الشريعة الاسلامية أن قواعـد الاثبات فى المعاملات المدنية والتجارية فى العصر الحاضر ، كتبت فيها المؤلفات الضخمة ، بينما جاءت كلها واكثر منها فى احكم بيان واخصر عبارة فى آيتـين من سورة البقرة : **« يا أيهـا الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب، وليملل الذى عليه الحق، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها او ضعيفا ، او لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، ان تضل احداهما ، فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله . ذلكم اقسط عند الله، واقوم للشهادة ، وادنى الا ترتابوا، الا أن تكون تجارة**

حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها . واشهدوا اذا تبايعتم، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم ، وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا ، فرهان مقبوضة ، فان امن بعضكم بعضا ، فليؤد الذى أؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه، ولا تكتموا الشهادة،ومن يكتمها فانهآثم قلبه . والله بما تعملونعليم﴾.

ويقول الأستاذ الكبير على على منصور : « من مزايا الشريعة الاسلامية ، ان من أهم الانتقادات التي توجه للقوانين الوضعية انها تصب القواعد القانونية فى قوالب جامدة لا تلبث أن يتجاوزها الزمن ، ولعلاج هذ الأمر ، اقترحوا أن تكون التشريعات الوضعية مقصورة على القواعد العامة ، ويترك للقضاء التفريع عليها وتقدير العقوبات المناسبة لكل فرع مع مراعاة حالة كل جان . وهذا العلاج المقترح يشهد للشريعة الاسلامية بالتفوق والمرونة والشمول » .

« ويعترض بعض السخفاء على قضية الحدود .. فهى وان بدت شديدة لدى بعض من لا يدركون حكمتها ، الا انها من شدتها زاجرة قاطعة للجرائم ، ولم يسمح الله لعباده بالترخص فى تقدير عقوبتها زيادة أو نقصانا ، الا أنه أحاطها بضمانات تجعل من المستحيل توقيع العقوبة على برىء ، فشدد على وجوب البينة وقيام الأدلة القاطعة ، بحيث أن توفر تلك الأدلة يكاد يكون مستحيلا ، حتى أن جريمة الزنا لم تثبت فى عهد الرسول الا بالاعتراف ، وحادث « الغامدية » معروف » .

« والزنا فى الشريعة الاسلامية هو كل سفاح ليس بنكاح ، وكل صلة بين رجل وامراة ولو برضاهما معا . اما فى القوانين الوضعية ومنها قانون العقوبات فى معظم البلاد العربية ، فالاتصال الجنسى والمواقعة الفعلية مباحة ما دام لا اكراه فيها . ومعنى هذا أن القانون الوضعى يحل الزنا فى ظروف معينة ولا عقاب الا فى حالةالاكراه وصغر السن . .اما الزوجة المحصنة فأمر ارتكابها للجريمة لم يترك للجماعة أو النيابة العامة . انما ترك لرغبة الزوج .. ومعنىذلك أن معنى الزنا فى القوانين الوضعية هوخيانةالعلاقات الزوجية ، بينما هو فى الشريعة الاسلامية ، كل صلة جنسية محرمة بين الجنسين ، ومن عجب أن التناقض واضح بين قانون العقوبات والقانون المدنى ، اذ أن الأخير يجعل المراة غير اهل للتصرف فى القليل من مالها الا اذا بلغت سن الواحدة والعشرين . وأباح لها قانون العقوبات أن تسلم فى عرضها متى بلغت سن الثامنة عشرة ، أى أن العرض فى القوانين الوضعية أرخص من المال » .

لقد الححنا فى التدليل على عبقرية الشريعة الاسلامية ، واعدنا القول وكررناه ، لنؤكد للقارىء باقوى برهان وامتن حجة وايسر اسلوب ان تلك الشريعة لو وضعت موضع التطبيق الجاد ، لانتذت مجتمعاتنا من التفسك والانهيار ، وحمت أخلاقنا من التدهور والانحدار ، ولصنعت الجيل العربى المسلم .. جيل الثار .. جيل النصر .. العارف بثقل الأمانة القومية الدينية الأخلاقية التى يحملها على كتفيه ، القادر على مواجهة مسؤولياته الشخصية والجماعية ، بروح الاستبسال والاستشهاد فى سبيل الله ، والأرض والوطن والمقدسات .

واذا قارنا ما ذكرناه عن شريعتنا الغراء ، وهو خطوط عريضة ومؤشرات على طريق الحق والخير ، تصلح للتدليل ، لا للتعمق فى الجزئيات والتفصيلات، العجيبة المذهلة التى لا يستطيع أن يجيء بمثلها عقل بشرى .. اذا قارناها بما نراه من انحطاط القوانين الوضعية الغربية الى حضيض الرذيلة والفساد حتى لقد بلغت من العهارة الخلقية ما لا يجيزه عقل عاقل ولا تقره انسانية الانسان وكرامته ومروءته.ويكفى أن نشير الى أن بعض تلك القوانين تقرر اباحة العلاقات الشنيعة بين أفراد الجنس الواحد ، وشرعية الرباط الزوجى بين ذكرين أو اثنيين . فلم نعد نستغرب أن نقرا ما أوردته الصحف اخيرا عن حريق شب فى حانة أمريكية بولاية « نيواورليانز » يرتادها مدمنوا الشذوذ الجنسى . ولكن المستغرب حقا أن يبلغ التقليد الأعمى والتبعية الحقيرة لسفالات الحضارة الغربية هذه ، انحدار بعض مجتمعاتنا الراقية (!) هذا المنحدر الساقط ، فقد قرأنا فى عدد جريدة الحياة الصادر فى ١٩٧٣/٢/٣ ان بوليس الآداب قد اعتقلوا ستة وثلاثين رجلا وامراة واحدة ، وهم يمارسون فيما بينهم الفعل الشنيع وذلك فى شقة من بناية تقع فى ميناء الحصن ، وعلم ان بين الأشخاص الذين اعتقلوا سفير دولة أجنبية ، وموظفا فى أحد المصارف، ومطربا ايطاليا .

وقرانا فى عدد الجريدة نفسه الخبر التالى : « قام فريق من المتدينين اليهود بمهاجمة مكتبة تعرض الكتب والمصورات والأفلام الجنسية ، فدمروها وحرقوا محتوياتها ، ولم تتقدم الشرطة لانقاذها » .

هكذا تبنى الأمم .. وهكذا تنهار الشعوب .. !

وجاء فى صحيفة أخرى أن المغنى العالمى المشهور « جونى هوليداى » أحيى حفلة فى بيروت مؤخرا ، وقد الهب الحضور باغنيته المشهورة الجديدة التى مضمونها أن المسيح كان هبيا يتعاطى الحشيش ..!

* * *

وبعد .. لسنا نعتقد بعد الذى سقناه من تسامى الشريعة الاسلامية على جميع القوانين الوضعية ، وصلاحيتها المستمرة لكل زمان ومكان . لسنا نعتقد أن هناك انسانا فيه مسحة عقل وشرف وضمير وفهم وادراك يخالفنا فى أن تطبيق تلك الشريعة هو وحده سلاحنا الأمضى فى معركة المصير التى كتبت علينا قدرا لا محيد عنه . لا يخالفنا الا من كان عميلا مأجورا أو سخيفا ممرورا أو جاهلا مغرورا .

يقول الشهيد عبد القادر عودة : « ان لطائفة المثقفين ثقافة أوروبية من أبنائنا ، ادعاءات غريبة عن الشريعة الاسلامية ، بل هى ادعاءات مضحكة فبعضهم يدعون أن الاسلام لا علاقة له بالحكم والدولة وبعضهم يرى أن الشريعة الاسلامية لا تصلح للعصر الحاضر .. وبعضهم يدعى أن بعض أحكامها لا يستطاع تطبيقه ، نظرا لقسوته أو خشية أغضاب الدول الأجنبية».

« ومع أن الأكثرية الساحقة من أولئك المثقفين هم فى سريرة انفسهم مؤمنون لكنهم لا يستطيعون الصبر على تعمق الشريعة الاسلامية فى مظانها الأصلية

لأنها مؤلفة على الأساليب القديمة ، ويصعب العثور على المادة او الفقــرة أو القاعدة بسهولة ويسر وسط المتون والشروح والحواشى » .

ولذا قلنا ونقول أن أشد ما تمس الحاجة اليه اليوم هو تدوين الشريعــة تدوينا محدثا بالأســلوب العلمى الحديث ، وتنقية العقيدة ممــا علق بها من تحريفات وشبهات وأراجيف من دسائس الصهيونية والاستعمار واستنباط دستور موحد ، يجمع المبــادىء والقيم والقواعد المضيئة الصالحة لحــل مشكلات هذا القرن وكل قرن الى آخر الزمان .

فسبب ما نراه من تخوف وحذر واشفاق ، أو من جهل وغباء ونفاق مرده الى سفه الخاصة وجهل العامة وتخلف العلماء ..

والذين يتولون كبر الدعوة الى العلمانيــة وعزل الدين ويمــلأون الأجواء العربية صخبا وهديرا ، تقليدا للغرب هم فريقان .. الفريق الأول جاهل بحقيقة الشريعة الإسلامية ، يتهجم قبل أن يتعلم ويخوض فى الضحضاح ويمــارى فيما لا يفهم فيدعو الى الثقافة الغربية التى لم يعرف غيرها بحسن نيته متأثرا بتوجيه وتغرير من غسلوا دماغه . وصبوه فى القوالب التى تنسجم مع المؤامرة والفريق الآخر مستأجر عميل سيء النية والطوية . ويحارب الاسلام عن سابق عمد وتصميم .

من أمثلة ذلك الهجوم المتعمد ، ما قرأته قبل أيام لكاتب عربى فى بلد عربى : «لا مجال فى الشرع الاسلامى الا للحكم الفردى المطلق فلا حوار ولا نقــاش ولا معارضة ، ولذا لا أمل فى الحرية والديمقراطية فى المجتمع العربى الابالعلمنة أى عزل الدين عن حياة الناس » .

ويقول « لويس عوض » : « ان تجدد يقظة الوعى القومى المصرى يقوم على أساس الشعور بالخصوصية الذى يميز قوما جذورهم ضاربة فى الأرض الزراعية ، هذه الأرض ذات الثقافات المختلفة قد احتفظت بشبابها المذهــل واستعددها المتجدد باستمرار لتمتص وتتمثل تيارات الفكر التى تعرضت لهــا عبر تاريخها ، فالمصرى رغم أنه مهجن من جيل الى جيل ، قد استطاع ان يحافظ على شخصية تميزه عن نظرائه فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا » .

ويقول « هيكل » فى مقال له بالأهرام عدد ١٩٧٢/٨/١١ : « ان مصر الحديثة مازالت تحملرواسب من العصورالفرعونية واليونانيةوالرومانيةوالاسلامية والمملوكية والعثمانية ، بل ومن عصر الاحتلال البريطانى » .. هكذا لا يتورع « هيكل » عن جعل الفتح الاسلامى لمصر ، كالاحتلال البريطانى ، كلاهما ترك رواسبه فيها ومضى ..

وفى مقابلة هيكل « لشوان لاى » يجرى الحوار التالى :

هيكل : الفرد العادى يؤدى دوره من خلال المجتمع . والدول الصــغيرة لابد لها من درع أو غطاء تمارس دورها من ورائه . كانت لنا فى يوم من الأيام حركة التضامن الآسيوى الأفريقى .. وكان لنا فى يوم من الأيام حركة الدول غير المنحازة ، وكنا نستطيع من خلال هذه الحركات أن نمارس أدوارا تتعدى طاقة أية دولة واحدة بمفردها . وكنــا نستطيع ان نجعل رأينا مسموعا فى الساحة الدولية . والآن تعرضت كل هذه الدروع لأقسى الضربات .

شوان لاى : ان امامكم القارة السوداء من جهة والعالم العربى من جهة اخـــرى .

لقد استحى هيكل رعاية لمشاعر مضيفه ان يقول : كانت لنا فى يوم من الأيام حركة اسمها حركة التكتل الاسلامى والتضامن الاسلامى .. وهى وحـــدها الحركة التى تجعل رأينا مسموعا فى الساحة الدولية ..

بل استحى هيكل ، قبل ذلك ، لأن له مهمة مرسومة انتدب لها هو ورهطه فى هذه المنطقـــة ، هى انتهاز كل مناسبة لطعن الاســـلام « والتشنيع » على الاســـلام .. !

ودليل ذلك اعتزاز « هيكل » فى « نيودلهى » بأن الأسلحة الروسية الثقيلة الفتاكة ، التى حاربت بها الهند ، الباكستان ، وشطرتها نصفين ، نقلت من القاهرة فقضت بذلك على التجربة الرائدة لاقامة المجتمع الاسلامى والنظـــام الاسلامى ، فى اطار انبعاث اســـلامى جديد .. وقوله بصراحتـــه المعهودة : « انه لا يعتبر قيام « بانغلاديش » عملاً مصطنعا لأن الوحدة بـــين الشعوب لا يمكن أن تقوم على أساس الدين »! .

وينسى هيكل ، مدفوعا بحقده على الاسلام ، ان السابقات التاريخية تثبت بصورة قاطعة قيام الدولة الاسلامية ، والامبراطورية الاسلامية ، والخـــلافة العثمانية على أساس الدين ، ثم تفسخت واندثرت لأنها هجرت هذا القاسم المشترك الأعظم ! .

وينسى .. ان الاتحاد السوفييتى قد حقق الوحدة بين اربع عشرة قوميـــة مختلفة على أساس العقيدة المشتركة ! .

ويفسر « هيكل » افكاره بصورة أوضح حين يقول : « ان العصر الجـــديد سيجىء بتغييرات اخرى من الصراع داخل حدود الأوطان . ونوع الصراعات المقبلة ، هو الصراعات العنصرية والصراعات الطائفية والصراعات القومية والصراعات الدينية الى جانب الصراعات الطبقية طبعا » يريد هيكل أن يقول ان الصراعات المقبلة فى المنطقة لن تـــؤدى الى معركة مصيرية بـــين العرب واسرائيل ، بل الى معارك مفتعلة داخل البلاد العربية. وبذا تثور الصراعات الطائفية والقومية والعنصرية والدينية على الأرض العربية بديلاً عن صراعنا الأزلى مع الصهيونية ..

ويذكر الأستاذ محمد المجذوب فى كتابه « مشكلات الجيل فى ضوء الاسلام » انه سمع خطيبا يقول فى حفل عام تكريما لأديب الشيشكلى « لقد انجبت الأمة العربية من قبل محمدا وأبا بكر وعمر واخوانهم ، واليوم تنجب رجلا جمـــع عبقرياتهم جميعا هو الزعيم العظيم اديب الشيشكلى » .

وفى أحد المراكز الثقافية فى بلد « تقدمى ! » وفى احدى المناسبات المتصـــلة بقضية فلسطين ، تحدث أحد المتكلمين عن حطين وبطلها صلاح الدين ولم يكن

ذلك مما يتفق مع أهداف الحزب الحاكم ، فأخذ هتافوه يصرخون : « تسقط حطين التى جاءت بصلاح الدين » .

واقيم فى دار المقاصد الاسلامية ، ابان حرب التحرير الجزائرية ، حفل خطابى لجمع التبرعات للبلد المناضل الشقيق ، وتعاقب الخطباء فى الاشادة بصمود المجاهدين المؤمنين فأخذت فلول الحثالات الحزبية الموجودة تصرخ : الجزائر عربية لا اسلامية .

واشباه هذه الكبائر والمكايد كثيرة تقرؤها كل صباح فى الصحف العميلة ، وتسمعها كل مساء فى الاذاعات المأجورة .. وهدف الجميع الأول والأخير تقويض دعائم الاسلام ، وابعاده عن دوره الأساسى فى معركة المصير .

وبمثل هذه الغمغمات والتعميمات والتلبيس والتدليس والجهل والغباء يكتب الكاتبون فيما لا يحسنون .. دون أن يفهموا حقيقة الاسلام ، واصالة الاسلام وجوهر الاسلام كثيرا أو قليلا ، وانما هو الحقد الأسود والبهتان العظيم ..

وقد تطاولت هذه الظواهر البشعة حتى نالت فريقا من المفكرين الأكاديميين والأساتذة الجامعيين الذين جرفهم تيار الضلال ، واستهوتهم شعارات هذا الزمن البغيض ، زمن الانحراف والتزوير والتزييف ، فنراهم يغتنمون كل فرصة ويتوسلون كل طريقة واسلوب فى نفاق مخز لحركة العهارة العربية المعاصرة .. وفى جدل سطحى ساقط هو الدجل بعينه وأنف الحقيقة راغم.

فهذا الدكتور « مجيد خدورى » فى كتابه « الاتجاهات السياسية فى العالم العربى » يلحق بآراء أمثال صادق العظم ، ونديم البيطار ، بل يزايد عليهما ، ويزيد على افكهما ، فيقول : « وهكذا أصبحت فكرة القومية تحديا عظيما للاسلام ، ولم تقم الدولة الاسلامية على أية قاعدة تعطى الشعب الحق فى الحد من سلطة الحاكم حتى لو تجاوز أحكام الشرع الالهى » .

ويضيف الأستاذ « خدورى » : « الحركة الثورية العربية فى العقدين الماضيين مكملة الحركة الاستقلالية التى قام بها الرعيل الأول ، غير أن الزواج الذى تم لمرحلة من الزمن بين الثورات العسكرية والأحزاب الايديولوجية — بين البندقية والفكرة — هو زواج سطحى معرض للهزات العنيفة التى تتفاعل فى هذه المنطقة المكبلة بالعقد » ولذا فهو يعتقد أن التنافر بين العلمنة والدين لا يمكن أن يؤدى الى انتصار كلى لأحدهما على الآخر ، فلا مفر من الالتقاء والتعاون بين النظريتين من أجل تأمين مستوى حضارى متقدم .

هذه الآراء المتحمة المبتسرة التى اجتزأناها من كتاب الصديق الدكتور خدورى الأستاذ المحاضر بجامعة واشنطن ، تنطوى على أخطاء فادحة واستحى أن أقول على غرض خفى .

ان الحركات الانقلابية المتعاقبة التى قام بها العسكريون فى هذه المنطقة لم تكن ثورات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، كما سماها الدكتور ، لان التغيير

الذى كان يقع كل مــرة لم يكن تغييرا جذريا فى مفاهيم المجتمــع الثقــافية والاجتماعية والسياسية ، بل كان لنقل السلطة من يد فاسدة الى يد اشد فسادا ، ومحو طبقة مستغلة لتقوم على انقاضها طبقة اكثر اســتغلالا ، وامعن اذلالا ، وكانت المثاليات التى روج لها « الانقلابيون » فارغة من اى محتوى اجتماعى حقيقى .

ولم تكن تلك الانقلابات تستجيب فى الحقيقة لطموحات الجماهير فى المجتمع الذى تريده ، بل كانت تنتقل بالمجتمعات العربية من اختلال فى توازن النظام الاجتماعى الى اختلال أكثر نزولا وهبوطا ، مع فقدان القدرة على اتخــاذ الاجراءات السليمة لتصحيح ذلك الاختلال بسبب التــكالب على الســلطة والتداعس على المكاتب والاستئثار بالحكم . وبسبب افتعال ايديولوجيــات غريبة عن طبيعة المنطقة وتراثها وحقيقة هويتها ، وفرضها بالقوة على الناس لتغطية العجز والافلاس والخيانة ..

والثورة الحقيقية التى تحتاجها الشعوب العربية هى ثورة العلم والايمان، التشدد فى طلب العلم واللحاق بعصر التكنية ، وبعث عنصر الايمان كحافز على الاستشهاد .. ولقد كان لهذا العنصر الفضل الاكبر فى صيانة الوجود الحضارى لهذه الأمة فى وجه تيارات الغزو المتتالية التى تحطمت كلها على صخرة ذلك الايمان .

ومن الغريب ان اسرائيل لا تجد غضاضة ولا حرجا ، ولا يتهمها غيرهــا بالرجعية والتخلف ، حين تعلن وتصرخ كل يوم انها دولة تقوم على الدين وان الدين هو سبب تماسكها وتوحدها وقيام دولتها ، بينما نجد كافة الجهود تبذل فينا ، وكافة الأسلحة تجزب علينا لتفريغنا من شحنة الايمان .

اما الأحزاب العربية التى يسميها الدكتور أحزابا أيديولوجية ، فقد تناهى الينا معظمها من وراء الحدود ... واعتنقتهــا بعض الأقليات العنصريــة والطائفية لتؤكد وجودها بشكل أو بآخر على مسرح الأحداث .. ولتنفس عن أحقادها الدفينة ضد الاسلام .. فالاحزاب الشيوعية العربية — كمــا يعلم الدكتور — هى امتداد « سرطانى » للحزب القائد الرائد الذى صنعوه فى تل ابيب لتحقيق هدفين الأول تمزيق الوحدة الوطنية الفلسطينية فى وجه المد الصهيونى والتحدى الاسرائيلى ، والثانى تصدير الماركسية الى الدول العربية المجاورة لتمزيق الوحدة القومية فى وجه قيام اسرائيل وتوسعها .. وهكذا كان !

ولذا نشأت معظم الاحزاب فى هذه المنطقة قومية وانتهت ماركسية لينينية! اما الهزات العنيفة التى تتفاعل فى هذه المنطقة المكبلة بالعقد ، فلعل الصديق خدورى قد عرف أهدافها وابعادها واسبابها ومراميها مما بسطناه فى هذه الصفحات .

ونود ان نؤكد للصديق العزيز انه اذا كان الزواج الذى تم لفتــرة من الزمن بين العسكر والايديولوجية هو زواج سطحى ، فان الزواج الذى يدعو اليه بين العلمنة والاسلام هو زواج محرم غير شرعى !

ان خطأ معظم مفكرينا الذين يعيشون أفكار المستشرقين والمبشرين ويعتنقونها حقائق ومسلمات ، هو خطأ ناجم عن جهلهم او تجاهلهم لحقيقة الاسلام ... واعتقادهم أو تصورهم ان الاسلام كالمسيحية فى أوروبا ، انتماء اجتماعى اكثر مما هو منهاج ودستور ونظام .. يجوز بل يجب ان ينفصل عن الدنيا والحياة . وان تأمين مستوى حضارى متقدم كما يقول الدكتور خدوري،يوجب ابعاد الدين او على الاقل المزاوجة بينه وبين العلمنة.

لقد آن ان يفهم من يريد ان يفهم ، أن الاسلام عقيدة وشريعة ، هو كل واحد لا يتجزأ فاما الحكم بالاسلام ، واما الحكم بغير الاسلام ، لا وسطية ولا اعتباطية ولا مزايدة ومساومات ، فكل قول بالمواءمة والالتقاء هو قول جاهل باول بديهيات الاسلام .

هذا هو سفه الخاصة وجهل العامة ، أما تخلف العلماء .. فهو احد اسباب المصائب التى يترنح فيها المسلمون .. فمنذ احتلال بغداد على يد التتر ، خبا روح الاجتهاد وتجمدت الشريعة وتحجرت واصبحت مستراداً سهلا للتحريف والتشويه والشبهات .. فانطفأت جذوتها المطهرة وانطوى القها المضىء ودهمنا ليل من الجهل الطويل ..

يقول الاستاذ محمد عبده فى « تاريخ الامام » يصف حال المسلمين امس واليوم : « اذا استقرينا احوال المسلمين للبحث عن اسباب الخذلان لا نجد الا سببا واحدا وهو القصور فى التعليم الدينى . اما باهماله جملة، واما بالسلوك اليه من غير طرقه القويمة . أما الذين اهمل فيهم التعليم الدينى فجمهور العامة ، لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها ، فان كانت لهم عقائد فهى بقايا عقائد الجبرية والمرجئة ، مما أدى الى هدم أركان الدين فى نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم .

واما الذين اصابوا شيئا من العلم الدينى ، فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة وفرائض الصلاة والصوم ، وظنوا ان الدين منحصر فى ذلك . ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع فى أبواب المعاملات متخذا ذلك آلة للكسب ، وأولئك الأغلب من طلاب الافتاء والقضاء ، ووظائفالتدريس وما شابه ذلك . لا ينظرون الى الدين الا من وجهة المعيشة ، فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا ذلك وهذا القسم ، هو اعظم الاقسام خطرا واشدها ضررا فى العامة والخاصة » .

وما اشبه الليلة بالبارحة !

لقد عشنا حتى رأينا علماء المسلمين يدعون بحرارة الى الاخوة العربية ــ الروسية ، وينكرون القمع الدينى الذى تمارسه روسيا ضد الاديان ، ويتجاهلون ما يتعرض له اخواننا هناك من ظلموارهاب وتعذيبورهقشديد لمنعهم من اداء طقوسهم الدينية..والتمسك بمبادئهم الروحية والأخلاقية.. فقد ذهب وفد من شيوخ الأزهر برئاسة الاستاذ الاكبر الدكتور الشيخ محمد الفحام بزيارة الى التركستان ، فى شهر أيلول سنة ١٩٧٠ ، التى كانت فى يوم من الأيام حصنا من أهم حصون الاسلام ومركزا من اعظم مراكز الحضارة

الاسلامية : فاعرب رئيس الوفد عن سروره للنجاح الذى احرزه الاسلام فى ظل الحكم الشيوعى ـ هكذا والله ! ـ كما ورد بنصه فى جريدة « كومنيست تادجيكستان » عدد ١٣/٩/١٩٧٠ .. وابدى اساتذة الازهر دهشتهم للحركة الدينية التى يتمتع بها المسلمون فى الاتحاد السوفييتى ... وجاء فى مقال آخر فى نفس العدد بالنص الحرفى ايضا : « ان الحزب الشيوعى السوفييتى فى كفاحه من اجل محو الاديان خلال عملية بناء الاشتراكية ، قد سار لا يحيد عن مبادىء نظرية الالحاد العلمى لماركس وانجلز ولينين » هذا على الرغم من معرفة علمائنا الاجلاءبوجود ٢١٨ مدرسة الحادية فىجمهورية اوزبكستان وحدها ازاء مدرسة اسلامية واحدة فى بخارى تبدأ برامجها بتدريس الماركسية اللينينية ! وقبل الثورة الشيوعية كان فى روسيا ٣٥ الف مسجد والآن من العسير ان تجد من المساجد الا القليل الذى يستعمل للمناسبات الرسمية!

واذا كنا نحن نفهم ان المتعارضين فى المذهبية والعقيدة قد يلتقيان احيانا فى سبيل المصالح المتساوية المتبادلة .. كما اننا لا ننكر ان روسيا قد وقفت مع العرب فى محنتهم ، ومدتهم بالمعونة والسلاح ، ثمنا لتواجدها فى بلادنا ووصولها الى المياه الدافئة ، وتحقيق اطماعها الدولية فى الحصول على نفوذ يوازى القوى العظمى الاخرى التى ترانا لهواننا عليها وعلى انفسنا وعلى الناس ، غير اهل للتصرف بمصائرنا باعتبارنا قصرا لابد من الوصاية او الولاية علينا واملاء الفراغ السياسى المزعوم فى منطقتنا !

اذ كنا نفهم ذلك ، فاننا لا نستطيع ان نفهم او نصدق ، ان يصل النفاق السخيف ببعض علمائنا الى هذا المستوى المخيف !

اليس من عجائب دهرنا ومصائب زماننا ، ان يصبح علماء الاسلام فى بعض البلاد العربية هيئة دينية كالاكليروس مهمتها اللهاث فى مواكبالحاكمين والركض فى ركابهم والافتاء للتشريعات المخالفة للاسلام ؟!

وسمعت مرة استاذا من اساتذة كلية الشريعة فى بلد عربى يخطب فى مناسبة دينية فيقول دون توقف : ان محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يرسل الى الانس وحدهم ، بل الى الانس والجن جميعا » فهالنى هذا التقرير القطعى الذى لا سند له من قرآن او سنة .. وعدت الى كتاب الله اعيد قراءته مرة ثانية وثالثة ، وعدت الى الحديث الصحيح اتلوه ، وامعن فيه ، فلم اجد ما يدل على ان محمدا قد اجتمع برهط من الجن ليبلغهم رسالته . ان الله يقول لنا ان هناك عالم الشهادة وعالم الغيب ، وان العقل الانسانى ليس مؤهلا لبحث عالم الغيب ، ولذا قال لنا ربنا بصيغة النهى القاطعة : **« ولا تقف ما ليس لك به علم »** .

اننا نؤمن ايمانا لا يتطرق اليه شك بوجود الجن ، لورود ذكرهم فى كتابنا الكريم ، ولكن كيفية تحقق هذا الوجود فشىء نجهله ولا نعلم منه شيئا ولا ينبغى لنا ان نخوض فيه ، خاصة ونحن فى محنة ضارية ، وكل حرف نقوله عن ديننا محسوب علينا .. وفى الحديث عن الانس بلاء طويل وهم ثقيل فكيف بالجن ؟ !

وان قوله تعالى : « **واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين** » لا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اجتمع الى ذلك النفر او رآهم ، وبلغهم رسالته . خاصة وانه تعالى يقول : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » ويقول : « **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** » وقوله تعالى : « **يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ؟** » انه تعالى قد ارسل الى كل فريق رسلا منهم .. يؤكد ذلك قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه. ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى** » وقوله تعالى : « **يابنى آدم اما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى** » « **وأرسلناك للناس رسولا** » فلم يقل تعالى : ارسلناك للناس وللجن رسولا ...

هذا طراز من اساتذة الجيل لا يعى ماذا يقول . وهناك طراز آخر يعى ماذا يقول وعيا كاملا متعمدا مقصودا ، دافعه الحقد على الاسلام ..

فى الاطروحة التى قدمها الشاعر « ادونيس » قبل اسابيع للحصول على « الدكتوراه » بعنوان « الثابت والمتحول — دراسة فى الاتباع والابداع عند العرب » يقول : « اتضح عنده من دراسة الحركة الشعرية فى القرون الثلاثة الاسلامية الأولى ، ان الحركة كانت فى معظمها استعادة للماضى ، وان القوى التى حاولت أن تبدع شيئا آخر غير ما عرفه الماضى ، قيل عنها انها غريبة عن التراث العربى وعن البنية الأساسية للذهنية العربية، وانها تفسد الأصول العربية » .

« ان الاصل الثقافى العربى ليس واحدا بل كثيرا ، وهو يتضمن بذورا جدلية بين الرفض والقبول .. الراهن والممكن . الثابت والمتحول » .

« وهذا الاستنتاج قاده الى البحث عن الأسباب فى الرؤيا الدينية الاسلامية التى يصفها بانها رؤيا غيبية وحياتية فى آن واحد ، فهى نظرة شاملة للفكر والعمل ، للوجود والانسان .. للدنيا والآخرة . وبما أن هذه الرؤيا لم تكن تكملة لجاهلية ، بل نفيا ، فقد كانت تأسيسا لحياة وثقافة جديدتين » .

« ولذا لا يمكن فهم الرؤيا الشعرية فى معزل عن الرؤيا الدينية » .

« وكانت الغلبة فى التيارين المتصارعين ، تيار الثبات وتيار التحول لصالح الثبات وسيادته ، وأصبح الاستناد الى الدين مسوغا للمواقف المتناقضة ، فظل منحى التحول مغلوبا » .

« وهكذا لم يدخل التحول فى بنية المجتمع العربى ، بل اعتبر خروجا وبدعة ، وحورب اصحابه ، فقضى على كل اتجاه مبدع ، وانطفأ بذلك التوهج الجدلى داخل المجتمع ، وسيطرت الواحدية الاتباعية ، اى انه كان بداية الانحلال من داخل ، مما كان مقدمة طبيعية للانحطاط » .

« وانعكس ذلك على الحالة الاجتماعية والسياسية فتحولت الى تجريد غيبى ، ومن هنا يعيش الفرد غريبا عن ذاته ، لانه موجود دينيا فى الله ،

ودنيويا فى الدين والأمة والدولة والاسرة ، فكأنه لا ينتمى الى الانسان بقدر ما ينتمى الى الدين أو الأمة أو الدولة ، وساقه هذا الى « الماضوية » اى التعلق بالمعلوم ورفض المجهول ، بل الخوف منه .. من اليقين بأنه ناقص وظيفيا ، وان وجوده يتوقف على استمرار الرموز « الماضوية » ومنظوماتها ، والتناقض مع الحداثة . فشأن العربى كشأن حضارته ، تمحور حول الماضى ، يرفض الحداثة ويرفض الشك والتجريب وحرية البحث المطلقة ، بغية الوصول الى الحقيقة والمغامرة فى اكتشاف المجهول، وقبوله ، فاصبح هذا التمحور موتا واصبح تحرير العربى من كل سلفية وجوبا لان ثقافته اتباعية ترفض الابداع وتدينه ، وتحول دون اى تقدم حضارى »..!!

هذا الكثير الخطير من الاراء الفجة ، المتلبسة بالاسلوب العلمى مخادعة لعقول الناس بالاستاذية السطحية ، والغرور المميت ، ما هو إلا مسعى جديدا لايقاظ فتنة التآمر على الاسلام فى اكبر مؤسسة تبشيرية فى الشرق الأوسط وهى معهد الدراسات الشرقية فى الجامعة اليسوعية ببيروت .

اذا كان « ادونيس » يعتقد ان الرؤيا الدينية الاسلامية هى رؤيا غيبية وحياتية فى آن واحد ، اى نظرة شاملة للفكر والعمل ، للوجود والانسان، للدنيا والآخرة ، فنحن نؤكد هذا الرأى ونحتضنه ونتبناه ، ولذا يصبح من واجبنا ان نعتبر كل خروج على هذه الرؤيا الصادقة التى لا يستقيم بغيرها بناء فكرى ولا يعتدل بغيرها مجتمع بشر ، بدعة يجب محاربتها لانها خروج على اجماع الامة وارادتها التى وصلت الى الاعتقاد اليقينى بان رؤياها غاية المطاف ، وفيها كل ما نطمح اليه الانسانية من تحقق الوجود البشرى فى تطلعاته وانطلاقاته وأخلاقياته ، وفى انعدام مسوغات التناقض التى تمزق ذلك الوجود ، اذا حلا لكل فرد ان يلغى انتماءه حينما يشاء الى الدولة أو الأمة ويختار الانتماء الى اهوائه وآرائه ، وما يؤمن به من تحولات بغية الوصول الى ما يعتقد انه الحقيقة وحدها والمغامرة فى اكتشاف المجهول باطلاق الحبل على الغارب لكل مدع ومتنبىء وكذاب .. وكيف يصح فى عقل أو منطق تسويغ الخروج على ذلك التحقق الكلى للخير والحق ، واعتباره انطفاء لتوهج الجدلى داخل المجتمع !! وهل تغدو سيطرة الواحدية فى التفكير — اى وحدة القاعدة الفكرية فى المجتمع — عاملا على التقدم أو داعيا للانحطاط !؟

واى مفكر عاقل يقول بما قال به من ان تلك الاتباعية انعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية ، فتحولت الى تجريد غيبى ! .. هل مبادىء الشريعة الاسلامية هى تجريدات غيبية هى تحقق عملى للسلوك الأخلاقى، وممارسة جديدة للحياة ، ومعالجة اساسية لمشاكلها المستجدة ؟ .. فالعربى لا يتمحور حول الماضى ، بل يتفاعل مع كل جديد يثرى الحضارة الانسانية ، وفكره الدينى ، لا يرفض الحداثة ، ولا يرفض التجريب ولا يرفض حرية المبحث ، بل يحض عليها بكل سبيل للوصول الى الحقيقة ، لكن فى اطار الرؤيا الصادقة التى جاءت بها رسالة السماء .. وعلى هذا تكون الدعوة الى تحرير العربى من كل « ماضوية » .. من كل سلفية ، كوجوب قطعى لانها تحول دون اى تقدم حقيقى، مدخلا جديدا لمحاربة الاسلام.

ان الدعوة الى رفض التراث الدينى والفكر الدينى تحت ستار التقدم والتمدن وحتمية اقتباس مذاهب الشك والعبث والرفض التي تسود الحضارة الغربية اليوم ، هى حقا بدعة جديدة فى ثوب دراسة علمية ، لعزل الدين عن الحياة .

اننا لا نرفض استيراد الآراء والافكار والفلسفات والايديولوجيات الغربية والشرقية ، لدراستها ومناقشتها وتفنيدها ، وارساء ثقافتنا باقتباس النافع منها المنسجم مع تراثنا . اما ان نستوردها لنعتنقها بديلا حتميا لتراثنا وشريعتنا التى شهد لها علماء الدنيا بالتقدم والسمو والارتفاع على جميع ما عرفته الانسانية من تشريعات وقوانين ، فهو ما يريده أعداؤنا ، وهو هدف المؤامرة التى هزمتنا وشرذمتنا ، وجعلتنا غرضا سهلا لسهام الصهيونية والاستعمار .

ولذا لم نعجب لحصول ادونيس على الدرجة العلمية بمرتبة الشرف ! خاصة ان من ناقشوا رسالته هم الاب « بولس نويا » والاساتذة انطوان غطاس كرم وسعيد البستانى ، والدكتور عبد الله عبد الدايم .. والثلاثة الأوائل يسوعيون أحدهم قسيس ، والرابع بعثى ملتزم ..

ولم نعجب لقولة الأب بولس تعليقا على الاطروحة انها حققت ما كان يحلم أن يقوم به هو ، واعتبرها هدية كبرى للأسلام نفسه !!!

اذا كان هذا الذى سقناه فى هذا الفصل هو فهم بعض العلماء والمفكرين المسلمين فى الاسلام ، فماذا تنتظر ان يكون فهم بعض المشائخ وأصحاب الجبب والعمائم الذين اشار اليهم الامام محمد عبده فى كلمته السابقة .

من ذلك ما ذكره الاستاذ محمد المجذوب فى كتابه سالف الذكر : « ما سمعه من احد المشائخ يحدث الناس فى المسجد عن نعيم الجنة ، فيتقنصف الوقت على وصف عنقود واحد من أعنابها ، اذ جعله يمتد مسافة « كذا » من الاعوام .. هذه القصة تذكرنا بقصة بشار بن برد حين مر بمدرس كهذا يتحدث عن قصر فى الجنة فيجعل فناءه مسيرة مئات الأعوام ، فما كان من بشار الا ان هرول وهو يقول بئست الدار هذه فى كانون الثانى !

ومثل هذا تفسير احد المشايخ لحديث الرسول : « من حسن اسلام المرء ترك ما لا يعنيه » بعدم جواز الوقوف فى وجه الإستعمار !

ومثل قول احدهم : « كل ذى عين زرقاء من أهل النار » مستدلا على ذلك بقوله تعالى : ((ونحشر المجرمين يومئذ زرقا)) ! والاحاديث المدسوسة على الرسول اكثر من ان تحصى كقولهم : من اكتحل بالاثمد يوم عاشوراء، لم يرمد ابدا » .

وكقولهم : اذا أردت ان تغزو فاشتر فرسا ادهم محجلا مطلق اليد اليمنى ، فانك تغنم وتسلم » والغرض من هذا الحديث الملفق تشويه حقيقة الجهاد وجعل الغرض منه الغنيمة والسلامة ..

ومن تلك الأحاديث المكذوبة قولهم : « ما من أمة الا وبعضها فى النار وبعضها فى الجنة ، الا أمتى فانها كلها فى الجنة ! » .

ومنها : « من اسلم من اهل فارس فهو قرشى ، ومن قرأ سورة الواقعة كل ليلة ، لم يصبه الفقر ابدا . وما من احد الا وفى راسه عرق من الجذام، ينفر ، فاذا سلط الله عليه الزكام فلا تتداووا له » ...

وبعض المشائخ الذين يعلمون ابناءنا تاريخ امتهم ، يصورون ابا بكر كغاصب للخلافة ، ومتواطىء مع عمر بن الخطاب على استمرار منافعها ، وانهما تآمرا على على بن ابى طالب صاحب الحق فى خلافة هى تراثه وحده، ويستشهدون على هذا الباطل بالخطبة المنحولة للامام على باسم الخطبة « الشقشقية » وحديثها معروف مشهور . وهى خطبة مدسوسة للتنقص من العظمة النفسية النادرة لصحابة رسول الله ، مع ان عليا يقول فى نهج البلاغة : « لله در ابى بكر ، لقد قوم الاود ، وداوى العلل ، واقام السنة، وذهب نقى الثوب » ، وفى كتاب له الى معاوية يقول عن الخليفتين : « لعمرى أن كان مكانهما فى الاسلام عظيما ، وان المصاب بهما لجرح فى الاسلام شديد » !

اردت بهذا السرد ان أؤكد ان التهجم على الاسلام آتٍ من الجهل بحقيقته، أو من الحقد عليه من أعدائه وابنائه على السواء ، ولان معظم الذين يضعون القانون فى الدول الاسلامية اليوم متاثرون بالثقافة الغربية المادية التى تسللت الى عقولهم عبر مناهج التبشير والاستشراق المناهضة لمنهج الاسلام ، والتى تجعل محاربته جزءا أصيلا فى تكوينها حتى يخيل لبعض مفكرينا الذين نهلوا ذلك المنكر من الجامعات الغربية ان اول مظاهر التقدم والتمدن ، والتعالم ، الاستهزاء بالدين ، واعتقادهم بما صبته المؤامرة فى اذهانهم انه سبب التخلف وسبب الانهزام .

ونحن حين نقول الاسلام لا نعنى ما نراه فى واقع الشعوب العربية والاسلامية اليوم فالاسلام هنا غائب ، أو مغلوب على أمره ، أو مفترى عليه ، ولم يبق منه الا بعض الظواهر الدخيلة عليه فى عصور الجهل والظلام كالطقوس ، وحلقات الذكر والزار والتمسح بالاضرحة والتوسل « بالاولياء » وشبهات التصوف الحافزة على الترهب والانعزال عن الحياة، وشغل الوقت بالتشهد والاستغفار .. لا نعنى هذا بل نعنى الاسلام فى اصالته .. فى جوهره .. فى حقيقته .. فى تجربته العجيبة التى تحققت فى عهد الرسول وصاحبيه .

اننا نريد علماء مجتهدين مستنيرين ، يعيدون اسلامنا الى ألقه الأصيل ويزيلون ما علق به وطما عليه خلال القرون الخمسة الأخيرة من الوساوس والدسائس والشبهات . نريد علماء يعملون على وضع الاسلام فى جو العصر وينقلونه من التحجر والجمود الى الحضور الانسانى المتجدد بالاستقاء من ينابيعه الروحية واصوله الحضارية ... نريد علماء يملكون القدرة النفسية والعقلية ، على تحويل الشك الى يقين،والفراغ الى امتلاء، والضياع الى لقاء ، والكفر الى ايمان ..

نريد علماء ، قدوة،يجمعون القول الى السلوك ، والعمل الى الاخلاص، والتقوى الى المجاهدة والاستبسال ..

قال لى واحد ممن اشرت اليهم من المثقفين الضائعين بعد استماعه الى محاضرة القيتها فى مدرج الجامعة الاردنية حول هذا الموضوع : ان ما قلته صحيح نظريا ، وانا امرؤ مسلم لكننى ارى فى الفرائض الاسلامية مضيعة للوقت فى هذا الزمن الذى تجاوز تلك الطقوس ! فتوقفت هنيهه وانا انظر الى شعره القذر المهدل على كتفيه ، والى زيه الذى يجمله « خنثى » لا هو ذكر ولا هو انثى .. ثم سألته ، كيف يقضى اماسيه ؟ قال : انت تعرف البيئة التى نعيش فيها ، وتعرف ضيقها وتزمتها ورجعيتها، فليس بد من ان تلتقى فى الاماسى باصدقائك فى ناد أو « ستيريو » تقتلون الوقت بقدح من هنا ورقصة من هناك ، أو تتجاذبون الحديث فى المآسى القومية المحيطة بالوطن العربى ، وفى آخر ماقاله القذافى والسادات أو آخر ما الف فى بيروت وعمان من حكومات ! حتى اذا ضقنا ذرعا بالهزل والجد انصرفنا الى « لعب الورق » نقتل به همومنا معظم الليل !

قلت يا اخى .. او يا بنى أو يا بنيتى لا احب ان اغلظ فيك القول لكننى ادينك باعترافك ، فانت وصحبك كما تقول ، تقضون الساعات الطويلة فى الخمر والميسر والهزل ، وتستكثرون ان تؤدوا فرائض ربكم التى لا تأخذ من وقتكم الثمين (!) أكثر من بضع دقائق كل يوم .

وانت وامثالك تجهلون الحكمة فى تلك الفرائض الالهية التى تسمونها طقوسا وتحسبونها عبثا وارهاقا .. فدعنى اسألك : الا تعتقد ان الالتزام الخلقى لا يكون الا بالدين ؟

قال : نعم .

قلت : ما معنى اخلاقية الفعل والسلوك فى نظرك وزملائك ؟

قال : انه يشبه ما ذكرته فى محاضرتك : ان تخشى ربك كانك تراه ، فان لم تراه فانه يراك .

قلت : ان ما تقوله يفسر حكمة الفرائض ، فانت حين تعتقد اعتقادا يقينيا وجدانيا صارما حاسما يملأ عليك جوانب نفسك : ان الله اكبر ولا اله الا الله فقد مسحت من حياتك الخوف والفزع والطمع والجشع ، واستبدلت بها المحبة والاخوة والمساواة .. وامتلأت اعتزازا بكرامتك الانسانية فلا تحنى هامك لغير الله ، ولا تقر بالالوهية والحاكمية لغير الله .

اما الصلاة ، فدعنى افسر لك الحكمة من فرضها خمس مرات كل يوم ببساطة يحسها الجهلاء ويعقلها المفكرون .

تصور نفسك وقد ذهبت تشيع حبيبا أو قريبا الى مستقره الاخير ، الا تشعر وانت ترى قبور من كانوا يملأون الدنيا صخبا وضجة ، بلحظات

من الصفاء الروحى تستهين بلواء الحياة وبلواءتها ، وخيرها وشرها ، وفرحها وحزنها ، ومحاسنها ومساوئها ، وحرمانها ولذائذها .. وترى فى هذه الاحداث التى لا تشبع آخرة المطاف ؟

كذلك فانت تحس بمثل هذه اللحظات من الصفاء الروحى حين تقف أمام ربك بايمان صادق ، خمس مرات كل يوم ، تجدد له العهد ان لاتضل او تزل او تظلم أو تخون وانك بهذا الايمان وحده تصبح قادرا على لجم نزواتك وكبح شهواتك ، حياء ممن كنت فى حضرته قبل قليل ، ان لم يكن رهبة منه خوفا من عقابه ؟! .

اما الزكاة فهى التزام ذاتى بالترابط والتلاحم الاجتماعى لا قسر فيه ولا اكراه ، ولا مثيل لذلك فى كل دساتير الدنيا وحضارتها ، لحل معضلات الضمان الاجتماعى الذى يبحثون عنه فيخطئون أكثر ما يصيبون .

وأما الصوم فهو التربية المعجزةالتى تستعلى بالنفس علىحكم الضرورة، وتمتحنها بالتزام الحق وكف الأذى وانصاف المعذبين .

وأما الحج فهو اكبر مسيرة انسانية ، اعجب تظاهرة بشرية واعظم مؤتمر دولى يجمع عشرات الجنسيات والعنصريات والالوان فى نسق واحد ونظام واحد ولباس واحد وهتاف واحد قلب واحد وايمان واحد دون خلل ولا رفث ولا فسوق . ولا فرق بين كبير وصغير او ملك ورعية او غنى وفقير ، يتم ذلك كله فى انتظام معجب دون دعوة أو دعاية او ترغيب.

وكانى بالمسلم حين يرتدى حلة احرامه ، كانه قد لبس اكفانه ايذانا باحتقار الدنيا فى سبيل العزة والكرامة والذود عن الشرف والأرض والعرض والمقدسات وان أول متطلبات النصر ، الانتصار على النفس ، فيقطعون كل صلة لهم بالبشر ويعلنون الحرب على الشيطان رمزا لعدوهم الواحد، وكونهم يدا واحدة على ذلك العدو . اين تستطيع فى الدنيا كلها ان تجمع مليونين من البشر ، تصورهم واحد ومنهجهم واحد ، وقلوبهم مؤتلفة وعقولهم مجتمعة ، لا يوجد بينهم فرد واحد خارج عن الصف ، مخالف للمسيرة .. ولا يرتفع فيهم صوت نشاز .

ولو عرف المسلمون كيف يستفيدون من مواسم حجهم ، لانقلبوا منصرفين من المناسك الى تدارس احوالهم ، وتحديد اعدائهم واصدقائهم وتجميع شملهم وتوحيد مناهجهم الثقافية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية ورسم الخطط والدراسات العلمية لكافة شؤون حياتهم ، وندب علمائهم لوضع دستور اسلامى موحد لدولهم مستمد من كتاب ربهم وسنة رسولهم ...

أليس من سخرية القدر اننا لا نعرف أعداءنا واصدقاءنا لا خفاء فيها ولا خلاف ولا مداورة ولا تدليس ، حتى هذه الساعة ؟؟

مصيبة الاسلام اليوم انه فى مضيعة لا معين له عليها بين جهل ابنائه وعجز علمائه ، بل كدت أقول جهل ابنائه وعلمائه على السواء .. وانه فى

الوقت نفسه يواجه هجوما شرسا لا هوادة فيه ، يهدف الى القضاء عليه قضاء مبرما بما دسوه وزوروه عليه من شبهات واسرائيليات واباطيل .

اليس من اغرب الغرائب ان بعض من يسمون انفسهم علماء وفقهاء ينكرون حتى هذه الساعة نزول الانسان على سطح القمر ، ويعتقدون ان القمر نور ساطع فى السماء ، فتراه يكبر تدريجيا ثم الى الصغر يعود وسبب هذا التقلب فيما يزعمون ان القمر يكون محتجبا بين ثنايا السحاب فتأتى الملائكة فتجره بالسلاسل الفولاذية لتخرجه بالتدريج ، حتى اذا خرج كله ، اذ هو الى مكمنه يؤوب ، وهكذا دواليك !!!

هذا هو اسلامنا اليوم ، فريسة هجوم شرس وجهل فادح !

هجوم متعمد لا ينقطع لافراغ المسلم من هديته وحوافزه الروحية ...

وجهل يطمس حقيقة الدين ، ويجعل الخرافة المخجلة اصلا من أصله.

وضياع شبابنا بين هواجس العذر والغدر ، اصبح او يكاد يصبح قدرا لا محيد عنه ، فهم يتأرجحون بين مؤامرات مدمرة وشبهات مريبة وخرافات عجيبة وتحريف شنيع !

وما لم نبادر فى الحال الى حركة انبعاث جديد تنقى وترتب وتبوب أمهات كتب الفقه والتفسير والحديث وتعود الى احياء أصول الاجتهاد والاستقراء والاستنباط ، وضع البرامج التعليمية المستنيرة المستمدة من عبقرية الاسلام بصفاء عقيدته وراء شريعته لخلق جيل يجرى على سمت الاسلام ويكون نواة المجتمع السليم ، مجتمع الكرامة والعدالة والحرية والمساواة .. مجتمع المواجهة والثار والجهاد ، فقد خسرنا معركة وجودنا وفقدنا بقية ما فى نفوسنا من رجاء .

لقد كان هدف الصهيونية ، وما يزال تشويه حقيقة الأديان لافساد اخلاق الأجيال الناشئة ، وقد استطاعوا التغلغل فى مراكز القوى المؤثرة فى الكنيسة المسيحية كما ذكرنا من قبل ، واخضعوها لمقولات وبروتوكولات حكماء صهيون ، بالارهاب والاغراء .. فرأينا كيف يتداعى كبار رجال الدين المسيحى فى الولايات المتحدة واوروبا الى عقد المؤتمرات واصدار القرارات انتصارا لباطل اليهود ، حتى ان المجتمع الكنسى البابوى اضطر تحت الضغوط الرهيبة الى اصدار قراره المشهور بتبرئة اليهود من دم المسيح، لمحو عقدة الذنب أوقدت الصهيونية نارها لتصل الى اغراضها .

وبعد حادث « ميونيخ » أجاز رئيس أساقفة « كنتربرى » لنفسه اقامة الصلاة على ارواح قتلى اليهود ، نكاية فى الاسلام لا حبا فى « يهوه » ، متناسيا مئات والوف الشهداء العرب الذين سقطوا ويسقطون كل يوم صرعى البغى الاسرائيلى المخالف لمبادىء وتعاليم السيد المسيح عليه السلام .. وقد استثار هذا التصرف اللاانسانى ان لم نقل اللاأخلاقى ، مجلة « اسبكتيتور » اللندنية ، فلامت الاسقف لتحيزه الفاضح المشين حين صلى على قتلى اليهود ولم يصل على شهداء بيروت وفيهم مسيحيون انجيليون !

لقد أصبحت المسيحية فى الغرب نتيجة تلك الضغوط انتماء اجتماعيا اكثر مما هى التحام بالانجيل .

وقد استفز اخواننا مسيحى المشرق ذلك التحيز الوقح ، فجاء فى بيان نشرته الشبيبة الطالبية المسيحية فى بيروت فى عيد الميلاد سنة ١٩٦٨ رفضهم لكنيسة شرقية غريبة عن بيئتها ، متعلقة بالمدنية الغربية ، وطالبوا بكنيسة ومسيحيين يعتبرون أنفسهم جزءا لايتجزا من العالم العربى يشاركون فى قضاياه ونضالاته وتوقه الى التحرير ، وبناء مجتمع متطور . وكان بين موقعى البيان مطران الروم الكاثوليك فى بيروت « غريغوار حداد » وأصبح شعار المخلصين من مسيحى هذا المشرق كما يقول المطران جورج خضر أن من ينسى أورشليم فى كتابنا تنساه يمينه .

أجل ، لقد استطاعت الصهيونية بنفوذها الرهيب أو كادت ، ان تدك حصون المسيحية فى معاقلها الاساسية .. فقد جاء فى مجلة « تايم » الامريكية عدد ١٩٧٣/٤/٢٣ أن الكاثوليك المحافظين على تعاليم النصرانية ، يرون فى حركة « الجزويت » خروجا على تعاليم المسيح ، فقد قامت فى الاساس حامية للكنيسة البابوية ، وأصبحت اليوم « طابورا خامسا » ضد الكنيسة ، كما يقول الأب « ديفيد تريسى » الأستاذ فى الكلية اللاهوتية بجامعة شيكاغو ، فهم يفسدون الشباب ويدمرون عقولهم ويشجعونهم على تعاطى المخدرات وممارسة العلاقات الجنسية الدنسة فى سن مبكر ، ويحضون على تقويض دعائم المجتمع ، ويصرحون علانية انهم سيسدون منافذ النجاة أمام الكثلكة المحافظة .

وبينما كان الجزويت يدعون الى الرهبنة الصارمة قبل عقدين من الزمن حتى انهم كانوا يحرمون على اتباعهم سماع الاذاعة أو قراءة الصحف أثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد غرقوا اليوم فى المباذل الاخلاقية ، وتركوا لطلابهم الاغرار الحرية المطلقة فى اختيار برامجهم التعليمية ، ولو كانت مثيرة للفوضى ، مشيعة للعبث والرفض والشلل والتخريب .

وجاء فى مجلة « نيوزويك » الصادرة بتاريخ ١٩٧٣/٤/٢٣ : « ان الصهيونية تبذل اليوم جهودا جبارة متواصلة ، لاقناع الكنيسة البروتستانية فى أمريكا بوضع انجيل جديد ينسخ قصة تآمر اليهود مع السلطة الرومانية على حياة السيد المسيح ، لان الاناجيل الاربعة مجمعة على تاكيد ذلك التآمر ، مع خلاف ضئيل فى التفاصيل .. وان ذلك جزء من العقيدة المسيحية ، وحجة اليهود التى يحاولون فرضها ، ان المجمع اليهودى الذى حاكم المسيح كان مؤلفا من البيروقراطيين العاملين فى خدمة الدولة الرومانية ، لا من القادة الروحيين .. وقد وقع بعض كبار رجال الكنيسة تحت طائل الارهاب والضغط الصهيونيين ، فأخذوا يفسرون الاناجيل تفسيرا يتفق مع اغراض الصهيونية ، فيجعلون دور اليهود فى المؤامرة كدور « المحلفين » فى محاكمات اليوم .. ولم ننس بعد قرار اللجنة الاسقفية الفرنسية الذى اسبقنا الاشارة اليه .

وهكذا استطاعت الصهيونية بأساليبها الجهنمية ، تشكيك المسيحى فى كتبه الدينية ، واتهام تلك الكتب بتزوير قصة المحاكمة والصلب ، وتمزيق

المسيحية الى ملل ونحل كثيرة متناقضة ، خاصة فى الولايات المتحدة ، تصدر فى كل عام الوف الكتب والمنشورات الداعية الى دعم فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، كمسلمة دينية لا يجوز مناهضتها!!والساحة العربية مملوءة بمثل تلك الكتب والمنشورات !

ويبلغ الاستهتار والاستخفاف بعقول المتدينين المهووسين مداه ، مع ان بعض الكتاب اليهود فى اسرائيل يهزأون علانية بقصة الشعب المختار ، فقد نشرت مجلة « هاعولام هازى » الاسرائيلية قبل اشهر حوارا خياليا بين الله وشعبه المختار . جرى على النحو التالى :

اليهود : جئنا لكى نأخذ ما وعدتنا به .

الله : وعدت ماذا وعدت من ؟

اليهود : وعدتنا نحن بهذه الأرض !

الله : ولكن من انتم ؟

اليهود : نحن الشعب المختار .

الله : ومن الذى اختاركم ؟

اليهود : انت .

الله : لا اذكر اننى فعلت ذلك . وماذا تريدون اليوم بحق الجحيم !

اليهود : نريد الارض الموعودة .

الله : من يعيش فى تلك الأرض .

اليهود : اعراب بدائيون .

الله : ولماذا تجيئون الى اذن ؟ وماذا تريدون الآن ؟

اليهود : لقد اخذنا تلك الأرض ، واخذنا اكثر منها ، ونريد تأييدك المعنوى !

الله : اننى لست مديرا لمؤسسة اعلام .

اليهود : لقد قررنا اسناد تلك المهمة اليك ، وهى ليست مهمة متعبة ، وكل ما نريده منك ان تجلس بهدوء ولا تتدخل فى شؤوننا .

واذا كان الماضى شاهدا على طاقة شعب على الانتحال والكذب والتزوير، فتلك هى صورة مصغرة لغزو الصهيونية للمسيحية فى عقر دارها ، وقد بلغ ذلك الغزو مبلغه ، واحدث نتائجه الظاهرة والخفية ، ولم يبق أمام غلواء الصهيونية غير الاسلام ، فاذا تم لها الاجهاز عليه ، لن يعبد الله على الأرض بعد اليوم !

ويجهدنا تقصى الحقائق التى ما تفتأ تنكأ جراحاتنا الدامية . فلنترك مافات ولننظر فيما هو آت .

ان المؤامرة ضد الاسلام والحضارة العربية الاسلامية مازال فى اوج ضرامها وعنفوانها ! ولعل المسلمين فى تركستان السوفييتية أكثر وعيا واعمق ادراكا لحقيقة المؤامرة ورصد أبعادها ، منا نحن العرب ، نؤابة الاسلام ولحمته وسداه . فعلى الرغم من فرض الالحاد المادى عليهمبالعنف والارهاب ، فهم ما يزالون يؤمنون ايمانا راسخا لا يتزعزع بفكرتين شائعتين فيهم :

والفكرة الأولى ان الثورة الاجتماعية فى العالم قد اكتملت وبلغت أهدافها بظهور الاسلام ، ولذا فان الثورة الاجتماعية التى بشر بها ماركس هى أكذوبة هذا العصر .

والفكرة الثانية ، ان الاسلام لا يمكن ان يصرع ، ما بقيت نسخة واحدة من القرآن !

وبعد هزيمة الذل والعار سنة ١٩٦٧ زار احد شراكسة عمان منطقة القوقاز السوفييتية فوجد مسلميها فى حال من الحزن الشديد ، لضياع المسجد الاقصى ، وتقصير العرب والمسلمين فى الدفاع عن مقدساتهم ، وسألوه عنعدد الشراكسة فىالاردن وعدد من سقط فى المعركة منشهدائهم . وعندما ذكر لهم الرقم الذى لا يتجاوز العشرات ، أوسعوه تقريعا وثلبا ، وصاحوا فى وجهه : لماذا هاجرتم الى الديار المقدسة الذن فى سبيل دينكم ، اذا كنتم لا تفهمون معنى الجهاد والاستشهاد ؟ . لقد كان الاجدر بكم أن تموتوا جميعا فى سبيل أولى القبلتين وثالث الحرمين ! .

ومن العجيب ان كل وسائل القمع والتعذيب والاضطهاد الدينى فشلت فى ثلم صلابة الايمان فى نفوس مسلمى روسيا ، ومن الظواهر الغريبة ان الشباب الذين يتلقون الدروس وفق المناهج الماركسية ، أكثر صمودا وثباتا من الشيوخ ، فقد جاء فى مجلة « اوزبكستان كومونيستى » العدد ٦ سنة ١٩٧٠ : أن الدين الاسلامى هو فى اعتقادنا ، العقيدة الوحيدة التى تعطى فلسفة مثالية للحياة » . وبعض شباب المسلمين من اعضاء الحزب الشيوعى يسهمون بحرارة وايمان فى احياء الذكريات الدينية .

الواقع العربي وطريق النجاة

رأينا فيما ذكرناه ان مقدمة معوقات التوحد بين الدول العربية،انشطارها بسبب الصراعات الايديولوجية ، والصراعات الثورية والفراغ العقائدى الى دويلات متناقضة متخاصمة ممزقة الاوصال ، مشتتة الشمل ، بحيث اصبحت اشلاء أمم ، واجداث رمم ، لا أمة واحدة ذات قاعدة واحدة وواجهة اخلاقية واحدة .. ومصير واحد .

ثم اثبتنا بالبرهان القاطع ان تلك القاعدة وتلك الواجهة لا يمكن انتتكون الا فى محاضن الاسلام .

وبسبب ذلك الضياع سهل على اسرائيل ان تفترس من الأرض العربية ماتشاء ، وهان علينا أن نغضى على الاذى ، ونحن نرى جناته . ونصبر على المكائد ونحن نعرف موقديها ، ونرتكس فى مطارحنا الذليلة نقتات أوهامنا .. ونجتر آلامنا ونصبر أنفسنا على البلاء ، حتى صار الذل جزءا من طبيعتنا لا نكاد نحس به أو نباليه !

اسرائيل المزعومة كما نسميها ، وحدة دينية واجتماعية وسياسية متراصة متلاحمة ونحن فرديون أنانيون لا حقيقيون لا أخلاقيون ، لكل منا قصة ولكل منا قضية ولكل منا درب ، وسبيل !

اسرائيل أمة متكاملة ، تكونت خلال عقدين من الزمان من تسعين جنسية دولة مختلفة لا يجمع بينها الا رباط الدين . ونحن أمة مشرذمة لا خطة ولا حافز ولا حاضر ولا مستقبل .. ولا مصير !

فاذا علمنا أن نحو خمسين الف يهودى سيهاجرون كل سنة الى اسرائيل من روسيا وحدها ، معظمهم عباقرة فى كل علم وفن ، بالاضافة الى ظاهرة الهجرة المتزايدة من الولايات المتحدة بعد حرب الـ ٦٧ ، بدوافع وحوافز دينية عنصرية محضة ، ادركنا ان عدة ملايين سيتجمعون فيها خلال بقية سنى هذا القرن .. وحينما تضيق بهم الأرض سيحلون مشكلتهم السكانية على اساس مبدأ الاقتحام ، باقتلاع العرب من ارضهم والقذف بهم فى متاهات التشرد والضياع ..

ومن الجدير بالملاحظة والاعتبار ، ان جميع ايديولوجيات المهاجرين من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، تذوب فى المجتمع الاسرائيلى عند وصول اليهودى الى أرض الميعاد(:) فيخلع كل عقيدة وكل فكرة ، ويرتدى

ايديولوجية واحدة هي ارض اسرائيل ودين اسرائيل : اما نحـــن فنتغنى بالامية ونردد بالتبعية الجاهلية قولة « ماركس » : ان العامل ينتمى الى طبقة لا الى ارض .. الى عقيدة امية لا الى قومية شوفينية .. أى ان الارض العربية لم يبق لها فى نفوسنا من القدسية ما للطبقة التى ينتمى اليها الفرد !

وليس فى الدنيا شىء هو أحب الى اسرائيل وآثر عندها من هذا التفتت .. لا الى كيانات هشة فحسب، بل الى طبقات متناقضة المبادىء والمفاهيم والاتجاهات .

المأساة تطحننا دون هوادة ، دون توقف ، والقـــادة يتخاصـــمون على المكاسب لحماية مؤسساتهم العفنة .. ولم تقتصر الدوامة على الحـــكام بل انتقلت الى قيادات حركة التحرير .

فبينما يقول « صلاح خلف » ان معنى الدولة الفلســـطينية الديمقراطية العلمانية واضح وهـــو انها تصفى فقط الكيان الصـــهيونى العنصرى داخل فلسطين ، ولذا فان حركة فتح هى حركة تحرير وطنية ذات أبعاد انسانية، لكل يهودى طهر نفسه من الأفكار الصهيونية أى اقتنع ان الأفكار الصهيونية دخيلة على المجتمع الانسانى ... فان ذلك يعنى ان بقاء اسرائيل معزولة عن الأفكار الصهيونية مقبول عند العـــرب ، ونكتفى من التحـــرير بتغيير اسمها الى دولة علمانية تقدمية شعبية ديمقراطية .. اما كيف يمكن ان يقوم التعايش فى اطار المساواة والمواطنة الكاملة بين مجتمع متلاحم يضم مالا يقل عن خمسة ملايين يهودى بعقلية واحدة ونفسية واحدة وقاعـــدة دينية واحدة ، وبين أقلية عربية تتجاذبها الاتجاهات المذهبية المتناقضة ، فذلك شىء لا يدور فى خلدنا وانما هى سمادير أحلام نلهو بها ونلهى بهـــا الجماهير ..

ثم نتساءل : هل يمكن ان يقتنع اى يهودى ان الأفكار الصهيونية دخيلة على المجتمع الانسانى ؟

واذا كان الثابت القائم المحسوس الملموس ان الاقليات اليهودية الضئيلة فى المجتمعات الغربية تسيطر سيطرة خارقة للعادة ، وتكاد تكون مطلقة على الاتجاهات السياسية والنفسية والاجتماعية والخلقية لتلك المجتمعات العريقة فى مفاهيمها الديمقراطية وطاقاتها المادية والفكرية .. فما هو مصير الأقلية العربية الهزيلة فى الدولة العلمانية الديمقراطية ؟

اننا نخاف من طرح مثل هذه التساؤلات لاننا لا نستطيع اجابة عليهـــا او القبول بمدلولاتها الا اذا تخلينا عن عقولنا ، ولجأنا الى الوهم المخـــدر واليأس المريح !

لكننا اجرأ الناس على طرح شعارات معطوبة يزايد بها بعضـــنا على بعض ، ونخدع انفسنا والناس ، فيعلو الصخب ويحتدم النقاش ويســـهر الناس جراها ويختصمون وتضيع الحقيقة بين التخدير والايهام !

اما راى جناح المقاومة اليسارى الذى تمثله الجبهة الشعبية ، فقد ورد فى المذكرة التى وجهتها الى المجلس الوطنى الفلسطينى ، وحددت فيها اهدافها الثورية بقولها : « ان النضال من اجل حل ديموقراطى شعبى للمسالة الفلسطينية والمسالة الاسرائيلية يقوم على ازالة المؤسسات الصهيونية ، وانشاء دولة فلسطينية ديمقراطية شعبية ضد كافة الوان القهر الطبقى والقومى ، مع اعطاء الحق لليهود والعرب فى تنمية وتطوير الثقافة الوطنية لكل منهما ، على ان تصبح هذه الدولة جزءا من دولة اتحادية عربية ديمقراطية المحتوى معادية للاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية .. وان هذا الحل كفيل بتحرير الانسان العربى والانسان اليهودى من الثقافة « الشوفينية » : تحرير الانسان العربى من الثقافة الرجعية — اى الاسلام — والانسان اليهودى من الصهيونية ، ويتحقق ذلك عن طريق الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية » .

الغرض من هذه المعطيات الفكرية اليسارية الثورية ، واضح لا لبس فيه ولا غموض ، مؤداه ان حركة المقاومة فى تنظيرات الجبهة الشعبية الديمقراطية ، هى حركة تحرير شعبية يشترك فيها العرب واليهود جنبا الى جنب تحت لواء « ماركس ولينين » لمحاربة الرجعية الاسلامية ، والرجعية الصهيونية ، من اجل اقامة المجتمع الاشتراكى الكفيل بحل المشكلة الفلسطينية على اساس وحدة الحركة ووحدة الايديولوجية .

فاذا علمنا ان ما يسمونه الرجعية الصهيونية ارسخ من « جبل الشيخ » ادركنا ان غاية حرب التحرير الاولى والاخيرة ، هى تحرير المواطن العربى من الاسلام !!

واخواننا هؤلاء واولئك الذين يتوهمون ان حركة الاحزاب اليسارية فى اسرائيل تكون معارضة جادة لاهداف الصهيونية فى التوغل فى الأرض العربية والاستئثار بخيراتها ، متجاوبة بذلك مع اهداف اليساريين العرب ، هم واهمون حالمون ، ولا نشتط فنقول جهلاء او عملاء .. لانهم فى الحالين يجهلون او يتجاهلون طبيعة الحركة الصهيونية ومقوماتها ، وطبيعة تركيب الفرد اليهودى نفسيا وفكريا ودينيا ، فالانتماء لأرض اسرائيل مقدم ومفضل عندهم على كل ايديولوجيات الدنيا من عهد سقراط الى عهد « جيفارا وكاسترو » .

فمن اقصى اليسار اليهودى المتمثل فى حركة « متسبن » مرورا بحركة « راكاح » حتى نصل الى المعتدلين من امثال « اورى افنيرى » و « دان بيقلى » .. كلها دون استثناء ، تعتقد ان لا حل للقضية الفلسطينية الا فى ضوء المبادىء الماركسية التى يفسرونها على هواهم بالثورة على الرجعية العربية — الاسلام — وتبنى الوحدة والاشتراكية ، فى ظل دولة اسرائيل .

فقد جاء فى مقررات المؤتمر السابع عشر لحزب « راكاح » الشيوعى بالحرف الواحد : « ان الاقلية العربية تناضل من اجل المساواة المدنية

والقومية فى الحقوق فى اطار دولة اسرائيل .. ومن أجل التقدم الاجتماعى والديمقراطى ، ومن أجل السلام العادل مع العرب ، ولتحقيق هذه الأغراض، فان تلك الأقلية تشن نضالا مشتركا مع القوى الديمقراطية اليهودية ضد الطبقة الحاكمة الموالية للاستعمار . وبعد حرب حزيران وقبلها ، رفض المواطنون العرب محاولات دفعهم الى نضال مغامر لا يلحق الا الضرر بهم وبالنضال الديمقراطى العام فى اسرائيل » .

ومعنى هذا الكلام الشديد الوضوح ، ان النضال الديمقراطى الذي تقوم به الأقلية العربية اليسارية فى اسرائيل هو للحصول على حقوق المواطنة ضمن نطاق دولة اسرائيل ، وان لا علاقة لها بفكرة التحرير الوطنى ، أو العمل الفدائى او القومية العربية ، أو الدولة العلمانية .

ويقول « دان بيقلى » فى دراسة مطولة بعنوان : « تجربة التعايش السلمى — خطة للمستقبل » : « اذا استطعنا تعليم ومساعدة سكان الضفة الغربية على تطبيق التجربة الديمقراطية فان ذلك من شانه ان يعزز قيادات شابة جديدة ، أقل ارتباطا بمفاهيمها القومية والدينية ، منفتحة على المفاهيم الحديثة التى يتعلمونها اليوم من اسرائيل ، يكون هدفها التمهيد لتعايش سلمى حقيقى مع اسرائيل » .

.. وقد عمقت تجربة حكم الاحتلال العسكرى فى السنوات التى تلت الحرب ، الشعور بالحاجة الى التعايش السلمى عند ابناء الضفة الغربية، مما يمهد الجو لممارسة حقوقهم بانفسهم فى نطاق ما يقوم الآن من تعاون تجارى وتبادل ثقافى وحوار سياسى مع توفر حرية الانتقال والسفر ، بحيث سيؤدى مثل هذا الوضع الى اختفاء الصراع فى هذه المنطقة ، وعلى حكومة اسرائيل ان ترعى هذه الاتجاهات الجديدة وتغذيها وتعمقها لانها الأمل الوحيد فى السلام الدائم » .

أى ان هم اسرائيل المقيم المقعد — كان وما يزال — ان تجعل العرب أقل ارتباطا بمفاهيم القومية والدينية ، ليسهل ابتلاعهم وهضمهم ، وتحويلهم الى قطيع سائب فى خدمة اسرائيل .

ونترك لقارىء المقارنة بين أهداف الحركات اليسارية فى اسرائيل واهداف اليسار العربى التائه فى صراعات الامية والطبقية ، وشعارات الشوفينية والبروليتارية ، ووحدة معركة الجماهير العربية واليهودية ضد الرجعية والصهيونية ..

هذا مع العلم بأن الحركات اليسارية فى اسرائيل تكاد تكون عديمة الجدوى والتأثير ، ولعل مهمتها الأساسية ، اشاعة الفوضى الفكرية فى العالم العربى دوله ومنظماته على السواء !

هذا من جهة البلبلة الفكرية والنفسية السائدة فى الـ.. .. العربية .. اما من ناحية طبيعة الحكم والحكام ، فحدث ولا حرج . ولا تسال عن الخبر !!

الحكم فى العالم العربى اداة تسلط لا اداة خدمة ، وشــهوة الحاكمين لا يرويها الا اذلال المواطنين .. فالسلطة غاية فى ذاتها لا وسيلة للمحافظة على كرامة الأمة والثأر لشرفها ... والشعوب العربية قطعان من الماشية فى خدمة « الطلائع القيادية الثورية » وكوادر الحزب الرائد المفروضة بالحديد والنار .. أو فى خدمة نزوات وشهوات السفلة من القادة الساسة . وهو المعاناة من السياط التى تلسعه والأحذية التى تدعسه ، معد اعدادا قسريا قمعيا ، ليس الى قبول اخطاء الطليعة الرهيبة أو القادة الفاسـدين ، بل لتبرير اخطائهم ، باعتناق الذرائع المحمولة عليه ، وأسهل سبل التبرير ، القاء تبعة الهزائم والمفاسد والمظالم على القوى الخفية للصهيونية والامبريالية والرجعية عجزا عن القاء التبعة على أصحابها الحقيقيين .. ويؤدى الأمر فى النهاية الى غياب أو غيبوبة الفكر والخلق فى مواكب التوعية ومهرجانات التوجيه ليلهو القطيع بترديد الهتافات الصاخبة ، عن حقيقة ما يدبر له . وحين تسمع فى الاذاعة أو تقرأ فى الصحف المؤممة المكممة كلمة الجماهير يتبادر الى ذهنك فى التو ، قطيع النعاج !

ذلك هو مفهوم حكم الشعب فى معظم البلاد العربية التى تتغنى بالحرية والديمقراطية والوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية ، والحياة الأفضـل لطبقة الحاكمين ومن لف لفهم من الجهلة واللصوص والمهرجين .. أما باقى الناس ، فحياتهم هى الحياة الاحط والأسفل ، ولا يرون خبز يومهم الا معجونا بالدموع !

• ومن الطبيعى ان ممارسة القادة والحكام لهذا النوع من الحكم الحجرى — نسبة الى العصر الحجرى — تجعلهم ينبون نبوا شديدا عن اتاحة الحد الادنى من الحرية للمثقفين والمفكرين الذين يحملون بذور التساؤلات المستقبلية للقطيع المقجوع .. فالجدل جريمة والنقاش خيانة ، ومعارضـة أراجيف المتسلطين هرطقة وزندقة وكفر وثورة مضادة ، الى آخر ما فى القـواميس الثورية والرجعية .. من اسماء ومسميات وشعارات تجعل الباطل حقا، والشر خيرا ، وتحيل الحرية والوحدة والديمقراطية الاشتراكية الى أوهام حالمين !

وفى هذه الدوامـة المغلقة والحلقة المفرغـة ، والدوار المخيف ، تغيب بالضرورة ، الحقيقة البسيطة التى نسيها الناس من طول ما الهبت ظهورهم كعوب البنادق وشلت المظالم عزائمهم .. فشردت المآسي العلماء والأخيار والأبرار ، وتركت الساح مباءة للابقين والخائنين والأشرار ...

لقد غاب عنا فى تلك الدوامة التى تطحن بلا كلل ولا ملل ، فلا تقف ولا تعف ، ان الثأر ضريبة دم ، وان العنف الثورى ، حتم حين تهدر الكرامة وتهان الحرمات وتداس المقدسـات ، وان الشرف لا يسلم الا بمسـفوح النجيع .. معادلة سانجة ومسلمة واضحة ، ادركها الحيوان بغريزة البقاء التى فيه ، ووعاها انسان الغاب قبل ان يعتنقها انسان هذا القرن وتقوم عليها الحضارات .

وهكذا هكذا ، امتطى السرج فى الأمة المريضة حكام خائبون وقادة فاشلون وساسة تافهون ، ومفكرون مأجورون مجرورون !

انظر فيما يحيط بك من غفلة عامة توشك ان تقطع العرب من أرض الأحياء ، ماذا ترى ؟ القاب مملكة فى غير موضعها ، ورتبا واوسمة ، والقابا وسيوفا مجلوة وخيولا مطهمة نجوما تتلألأ على الأكتاف والصدور ، والله وحده عالم بما فى الصدور .. وجنرالات ومارشالات بعدد ما فى الدنيا كلها، ودكتاتوريون « كالبلياتشو » وقادة وحكام « كدون كيشوت » ، صقور على اهلهم ، حمائم أمام اسرائيل . اشداء على قومهم أذلاء أمام اسرائيل ، لا يصلحون لغير المراسم والمواسم والاستعراضات ، وشد المهاميز ونفخ الأبواق وقرع الطبول !

اسمع لما يدور حولك : صفقات وعمولات وسرقات وتهريب وتخريب ، واسلحة صدئة مهترئة من نفايات الأعداء ومخلفات الحرب تستعمل لزينة أو لضرب الأحرار !

سرك عربى عجيب ومدينة ملاهى و « بيتون بليس »

ومؤتمرات مؤامرات ، تجتمع وتنفض لتنفض ، ونقاش وحوار ، وزياط وعياط ، ومداورات مناورات ومساومات وتنازلات .. ثم ينقشع النقع عن هزائم نصنعها لانفسنا وأساطير انتصارات نصنعها لاسرائيل !

وما يزال « السرك » العجيب ، يلعب باقدار الأمة ومصائرها منذ ربع قرن وليس على جدول اعماله الا مادة يتيمة هى ازالة الخلافات العربية، التى تنمو كل يوم ولا تزول !

ومع كل هذه البلايا لا نخجل ان نقول اننا جادون فى الاعداد لمعركة المصير!

وبعد هذا كله ،اكاد ان اقرر ان حجم ماء الوجوه الذى أرقناه على الاعتاب استجداء واسترخاء يزيد على حجم ما أرقناه من دم فى معركة ١٩٦٧ .

كلهم يدعون فى العلن تارة وفى الخفاء تارات الى السلام والاستسلام والاستخذاء والركوع مع تنوع الأساليب والأشكال والأهداف .. وهم الجميع ان يظلوا فى مواقعهم المهزوزة بضعة اشهر أو بضع سنين على أكثر تقدير.

لقد خرجت جماهيرنا تزمجر بعد هزيمة الهوان : ان فى يدنا السلاح الذى سيزلزل الدنيا وهو سلاح البترول !

وخضع القادة مكرهين لهدير الجماهير .. وتسابقت دولنا الى اعلان وقف الضخ انتقاما للشرف العربى .

ومضت أسابيع ، فندمنا حرصا على المكاسب والمغانم واللذائذ والشهوات وهجمنا من جديد على مواخير الدنيا نريق فيها الطاقات العربية وأموال النضال وارادة القتال !

ثم اجتمع الشمل فى الخرطوم ، وظننا لحظة ، أنه اجتمع ليضع خطة معركة الثأر ، فما أسرع ما خاب الظن وتبخرت الأحلام .. وخرجنا من

المآتم باللاءات الثلاثة .. وما هي الا بضعة أسابيع حتى لحسنا لاءاتنا ، ورضخنا بل ترامينا على القرار المشؤوم ، أما الصمود فقد تبدل الى قعود، وأما خاطر المعركة فقد أصبح كابوسا يؤرق التعساء فى دنيا العروبةالمملوءة بالأصنام والأقزام وأشباه الرجال .

وعدنا وليس فى الجعبة الا قولة القائل :

بعض قادتنا عظماء لان المحيطين بهم صغار !

بعض ساستنا كبار لان المحيطين بهم صغار !

هذا هو واقعنا الاسود الا اذا أردتني ان أزور لك الامانى وازخرف الأحلام .. وهذه هي انظمتنا كلها فريسة لابطال السمسرة والتهريبوالرشوة واستغلال النفوذ والاثراء غير المشروع ! أما الشرفاء الذين يستطيعون تحمل تبعات الحاضر وأمانة المستقبل فلا مكان لهم فى مفاوز الزلفى والنفاق ومفاسد الأخلاق .

قلت لسفير دولة غربية كبرى بعد نكبة ٦٧ : ستندمون على دعمكم

ومساعدتكم لباطل اسرائيل ، لقد خسرنا معركة لكننا لم نخسر حربا .. وقد هزمت جيوشنا لكن ارادتنا لن تهزم مهما تطاول الزمان ، ولدينا من الطاقات والقدرات المادية والمعنوية ما لو استخرجناه من مكانه واحسنا استعماله لعرفنا كيف نثأر منكم ومن ربيبتكم اسرائيل . فماذا انتم صانعون؟

فنظر الى بابتسامة هازئة ، وقال : اسمع يا بنى ، لو كان الأمر فى يدك ويد امثالك من الحالمين ، لخشينا على مصالحنا حقا ، غير ان الأمر لسوء حظكم وحسن حظنا فى يد القادة المتخاذلين والساسة المتآمرين .

ان الكارثة الكبرى التى تزيد على حجم كارثة الهزيمة ، ان ايقاع قادتنا يخالف ويناقض ايقاع جماهيرنا . القادة يعيشون المباذل ، والجماهير تعيش المأساة !

لقد سمعنا ولم نزل نسمع قول المتحذلقين المتشدقين ان معركتنا الاساسية هى بين الأصالة والتجديد . وهو تفسير مشبوه يشوه الحقيقة ويزرى بها .. وان الأصالة التى هى هوية الأمة ، هى أصولها الحضارية ومبادئها الأخلاقية وتلك لا يمكن ان تتعارض مع التقدم والتطور والتجديد .. بل هى الوعاء الذهبى الذى يحتضن الحضارات ويصمد للتيارات ..

وهذا ما فطنت اليه الدول النامية من قبلنا ، وفى مقدمتها اسرائيل .

بل هذا ما فطن اليه الجنرال « موبوتو » رئيس دولة « زائير » حين قال لمحمد حسنين هيكل فى حديثه معه الذى نشر فى الأهرام :

« لماذا يطلب منا ان نقبل كل شيء يفرضه الاستعمار علينا تحت ستار التحضر . لست اعنى بذلك ان نرفض الحضارة الاوروبية ، بل ان نأخذ

منها ما يناسبنا . اننا لسنا مع اليمين ولسنا مع اليسار ، والوطنية بمنطق الأصالة هى أن نكون أنفسنا . لقـد انتصرتم « لجيزنجـا » على ، لأن « جيزنجا » كان يرتدى ثوبا يساريا زائفا ويحيط نفسه بعشرات الفتيـات العاريات وموائد الويسكى والشمبانيا ويعتقد أن هذا هو التقـدم ، الذى أحرزه لبلاده ، مع ان البديهية الأولى لرجل الدولة ان يكون رجل أخلاق ».

ليت القادة العرب يتعلمون هذا الدرس من ذلك العملاق الزنجى النابت فى قلب القارة السوداء !

اننا نستحى أن نكون أنفسنا ، وتلك هى الطامة الكبرى ، ولذا نبحث عن هوية جديدة نلتصق بها ونوارى عرينا ، فنضيع بين تيارات الايديولوجيـات الغازية ، ونعادى تيار الأصالة النابع من ذواتنا !

لقد كان هدف الغزوات الفكرية والخلقية الاجتماعية السياسية والثقافية فى هذه المنطقة منذمطلع هذا القرن،إفراغ المواطن العربى من هويته الدينية لاعداده للهزيمة وهكذا كان .

اننا حين ندعو الى التمسك باصالتنا والتعرف على هويتنـا ، بالالتزام بعقيدتنا والاحتكام الى شريعتنا التى هى اصالتنا ، والتى اعترف لهـا كبار الفلاسفة والعلماء ــ كما قلنا ــ بالسمو ، والقدرة على ايجاد الحلول النهائية لمشاكل العصر ، مع اعتقادنا بضرورة اقتباس وجه الحضارة الغربية الخير المضىء وهو العلم والتكنية والابداع فلاننا نؤمن ان تلك المواءمة وذلك المزاج هو طريق النجاة .

وعندما نقول بتطبيق الشريعة الاسلامية ، لا نعنى ، بل من الغفلة والجهل ان نعنى الغاء جميع القوانين القائمة فى مجتمعاتنا دفعة واحدة .

ان القوانين فى كل بلد ذات ارتباط وثيق بنظام المجتمع الخلقى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، والثقافى ، وما لم يتغير طابع ذاك النظام ومنهاجه يستحيل تغيير أنظمته وقوانينه .

لقد جرى الناس على التفاعل والتعامل مع القوانين الوضعية الحقوقية والجزائية السائدة فى البلاد الاسلامية ، واعتادوها حتى اصبحت جزءاً من مفاهيمهم ، وكل تغيير وتبديل لا يمكن أن يحدث الا بالتدرج والتطور والحكمة المستانية والتربية النفسية والخلقية والعقلية .. وأسـوتنا فى ذلك عمـل رسولنا الأعظم صلوات الله عليه فى المجتمع الاسلامى الأول ، باعداده وتهيئته لقبول احكام الشريعة المتعارضة مع أحكام الجاهلية . حتى اذا اسـتقام للرسول اعداد المجتمع الاسلامى للدعوة الجديدة ، وتربيته لقبولهـا على نهج الاسلام وهديه خطوة بعد خطوة لتفهم أهداف الشريعة ومراميها ، فقد نفذ قانون الوراثة سنة ثلاث من الهجرة ، ووضعت قوانين النكاح والطلاق فى صورتها النهائية سنة سبع ، ولم يكتمل الأخذ بالقوانين الجنـائية التى نفذت مادة بعد مادة الا سنة ثمان ولم يحرم الخمر بشكل نهائى الا فى تلك السنة .. والغى الربا سنة تسع . وهكذا كان عمل النبى المتدرج المتطور

بامر ربه . كعمل المهندس الذى يقيم البناء بعد ان يمهد له الأرض ويضع له الاسس ويجمع له العاملين ويقيمه لبنة بعد لبنة حتى يستوى ويستقيم ويستقر .. وعندما استقام بناء الدولة الاسلامية الأولى ، اطمأنت نفس الرسول واعلن للناس قبيل التحاقه بالرفيق الأعلى بفترة وجيزة انه قد حمل الكل وادى الامانة : « **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

غير ان فكرة التدرج فى الاحكام والتشريع هذه تستدعى اعداد البنائين الصالحين والمربين الواعين الاكفياء ، لتنشئة جيل معد لاقامة المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية ، فاذا قام ذلك سهل عليه تغيير القوانين المخالفة للشريعة الاسلامية وابطال مفعولها والبدء بوضع دستور اسلامى على اساس تلك الشريعة بدعوة العلماء المتضلعين فى الفقه واحكامه ، القادرين على مقارنة شريعتنا الالهية بالقوانين الوضعية ، بدراسة تلك القوانين دراسة علمية موضوعية فى الجامعات الغربية ، بحيث لا تمضى فترة قصيرة الا وتكون الشريعة هى دستور الأمة الاسلامية كلها .

ولعل أول خطوة فى تطبيق ذلك هو اصلاح مناهج التعليم فى مراحل الدراسة كلها ، والتكثر من انشاء الجامعات فى البلاد الاسلامية لنعد الجيل الطالع من أبنائنا على تشرب مبادىء الشريعة وفهم روح الاسلام . فاذا أوفدناهم للتخصص فى الجامعات الغربية ذهبوا وهم مسلمون بمبادىء دينهم وأخلاقياته ومثالياته فلا يخضعون لاغراء .

ولعل ثانية الخطى ، انشاء مجمع علمى لدراسة الشريعة كما اسلفنا ، والاسراع بترتيب الفقه الاسلامى وتبويبه وفق المناهج العلمية المعاصرة ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، للمتخصصين وكبار الباحثين .. لتصبح علوم الشريعة سهلة التناول قريبة الفهم ، بعد ان نزيل ما علق بها من شبهات وما لحق بها من خرافات ، وبعد ان نستخرج كنوزها الضائعة فى الحواشى والشروح والعنعنات والمطولات المطوية على الغث والسمين ، ووضع الأسس القويمة لشروط الاستنباط والاجتهاد والقياس .

وبهذه النية دعونا فى كتابنا « المؤامرة ومعركة المصير » منذ ست سنوات الى عقد مؤتمر اسلامى يضم كبار العلماء والفقهاء والباحثين الذين جمعوا بين دراسة الشريعة الاسلامية بتعمق وفهم ونية مخلصة لوجه الله ، وبين دراسة القوانين الوضعية والعقائديات الغربية ليستطيعوا ان يضعوا لنا دستورا اسلاميا منسجما مع روح العصر ، مع المحافظة على المبادىء الكلية الثابتة فى كتاب الله وسنة رسوله ..

ان تطوير مفهوم الدولة الاسلامية تطويرا علميا فى ضوء الشريعة ومبادئها الاصلية وقيمها الثابتة ، حتى تصبح قادرة على مسايرة متطلبات الحضارة ومواجهة تحديات الزمن لا يعنى قيام دولة ثيوقراطية .

ودستور باكستان الجديد يمكن ان يكون تجربة رائدة فى هذا المضمار فقد جاء مؤكدا لكيان باكستان كدولة اسلامية اتحادية تاخذ بالنظام البرلمانى

ذى المجلسين ، وتسلم بأكبر قدر من الاستقلال الذاتى للاقاليم دون مساس بالسلطة المركزية . والبدء حالا بانشاء لجنة تشريعية عليا للمباشرة بتحويل القوانين الوضعية الى قوانين مستمدة من شريعة الله ...

ومن الجدير بالذكر ان مصطلح الاشتراكية الاسلامية قد حذف من الدستور الجديد بعد نقاش طويل ، اذ لا يجوز الخلط بين الاسلام واى من الايديولوجيات المستحدثة ، فهو فى اصالته وعمقه قد اشتمل على افضل ما تضمنته تلك الايديولوجيات .

هذا هو العمل الجدى .. اما ان نضمن دساتير مادة تقول ان دين الدولة الاسلام .. ثم نكتفى من الاسلام بشهادة ميلاد ووثيقة سفر وانتماء اجتماعى فقط لا غير فلا نعتنق من مفاهيم ديننا الاخلاقية شيئا ولا نطبق من احكام شريعتنا الغراء الكثير او القليل ، فتلك مخادعة للناس وكذب على الله سبحانه وتعالى الذى يقول فى محكم كتابه :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون » .

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » .

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » .

فهل ترانا نحكم بما انزل الله ؟ .. لا والله ، بل نحن نكذب على ربنا ومن يفعل ذلك فهم الظالمون الكافرون الفاسقون . وكفى بالله شهيدا .

لقد آن لنا ان نعى ان هذه الأرض العربية كانت على مدار التاريخ بؤرة اغراء ، ومحطة مرور واستقراء للغزاة والطامعين ، لانها قلب العالم استراتيجيا وروحيا ..

ولقد كانت المسالة الشرقية وما تزال ، هى الازمة المزمنة بين الدول الاسلامية وجبهتها الأولى العربية من جهة ، وبين اوروبا من جهة اخرى . وما الحروب الصليبية الا بداية الصراع الغربى الاسلامى .. ومن مظاهر ذلك الصراع تكتل الغرب ضد نمو قوة ذاتية موحدة فى الواجهة العربية والعمل على اجهاضها .

ونتيجة لاندفاع الاسلام الى منتصف فرنسا فى عهد الامبراطورية الاسلامية . والى ابواب « فينا » فى عهد الخلافة العثمانية ، اصبح قلق الغرب الدائم امكان نمو قوة موحدة فى الجبهة الشرقية المواجهة لاوروبا ولذا تقوم سياسة الغرب المستمرة على منع ذلك بكل وسيلة ولو ادى الأمر الى العنف كما وقع فى الحرب العالمية الأولى .

ثم طرأ عامل هام جديد على المسالة الشرقية بقيام دولة اسرائيل فى جزء من الشواطىء المطلة على اوروبا بتشجيع الغرب ودعمه ، الانسجام بين اهدافه واهداف الصهيونية العالمية ، لابقاء العالم العربى فى حالة تمزق

وتخلف من جهة وابعاده عن حوافزه الدينية وعلاقاته الأخوية مع جاراته من الدول الاسلامية .. وقد نجحت هذه المؤامرة البشـــعة الى أبعد حـــدود النجاح .

ويجب أن نفهم ان بعض المواقف السلبية لبعض القوى الدوليـــة ازاء اسرائيل تأييدا للحق العربي ناهيك بنصرة الاسلام ، بل هى فى الاســـاس مواقف سلبية ازاء تغلغل النفوذ الاميريكي فى المنطقة وحماية مصالحه بواسطة ترسانة السلاح المتمثلة في اسرائيل ، الهادفة الى تهديد مصـــالح القـــوى الدولية الاخرى فى المنطقة .. ومواقف تلك القوى التى تطفو على ســـطح الاحداث لم تتعارض يوما مع مواقف الامبريالية الغـــربية فى ضرورة بقـــاء اسرائيل كوسيلة للتدخل والاستغلال .

ان الحضارة العصرية هي مصانع تتيح سلعا كثيرة ثم تحتاج الى أسواق لبيع تلك السلع ، والى مواد أولية لصنعها ، فيكون من ذلك الصراع على مناطق النفوذ .

والبلاد العربية هي مصدر المادة الاولية للصناعة ، وهى المجال الحيوى للبضاعة وهى مركز العالم وقلبه النابض وعاصمته الروحية ، وغياب الموقف العربي الموحد واستغلال واستثمار الطاقات العربية الهائلة لمصلحةالقضايا القومية وفى مقدمتها القضية الفلسطينية وانحدار الشعوب العربية بقيادتها الفاسدة الى أحط مستويات البلبلة والتبدد والشللية والسطحية ، وتمزقها الى شظايا وخلايا ضعيفة ، لا تملك من أمر نفسها شيئا أفقدها كل قـــدرة على التحرك والتاثير الفعال فى المجال الدولى ، وجعلها لقمة سائغة لـــكل طارىء .. واسرائيل من وراء ذلك كله ، ترصد الوضع المتـــردى بحـــذق ومهارة ، وترسم المخططات التآمرية للتوسع والانتشار ، حتى تصل الى مناطق الثروة البترولية .

وهكذا تزداد المسالة الشرقية تعقيدا يوما بعد يـــوم ، ولا يخفى بعض المفكرين الاوروبيين عمق ذاك التناقض ، وقد أشرنا الى المؤتمرات الاوروبية المتلاحقة التى كان الغرض الأول من انعقادها معالجة المسالة الشرقيـــة ، بالحيلولة دون توحد الاقطار العربية ودون قيام تضامن فعال بينهـــا وبين الدول الاسلامية اشرنا الى ذلك بالتفصيل فى كتابينا « المؤامرة ومعـــركة المصير » و « مجتمع الكراهية » ، ونضيف هنـــا ماقاله الكاتب اليهـــودى « ماكسيم رودنسون » مؤخرا : « ان العالم العربى الذى يطل على أوروبا من ناحية الجنوب والشرق ، يختلف عن بقية اقطار الدنيا بأنه عالم قريب منا ، وبعيد فى الوقت نفسه ، فهو مختلف عنا لدرجة كبيرة تكاد تجعله نقيض أوروبا » .

والكيد فى هذا القول واضح الدلالة ، فهو تخوف مفتعل يعلنه الـــكاتب اليهودى معبود الثوريين العرب ، لمصلحة اسرائيل ، فالشـــعوب العربية وظهيرها العالم الاسلامى لا تعتبر نفسها مناقضة لاوروبا ، بل هى تسعى الى التعاون معها ، ولا تريد الا المحافظة على كرامتها واستقلالها ، واستعادة ما سلب من أرضها ، واستنقاذ نفسها من مخلب المؤامرة الدنيئة ، لتحقيق

وحدتها فى اطار هويتها واصالتها ، وتمتين روابط المودة والتضامن مع شقيقاتها المسلمات فى سبيل اقامة تكتل دولى متناسق يشارك فى تقويم الحضارة الانسانية ، ودعم التقدم البشرى .

اننا نعلم ان بلادنا بحكم موقعها الجغرافى واهميتها الدينية والروحية للعالم كله ، هى فى موقع تقدم وانحسار مستمرين ، وفى موقع جذب ودفع دائمين .. وما شعارات التوازن فى المنطقة الا اكذوبة لاغرائنا بالتأرجح بين المعسكرات الدولية المتناقضة ، وتقاسم ولائنا الى هذه الجهة او تلك ، واخطر ما نواجهه انحيازنا الى تيارات التحالف الدولية وتفريطنا بمركزنا الخاص ، ومقوماتنا الروحية ، وطاقاتنا الموحدة ، وشخصيتنا المتميزة ، والتطويح بانفسنا فى مهب الرياح الباردة والساخنة مع ان قوتنا الحقيقية عبر التاريخ انما انطلقت من وحدتنا لا من اعتمادنا على غيرنا ، والروابط القومية والدينية والثقافية التى تؤلف بيننا تكون اقوى تجانس فى موازين الكتل الدولية .

وقد طرأت على المسالة الشرقية فى الآونة الأخيرة عقدة جديدة تكون بؤرة اغراء شديد،بتزايد حاجة الدول الغربية الى الطاقة النفطية التى تسيطر عليها الدول العربية — كما تقول مجلة تايم الامريكية تحت عنوان: العرب القادرون على استملاك امريكا سيفوق احتياطهم من المال كل احتياط العالم — على ٦٠٪ من مخزون النفط المعروف فى العالم كله ، وسوف يصل دخلهم سنة ١٩٨٠ الى ٤٠ مليار دولار » .

وتضيف المجلة قائلة : « ان عنصر الثروة العربية والقوة العربية قد أطل، وكانت اموال النفط العربى عنصرا رئيسيا فى الأزمات النقدية التى تجتاح العالم اليوم . ان هذه الثروة ستحمل الى العرب قوة لم يعرفوها منذ عهد الصليبيين . قوة يمكن ان تستخدم للتنمية السلمية او للعنف والانتقام » .

غير ان المجلة تجاهلت حقيقة بسيطة هى ان الأمة العربية تدرك ان التنمية السلمية لا يمكن ان تقوم فى ظل الحراب الاسرائيلية ، والى جوار الفلسفة الصهيونية العنصرية التوسعية .. وان القوى الدولية التى يغريها الوضع المائع فى المنطقة باقتناص الغنائم واقتسام الاسلاب لن تسمح للعرب بالتوحد والتحضر والتقدم ، وسيتزايد تبعا لذلك حجم المؤامرات والدسائس التى تطبخ لمستقبل هذه المنطقة ، بتحويل اسرائيل الى قلعة مشحونة بادوات الدمار لحماية المصالح الامبريالية ، لتصبح الأرض العربية المنطوية على الذهب الأسود — شريحة من اللحم الشهى بين شطرتين لذيذتين ، تترصد لها المخالب والانياب الشرسة ، من الشرق والغرب ، لافتراسها وتقضمها ، اذا بقى الحال على هذا المنوال .

ان قوتنا الحقيقية لا تنطلق الا من ذاتنا ، من طاقاتنا وقدراتنا وعزمنا وتصميمنا على الجهاد والاستشهاد ، فى سبيل الارض والعرض والشرف والمقدسات . وان املنا الوحيد منوط بوحدة الصف وتلاحم الأمة على اساس قاعدة فكرية واحدة وخلفية حضارية واحدة ، وان العائق الوحيد امام تحقق هذه الأمنية التى هى اعظم المنى هو التناقض القائم بين القيادات العربية والانظمة العربية .

ان من واجب كل امة تعرضت للكوارث كامتنا ، ان تضع حدا حاسما للتناقضات الإيديولوجية والفكرية والمذهبية التى تمزق وجدانها وتعرقل مسيرتها .. وان تجمع أمرها على ميثاق وطنى قومى أخلاقى اقتصادى عسكرى واحد ، للمواجهة الثارية ، وان تستخرج كافة طاقاتها الكامنة لحماية مصيرها،والعمل على تحقيق الحد الادنى من الوحدة الوطنية والوحدة القومية لتكون جبهة صامدة متلاحمة وراء الجيش المقاتل .

ان الكوارث القومية تذهل الناس عن كل دعوة الا الدعوة الصادقة لدرء الخطر ، وتجعل القادة والمفكرين يضربون صفحا عن كل حوار مذهبى وتجريد ذهنى للحيلولة دون احتدام الصراع حول النظريات ، والامة كلها بقياداتها ومذهبياتها واحزابها وانظمتها ومنظماتها مهددة بالاندثار والزوال .. فلا يرتفع الا صوت النفير للنضال والاستبسال ، والاعداد السليم لمعركة المصير على أساس مكين من العلم والايمان .

ولقد كان الهاء المواطن العربى بالشعارات والايديولوجيات المتناقضة المتعارضة المتصادمة فى الساحة العربية هو القاعدة الأساسية للمؤامرة التى رسمت لهذه المنطقة ، فتعاظمت قوة اسرائيل الضاربة فى غفلة منا وغفوة من الضمير العالمى — أكذوبة القرن العشرين ، بحيث اصبحت مناطقنا الحيوية ومقدساتنا الدينية فى متناول سلاحها الجوى ، ومازلنا مشغولين باليمين واليسار والرجعية والتقدمية الماضوية والمستقبلية ، لنكون غرضا هشا وهدفا سهلا لاسرائيل فى كل آن !

ان مفكرينا الذين كانوا يقررون قبل المعركة ان سبب تخلف الأمة هو التوغل التراثى والتشبث بالقيم الموروثة الذى يعاكس ويخالف « العلمنة »، ذلك الشعار الذى روجوا له فى تلك البرهة أى ترويج ، وفسروه باقصاء الدين عن حركة المواجهة مع الصهيونية والاستعمار ، قد عادوا اليوم ليمتطوا الموجة ويمتلوا المسرح ويتقاسموا الأدوار من جديد .. قد عادوا ليعكروا اجواء الأمة بالسفاهة والتفاهة ، ويفلسفوا الهزيمة بألف تحليل وتحليل من المبررات الكاذبة البراقة ، خشية عودة الأمة الى اصولها ، واهتدائها الى ينابيعها ، واتعاظها بمآسيها ، والاقدام بنزاهة وطهارة على تقييم مقدمات الكارثة ونتائجها ، والاشارة بوضوح رؤية صائبة لا جمجمة ولا غمغمة ، ولا لف ، ولا دوران ، الى أسبابها ومسببيها ومرتكبى آثمها ولابسى عارها .

انهم يعلمون فى سريرة انفسهم ان عزل الأمة عن ايمانها هو سبب مصائبها ، فأنت حين تسوق جندك الى معركة مصيرك ليحاربوا دفاعا عن نظام فاسد ومجتمع مهلهل ، دفاعا عن اشتراكية « تيتو » أو شيوعية « ماركس » أو دفاعا عن مبادىء الكفاية والعدل ، وهم لا يرون كفاية ولا عدلا ، أو تسوقهم للاستماع الى أم كلثوم تغنى فى تل أبيب وهم يسمعونها تصدح فى القاهرة كل صباح ، فأنت قد خدعتهم وسلختهم عن الحافز الأكبر على الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن المسجد الاقصى ومعراج الرسول الكريم، واطفأت جذوة الحماس فى نفوسهم ، ودفعتهم دفعا الى الهزيمة لانك عجزت عن ان تعطيهم حلما كريما ينافحون عنه ، وعقيدة روحية يموتون فى سبيلها، بينما ساق عدوك جنده ومعهم حاخامهم الأكبر يتلو عليهم مزامير داود ، ويصلى بهم صلاة النصر ويمنيهم بوحدة أورشليم الحبيبة !

لقــد اعترف الرئيس جمال عبد الناصر بمسئوليته الكاملة عن هزيمــة سنة ١٩٦٧ ، وذلك مظهر رجولة لاشك فيه ، لكنه انما فعل ذلك اقرارا بسوء اختياره للقادة ومراكز القوى . ولمن منحهم ثقته من الخونة والعملاء وولاهم تبعة الدفاع عن شرف الأمة فى احرج الظروف ، اكثر ما يكونون تفريطا بتلك الثقة واستهتارا بالشهامة والنخوة ، فضللوه وغرروا به وكذبوا عليــه ، واخفوا عنه حقيقة خيانتهم صباح يوم ٥ـ٦ـ٦٧ المشؤوم !

لقد أثبت قائد معركة الدفاع الجوى فى القاهرة وسيناء حينــذاك اللواء طيار عبد الحميد دغيدى هذه الخيانة فى اعترافاته المذهلة التى نشرتها مجلة الحوادث البيروتية فى عددها ٢٩ـ٦ـ١٩٧٢ حين أفاد ان الفريق صلاح محسن والفريق محمد فوزى ومدير المخابرات العسكرية الذين اشرفوا على العمليات العسكرية ، قد تجاهلوا واهملوا وتهاونوا فى ابلاغ انذارات اربعة وجهت اليهم بتوقع الهجوم الاسرائيلى ذاك الصباح ..

١ ــ الانذار الذى وجهه الرئيس عبد الناصر الى القوات المســلحة يوم ٢ ــ ٦ ــ ٦٧ .

٢ ــ الانذار الذى وجهه آمر مخابرات العريش الساعة ٢٣٫٣٠ من مساء يوم ٤ـ ٦ ــ ٦٧ عن توقع الهجوم البرى للعدو صباح اليوم التالى ، اى قبل الهجوم الفعلى بست ساعات .

٣ ــ الانذار الموجه من قيادة سيناء الى القيادة العامة فى القاهرة ببدء الهجوم البرى قبل الغارات الجوية بنحو ساعة ونصف .

٤ ــ الاشارة الموجهة الى القيادة العامة من رادار عجلون فى الأردن باقلاع طائرات العدو باتجاه مصر ، وقد وصلت هذه الاشارة قبل نصف ساعة من وقوع الهجوم وهى مدة كافية كما قال المرحوم الفريق عبد المنعم رياض لتمكين المقاتلات المصرية من ملاقاة الطائرات المغيرة !

ان هذه الانذارات الأربعة لو ابلغت فى الحال الى القيادات العســكرية البرية والجوية لتغير وجه المعركة كليا ، ولكنها اختفت وضاعت ولم ينكشف امرها الا أثناء المحاكمات التى جرت فى مصر بعيد الهزيمة .

حتى جاء الرجل الطيب الصادق المؤمن حسين الشافعى نــائب رئيس جمهورية مصر العربية ليعلن فى محــاضرة له بجمعية الشبان المســلمين فى القاهرة قوله : « انقلوا على لسانى ان الجيش المصرى لم يحارب فى معركة ١٩٦٧ ، بل هزم بسبب الاهمال والخيانة ، واقول الخيانة واضع تحتها عشرة خطوط » .

وحتى أطلع الناس على نص المذكرتين الموجهتين الى الرئيس السادات من عبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وصحبهما ، يؤكدون فيهمــا خيانة مراكز القوى التى استأثرت بالسلطة فى ظل النظام الدكتاتورى ! فقد جاء فى مذكرة نيسان سنة ١٩٧٢ بالحرف : « ولدت هزيمة يونيو فى حضن

استبداد الفرد بالسلطة وصورية التنظيم الشعبى والمؤسسات الدستورية وغيبة القانون وغلبة التشريعات الاستثنائية ، وامتهان الكرامة الحرة وشيوع الخوف والنفاق ، فالهوى ، فالهوان ! ..

مثل هذه الجرائم الوطنية المعدومة النظير فى تاريخ الأمم اثناء معارك مصيرها ، لا يمكن ان تنمو الا فى انظمة اوتوقراطية فردية ، تنعدم فيها الثقة وتسهل الخيانة ويغيب الشرف وتتعهر الأخلاق .

ولو كان الخونة الذين تولوا قيادة جيش الامة اثناء هزيمة الذل مؤمنين بالله ، مسلحين بحوافز الجهاد والبسالة والأمانة والاخلاص ، لما مسنا القرح ولما طحنتنا الهزيمة ولما طغت اسرائيل وبغت ، ولما تغنى العالم بدعاياتها الكاذبة ، ولما تمرغنا على عتبات البيت الابيض والبيت الاحمر نستجدى عطف الاعداء .

ان الأنظمة التى تجعل قاعدتها الفكرية ابعاد الدين وحماس العقيدة عن المواجهة مع اعدائها يكثر بين المسؤولين فيها الخونة والعملاء والدجاجلة والانتهازيون ، وما الذى يمنعهم عن الخيانة ويحجزهم عن العمالة ويكبحهم عن الشر والجريمة اذا كانوا لا يؤمنون برب ، ولا يقيمون وزنا لمبادىء الاخلاق ... اذا كانوا يفضلون بقاء الحزب الذى يمطر عليهم المن والسلوى، على ضياع الأرض .. ويفضلون بقاء الأنظمة المهتوكة على اندثار العروبة والاسلام ... اذا كانوا يفضلون متاع الدنيا وشهوة الجاه الرخيص والطموح السخيف على الكرامة والنخوة والجهاد .

لقد كان اختيار مراكز القوى فى الدول العربية وما يزال ، لا يخضع لمقاييس الشرف والأمانة والملاءة ! فليس المقصود فى الاختيار الاخلاص للوطن، بل التعبد للزعيم ، ليس المهم الخلق والكفاءة ، بل الاهم القدرة على القمع والنفاق .

ولذا لم تكن القوة العسكرية الاسرائيلية من خوارق التاريخ ، بل كانت الخيانات العربية هى الخوارق المعدومة النظير .. ولم تكن اسطورة النصر الاسرائيلية تفوقا معجزا ، بل كانت انعكاسا للواقع العربى الاسود .

فهل وعظتنا الدروس ؟ وهل ايقظتنا العبر ؟ .. كلا بالتأكيد . فالملهاة تختلط بالمأساة — كانت وما تزال — والممثلون هم الممثلون .. والمناخ العربى مهيأ اليوم ، كما كان مهيأ صبيحة الخامس من حزيران .. ونحن نعيش معاناة ترقب اسطورة جديدة ونصر جديد !

وهل نظل نعيش هذا الترقب .. ؟ وهل نبقى نراوح مطارحنا فى انتظار القدر المحتوم ؟ .

اننى المح على مشارف الافق بصيص أمل وبارقة رجاء .

لقد اذلنا الشيطان امدا طال ، وختم على ابصارنا غشاوة .. حجبت عنا حقيقتنا ، وقد أخذت تلك الغشاوة تنقشع هونا ما حين تجاوبت أجواء بلادنا

برجع صدى : حى على الجهاد ، وتحركت الأكثرية الصامتة الواجمة ، يغمر نفوسها من جديد نور الايمان .

وقد رقرقت فى ثنايا هذه الصحائف ، عصارة قلبى وشجو فؤادى وأشجان نفسى وأوضحت فيها جهد طاقتى سبل النجاة التى تتلخص فى كلمتين اثنتين : العلم والإيمان .

والمعركة بعد ، طويلة بيننـــا وبين أعدائنا ، ومنطق الرفض الايجابى مـــع المناجزة المستمرة والجهاد الموصول ، الذى ندعو اليه ، بصدق المؤمن ، يقوم على أساس مبدأ علمى هو مبدأ التنافى الكلى بين العرب والاسلام من جهـــة وبين الصهيونية واعوانها من جهة أخرى ، لا سبيل الى مهادنة أو مصـــالحة او تنازل أو استسلام .. تصديقا منا لقول ربنا : « **وقالت اليهود ، يد الله مغلولة .. غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا** » « **والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب اطفاها الله** » .

وقوله تعالى : « **علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم** » « **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق** » « **ومن يتبدل الكفر بالايمان** » « **اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير** » .

* * *

وبعد .. أرجو أن يكون قد استقر عندك مما سقناه لك .. أن طريق النجاة لا ولا يمكن أن يكون الابالعودة الى الله .. وبما أن الاسلام قد جاء بشريعـــة متكاملة تصلح لكل زمان ومكان وتضمن الحلول المجدية لمشاكل هـــذا العصر وكل عصر ، وتتجاوز فى شمولها واتســـاعها ومبادئها جميع القوانـــين التى تصنعها المجتمعات الانسانية لظروف معينة موقوتة .. وبما أن الاسلام جاء مبشرا بالرسالات السماوية التى سبقته ، وزاد عليها شريعة لا عوج فيهـــا ولا نقصان ، وتمم مكارم الأخلاق ، وختم الوحى باستكماله التعاليم المعجـــزة لتنظيم شؤون الدنيا والآخرة .. فان العودة الى الله هى العودة الى ختـــام الرسالات السماوية .. الى الاسلام ..

ولذا يقف الاسلام اليوم فى مواجهة سفه الصهيونية ، وفى مواجهة جشع الراسمالية والشيوعية .

يقف بصورة خاصة فى وجه سفه الصهيونية لاعتقاده بانها وراء الدمار الخلقى الذى يشوه تينك الحضارتين ، وانها الأب الشرعى لجميع المذهبيـــات الفاسدة ، والحركات السرية الهدامة التى انحطت بالأفراد والمجتمعـــات الى حضيض النزوات الحيوانية المناقضة لكرامة الانسان .

ومعركة الاسلام ليست معركته ضد الصهيونية وحدها ، أو ضد الامبريالية وحدها ، بل هى معركة المصير الانسانى كله .

ان أعمى البصيرة وحده هو الذى يرضى بواقع هذه الأمة أو واقع هـــذا العـــالم .

هذه الأمة الى قال فيهـا عمر بن الخطاب : « كنـا أذل قوم فاعزنا الله بالاسـلام » .

وهذا العالم المجنون المأفون الذى يأكل بعضـه بعضا ، ويصرخ أبناؤه فى أطراف الأرض الأربعة من الجوع والمرض والخوف والحرب والقتل والتدمير .

هذا العالم الذى انطلق فى الفضاء ومشى على القمر ، لكنه يئن من الآلام ويغص بالأوجاع ويشرق بالدموع ..

ويترامى الينا هتاف المخلصين فى كل أمة وكل بلد : اليس من سبيل للنجاة ؟

كيف ننقذ الانسانية فيشبع الجائع ويشفى المريض ويطمئن المروع ويهتدى الضال ويجد الضائع نفسه فى هذه الدوامة المخزية ، ويحقق ذاته فى ظـل نظام عادل لا مكان فيه لأثرة أو استئثار ؟ .

وجوابنا لأولئك المتلهفين : ان الاسلام هو وحده طريق الخلاص .

ان قطبى القوى المتحكمة فى عالم اليوم : الرأسمالية والشيوعية قد فشلتا فشلا ذريعا وعجزتا عجزا مهينا ، فى بناء المجتمع البشرى الكريم ، بل عملتـا وتعملان بجد لا يهن ، لتكريس هذا الواقع البغيض الثقيل .

أن هذا العالم الفاجر الداعر ، الظالم الغادر ، الملتوى على نفسـه ، المنحرف عن مساره لا ينقذه الا الاسلام .

لقد شهدت الدنيا تغيرات كثيرة فى الأنظمة السياسية والمعتقدات الفكرية ، وكانت النتيجة عبئا جديدا مضافا الى الأعباء المتراكمة .. تتغير الصور وتبقى المحتويات ، أقلية متخمة وأكثرية محرومة .. اقلية ظالمة واكثرية مسحوقة .. ثوريون يصبحون اذا وصلوا رجعيين ، ورجعيون ينقلبون اذا وصلوا ثوريين .

وكيف يتغير العالم اذا لم يتغير الناس ؟ كيف يتغير المجتمع اذا لم يتغـير الأفراد . وكل تغير لا ينبثق من خلال عقيدة وايمان ومنهج وتصور جـديد للحياة والاحياء ، مصيره الى زوال أو الى مزيد من الآلام .

لقد كان « خرتشوف » يقول : « ان التناقضات فى المجتمع الاشتراكى مردها الى العجز أمام انانية الأفراد » .

ويقول « سولزينتسن » الكاتب الروسى المضطهد المطارد لأفكاره المتحررة من ربقة القمع ، المستعلية على بشاعة الارهاب : « لقد حسبنا أن تغيـير أشكال الانتاج سيغير أخلاقيات الناس ، لكننا لم نقطف الا الخيبة المريرة » .

والرأسمالية عجزت هى الأخرى ، حين أطلقت الحريات دون ضابط ليلهو الأفراد بخدر الجنس والأفيون عن استئثار السلطة الحاكمة والرأسماليين

الجشعين باللذات والشهوات على حساب آلام الأكثرية المخدرة ، وتحولت الحرية المطلقة الى فوضى عارمة مدمرة .

وكيف يكون ضابط ، اذا كان هدف النظامين سلخ المواطن عن ايمانه بالله. عن صوت الحقيقة المنطلقة من ذاته . وبغير ايمان لا يبقى وازع ولا يبقى كابح وتسود شريعة الغاب . .

ان التغيير المنشود لا يتم الا عن طريق تغيير بنية المجتمع كلها من الأساس الى القمة ، فاذا تغير الفرد وانصاع لصوت الله فى ضميره ، تغير المجتمع بكامله . . وعندما يتغير المجتمع يعود التوازن وتسود الانضباطية والالتزام بين الأفراد والمجتمعات ، تلك سنة الله فى الأحياء ، كسنته فى الكون ، لا محيد عنها ولا بديل لهـــا .

ان المعضلة الأساسية التى تواجه المجتمعات الانسانية اليوم،هى انتحال الذرائع الكاذبة . كل فرد ، كل مجتمع ، كل أمة ، تلقى تبعة أخطائهـــا على الآخـــرين . .

المشكلة هى التأرجح بين « محدودية » الانسان وبين تأليه الانسان . .

ومنطق الحوار أن محدودية الانسان تضـــعه فى حاجة الى حضانة القوة الخالقة المبدعة التي نظمت هذا الكون على سنن دقيقة محكمة لا تتغير ولاتتبدل وهى وحدها القادرة على اسباغ ذلك النظام على مجتمع هذا المخلوق الصغير العاجز أمام مصيره ليستقيم على مثل تلك السنن .

اما أن يكون بعض الناس اسيادا وبعضهم عبيدا . . بعضهم جائعا ، وبعضهم متخما ، بعضهم عليلا ، وبعضهم سليما . . بعضهم عالما وبعضهم جاهلا فذلك نقيض الحكمة الالهية التى خلقتهم جميعا متساوين ، من طينة هذه الأرض .

كان « ابراهام لنكولن » يقول : « اننى مقتنع عفويا بأن القدرة الالهية التى هيأت لى اختيار هذا السلوك أوعكسه قد وضعت فى ذاتى الشعور الداخلى بالخطأ والصواب » .

ان معنى الفرائض الدينية فى الاسلام ، أن يكون الله فى حالة حضور دائم فى نفس الانسان المؤمن ، فيعيش اقتناعا مستمرا بأن الفضيلة هى ارادة الله، وأن المحبة هى صفة الله ، وأن ممارسة أخلاقية السلوك هى التزام ذاتى فاذا اشتط أو غلا أو انحرف قومه أولو الأمر فى نطاق منهاج الشريعة الالهيـــة ، التى نصبت الموازين ، وأقامت الحدود .

فالأصل فى الاسلام هو ممارسة السلوك الأخلاقى ، وبما ان الدين الاسلامى هو خاتم الرسالات السماوية ، فهو لم يكتف بالمثاليات المجردة ، لأن جميـــع مبادىء الفضيلة وأفكار الفلاسفة وتعاليم الانبياء تظل مجرد كلمات خاوية اذا لم توضع موضع الممارسة اليومية ، ولا يمكن تحقيق ذلك الوضع الا فى نطاق الشريعة الالهية ، التى اختص بها الاسلام وتميز على بقية الديانات .

ان الفضيلة معاناة مستمرة تبدأ بمجاهدة النفس ، وحين تزكو تلك المجاهدة، يحث الانسان خطاه نحو الكمال . .

واذا نحن أردنا أن نغير ما بأنفسنا حقا : كانت تلك المجاهدة اولى الخطى لمقارعة ما فى داخلنا وما حولنا ، لا أن نقنع بدورنا فى ذلك الخطأ كالآخرين .

يقول المثل : « السياسة هى فن الممكن » اما المؤمن فهو الذى يستطيع ان يجعل غير الممكن اليوم ممكنا من الغداة .

ان التحدى الصادق هو أن نفعل ما يجب علينا ان نفعله دون التقيد بأية فكرة سابقة مضللة أو مثبطة ، لا ان نمضى العمر نناقش ما يمكن ان يكون او لا يكون . .

اذا آمنا حقا أن الأرواح والأرزاق بيد الله ، وجعلنا ذلك حافزا لنا على الاستبسال ، صنعنا الأعاجيب ! .

أما حينما تكون عبدا لشهوة او نزوة أو مطمع ، فمن العار ان تطالب الآخرين بالطهارة والنزاهة والأخلاص .

وعندما تتحرر من ضغط الضرورات ، تصبح عندئذ سيد نفسك وسيد مصيرك وتملك طاقة لا تترجرج فى مقاومة المنكرات .

ان الادمان والجنس وانكار ذات الله هى القوى الخفية التى تنخر اسس الحضارات المعاصرة .

ان فى الدنيا كفاية لكل جائع . لكن جميع ما فيها لا يشبع جشع مخلوق مشوه الخلقة هو حيوان فى جلد انسان .

ان ارادة القوة كما يقول « ادلر » هى أعظم الحوافز الانسانية .

لكن ارادة القوة دون وازع اخلاقى مفسدة ، ولذ تغدو القوة المطلقة افسادا مطلقا ! وغالبا ما يكون مصدر تلك الارادة هو الضعف والخوف ، الضعف أمام الاغراء . . والخوف من نقمة الجماهير ، ولذا غالبا ما يكون الدكتاتور صغيرا حقيرا فى قرارة نفسه ويغطى ذلك كله بالقسوة والعنف والارهاب .

واذا تناجزت الارادات وتناقضت كما هو واقع اليوم ، قضى بعضها على بعض ، وأردى بعضها بعضا حتى تتقوض كلها على سواء .

وماذا يبقى لنا عندئذ ، وماذا يسود . . ؟ تبقى الفوضى ويسود الخراب .

الجواب على هذا السقوط هو الرضوخ لحاكمية الله وحده وسلطان الله وحده ، فذلك هو التحرر الحقيقى من الرغبة والخوف . . لا تحرر الانسان المرهق بالتكاليف أو تهربه من سلطة القانون . . قانون الاقلية النذلة المجرمة التى تبلع ولا تشبع ، وتتفشى فى الأرض كالجذام والطاعون

ان الكره يولد الكره . والعنف يسوق الى عنف اعنف وحين تبدأ الحلقة ، تستمر الى ما لا نهاية ، وتشقى الانسانية بالقمع البشع سواء جاء من اليمين العفن أو من اليسار المسعور . .

ولذا فالنضال من اجل المجتمع الجديد هو البدء بتغيير الرجل والمرأة والأسرة والمدرسة وينتهى التناقض فى المجتمع عندما يختفى التناقض فى نفس الفرد .

من الأفراد الصالحين لا يمكن أن يقوم مجتمع طالح ، ومن الأفراد الطالحين لا يمكن أن يقوم مجتمع صالح . والنضال طويل وشاق ففى الناس من يخشى التطور وفى الناس من يحب التحجر .. وفى الناس من يهزمون أخلاقيا عند أول خطوة فيسقطون ..

ان الله والانسان ليسا طرفى قضية واحدة أو ندين يتنافسان على السيادة والقوة فى هـذا الوجود .

المعادلة الصحيحة هى اننا كلما ازددنا ايمانا بعظمة الله المطلقة كلما زدنا عظمة لأننا من صنع اله عظيم .

ان المتالهين يعيشون فى مفازات سحيقة لا قرار لها ، ولا يرون الا الأسفل والأحط ..

ان مصدر الشعور بالانفة والكرامة والحرية هو الايمان بعظمة المطلق .. وشتان بين عظمة مطلقة وعظمة محدودة لاصقة بطين هذه الأرض ، تحسب ان الانطلاق من تكاليف المروءة مظهر قوة .. وهو فى الحقيقة مظهر هزال .

ان الانطلاق من تبعات انسانية الانسان هو رجعة مخيفة الى قيود الحيوانية وما يحسب فى عرف الناس فى مجتمعات الحضارة العصرية ، حرية ، انما هو ستار مقنع للعبودية ، للنزوات الحيوانية التى قضت الانسانية عمرها المديد على امل التخلص من رهق قيودها الخانقة .

انك حين تؤمن ايمانا لا يتزعزع بانك على صواب فى اعترافك بالوهية وحاكمية الله وحده ، فانت القادر على احتقار الفلسفة الساقطة التى تقوم عليها الحضارة الغربية : الغاية تبرر الواسطة ، اذ لا يمكن الوصول الى غاية نبيلة بوسيلة خسيسة ، لأن الوسيلة جزء من الغاية ، وطريق اليها .. هذه شريعة الله الرحيمة لا شريعة الغرب البربرية .

وليس اسخف ولا اتفه من انكار وجود الله لقصور ادراكنا البشرى عن الاحاطة بما هو فوق ذرعنا ، وفوق قدرتنا . بدليل اننا ما نزال كل يوم نكتشف مجهولا جديدا أو نصل الى معادلة علميـة تلغى ما سبق أن اعتبرناه مسلمة لا يأتيها باطل ، ولا تخضع لنقاش .

اعترافنا بوجود الله وايماننا به هو الطريق الى التعرف على حقيقة قـدر انفسنا فى كيان هذا الكون الكبير ووحـدته ونظامه ، وشموله واتساعه ، ومجراته الهائلة التى تسير كلها بنظام وانسجام ، كسمفونية موزونة الايقاع . وماذا يكون قدر عقل الانسان الطفل الى جوار ذلك الكيان العظيم ، الا حـين يستطيع أن يفتح للروح الانسانية كوى تطل منها على فرحتها الكبرى .. على الوشائج الوثيقة التى تربطنا بهذا النظام الالهى .

تلك هى بعض البعض من المشاكل الكبرى التى تواجهها الانسانية ولا تجد اجوبتها الصحيحة فى الحضارات المعاصرة ولن تجـدها فى غير الفكر الدينى والحل الدينى .. لن تجدها فى غير الاسلام .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فالدنيا كلها تقف اليوم على مفترق طريقين لا ثالث لهما ، وعلى اختيارها يتوقف مصيرها .. اما الله ، واما الدمار .. !

مراجع الـكتاب

١ — الدبلوماسية والميكانيلية فى العلاقات الامريكية — للدكتور محمد صادق
٢ — لعبة الشعوب The Game of Nations لمايلز كوبلاند
٣ — الدين والدولة — للدكتور محمد البهى
٤ — الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الاسلامية — للاستاذ محمد أبو زهرة
٥ — كتاب الخراج — لابى يوسف
٦ — مسند احمد — شرح أحمد شاكر
٧ — فى ظلال القرآن — للشهيد سيد قطب
٨ — الاسلام النظام العالمى الجديد — لمولاى محمد على ترجمة احمد جودة السحار
٩ — الوحدة العربية من خلال التجربة — لشبلى العيسمى
١٠— القضاء فى الاسلام — للدكتور عطية مشرفة
١١— الرسالة المحمدية — لسليمان الندوى
١٢— اينشتاين — للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
١٣— وليم جيمس — لمحمود زيدان
١٤— فى الشعر الجاهلى — للدكتور طه حسين
١٥— الاسلام واصول الحكم — لعلى عبد الرازق
١٦— البعث العربى — موقف ايجابى — لميشيل عفلق
١٧— الانسان بين المادية والاسلام — لمحمد قطب
١٨— محاضرات فى النصرانية — لمحمد ابو زهرة
١٩— ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — لابى الحسن الندوى
٢٠— خالد بن الوليد — لصادق عرجون
٢١— ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام — لعبد الحليم الجندى
٢٢— الرسالة الخالدة — لعبد الرحمن عزام

٢٣ـ دراسات اسلامية — للشهيد سيد قطب
٢٤ـ الاسلام ومشكلات الحضارة — للشهيد سيد قطب
٢٥ـ العدالة الاجتماعية فى الاسلام — للشهيد سيد قطب
٢٦ـ الطبرى
٢٧ـ ابن الأثير
٢٨ـ العبقـريات — لعباس محمود العقاد
٢٩ـ عمر بن عبد العزيز — لأحمد زكى صفوت
٣٠ـ حياة محمد . والفاروق عمر — للدكتور حسين هيكل
٣١ـ دراسات فى الاجتماع — لعبد الفتاح ابراهيم
٣٢ـ النظام الاشتراكى — ترجمة الدكتور راشد البراوى
٣٣ـ شبهات حول الاسلام — لمحمد قطب
٣٤ـ راس المـال — لمـاركس
٣٥ـ الأحكام السلطانية — للماوردى
٣٦ـ الفكر الأسـلامى الحـديث وصلته بالاستعمار الغربى — للدكتور محمد البهى
٣٧ـ مستقبل الثقافة فى مصر — للدكتور طه حسين
٣٨ـ التبشير والاستعمار — للدكتورين مصطفى الخالدى وعمر فروخ
٣٩ـ فى خطى محمد — لنصرى سلهب
٤٠ـ الربا — لأبى الأعلى المودودى
٤١ـ تجديد الفكر الدينى فى الاسلام — للدكتور اقبال ترجمة عبـاس محمود العقاد
٤٢ـ محمد اقبال : سيرته وفلسفته وشعره للدكتور عبد الوهاب عزام
٤٣ـ حقوق الانسان فى الاسلام — للدكتور عبد الواحد وافى
٤٤ـ الشيخ طاهر الجزائرى — للدكتور عدنان الخطيب
٤٥ـ العواطف كأساس للحضارة Emotions as the Basis of Civilization — ج . هـ . دينشون
٤٦ـ الاسلام فى العصر الحديث — ولفرد كانتول سميث
٤٧ـ الاسلام على مفترق الطرق — تأليف محمد أسد ترجمة عمر فروخ
٤٨ـ Anti Diihring لفردريك انجلس — ترجمة راشد البراوى
٤٩ـ Texts and pretexts — لالدوس هكسلى
٥٠ـ Totem and Pretexts — لفرويد
٥١ـ threecontribution to thesexualth لفرويد

٥٢ــ الصوفية فى الاسلام — نيكلسون

٥٣ــ Mohammedanism — للمستشرق الانكليزى جب Gibb

٥٤ــ Man the unkrown — للدكتور اليكس كاريل A. carrel

٥٥ــ معذبو الأرض — لفرانتز فانون

٥٦ــ ابن رشد ومذهبه — لرينان

٥٧ــ روح الاسلام — لسيد امير على

٥٨ــ حياة محمد — لأميل درمنجهايم ترجمة عادل زعيتر

٥٩ــ هذه قوميتنا — للدكتور عبد الرحمن البزاز

٦٠ــ ما هى القومية ؟ — لساطع الحصرى

تعقيب : هذه المراجع هى بعض ما وعته الذاكرة من دراسات وقراءات وتأملات كثيرة لا املك حصرها ، اعتمدتها فى وضع هذه الفصول ، واسارع فأعترف بأننى قد قبست منها وتصرفت فيما قبست ، وخلطته بمزاجى الفكرى ومنهاجى الأدبى استرسالا أو اختزالا لأقيم الحجة وأوكد الدلالة ، فأرسم الخطوط العريضة وافتح الطريق للباحثين المتخصصين .. ثم صغت ذلك كله بأسلوب سهل التناول والفهم يجمع فى مساغ الذوق بين الخاصة وغيرهم .. لتعم به الفائدة ان شاء الله .

الفهرس

رقم الايداع ٣٢٢١ / ١٩٧٦

الترتيم الدولى ٥ — ٣٤ — ٧٠٦٥ — ٩٧٧ ISBN